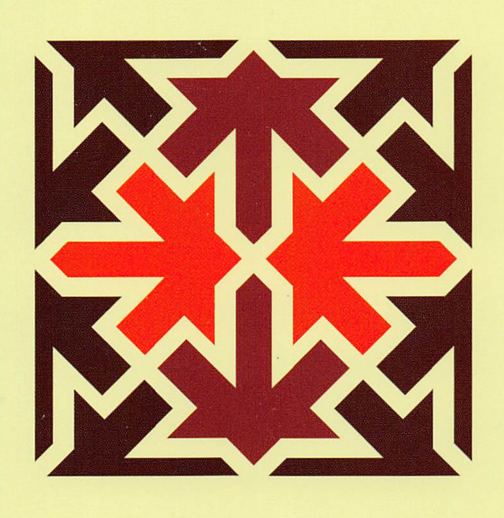
الإسلام ضد الغرب

شكيب أرسلان والدعوة إلى القومية الإسلامية

تأليف
وليام كليفلاند

ترجمة
محمد هيثم نشواتي







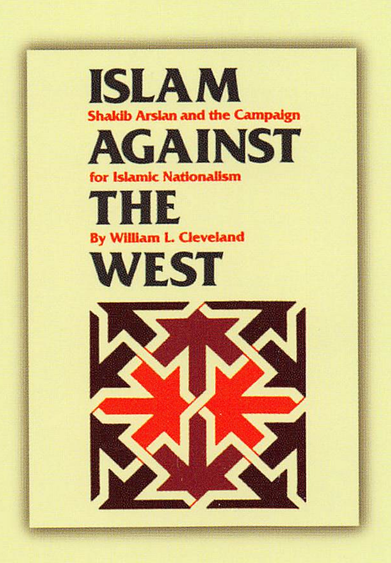
"الكتاب، رغم صغر حجمه، فيه تاريخ ثقافي وسياسي لمرحلة من أخطر المراحل في المشهد الإسلامي عند مفصل تاريخي حاسم في عالم السياسة والأفكار والتاريخ العالمي... يرى المؤلف، كما في عنوان الكتاب وفي معظم نصّه، أن شكيب أرسلان قد أسّس لموقف إسلامي، أو شارك مع المؤسّسين من أمثال الأفغاني في صياغة الموقف الإسلامي من الغرب ...

من يقرأ هذا الكتاب فسيبدأه برأي أو موقف أو خالي الذهن، ولكنه لن يخرج إلا معظّماً لهذا الأنموذج للمثقّف المسلم الرائد. ومهما مال كليفلاند أحياناً مع قومه، فإنه حقّاً حاول الإنصاف، وأنجز عملاً ريادياً، وأعطى القارئ فكرة عن مؤسّس للموقف من الغزاة".

محمد الأحمري

"إحاطة المؤلّف بالسياق التاريخي لحياة أرسلان شاملة، وأحكامه عن أرسلان والآخرين وإن بدت مترفّقة لكنها حصيفة. أما أسلوبه فناصع وثاقب في آن".

ألبرت حوراني





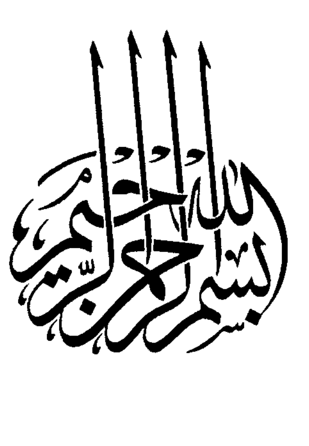
هاتف: 44080451 974+ فاكس: 44080470 974+ صندوق بريد: 12231
الموقع الإلكتروني: fairforum.org البريد الإلكتروني: info@fairforum.org
العنوان: مبنى رقم 28، المؤسسة العامة للحي الثقافي (كتارا)، الدوحة، قطر

السعر:
43 ريالاً قطرياً - 12 دولاراً
ISBN: 978-9927-103-98-8



الإسلام ضد الغرب

شكيب أرسلان والدعوة إلى القومية الإسلامية


بسم الله الرحمن الرحيم

الإسلام ضد الغرب

شكيب أرسلان والدعوة إلى القومية الإسلامية

تأليف

وليام كليڤلاند

ترجمة

محمد هيثم نشواتي



عنوان الكتاب: الإسلام ضد الغرب:
شكيب أرسلان والدعوة إلى القومية الإسلامية

تأليف: وليام كليفلاند

ترجمة: محمد هيثم نشواتي

368 صفحة - 17 × 24 سم.

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: 2017/86

الرقم الدولي (ردمك): ISBN: 978-9927-103-98-8

الطبعة الأولى 2017.

الإهداء

إلى

G. H. K. C.: B.A., M.A., a.b.d., LLB

المحتويات

توطئة

أمة وحده

يا صائدا مهج العباد بمكـــة   والصيـــد في البلد الحـــرام حرام

حين ألقى الشاب الشاعر عبد الله بالخير قصيدته التي منها البيت السابق في استقبال أمير البيان شكيب أرسلان في مدرسته في مكة، كانت شهرة شكيب تسبقه إلى كل مكان في عالمه. ورغم تحركـــه في الغالب فردا فقد كان مالئ الدنيا وشـــاغل الناس؛ فالأدباء والمؤرخون والسياسيون يقرؤون كتبه ومقالاته، ويتابعون رحلاته وتقييداته وتعريفاته. وحين قابله جمال الدين الأفغاني انفعل وتعجب لقبسات وعيه وصواب رؤيته، إلى حد جعله يكور قبضة يده ويرفع صوته قائلاً: «أنا أهنئ أرض الإسلام التي أنبتتك»(*).

لقد حرصت منذ زمن على إتاحة ترجمة هذا الكتاب باللغة العربية؛ فهو مختلف عن الكتب السابقة التي صدرت عن شكيب أرسلان، والتي كانت تصف كثيرا من جهده ومشـــاركاته المهمة في أحـــداث زمنه، أو تلك التي تتحدث عـــن بيانه وعلمه وتكامل شخصيته الفذة، وتلك جهود مشكورة قدمته لأمته خير تقديم.

يختلف هذا الكتاب في جانب مهم، وهو وضع شـــكيب أرســـلان في سياق فكري وسياسي أوضح. فالمؤلف يراه المؤسس للموقف الإسلامي من الغرب؛ فقد تولى توعية

(*) أرسلان، حاضر العالم الإسلامي، 2، ص298.

معاصريه بالغرب وأطاعه، ولم يواصل خط الأفغاني بطريقة أكثر وضوحا ودراية فقط، بل استخدم وسائل زمنه أكثر مما فعل ســابقوه ولاحقوه، ودلف إلى الحلبة العسكرية، ولو نادرا، مجيشــا مُجنّدا وحتى مشــاركا. وكان له بدن لا يستقر في مكان، وقلم لا يكل عن الكتابة والنشر؛ مما جعل الإحصاء والإحاطة بأعماله باللغتين العربية والفرنسية مما يصعب حصره.

وليس المهم كمية المكتوب هنا، إذ كان أرســلان أشــبه بمؤسسة عظيمة متحركة، سياســيا وتعليميا ودبلوماسيا، في الدفاع عن العالم الإســلامي، والحرص على توجيه مثقفيه وناشــطيه من طنجة إلى سومطرة، ومن موسكو إلى مدن أمريكا الصغيرة، وكان يصنع رأيا وموقفا دائما، ويهز الشباب المسلم في كل قطر.

ولد شــكيب في عصر من أقســى العصــور وأكثرها تحولات وخيبــات وهزائم ومقاومات. فهو الشــاب المســلم العثماني الذي اغترف من العلوم بحظ واســع منذ يفاعته، وشبع من الثقافة العربية والأدب والشعر والسياسة واللغات المتداولة، وتتلمذ ولقي وصادق وحاور وخاصم صناديد زمنه من أنصار وأعداء وتلاميذ، فمن الأفغاني وعبده ورشــيد رضا إلى جمال باشا الجزار إلى عباس حلمي وفيصل بن الحسين ومصالي الحاج وبورقيبة وقادة المغرب وساسة أوروبا، وحتى رأس الصهيونية بن جوريون لقيه قبل النكبة.

وفي الزمن الصعب كون لنفســه ولمعاصريه موقفا ســار عليه، وربــما عدّله أحيانا بحســب مقتضى الوقت، ولكنه بقي رغم التحولات صاحب رؤية ثاقبة يتوجه للعمل ويوجه من خلالها. وقد ورّث الأجيال كثــيرا من المواقف والأفكار، وكان معاصروه من محبين وكارهين يعلمون مدى إخلاصه وصدقه وحرصه على قضية الإسلام المغدور في زمنــه بالمحتلين؛ فكان يعلم الجاهلين ويســتبعد المنافقين ويوقظ الغافين والغافلين، وكان لا يدين المســلمين ولا يهجوهم بمقدار ما يسعى لأن يعوا، وكان دائب الاندفاع والإنجاز.

هذا الكتاب ليس كتاب امتداح أو ترويج؛ فشــكيب شــبع من مدح المادحين، ولا كتــاب هجاء؛ فمثله، في جهوده،لا بد أن يهجى وبــضراوة، بل أهمية الكتاب تكمن في دور عظيم لمثقف في صناعة موقف حضاري بقي رغم عشرات السنين مؤثرا وهاديا لمن عاصره ولمن بعده. وإذا كان الأفغاني قد تعجب منه وهنأ عالم الإســلام به، فإن شكيبا عاش ليفعل ويفكر ويؤثر كما لم يخطر ببال الأفغاني، وتهيأت له من الوسائل أضعاف ما تهيأ لسابقيه من رجالات الوعي والتنوير الإسلامي.

ربما كان تطوير أو تأســيس شــكيب للموقف الإســلامي المضاد للغرب يحسب ضده، في زمن كانت الحاجة تلح على مثله أن يســعى إلى دمج العالم الإسلامي في عصر التطور والصناعة والمعرفة، فقد أيد كل أســباب القــوة، ولكن له عذر كبير في صناعة الموقف المعــادي للغرب، وهو أنه وجد المتغربين في زمانــه، وخاصة في تركيا عاصمة القوة وخلافة المسلمين، قد انقضوا على الإسلام وعلى كل رموزه من اللباس إلى الحرف العربي إلى الموقف من جنس العرب إلى رابطة الإســلام، أو ما ســمي آنذاك بـ«الجامعة الإســلامية»، وعادوا بأثر تفرنسهم يعادون كل شيء إسلامي وعربي، ووجد المتغربين مندمجين في سياسة المحتلين الفرنسيين والإيطاليين والإنجليز، ومن يتحدث في التاريخ يختلف تماما عمن يعاصر ويعاني ويصنع الموقف السياسي.

بدأ موقف أرســلان بمحاولة إصلاح الخلافة، ولما شهد هدمها على أيدي المتغربين لم يكد يصدق، وكان يشــهد القوى المســيحية وهي تحتل وتسيطر وتقتل وتنهب العالم الإسلامي، فكان النذير والمعلم للتوعية، بدءا بالمقال والخطبة والزيارة، وانتهاء بنشاطه في تأسيس مؤسسات إســلامية، منها «جمعية العبادة الإسلامية» في برلين عام 1924، التي تهدف إلى تأسيس دور عبادة للمسلمين في ألمانيا، وجهوده في تجنيد الرجال لحرب المحتلين الإيطاليين في ليبيا، ومناصرة الثوار ودعاة التحرر في المغرب والجزائر وتونس. لقد تمتع بكمال شــخصية وتكامل نادر بين اللغة والأدب والسياســة والدبلوماســية،

والنشر والكتابة المستمرة، والاهتمام الإسلامي العام بكل جوانبه. وهذا ما جعل مقر إقامته في جنيف كما وصفه المؤرخ جوليان: «الحبل السري للعالم الإسلامي»(*).

لم يقف أرسلان عند دور الكتابة والزيارة والحديث؛ بل كون جيشا ليساعد في إنقاذ ما أمكنه. وهو جيش كونه بنفسه، وجمع تمويله من الناس، وذهب به يريد بلوغ ليبيا، وألبس جنوده اللباس المدني حتى لا يلاحظهم الإنجليز في مصر، وتمكن من ذلك. ومرة أخرى كون أفرادا لحماية السويس، ولم ينفذ هذا الجيش مهمته. ولكن جمال باشا رغب في أن يستعمل هذا الجيش في الدفاع عن الدردنيل. وفي الحرب العالمية الأولى شارك في قوة المتطوعين المدافعين عن الساحل اللبناني السوري.

وقد وضعته فرنسا إلى جانب بعض الطلاب العرب تحت المراقبة، بحجة أنه متآمر قوي ومؤثر. وكانت فرنسا تراه يضربها على العصب الحساس، وتتهمه زمن احتلالها سوريا بأنه لما كان في برلين حاول تجنيد ضباط ألمان لقيادة المقاومة، أو كما تسميهم فرنسا بـ«المتمردين»، كعادة المحتل في وصف كل من يقاومه بالتمرد.

سر الاختلاف عليه

من كان في تميزه وتأثيره الكبير فلا شك سوف تختلف الأنظار في تقييمه، فدعاة الجامعة الإسلامية اتفقوا معه في مرحلة حرصه الأول على الجامعة الإسلامية، عندما كانت أملا جامعا وحاميا للأمة من الاحتلال الغربي. وعندما تراجع عبد الحميد ليعيد المشروطية أو «الانتخابات النيابية لمجلس المبعوثان»، تحمس شكيب وكتب كتيبا عن الموضوع. كرهه القوميون لموقفه الإسلامي الجارف والصريح، وفي زمنه لم تكن قد تميزت المواقف والانتماءات الأيديولوجية الرسمية والشعبية، غير أنه كان ذا أثر بالغ في سياق زمنه، وكان يعمل مع الجميع.

(*) انظر ص149.

كغيره، ما كان يملك أن يفعل شــيئا كبيرا عند اشــتعال الحرب الأولى غير البحث عــن إغاثة وتواصل دولي مع المنظمات التي يمكن أن تخفف المجاعة عن الشــام، وبلغ من تحميله كل أذى من قبل خصومه أن اتهموه بدور في المجاعة التي أصابت لبنان أثناء لحرب، مما جعل كليڤلاند يدافع عنه لعدم صحة تلك التهم.

أهمية الكتاب

كتبت مؤلفات شــهيرة وكثيرة عن شكيب أرسلان، وكتب هو أيضا مذكراته، غير أن هذا الكتاب له أهمية وخطورة ليســت فقط مستقاة من عنوان الكتاب اللافت وربما المســتفز كما وضعه المؤلف، إنما في المحتوى وفيما يمكن أن تخرج به من هذا النص المهم في تاريخنا الفكري والسياسي.

فالكتــاب، رغم صغر حجمه، فيه تاريخ ثقافي وســياسي لمرحلة من أخطر المراحل في المشهد الإســلامي عند مفصل تاريخي حاسم في عالم السياســة والأفكار والتاريخ العالمي. كذلك يرى المؤلف، كما في عنوان الكتاب وفي معظم نصه، أن شــكيبا أســس لموقف إسلامي، أو شارك مع المؤسسين من أمثال الأفغاني في صياغة وتأسيس الموقف الإســلامي من الغرب. وهو تأســيس قام على التناقض والتنافر، بل المواجهة الثقافية والسياســية والعســكرية مع الاســتعمار، ومع الأفكار والتميــزات والتحيزات ضد المســلمين. وتستنتج من عمل المؤلف الذكي والشــامل أن تأسيس هذا المثقف الشهير لهذا الموقف قد أصبح متوارثا وعميقا ومنتــشرا عبر تلاميذ وممثلين لأفكاره، ورصيدا ثقافيا هائلا وضعه الرجل وأنصاره عبر العالم الإسلامي.

وقد رصد الغرب مبكرا هذه الشخصية، وراقبوا دورها في صناعة الرأي العام، بل لاحقوا وتتبعوا مبادراته المتنوعة، سواء كانت تشكيلاته العسكرية التي قامت بالمشاركة في الحرب ضد الإيطاليين في ليبيا، أو دوره ضد الفرنسيين في سوريا والمغرب الكبير .

وهذا التقييم التاريخي لموقف شكيب صحيح إلى حد كبير، وإن كانت صياغة عنوان المؤلف استفزازية، غير أنه كان دقيقا في كثير من توصيفه، وشرح موقف شكيب من العالم الاستعماري الغربي في زمنه. أما تجريم هذا الموقف أو تأييده فيجب أن يقيم في سياقه الواقعي، لا الرؤية البعيدة جدا عن ذلك الزمن وتلك التحديات. وكيف يمكن أن ينظر مؤرخ للفكر وللسياسة مطالبا من الضحايا بأن عليهم أن يسلموا بلادهم للغزاة وللقتلة، وأن يبادلوا جرائمهم، من إبادة وقتل، بالتسامح والخد الآخر؟ وكيف يمكن لعاقل أن يطالب ضحايا العنف والإرهاب والإبادة الجماعية لعالم العرب والمسلمين بالتسامح والقبول والبحث عن مكونات حضارية عند الغازي القاتل؟ إن من يؤرخ الآن لذاك الحدث، ويطلب من المقهورين بكل صنوف القهر التسامح مع الاستعباد والاحتلال واغتصاب الأرض والإنسان، والعنصرية والقسر على ترك الدين واللغة وتسليم كل شيء أو الموت، مجرد وارث للخوف القديم، ويجدد موقف الخائفين التابعين في عصورنا وأجيالنا المرعوبة.

هذا لا يعني أنه كان متطرفا أو معاديا لنصارى العرب أو أي مكون من مكونات عالم الإسلام، كيف وهو نفسه مزيج من عناصر عرقية مختلفة، فقد ترفع عن أي عنصرية دينية أو عرقية وعمل لمصالح عالمه بوعي وفقه عميق للإسلام وتاريخه. كان يرى الفرنسيين والإرساليات التبشيرية الغربية التي درس هو في بعضها تصنع التبعية لحكوماتها وتمزق المجتمعات الشرقية؛ فقام بما يضاد ذلك، وعمل على تحسين وضع المسيحيين والموارنة على وجه الخصوص، لينهي لجوء فئات من الشعب إلى الأجانب ويرفع الظلم عنهم؛ لأنه ظلم ولأنه يمهد الطريق للمحتلين أو يبرر لهم، كما فعل حين ألح على عودة البطريرك حويك للجبل بعدما نقله جمال باشا إلى دمشق، لما في هذا من جور عليه وضغينة يسببها للموارنة ضد المسلمين والعثمانيين. وكان حريصا على الوئام الداخلي في المجتمع بشتى الطوائف، ويكن تقديرا للقيادات المسيحية المعادية للاحتلال مثل ميشيل لطف الله، الذي عمل بعض الزمن تحت تأثيره وتوجيهه، كما أشار كليفلاند

هنا، وكما كتب ذلك رشـــيد رضا في مذكرات ســفره حين كان نائبا لميشيل لطف الله، وأثنى على كرمه وشممه وموقفه من المحتلين(*).

وقد ســـاعدت وساطته في التخفيف من بعض العقوبات التي ارتكبها جمال باشا في الشام من قرارات نفي لمن اعتبرهم عملاء للفرنسيين من أمثال بعض الوجهاء، كخليل الخوري والد أول رئيس للبنان بشـــارة الخوري، وقد ذكر دور تلك الوساطة ابنه بشارة في مذكراته. وقد توســط حتى لخصومه، مع أن شخصا كبيرا مثله يحرص على المصالح العامة قد يســـاء تفســير كل تصرفاته. ثم إنه كتب وقال مبكرا منذ عام 1915 كما نقل كليڤلاند: «إن سياسة جمال باشا في سوريا كانت من أعظم المصائب على الدولة العثمانية وعلى الأمة الإسلامية.. إن سياسة الشدة هذه غير موافقة لمصلحة الدولة، وإني خائف من عواقبها». وطلب من أنور باشا الإفراج عن المعتقلين، ومنهم بعض أعدائه، وقال: «ولكني لست في باب الصداقة والعداوة، بل في مصلحة الدولة والملة فقط».

ضد المحتلين وفي حماهم

لم يتغير الواقع الذي يعانيه المسلمون منذ أكثر من قرن، وهكذا نرى أرسلان يؤسس لفكر وسياسة إسلامية مضادة للاحتلال الغربي، ويسافر إلى الغرب ويعيش زمن تأثيره في ســـويسرا، ويراقبونه ولا يخرجونه؛ ذلك لأن مســـتوى الحرية التي يتمتع بها مواطنو الغرب تسمح بوجود شيء منها للقادمين من المستعمرات من الغرباء، ليتمتعوا ببعض حقوق الإنســـان المســـلم بها في بلادهم، وإن كان هذا قد تغير في زماننا بسبب وسائل الاتصـــال وإحـــكام التضييق على المســـلمين، فالتطور والتقنية يعمـــلان اليوم في أكثر من اتجاه، وأصبـــح نقد الاحتلال صعبا، ويربط بمواقف بعيدة ومخيفة لإســـكات كل الأصوات.

ولعل هذا الموقف المنقول عنه يبين بكل وضوح من هو، فقد تحدث في حفل شـــاي على شرفه في برلين بقوله: «نحن ليس في صدورنا غل خاص بالفرنسيين، ولا للإنكليز

(*) انظر رحلات الإمام محمد رشيد رضا، جمعها وحققها الدكتور يوسف إيبش.

لو لم يحتلــوا بلادنا، وما نحب الألمان إلا على شرط أن لا يأتوا ما أتاه أولئك من الطمع في ملكنا، فإنهم إذا طمعوا يوما في استعمار بلادنا كانوا في نظرنا أعداء مثل غيرهم»(*).

وقد كشــف المؤلف هنا طرائق الغرب في المتابعة والمراقبة والتسجيل على أرسلان، فقد كان مراقبا من عدة أجهزة حكومية في أوروبا، وحين صدر قرار ســويسرا بإيقاف التجسس على هاتف شقته في جنيف، في الحادي عشر من ديسمبر 1946، كان قد مات قبل ذلك بيومين في بيروت.

أعوام الحزن

رأى شــكيب الخلافة تنهار بين يديه، والمستعمرين ينهشــون البلاد وينفذون بكل وســيلة القمع البدني في المســتعمرات والمحميات الخاضعة لهم، والبريطانيين يصبون اليهود في فلســطين صبا ليقتلعــوا أهلها منها؛ فكتب للذين خانــوا وتخاذلوا من قومه يقول: «كلما عاتبهم الإنســان على خيانة اعتذروا بعدم إمــكان المقاومة، أو باتقاء ظلم الأجنبي، أو بارتكاب أخف الضرريــن، وجميع أعذارهم لا تتكئ على شيء من الحق. ولقد كانــوا قادرين أن يخدموا ملتهم بســيوفهم، فإن لم يســتطيعوا فبأقلامهم، فإن لم يستطيعوا فبألسنتهم، فإن لم يستطيعوا فبقلوبهم»(**).

لقد قام أرسلان بدور المثقف المنذر الموجه المربي، والمنغمس طوال وقته بقلمه وقلبه وعقله ويده ولســانه في المنافحة عن العالم الإســلامي، دون نظر للون ولا جنس ولا قومية، فقومه هم المســلمون والقومية عنده هي بلاد الإسلام، وأهله هم المسلمون من ألمانيا إلى البلقان إلى المغرب وفلســطين وســوريا والملايو وإفريقيا، نافح عنهم بالعربية وبالأعجمية الفرنسية، وكان يكتب بمعدل أكثر من مائة مقال في العام بأي من اللغات التي أجادها.

(*) انظر ص140.

(**) شكيب أرسلان، لماذا تأخر المسلمون؟ ص48.

من يقرأ هذا الكتاب فســيبدأه برأي أو موقف أو خاليَ الذهن، ولكنه لن يخرج إلا معظما لهذا الأنموذج للمثقف المســلم الرائد. ومهما مال كليفلاند أحيانا مع قومه، فإنه حقا حاول الإنصاف، وأنجز عملا رياديا، وأعطى القارئ فكرة عن مؤسس للموقف من الغزاة. ومن فهم زمن أرسلان فلن يخرج بغير ما خرج به المُؤلِف والمؤلَف عنه. ومن حســن حظنا أن مؤلف الكتاب لا يبدو هنا مندمجا مع الشعر والأدب، بل رصد الدور الفكري والسياسي الهائل لشكيب أرسلان. وما كان الطالب الشاعر بالخير الذي صاد أرســلان قلبه يخمن أن أمير البيان ســوف يصيد أيضا، بعد أكثر من نصف قرن، عقل كليفلاند المؤرخ المنصف الثقف القادم من بعيد.

محمد الأحمري

ملاحظة حول المصادر

مختصرات

* AFS (Archives Federales Suisses, Bern, E 4320, Arslan)

المحفوظات الاتحادية السويسرية، برن (E 4320)، أرسلان

* ASMAE (Archivio Storico del Ministero degli Affari Esteri, Rome)

الأرشيف التاريخي لوزارة الشؤون الخارجية، روما

* FO (Foreign Office Records, Public Record Office, London)

سجلات وزارة الخارجية، مكتب السجل العام، لندن

* LNA (*La Nation Arabe*)

لا ناسيون أراب (الأمة العربية)

* MAE (Archives du Ministere des Affaires Etrangeres, Paris)

محفوظات وزارة الشؤون الخارجية، باريس

* NA Microfilm Records of the German Foreign Office)

(.Recived by the U.S. Department of State, National Archives, Washington, DC

سجلات شرائط الأفلام المجهرية (الميكرو فيلم) لوزارة الخارجية الألمانية المستلمة من قبل وزارة خارجية الولايات المتحدة، المحفوظات الوطنية في واشنطن العاصمة.

* RR (Shakib Arslan, al-Sayyid Rashid Rida aw Ikh' arab'in sanah)

شكيب أرسلان، السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة.

حول النقل الحرفي (النقحرة) للكلمات العربية

يعتمد الباحثون الفرنسيون والإنكليز أنظمة مختلفة من النقحرة العربية، وهذا يؤثر بصورة خاصة في دراسة تركز على حياة مشرقي عربي ناشط في شمال أفريقيا الفرنسي. استخدم [شارل-آندريه] جوليان، مثلا، اسم "لومير شكيب" (L'Emir Chekib)، في حين استخدم [ألبير] حوراني اسم "أمير شكيب" (Amir Shakib) إشارة إلى الشخص نفسه، ولم أحاول التوفيق بينهما. كذلك بقيت تهجئة أسماء أعلام مغربية معروفة وفق الأسلوب الفرنسي الذي اعتمده جون بي. هالستيد في كتاب إحياء أمة (Rebirth of a Nation). في حالات أخرى، قصرتُ استخدام علامات التشكيل على كتابة حرف العين ('ayn) والهمزتين المتوسطة والمتطرفة.

وردت عناوين المقالات المكتوبة باللغة العربية مترجمةً [إلى الإنكليزية] في الهوامش، ما يساعد المتخصص الراغب في الرجوع إلى المقالة في العثور عليها، ويوفر لغير المتخصص فهماً أفضل للموضوع. أما عناوين الكتب العربية فوردت بصيغة النقحرة، وتضمن المدخل إلى ثبت المراجع ترجمة كل عنوان.

ترك أرسلان لكاتب سيرته مصادر وفيرة، كونه شخصية عامة إلى أبعد الحدود، وكاتباً غزير الإنتاج كثيرا ما كان يكرر نفسه. تضمن نتاجه عشرين كتاباً، وديواني شعر، وحوالي ألفي مقال. وعلى الرغم من أن واحداً منها فقط كان سيرة ذاتية (غطت السنوات حتى عام 1923)، فإن أرسلان لم يكن يتورع قط عن الدعاية لذاته، وكرس أجزاء كبيرة من أعماله الأخرى لتغطية أنشطته الخاصة. لكنها اقتصرت في كل الأحوال على الأنشطة التي رغب في إشهارها -إذ بقي أرسلان متحفظا حيال حياته الشخصية، وترتيباته المالية، وعلاقاته المثيرة للجدل مع دول المحور.

جسرت هذه الفجوة جزئياً مصادرُ أرشيفيةٌ، حيث جذبت أنشطة أرسلان في أوروبا ومناوراته المتعلقة بسياسات الشرق الأوسط انتباه الحكومات الأوروبية، التي زخرت

ملفاتها بتعليقات كشـــفت النقاب عن ســيرة الرجل ومســاره. لكن ينبغي استخدام المعلومات المدونة عنه في تلك الملفات بحذر؛ لأنها ليســت كلها مستندة إلى معلومات مســتقاة من مصادر أصلية، وتضخم أحياناً مدى نفوذ أرســلان وقدراته، ويكشــف طابعها المثير المخاوف الأوربية بقدر ما يكشــف تطلعات أرســلان وطموحاته. تجدر الإشارة في هذا السياق إلى مجموعة استثنائية من المواد والمعلومات الأرشيفية. في معظم ســنوات فترة ما بين الحربين [العالميتين الأولى والثانية]، كانت سويسرا قاعدة عمليات أرسلان. وقد أزعجت تشابكات علاقاته العديدة السلطات السويسرية، التي فضلت مراقبته عن كثب، ثم أخضعته لرقابة لصيقة وفاعلة، فاســتدعته للاستجواب أحياناً، وكتبت عنه تقارير تتســم بالدقة عمومــاً. لذلك اعتبرت الملفات الســويسرية المتزنة مصادر معلومات موثوقة عن أنشطة أرســلان الأوروبية، واستخدمتها في حل بعض المسائل المثيرة للجدل حول شؤونه الشخصية.

إلى جانب مجموعة أعماله الفكرية المنشورة، كان لدى أرسلان كم هائل من المراسلات. وعلى الرغم من أن مجموعة الرسائل الأصلية ليست في متناول الجمهور[1]، فقد أقدمت وكالات استخبارات بريطانية وفرنسية وسويسرية وإيطالية مختلفة على اعتراض رسائله مراراً بحيث شــكلت بحد ذاتها مجلداً صغيراً. أما اتصالاته مع أعضاء مسؤولين وشبه مسؤولين في السلك الديبلوماسي الألماني فقد حوتها الوثائق التي استولت عليها قوات الحلفاء. كما أدرج أرسلان نفسه الرســائل التي تلقاها من رشيد رضا في كتاب السيرة الذي ألفه عنه، واستنسخ أحمد الشرباصي في كتابه **أمير البيان** خمسا وخمسين رسالة بعث بها أرسلان إلى رضا وتغطي السنوات الممتدة بين عامي 1922 و1935.

لم تمر إســهامات شــخصية بارزة إلى هذا الحد مثل أرســلان دون رصد وتسجيل. إذ أنشــأ اثنان من كتاب الســيرة العرب، أحمد الشرباصي من مصر وسامي الدهان من سوريا، صناعة نشر صغيرة اعتماداً على أرسلان[2]. وقد تطابقت تفسيراتي مع تأويلاتهم في بعض الحالات، إلا أننا اختلفنا في حالات كثيرة. ففي ممارســة الانتقائية المفروضة

على كل كتاب السـيرة، اختارا أن يتسترا على أكثر جوانب سيرة الأمير إثارة للجدل - علاقاته مع جمال باشـا خلال الحرب العالمية الأولى، وصلاته بإيطاليا وألمانيا في أواخر الثلاثينيات. اعتبرت هذه المسـائل المثيرة للجدل حيوية في تطور سـمعته، وحاولت التأكيد على أهميتها. وفي حين أني لست أقل احتراماً منهما لأرسلان، فإن تقويمي لموقعه من حركة الإصلاح الإسلامي يمنحه درجة أصالة أدنى من تلك التي أسبغاها عليه، إذ أكدا على أهمية التزامه بالخط السـياسي العروبي فيما قللت من شأنه. كما تقصيا على نحو ملائم إسهامه في الأدب العربي الحديث، وهو موضوع لم أتطرق له قط. أخيراً، وانطلاقاً من حرصهما على تأكيد الدور الذي لعبه أرسـلان في عالم المشرق العربي، أغفلا أنشطته في شـمال أفريقيا. مع ذلك، وعلى الرغم من نقاط تركيزنا المتباينة أحياناً، فأنا مدين لهما بالفضل العلمي، وأعترف به لهما بامتنان.

تسـتخدم بعض المصادر التي ورد ذكرها كثيراً في هذه الدراسـة السنوات الميلادية والهجرية على نحو متقطع في التأريخ. على سـبيل المثـال، في 1930/ 31 [لم يرد ذكر الشـهر]، كفت مجلـة **الفتح** عن إدراج التأريـخ الميلادي وبدأت باسـتخدام التاريخ الهجري حصرياً. وعلى نحو مماثل، كانت مراسـلات أرسلان المنشورة تستخدم أحياناً السـنة الميلادية وتعتمد أحياناً أخرى السـنة الهجرية للتأريخ. لذلك، بدل تحويل كل مرجع هجـري، ذكرت التواريخ تبعاً لورودها في المصـدر الأصلي، وأرفقت الجدول التالي الذي يتيح تحويلا عاما للتواريـخ الهجرية إلى التواريخ الميلادية الموافقة في الحقبة المرتبطة بالأحداث المذكورة في هذا الكتاب[3].

السنة الهجرية	الفترة الموافقة من التأريخ الميلادي
1344	من 22 يوليو/ تموز 1925 إلى 11 يوليو/ تموز 1926
1345	من 12 يوليو/ تموز 1926 إلى 30 يونيو/ حزيران 1927
1346	من 1 يوليو/ تموز 1927 إلى 19 يوليو/ تموز 1928
1347	من 20 يوليو/ تموز 1928 إلى 8 يوليو/ تموز 1929
1348	من 9 يوليو/ تموز 1929 إلى 28 مايو/ أيار 1930
1349	من 29 مايو/ أيار 1930 إلى 18 مايو/ أيار 1931
1350	من 19 مايو/ أيار 1931 إلى 6 مايو/ أيار 1932
1351	من 7 مايو/ أيار 1932 إلى 25 أبريل/ نيسان 1933
1352	من 26 أبريل/ نيسان 1933 إلى 15 أبريل/ نيسان 1934
1353	من 16 أبريل/ نيسان 1934 إلى 4 أبريل/ نيسان 1935
1354	من 5 أبريل/ نيسان 1935 إلى 23 مارس/ آذار 1936
1355	من 24 مارس/ آذار 1936 إلى 13 مارس/ آذار 1937
1356	من 14 مارس/ آذار 1937 إلى 2 مارس/ آذار 1938
1357	من 3 مارس/ آذار 1938 إلى 20 فبراير/ شباط 1939
1358	من 21 فبراير/ شباط 1939 إلى 9 فبراير/ شباط 1940

شكر وتقدير

إن كل الأغــلاط التــي وردت بين دفتي هذا الكتاب والإغفــالات المتعلقة به تقع تبعاتها على عاتق المؤلف. وقدر كبير من المزايا التي يمكن أن تحسب له يعود الفضل في تحقيقها إلى المساعدة الكريمة التي تلقيتها من عدد كبير من الأشخاص في محطات كثيرة من إعدادات الأبحاث المتعلقة به. وفي حين لا أســتطيع ذكر أســمائهم جميعاً، فإنه لمن دواعي سروري أن أنوه بإســهامات أولئك الذين تكرموا بتكريس أوقاتهم وجهودهم على نحو مباشر للمساعدة في جعل هذا الكتاب يبصر النور.

كان زميلي جون ســبانولو بالنســبة لي دليلاً هادياً موثوقاً عبر متاهــة لبنان المعقدة في القرن التاســع عشر ومزوداً ســخياً بالوثائق. وتلقى كل مــن دونالد ريد وجيمس يانكوفسكي أســئلتي واستفســاراتي بصدر رحب ووجه بشــوش وأعاراني كتباً من مكتبتيهما الشــخصيتين، أو حصــلا عليها من أجلي ونيابة عني مــن القاهرة. وجنبني رودولــف بيترز الوقوع في أغــلاط عديدة عبر قراءته هذا الكتاب قــراءة تدبر متأنية، وإدوارد إنغرام، على الرغم من عظيم أسفه لزوال الإمبراطورية البريطانية، أظهر قدرة عــلى مراجعة الكتاب عندما كان مخطوطاً. وقد أفاد كتابي كثيراً من أســلوبه الصارم في تحريره وإعداده للنشر. كما أن هذا الكتاب مدين بفضل كبير للتعليقات والأسئلة، وقبل كل شيء، للتشــجيع المســتدام من قبل كل من إل. كارل براون وإدموند بيرك الثالث. وإني أعرب عن امتناني العميق لكل هؤلاء الذين أتيت على ذكر أسمائهم.

كما مد لي آخرون يد العون بطرق وأساليب شتى.

حيث زودني فرنسيس نيقوسيا بمواد بحثية عن العلاقات الألمانية العربية. وعمل ديفيد بارتينغتون من مكتبة كلية هارفارد على تلبية طلباتي من الكتب والمراجع على جناح السرعة. ودأب سيمون فريزر المسؤول عن قسم الإعارة في مكتبة تبادل الكتب على البحث بين الكتب، وواظب على تلبية طلباتي الغريبة بكفاية ملحوظة. وأعرب عن شكري أيضاً إلى آيريس ألبينا، مساعدتي الممتازة في مجال الأبحاث. وأشكر جنيفر ألكسندر التي طبعت جزءاً من المخطوط وبرنيس فيرير التي طبعت المخطوط كاملاً، أكثر من مرة، مبدية قدراً من الصبر أكبر من ذاك الذي أستحقه.

وصاحبة إحدى أبرز الشخصيات التي عرفتها والأجدر بالذكر، مدام مي جنبلاط، تكرمت بإتاحة الفرصة لي لإجراء عدة مقابلات معها ساعدتني خلالها في فهم والدها. أعرب لها عن شكري لعمق تفكيرها وكريم اهتمامها وأرجو لها الخلاص من مآسي الحرب.

وأنا مدين بالشكر والعرفان لمديري دوائر المحفوظات وموظفيها جميعاً، المحفوظات التي أُذن لي بالاطلاع عليها والإفادة منها، إلا أنني أخص بالذكر والشكر المحفوظات الاتحادية السويسرية في برن، ومديرها المساعد اللطيف دمث الأخلاق السيد دانيال بورجوا.

قد لا يتطلب العاملون في التاريخ في الأحوال الطبيعية معدات باهظة الثمن. أما نحن فيتعين علينا الوصول إلى مصادرنا. وغدت رحلتي البحثية ممكنة بفعل المنح التي قدمت لي من مجلس العلوم الاجتماعية وبحوث الإنسانيات في كندا، ومجلس أبحاث العلوم الاجتماعية في نيويورك، ومن جامعة سايمون فريزر. وأنا أعرب، في هذا المقام، عن جزيل شكري وعميق امتناني للمساعدة التي قدمتها لي هذه المنظمات.

وأشير هنا إلى أن أجزاء من الفصل السادس سبق لها أن ظهرت في **المجلة الدولية للدراسات التركية**. وأعرب عن امتناني للمحررين العاملين في تلك المجلة لإذنهم لي بإدراج تلك الأجزاء في الكتاب.

وزوجتي، جريتشـــين، وهي في خضم التغيير الذي طرأ على حياتها العملية وتطلب منهـــا الكثير، تدبرت أمرها وتحملت أعباء محادثاتي معها ونقاشي الذي لا حدود له عن الأمير. ودأبت على تصحيح أغلاطي الأسلوبية، وأثبتت أنها مستعربة في الصميم.

ويليام إل. كليفلاند
إيغل هاربور، كولومبيا البريطانية

مُقَدّمَة

هذا الكتـــاب هو عن الجيل الأخير مـــن العرب العثمانيين الذين كبروا واشـــتدت أعوادهم قبـــل العام 1914، المولودين تقريباً بين عامـــي 1870 و1890. تلقى أبناء هذا الجيل تدريباتهم وأسســـوا حياتهم المهنية وخططوا لمستقبلهم في عالم الإمبراطورية العثمانية المتأخرة. وأرغموا بعد العام 1919 على إعادة تأســـيس حياتهم في عالم لم يكن من اختيارهـــم. وفي حين واجهوا ســـني نضجهم مع مجموعة متنوعـــة من التجارب والخبرات الشـــخصية والاحتياجات والتوقعات، فقد كانوا ميالـــين إلى رؤية التنظيم الســـياسي والانتماء الثقافي من زاوية تكوينهم بوصفهم عثمانيين، وإلى النظر إلى تسوية حقبة ما بعد الحرب العالمية الأولى في الشرق الأوســـط العـــربي بوصفها غير دائمة ولا ملائمة.

وتمثل هذا الاتجاه في حياة الأمير الدرزي اللبناني شكيب أرسلان (1869-1946) وفي كتاباته. يتمحور هذا الكتاب حوله بصفة أساســـية، ويدرســـه بوصفه رجل العهد العثـــماني الذي جلب لعصر الـــدول الوطنية الناشـــئة المبادئ الناظمـــة للإمبراطورية الإسلامية العالمية. وبدلاً من أن تجعله رسالته أثراً دارساً منسياً وهو في العقدين السابع والثامن من عمره، جعلت منه قوة هائلة في السياسات الشرق أوسطية والشمال أفريقية، في الفكر العربي الإسلامي وفي أوساط الديبلوماسية العالمية. يبحث هذا الكتاب في هذه التطورات ويسعى إلى شرح أسباب حدوثها.

وإلى الحد الذي كان أرسلان عنده ممثلاً لأبناء جيله من العرب الذين تلقوا تدريباتهم في كنف الدولة العثمانية، تميط دراســـة حياته اللثام عن شيء من التعديلات التي كانت

مطلوبة، والمواقف التي اتخذت من قبل أولئك الذين طوروا أداءهم المهني، واستكملوا تدريبهـم العملي في ظل النظـام العثماني، إلا أنهم اضطروا إلى التـلاؤم مع عالم ما بعد الحرب، عالم الدول العربية التي غدا بعضها منفصلاً عن بعض وباتت دولاً عربية محتلة. ولكن أرسلان برز لا بوصفه ممثلاً لجيله وللحقبة التي عاصرها، بل سعى مستعيناً بكل الوسـائل التي أتيحت له إلى تشكيل الحقبة التي عايشها وإلى تأطيرها. وهو بفعله ذلك غدا رمزاً وقوة، وأضحت أهميته بالنسبة لتاريخ الشرق الأوسط وشمال أفريقيا الحديث تسـتند إلى تطلعاته الشـخصية إضافة إلى ما كان قد كتبه وفعله على أرض الواقع. لقد صقل هو، إلى جانب آخرين، صورته. وكانوا يفعلون ذلك مستندين إلى أرضية صلبة؛ لأن واقع حياة أرسلان كان رائعاً بحد ذاته.

ومذ أن كان له من عمره سـبعة عشر عاماً، حين نشر ديوانه الشـعري الأول حتى مـا قبل وفاته بوقت قصير كان دوماً مشـهوراً ذائع الصيت، ورحبت دائرة نشـاطاته مكاناً وامتدت زماناً. عين في عمل إداري لأول مرة في لبنان عام 1888، واختير رئيساً للمجمع العلمي العربي في دمشـق عـام 1938. وكان قد انتخـب عضواً في البرلمان العثماني سنة 1913، واعترف به بوصفه المسؤول التنظيمي لحركة الاستقلال المغربية في ثلاثينيات القرن العشرين. أصبح مراسلاً لصحيفة **الأهرام** في تسعينيات القرن التاسع عشر، وأصدر العدد النهائي من مجلته واسمها: **الأمة العربية** وذلك باللغة الفرنسية، في جنيف عام 1938. وكان الضيف الشـخصي للخديوي عباس حلمي الثاني في القاهرة عام 1912، وضيف موسـوليني الشخصي في روما عام 1934. وفي كل الأعمال التي أداها، استقطب أرسلان الانتباه وأثار جدلاً ومارس تأثيراً.

اسـتحوذت منحة دراسـة لغة أجنبية غربية على جوانب معزولة من حياة أرسلان المعقدة وشـبكة ارتباطاته. وقد صوره هشـام شرابي بوصفه نموذجاً خاصاً للناشـط المسـلم في حقبة ما قبل الحرب. وألقى كل من آلبرت حوراني ومجيد خدوري وويلفرد كانتويل سـميث الضوء على إسـهامه في الفكر الإصلاحي الإسلامي. وأبرز عدد من الباحثين الفرنسيين، منهم شارل أندريه وجوليان روجر لوتورنو، أهميته بوصفه مصدر

الإلهام والقوة التنظيمية المحرضة للجماهير الشـمال أفريقية، والمغربية منها، بخاصة، في ثلاثينيات القرن العشرين. ودرس كل من لوكاش هرتزويتش وروزاريا كارتارارو دوره بوصفه حلقة الوصل الرئيسة بين المحور والعرب[1]. وأرسلان، وهو رجل الإنجازات المتنوعة وصاحب التأثير الذي لا جدال فيه، يسـتحق أن يكون موضوع دراسـة تجمع خيوط حياته، وتسـلط الضوء على الهدف من كتاباته وتربط بينها وبين عصره، وتشرح كيف تمكن من أن يتمتع بذاك النفوذ الواسع الذي حظي به. وما هذا الكتاب إلا خطوة في ذاك الاتجاه.

وعلى الرغم من أن تأثير أرسـلان الدولي كان أكثر وضوحاً وجلاءً فيما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، فقد كان بالفعل معروفاً ومشهوراً بحلول عام 1914. فالفِكَرُ التي أكسبته شـهرته كانت قد تشكلت وتأطرت في كنف الوسط العثماني. وعلى الرغم من أن هذا الكتاب يركز اهتمامه في سـيرة أرسلان ومسـيرته عبر حقبة ما بين الحربين الأولى والثانية، فإنه (الكتاب) يحاجج في أنه في سـبيل تقدير الرجل حق قدره لابد من فهـم موقعه داخل المنظومة العثمانية، ورأيه في الإمبراطورية العثمانية بحسـب تكوينها التي كانت عليه إبان السنوات التي أتيح له فيها خدمة تلك الإمبراطورية. وعبر دراسة أرسلان في هذا السياق، تُمْكِنُ أيضاً رؤية حيوية العقود العثمانية الختامية بالنسبة لأولئك الذين عاشـوا تلك الحقبة بوصفهم عثمانيين ملتزمين بمبادئ الدولة العثمانية ومخلصين لها.

تربـى أرسـلان وترعرع في ظـروف كان واضحـاً تأكيدها على تفـوق التقنيات العسكرية الأوروبية الغربية والتنظيم السياسي والتلاحم الاجتماعي الأوروبي الغربي. وعـلى مدى السـنوات الأربعين الأولى من عمـره، كان التوسـع الأوروبي في الديار الإسـلامية متواصلاً تقريباً. وأعيـد تنظيم وطنه من قبل الديبلوماسـية الأوروبية في عام 1861. وكانت بريطانيا قد احتلت مصر سـنة 1882، فيما كانت فرنسـا ما تزال تحتل الجزائر وتحكمها منذ عام 1830، وجعلت من تونس سـنة 1881 والمغرب عام 1912 محميتين خاضعتين لها. بينما شـنت إيطاليا هجوماً مباشراً على طرابلس الغرب

في عام 1911. وشـــكلت روسيا تهديداً مستمراً في المضائق وعلى طول الحدود العثمانية الشرقية. وبالإضافة إلى ذلك، تشـــكلت دول جديدة في منطقة البلقان انبثقت من رحم أراضي الدولـــة العثمانية. وبالتحالف مع قوة أوروبية أو أخرى، عمدت هذه الدول إلى تقسيم أملاك الدولة العثمانية والمناطق التي كانت خاضعة لسلطانها.

أثارت عـــروض القوة المادية الأوروبية هذه طائفة من الـــردود من الدولة العثمانية ومن رعاياها. وفي مركز الدولة، ضغطت مجموعة ناشـــئة مـــن موظفي الخدمة المدنية ذوي الفكر الإصلاحي في ســـبيل تبني نظام حكم على شاكلة أنظمة الحكم القائمة في أوروبا. وشكل وضع الدستور العثماني في عام 1876 موضع التنفيذ الفعلي ذروة جهود تلك المجموعـــة الرامية إلى تعزيز الإمبراطورية بهـــذه الطريقة. ولكن في غضون ثلاثة عشر شـــهراً من تاريخ إعلان الدســـتور وتبنيه، علق السلطان عبد الحميد الثاني العمل به، وحكم الإمبراطورية على مدى السنوات الثلاثين اللاحقة حكماً استبدادياً، أو لنقل بوصفه السلطان الخليفة الواعي لذاته.

داخـــل الولايات العربية التابعة للإمبراطورية، أكدت مجموعة من الظروف المحلية المختلفـــة والتنوع الطائفي الكبير، أن جهود عبد الحميد الراميـــة إلى تقييد تدفق الفِكَرِ والتأكيد على المعالم الإســـلامية لنظام حكمه لن تســـتقبل استقبالاً متسقاً متماثلاً. وعلى الرغم من أن التصنيفات التخطيطية تجازف بالتعرض لخطر الإفراط في التبسيط، فمن المســـلم به على وجه العموم أن النزعات السياسية التي كانت سائدة في أوساط العرب إبان عهد حكم عبد الحميد وخلفائه من تركيا الفتاة، كانت النزعة الإســـلامية والنزعة العثمانية والشعور المتنامي بالتميز الثقافي للعرب.

والنزعة الأخيرة التـــي كان العرب على اختلاف أديانهم يتشـــاركونها، كانت أكثر وضوحاً وجلاء في أوســـاط مسيحيي ســـوريا الكبرى[2]. وبدءاً من أواخر أربعينيات القرن التاســـع عشر، شجع جهد ثقافي مســـتدام بذلته البعثات التبشـــيرية الأمريكية والأوروبية تشـــكيل مجموعات من النخب الفكرية والثقافية المسيحية صغيرة الحجم،

لكنها كانت فاعلة وناشـطة إضافة إلى تكوين طبقة مسـيحية مهنية احترافية. وقد رَادَ أعضاء تلك المجموعات إعادة اكتشـاف التراث الأدبي العربي الكلاسيكي، وشرعوا في تجريب أجناس أدبية جديدة، بخاصة الصحافة، حيث سـاعدوا عبر مذهبهم العقلي الحماسي والواقعي في تشكيل عصر أطلق عليه اسم عصر النهضة أو اليقظة.

وفي توليفة تتسـاوق مع مساعيهم الجمالية الفنية، اقترح بعض أبناء الطائفة المسيحية السـورية إقامة رابطة سياسية مع فرنسا، بوصف ذلك وسـيلة لتحررهم من الوضع الأقلوي الذي يكابدونه ضمن مجتمع إسلامي بات قمعياً أكثر من أي وقت مضى. وقد أدت هذه الآمال ببعض الكتّاب المسـيحيين إلى الحط من قدر المؤسسـات الإسلامية، وإلى تشـكيل عقيدة علمانية عربية عدّت الإسلام مجرد عنصر واحد من عناصر عديدة تشكل مجتمعـةً التراث الثقافي العربي. وفي حمأة نشاط متزايد أعقب ثورة عام 1908 (ثـورة تركيا الفتاة)، نظم دعاة هذا التوجه جمعيات سياسـية ناقشـت المزايا المحتملة من الانفصال السـياسي عن الإمبراطورية العثمانية. وبالاشتراك مع المسلمين العرب، تقدم أعضاء هذه الجمعيات بمطالب ترمي إلى تحقيق مزيد من الاسـتقلال الثقافي عن اسطنبول.

وإن كان في وسـع شـخصيات بارزة معينة من داخل الوسط المسيحي السوري أن تنظر إلى أوروبا، لا على أنها تمثل تهديداً، بل بوصفها نموذجاً يحتذى وحليفاً محتملاً، فإن نظراءهم المسـلمين لم يكونوا قادرين دوماً على التوصل إلى استنتاجات مماثلة[3]. ومع مطلع القرن العشرين، كانت ثمة حركة إسلامية إصلاحية نشطة قد تشكلت وقطعت شـوطاً كبيراً في مسيرتها في الشرق الأوسط. وكان مركز تلك الحركة في القاهرة، ولكن كان لها أنصار في المدن العربية الكبرى التي كانت آنذاك خاضعة للإمبراطورية العثمانية. وبمعنى واسـع، كانت الحركة ترمي إلى الحث على إحياء الإسـلام سياسـيّاً وفكريّاً. وسميت حركة الدفاع عن النظرة إلى الذات التي تضررت، ذلك لأنها جاءت في معرض الرد على التهديد السياسي والثقافي المفروض على الأمة والذي تمثله أوروبا المسيحية. وقد

تجاوزت الحركة هذا الهدف وصولاً إلى محاولة تأكيد صحة التجربة التاريخية الإسلامية برمتها، ومحاولة إثبات جدارة الإسلام بوصفه أسلوب حياة وتقليداً ثقافياً[4].

في الولايات السورية التي كانت خاضعة للإمبراطورية العثمانية، عملت حركة الإصلاح الإسلامية بالاشتراك مع الحركة العثمانية على إنتاج رؤية للخلافة العثمانية، بوصفها رمزاً حيوياً لاستقلال الإسلام عن أوروبا. و"العثمانية" مفهوم صعب التعريف، ولكنه كان في الأساس محاولة لإثارة مشاعر حب الوطن العثماني. وهي التي كان يمكن تبنيها من قبل الشعوب التي كانت خاضعة للإمبراطورية متعددة الجنسيات جميعها. ولكن أظهرت الثورات المتكررة في مقاطعات البلقان أن مثل هذه المشاعر يمكن، في أحسن الأحوال، أن تجتذب الشعوب المسلمة التي كانت خاضعة سابقاً للإمبراطورية إلى جانب العرب والأتراك. وإلى جانب ذلك، اجتذبت تلك المشاعر بما لا يدع مجالاً للشك شكيب أرسلان، الذي رأى في تلك العقيدة خدمة لمبادئه ولأسباب راحته المادية.

وفي سياق صعوده ليغدو سياسياً إمبراطورياً بارزاً، تمكن أرسلان من استغلال وضعه الأرستقراطي الوراثي وتيارات النهضة في آن معاً. وكان يُضَارُ أحياناً إلى تجاهل حقيقة أن العرب المسيحيين لم يكونوا وحدهم المستفيدين من النهضة. كما يوضح المثال المستمد من بيت أرسلان، حيث تمكنت أسر إسلامية عريقة أيضاً من الاستفادة من المؤسسات التعليمية والثقافية الجديدة، ومن الفرص المهنية والاحترافية التي أتيحت في تلك الحقبة[5].

كان أبناء أسرة أرسلان أمراء دروزاً بالوراثة. وتعود جذورهم إلى منطقة الشوف في لبنان[6]. وكان شكيب وإخوته آمنين في مواضعهم بوصفهم وجهاء وأعياناً تقليديين، بيد أن الأسرة المخضرمة سياسياً أكدت على ضرورة التحاقهم بالمدارس الثانوية المسيحية المارونية. ونتيجة لذلك تمكنوا من المحافظة على هيبتهم ومكانتهم الناجمة عن الحسب والنسب، ومن اكتساب المؤهلات التي مكنتهم من الحركة في مجتمع متغير.

فأرسلان، الذي حباه الله موهبة، وأسبغ عليه نعمة التميز بأن وهبه روحاً تواقة للعلم والمعرفة، أصبح أحد أكثر شعراء العرب شـــهرة في مطلع القرن العشرين. وكان هناك وسائط أخرى للتعبير متاحة لأولئك الذين كانوا يرغبون في التعبير عن فِكَرِهم بصورة مبـــاشرة أكثر. وفي مثال آخر على قدرته على اغتنام الفرص الجديدة، احترف أرســـلان حرفة الصحافة ونشر مقالاته في أكبر الصحـــف اليومية التي كانت تصدر في القاهرة، ومنهـــا صحيفتا **الأهرام** و**المؤيد**، إلى جانب طائفة متنوعة من المجلات الســـورية. وفي الوقت ذاته، عكســـت المناصب العامة التي شغلها التوازن الدقيق الذي حققه أرسلان بين ما هو عرف تقليدي وما هو انتقالي، فقد شغل منصب حاكم منطقة الشوف، وكان إلى ذلك نائباً في البرلمان شأنه في ذلك شأن اثنين من أشقائه.

باختصار، رسخ أرسلان في سني عمره الخمسين الأولى موقفه بوصفه عضواً موالياً ومخلصاً للدولة ذات المرتكز الديني في عملية الإصلاح. وأقدم الأمير الإقطاعي، بحكم المولد، على إجراء التعديلات المتواضعة المطلوبة حفاظاً على مكانته خلال حقبة النهضة الفكرية والتجريب الســـياسي. وعرف، إلى ذلك، كيف يجري تعديلات أخرى. وعلى الرغم من أنه أفاد شـــخصياً من حكم عبد الحميد الذي استطال أمداً، فقد قبل "تركيا الفتاة"، ومنح حق الانضمام إلى دوائرهـــم الداخلية وحلقاتهم الضيقة في عام 1913. وبشتى السبل، حظي أرسلان بعطف القوى التي كانت سائدة في عصره وباستحسانها. وكان إخلاصه للنظام العثماني ناجماً، بطبيعة الحال، عن المزايا التي أسبغها عليه.

إلا أن أرســـلان كان أكثر من مجرد ســـياسي لين العريكة أو شاعر بارع. إذ كان قبل كل شيء آخر مسلماً نشـــطاً، لكنه أحجم عن إجراء ضرب واحد من ضروب التكيف وهو ذاك المتمثل بالتنظيم القومي للمجتمع. وقد أطرت هذه الرؤية ســـلوكه على مدى نصف قرن كامل أمضاه من عمره بوصفه شـــخصية عامة وهو يعزز سمعته ويقيدها في آن معاً. وكان أرســـلان ما يزال في ســـن المراهقة حين شرع بمد جسور ترمي إلى إقامة علاقة شخصية مستدامة مع المصلح المصري محمد عبده، كما التقى جمال الدين الأفغاني، الناشط الإسلامي الأكثر شـــهرة في عصره. إن استرشاد أرسلان بمحمد عبده، الذي

يحاكي الأفغاني مثلاً، واستجابته الذاتية لما يحيط به كرساه ظهيراً ونصيراً للتضامن الإسلامي ومواليًا عنيداً للدولة العثمانية.

ومع بداية القرن العشرين، باتت هذه المعتقدات عرضة للهجوم. وأرسلان، وهو رجل المواقف في نظام وطيد، رأى مساره الذي اختطه في الحياة مهدداً بعدوان خارجي وانشقاق داخلي. وكان يرى أن العدوان الخارجي يجب أن يجابه، لا مجابهة تقليدية، بل عبر مقاومة تستند إلى القيم الأخلاقية والأواصر الجماهيرية المتينة، والقيادة الشجاعة التي ألهمت في الماضي إنجازات الإمبراطوريات الإسلامية العظيمة. وأما بالنسبة للنزعة الانفصالية العربية فلم تكن – حسب رأيه- بديلاً سياسياً بقدر ما كانت دعوة لانتحار المجتمع الإسلامي. ولم يكن عالم أرسلان عالماً يسمح بالتضحية به على مذبح النزعة الانفصالية المسيحية والارتباط التافه مع فرنسا.

وعندما لاح شبح الحرب وصار لزاماً على الإنسان أن يتخذ موقفاً، التزم أرسلان بنظام الحكم العثماني الذي كان قائماً، وفعل كل ما يمكن أن يفعله إنسان خدمةً لقضيته. فقد شارك في الحملة العثمانية للاستيلاء على قناة السويس سنة 1914م، وساعد بأساليب ما زالت مثيرة للجدل حاكم سوريا المُشَهَّرَ جمال باشا بين عامي 1914- 1916م. وشغل منصب مبعوث الحكومة العثمانية الخاص إلى برلين في عام 1917م، ومرة أخرى، أوكلت له مهام المنصب ذاته في برلين أيضاً في عام 1918م.

كانت هزيمة الإمبراطورية العثمانية وتفككها في الحرب العالمية الأولى بمنزلة ضربة رهيبة تلقاها أرسلان. وكانت تلك الهزيمة حدثاً تزامن مع سِنِي نضجه، وغدا في تلك الآونة أسير تيارات التغيير المعاكسة التي اجتاحت الدولة التي كان موالياً لها، والمجتمع الذي بوأه منزلة رفيعة، ووسائل العيش المرفه الذي كان ينعم به – في الواقع، الزمن الذي منحه الشعور بالأمان كان قد ولى إلى غير رجعة. وبات هائماً على وجهه كأنه ريشة في مهب الريح. وإذا ما نظرنا إلى الرجل من منظور معين نجد أن ربع القرن الأخير من حياته كان قصة مسيرة كُبِحَتْ قبل اكتمالها، قصة رجل خبر في منفاه مرارة

العيـش وحيداً. ومن جانب آخر، كانت قصته نموذجـاً للصمود والمثابرة والطموح. فمن قاعدته في منفاه، مدفوعاً برفضه لأن يصير إنسـاناً قليل الشأن خامل الذكر، شرع بمزاولة عمل جديد. لقد غدا الأمير مديناً، والنائب في البرلمان متآمراً، والشـاعر مولعاً بالجدل.

ولقد كان تأهيلـه لحقبة ما بعد الحرب صعباً. فارتبط ردحاً من الزمن بحركة إحياء العهد العثماني. وهو مسعىً تعامل معه هذا الكتاب بوصفه منطوياً على جوهر أكثر من ذاك الـذي يُقَرُّ ويُعْتَرَفُ به عادةً. ولكن أخذ أرسـلان يدرك تدريجياً أن تقطيع أوصال الإمبراطورية العثمانية، واحتلال مقاطعاتها العربية من قبل بريطانيا وفرنسـا وإسقاط الخلافة كانت ظروفـاً يتعين عليه أن يتكيف معها. وكذلك فعـل، لا عبر قبوله بتلك الظروف، بل بحشد طاقاته كلها في جهود ترمي إلى إبطال مفاعيلها.

وبمساعدة رشـيد رضا، تَأَتَّى بلباقة ودهاء لشـغل منصب رئيس الوفد السوري الفلسـطيني المفوض في عصبة الأمم في عام 1925م. وانطلاقاً من هذه القاعدة الهشة، اتخذ لنفسـه مسـاراً عملياً جديداً بوصفه داعية سياسـياً عالمياً، وولـج عمق القضايا السياسـية والتيارات الفكرية الرئيسـة في حقبة العشرينيـات والثلاثينيات من القرن العشرين، إلى الحد الذي يجعل المرء إذا ما رغب في دراسـته يتعين عليه تسـليط الضوء على النزاعات والمسائل المثيرة للجدل جميعها في ذينك العقدين.

ويمكن تفسير التأثير واسع النطاق الذي تمخض عنه، جزئياً، بواسطة منفاه القسري. فشخصيات عصره العربية الإقليمية البارزة - سعد زغلول من مصر، على سبيل المثال - كانت معنية في المقام الأول بتحقيق الاسـتقلال للبلاد التي تنتمي إليها، مع حفاظها على مواقعها ضمن التركيبات السياسية الجديدة. غير أن أرسلان الذي حرم من قاعدته الإقليمية بفعل القيود الفرنسـية والبريطانية التي فرضت عليـه وحظرت دخوله إلى البـلاد الخاضعة لانتدابها وإلى محمياتها، تمكن من التصـدي لمهام النصير العالمي التي تجاوز فيها الاهتمامات المحلية، وانبرى للدفاع عن القضية العربية الإسـلامية بأسرها.

وعلى الرغم من الصعوبات التي فرضتها عليه بريطانيا وفرنسا، فقد تمكن في أسلوب يحاكي طريقة الأفغاني من أن يجوب أصقاع العالم الإسلامي، من طنجة إلى صنعاء إلى بلغراد إلى القدس، وأن يستفيد من الاهتمام الذي كان يثيره دوماً وعلى نحو ثابت مطرد.

من الناس من يتوفرون على مواهب طبيعية تتمثل في براعتهم في توليد دعاية كفيلة في وضعهم في قلب قضية حاسمة بصورة خاصة، وفي إقناع الآخرين بالاستجابة لمواقفهم. وقد كان أرسلان من هؤلاء. فحتى على الرغم من أنه لم يعش قط بصورة دائمة في أي بلد عربي بعد عام 1917م، فإن شخصه - إلى جانب آرائه - استأثر بمثل هذا الاهتمام إلى الحد الذي جعله جزءاً لا يتجزأ من الصراع السوري اللبناني مع فرنسا، ولاعباً فاعلاً على صعيد المأساة الفلسطينية، ومعلقاً رائداً على التيار الإصلاحي الإسلامي المنبثق من مصر. وإلى جانب كل ذلك، لعب أرسلان - كما يؤكد هذا الكتاب - دوراً رئيساً في إرساء قواعد أرضية مشتركة بين نضالات العرب المشارقة وعرب شمال أفريقيا في سعيهم إلى تحقيق الاستقلال. وأصبح المعلم المرشد لمجموعة من القوميين المغاربة الشباب، وأظهره تنسيقه للاعتراضات الإسلامية الدولية على مرسوم الظهير البربري لعام 1930م، بوصفه شريكاً مرغوباً فيه للمسلمين العرب في كل المناطق، لا بوصفه عدواً خطيراً لحكام الانتداب الإمبرياليين الأوروبيين. وسرعان ما انخرط ضمن مجموعة من الشخصيات الجزائرية والتونسية الريادية، وتبنى قضاياهم، وأتى بها إلى معترك النضال العربي الإسلامي الشامل المناهض لقوى الإمبريالية الأوروبية. وأضحت إقامته في جنيف أرضية اختبار لاستراتيجيات المقاومة. وسواء أكان يستضيف الملك فيصل ملك العراق أم يسدي المشورة لمصالي الحاج من الجزائر، أم يتنازع مع ديفيد بن غوريون، أم يستقبل وفوداً سورية متنوعة، فقد حول في كل ذلك مقر إقامته في جنيف إلى مركز للحركة الإسلامية العالمية.

وعلى الرغم من أن دعوة أرسلان لاستقلال البلاد العربية المحتلة لم تكن فريدة في نوعها، فإن لهجة احتجاجه أضفت عليها أهمية خاصة. وربما كان هو على رأس شخصيات عصره المهمة والمتميزة التي مثلت استمرارية رسالة جمال الدين الأفغاني

ذات المنشــأ الإسلامي الداعية إلى مقاومة الدخيل الأجنبي. وبالنسبة لأرسلان، كانت الجامعة الإســلامية هي الوســيلة الوحيدة المشروعة المعول عليها في نيل الاستقلال، وتحاشــي القومية السورية وحتى القومية العربية، في ســبيل العقيدة الإسلامية الأكثر شــمولية. ولم ينكر فوائد وجود حركات المقاومة المحلية، ولم يكن من السذاجة بمكان بحيث يدعو إلى قيام دولة إســلامية واحدة وفريدة. إلا أنــه كان يصر على أن التعاون المتبــادل الذي كان ضرورياً لدحر القوى الإمبريالية، لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال وجود شــعور مشــترك بالواجب الإســلامي بكل ما تنطوي عليــه كلمة واجب من مضامين ثقافية، وسياســية، وأخلاقية. وكان بطله لحقبة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية هو الملك عبد العزيز آل سعود ملك المملكة العربية السعودية، في حين كان ألد أعدائه الشريف حسين، وذلك بسبب قيادته الثورة العربية ضد الإمبراطورية الإسلامية العثمانية صاحبة الشرعية، وكان يعد عدوه الآخر مصطفى كمال أتاتورك وذلك بسبب علمنته تركيا. كان أرسلان شــديد العداء، بخاصة، لأتاتورك لشعوره بأنه ينبغي عدم استغلال موضوع الاستقلال السياسي من أجل تقليد الغرب، بل ينبغي أن يعول عليه في مســألة السلامة الثقافية للأمة، كما ينبغي -والرأي لأرسلان - تأمين النظام والعدل بالعودة إلى المفاهيم الإسلامية المتعلقة بالدولة والمجتمع، والتي ينبغي التأكيد عليها في المقام الأول.

اكتسب أرسلان شعبية على نطاق واســع منبعها جماهير اعتنقت هذه الفِكَرَ. وأحد مواضيع هذا الكتاب الرئيسة هو استكشاف تأثير أرسلان من خلال براعته في التعاطي مع الرموز الإســلامية. والأخطار التي حددها الأفغــاني في العقود الأخيرة من القرن التاســع عشر لم تنتهِ بالحــرب العظمى، بل كانت في واقع الأمر تتفاقم بســببها. ولولا الإمبراطورية العثمانية، لكان النظام العربي الإســلامي أكثر عرضة للهيمنة الأوروبية من أي وقت مضى، ولولا مقام الخلافة لما تمكن المسلمون من العثور على رمز يوحدهم ويلتفون حوله. وعلى الرغم من أنه جرى تبني النزعة القومية العلمانية العربية والثورات الإقليمية المطالبة بالاســتقلال، وذلك من أجل التصدي للتعرض للهيمنة الإمبريالية

الغربية، فإن الإســلام النضالي كان هــو العقيدة الأكثر ألفةً واتباعاً والأوســع قبولاً. كان أرســلان مؤيداً قديم العهد لهذا التوجه، وقادراً على تسييس الروابط الحيوية لهذه المشاعر الإسلامية واستعمالها بنجاح واضح في كل من شمال أفريقيا والمشرق العربي على حد سواء.

والمدى الذي وصل إليه توظيف الإسلام بوصفه أيديولوجية سياسية في حقبة ما بين الحربين جرى التغاضي عنه أحياناً؛ بسبب الطريقة التي عرض بها الفكر العربي الحديث من خلال الدراســات التي أجريت باللغة الإنجليزية. فقــد عدت مؤلفات المؤرخين المؤثرين في ســتينيات القرن العشرين القومية العلمانية بوصفها العقيدة، ســواء أكانت بصيغتها الليبرالية أم بصيغتها الشمولية، الأيديولوجية المهيمنة في تلك الحقبة في منطقة الشرق الأوسط. وبناء على ذلك، ركز المؤرخون تفسيراتهم وتأويلاتهم عن الماضي على أعلام بارزين جســدوا تلك العقيدة[7]. والعناصر العلمانيــة، إن لم نقل الليبرالية لهذا التركيــز التاريخي بدت متوفرة ومتحققة في التجربتــين الناصرية والبعثية من حركات الإصلاح الراديكالي، وتعززت بواســطة علماء اجتماع وجدوا في التجربتين المذكورتين إثباتــاً لتأكيدات نظرية الحداثة، التي تقــول إن التنمية الوطنية لا يمكن أن تتحقق ما لم تقترن بعلمانية متزايدة[8].

أما الذين كانوا متشــبثين بالتعاليم الإســلامية، وواظبوا على تمسكهم بها، فكانوا يُعَدُّونَ من قبل النخب السياســية الجديدة في المجتمع العربي، ومن قبل بعض المراقبين الغربيين، رجعيين أعداء للتقدم. ومثل هذا الاقتران بين التفســير التاريخي والتطورات المعاصرة حجب الميل إلى اعتماد التدابير السياسية ذات القاعدة الدينية التي كانت متبعة سابقاً[9]. وأرســلان، بالصلة القائمة بينه وبين الأفغاني، وبالتآلف الذي كان قائماً بينه وبين جماعة الإخوان المسلمين، إلى جانب تفضيله وجود قيادة إسلامية قوية؛ قد يكون كل ذلك هو ما جعل منه الشخصية البارزة الأكثر تمثيلاً لعصرها من طه حسين أو محمد حســين هيكل، أو حتى المنظر العربي العلماني ساطع الحصري. ولو لم يحدث الانبعاث الإسلامي من جديد في عقدي السبعينيات والثمانينيات، لواظب أرسلان على استحقاقه

لأن يكون موضوعاً تنبغي دراسـته وذلك تبعاً لـدوره الذي لعبه في عصره. وعلى أي حـال، التأكيد العام المتجدد على الملامح الإسـلامية للمجتمع العربي يعمق أهمية فهم آراء أبرز القوميين الإسلاميين في عصره، والاستجابات والردود التي أثارتها.

ويحتمـل أن يكون الباحثون الغربيون قد عمدوا أيضاً إلى تجاهل أرسـلان وبعض معاونيه؛ نظراً لأنهم لم يفتحوا آفاقاً جديدة. فيما سعى مؤرخو الفكر والثقافة، على النحو الـذي ينبغي، إلى تحديد مفكـري ذاك العصر المبدعين. ولكن أربـاب الدعاية والنشر يتطلبون أيضاً البحث والاسـتقصاء. فهم المجسـدون الفوريون للرأي العام، وهم لا يتجـاوزون معاصريهم كثيراً ولا يتخلفون عنهم كثيراً. وبعض مؤرخي الفكر والثقافة ممن هم على شـاكلة توماس بـين يحاولون الحكم على الناس نسـبةً إلى أمر جديد، فيما يسـعى آخرون إلى تكريس دعمهم وادخاره إلى من يحكمون أنه الأنسـب من الماضي. وكان أرسلان أحد الذين يندرجون في قائمة الصنف الأخير. لقد تمكن من الثبات على مواقفه مع قدرته على التأقلم، وكتاباته الوافرة ومواجهاته الشخصية المباشرة مع النظام الإمبريـالي الأوروبي، فقد كانت تعكس تطلعات قطاع واسـع من المثقفين المسـلمين العرب، ومكنته من أن يغدو المتحدث باسـمهم في النضال النهائي لحشد قوى النظام القديم ضد القيم الأجنبية والسيطرة الخارجية.

وتجدر الإشـارة، على أي حال، إلى أن أرسـلان كان أكثر من مجرد محرض وناشط دعائي؛ فقد كان مؤلفاً موطد الأركان في مجال التقاليد السلفية أو الإصلاحية. وبوصفه كاتباً لسيرة صديقيه رشيد رضا وأحمد شوقي، دعا إلى إحياء ذكرى الأزمنة التي شكلته وأنتجت رجالاً ذوي عقليات وبنية فكرية مشـابهة لبنيته، وبوصفه مؤرخاً للفتوحات العربية في أوروبا أعـاد إلى الذاكرة صور عظمة الماضي، وبوصفه معلقاً إصلاحياً أخبر المسـلمين عن السـبل الكفيلة بتمكينهم من تغيير ظروفهم الراهنة مع بقائهم مسلمين حقاً. وكتابه الذي تضمن نقداً قاسـياً وعنوانه: **لماذا تأخر المسلمون؟** طبع ثلاث مرات في حياته وأعيد طبعـه في عام 1981م. وشرحه الـذي ورد في أربعة مجلدات لكتاب **حاضر العالم الإسلامي** للكاتب لوثروب ستودارد، ما انفك إصداره يتجدد ويتواصل.

وأرسلان، باشتغاله على هذه الكتب إلى جانب مجلته التي كانت تصدر باللغة الفرنسية باسم: **الأمة العربية**، مع مقالاته التي نشرها في الصحافة العربية وكان يبلغ عديدها مئة مقال سنوياً أو نحو ذلك؛ يمكننا القول إنه كان الكاتب العربي الذي تعد كتاباته الأكثر قراءة وعلى أوسع نطاق في حقبة ما بين الحربين.

وفيما كان يحاول تدبر أمر شؤون المسلمين، سعى كذلك إلى معالجة مسائل التحالفات الأوروبية العربية. ولطالما حاول، في هذا الصدد، أن يلعب دور الوسيط بين دول المحور والعرب. وبوصفه المدافع الأبرز عن سياسات موسوليني المتعلقة بالعرب، جعل مسألة نزاهته محل شك وريبة، وهي مسألة ألقت بظلالها على سمعته في نهاية المطاف. وبعد، فإن هذه الأنشطة كانت جزءاً لا يتجزأ من سيرته وأعماله، وهي تلقي مزيداً من الضوء على أهميته في قضايا عصره.

وعلى الرغم من أن هذا الكتاب يركز اهتمامه على حياة أرسلان في سياق عصره أكثر من تركيزه على سيرته الذاتية الشخصية البحتة، فقد حاولت أن أفهم هذا الرجل فضلاً عن فهمي للاتجاهات التي كان يمثلها. فأرسلان الإنسان الطموح الفذ ذو الشخصية المتميزة الذي ذاع صيته، كرس وجوده بوصفه رجلاً شجاعاً مناوئاً للإمبريالية قولاً وعملاً. وهذا ما أدى بخصومه السياسيين إلى النظر إليه بوصفه شخصاً انتهازياً يسعى إلى تحقيق مصالحه الذاتية. وهو السبب ذاته الذي جعل مناصريه ومؤيديه يحيطونه بهالة من التقديس بوصفه أعظم مجاهدي عصره[10]. وحتى على الرغم من تركيزي على المجرى العام لحياة أرسلان، فقد حاولت شرح دوافعه ورؤية توجهه الأيديولوجي بوصفه وثيق الصلة ومتساوقاً مع أوجه أخرى من مقومات حياته.

لقد قارب هذا الكتاب موضوعه مقاربة تداخل فيها الزمان والمكان. وتجنباً لمجرد اقتفاء أثر مسيرة أرسلان الحافلة بالأعمال، فقد صممت مادة الكتاب على نحو مكنني من إلقاء بعض الضوء على اهتماماته وبواعث قلقه الشاملة. عمدت الفصول الثلاثة الأولى من هذا الكتاب إلى البحث في حياة أرسلان حتى عام 1925م. فيما عالج

الفصلان الرابع والخامس موضوعهما عبر ما يمكــن وصفه بالمواضيع الجغرافية: فقد عكف الفصل الرابع على استكشــاف دور أرسلان وكتاباته عن المشرق العربي في حقبة الثلاثينيات من القرن العشرين، فيما تكرس الفصل الخامس للموضوع ذاته وفي الحقبة عينها، لكن في شمال أفريقيا. وأما الفصل السادس فقد أفردته للبحث في إسهام أرسلان في المجال الفكري لحقبة ما بين الحربين. واســتعرضت عبر الفصل السابع حقبة ما بين الحربين كلها من خلال المبدأ الناظم للعلاقة بين أرسلان وكل من إيطاليا وألمانيا.

بدأت إعداد هذه الدراسة بانطباع يفيد بأن شكيب أرسلان صاحب شخصية فكرية إبداعية متميزة. وعبر مســيرتي في إجرائي بحثي هذا، عدلت هذا الموقف تعديلاً طفيفاً مســتنتجاً أنه في حين كان أرســلان كاتباً متميزاً ومؤثراً بصورة واضحة، فقد كان أقل أهمية بوصفه مفكراً منه بوصفه ظاهرة. وحاله حال أقرانه، كان في بعض الأمور يتجاوز الحال التي يتبدى عليها، ويقصر عن بلوغها في أمور أخرى؛ حيث كانت فِكَرُهُ مزيجاً من فكَر مُرْشدَيْه الأفغاني ومحمد عبده، فيما كانت قدرته على توجيه الأحداث أكثر محدوديةً مما كان يخشى خصومه الأوروبيون. ومع ذلك فقد كان صاحب شخصية بارزة ذا تأثير دولي أكبر مما نســب إليه، وأكثر نزاهة واســتقامة مما عزا إليه منتقدوه، وأشــد دهاء مما يعتقد مؤيدوه. وقد حدد أرســلان ملامح فترة انتقالية بإعلانه على جناح السرعة عن تمسكه وتشبثه بالمفاهيم الإسلامية للدولة والمجتمع، وهي المفاهيم التي اعتقد أنها كفيلة بوضعهما كليهما (الدولة والمجتمع) على الطريق الصحيح. وميله نحو المقاومة وترويجه لها وتحريضه عليها منحه شعبية، ومكنه من أن يعين نفسه بنفسه وريثاً للأفغاني ليواصل مســيرة الفاعليات الإسلامية النشطة، وهي مسيرة أبعد ما تكون عن بلوغ غاية تكتفي بها وتتوقف عندها.

الفصل الأول

تشكيل الجنتلمان العربي - العثماني

بدا الأمير شكيب في صورة من يريد أن يكون عثمانياً أكثر من بني عثمان.

الشرباصي[1]

إن لم نقدر أن نحفظ صحارى طرابلس، لن نقدر أن نحفظ جنان الشام.

أرسلان[2]

لا يمكن تحديد القوى التي تشـكل اسـتشراف المرء للمجتمع بدقـة. ويعد هذا التوصيف دقيقاً، بصورة خاصة، لدى التعامل مع التقليد الثقافي الذي يحبط تعابير المرء الاستبطانية المتعلقة بسيرته الذاتية لمصلحة الذكريات السياسية المقيدة. وعلى الرغم من ذلك، فإن المؤرخ الذي يسعى إلى فهم كيف ولماذا يمكن أن يقال كان لإنسان ما تأثير في عصره، يجب عليه أن يحاول تفسير البيئة الاجتماعية التي نشأ فيها، وفيها تَكَوَّن.

وفي حالة شـكيب أرسـلان، أوجه القصور المحتملة المتعلقة بالبيئة يمكن طرحها عبر الآتي: ولد الرجل في قرية من قرى منطقة الشويفات في عام 1869م. وكان ينتمي إلى الطائفـة الدرزية، وكان أبوه موظفاً محلياً بسـيطاً. بدا محيطه الريفي الضيق المحدود الطائفي مرجحاً لتقييد آفاق الشباب، عبر الحد من فرص تعليمهم وخياراتهم المرتبطة

بالمهن والأعمال. ولكـــن بدلاً من ذلك، في حالة أرســـلان، تمخضت ظروف من هذا القبيل عن الاعتراف بأرســـلان دولياً بوصفه المتحدث باســـم الإسلام، وتمخض عنها جعله أديباً عربياً مشهوراً من فاس إلى بغداد ولقب بأمير البيان. ولما بلغ أوائل الستينات مـــن عمره، بات صالونه الأدبي في جنيف محجاً يختلــف إليه زوار مميزون وطموحون، وصارت آراؤه في مســائل اســتراتيجية المقاومة والتعاليم القرآنية تُلْتَمَسُ من المغرب إلى سومطرة. ورحلته من الشـــوف إلى جنيف مرت بمراحل، وبطبيعة الحال، تقررت وتحددت جزئيـــاً بفعل الصدفة وظروف وعوامل خارجية. ولكن هذه الرحلة لم تعوق كلياً من قبل البيئة التي ولد فيها. فالدروز الريفيون، شأنهم شأن نظرائهم من المسيحيين الموارنة، اكتشفوا وجود إمكانية وقابلية جديدة للتحرك والانتقال في ظل العالم اللبناني العثماني - في أواخر القرن التاسع عشر - المستقر سياسياً والمزدهر اقتصادياً.

نجـــح أرســـلان في أن يجمع في شـــخصه مزيجاً مـــن مزايا كبيرة تتمثـــل في وضعه الأرســـتقراطي الموروث، إلى جانب الفـــرص التي أتاحها له العـــالم المتغير من حوله، ليصبح عشـــية الحرب العالمية الأولى شـــاعراً وصحفياً ذائع الصيت وأحد كبار رجال السياسة في ســـوريا العثمانية إن لم يكن، بالضرورة، أكثرهم احتراماً. مسار الرجل هذا في البوتقة العثمانية جعل مســـاره الأوروبي الآخر والذي اشتهر عبره ومن خلاله مساراً يمكن إدراكه وفهمه ضمن السياق التاريخي. فالمساران مترابطان، وبينما تطور كل منهما في محيط مختلف جداً عن المحيط الذي تطور فيه المســـار الآخر، ينبغي عدم النظر إلى كل منهما بوصفه شطراً معزولاً عن الآخر في تكوين حياة أرسلان الراشدة.

كان ثمة اكتمال لحياة أرســـلان في فترة ما قبل الحرب يجـــب تقديره بحد ذاته. لكن يجب أيضاً إدراك حقيقة أن مســـيرته الكاملة المرتبطة بالشأن العام في حقبة ما قبل عام 1914م، أرست أسس ظهوره وقواعد علو شأنه في حقبة ما بعد الحرب. لقد أوليت في هذا الفصل اهتماماً لتشـــكل أرسلان بوصفه عثمانياً. ولكي نفهم مسألة ارتقائه وصولاً إلى المكانة الرفيعة التي تبوأها، يتعين علينا أن نأخذ في الحسبان السمات العامة للمجتمع السياسي اللبناني في أواخر القرن التاسع عشر.

حتى زمن تدخل القوى الخارجية في لبنان في القرن التاسع عشر، تمكنت المجموعات الطائفية المتنافسة في جبل لبنان من تدبر أمرها، ومن العيش معاً دون حدوث اضطرابات خطيرة على مدى قرون عديدة[3]. فقد تمكن الشيوخ الإقطاعيون الدروز (طائفة من طوائف المسلمين الشيعة) الأقوياء من التعايش مع الطائفة المسيحية المارونية استناداً إلى الأسس المشتركة في نمط الحياة، وانطلاقاً من كراهية الفريقين المشتركة للحكومة المركزية القومية. ومع غزو سوريا وجبل لبنان من قبل جيش محمد علي المصري، وفي ظل حكم ابنه إبراهيم النشيط والقوي بين عامي 1832 -1840، اضطربت العلاقات النمطية العرفية بين الطوائف. وعلى الرغم من أن العداوات الطائفية الجديدة ظلت محجوبة ومكبوتة بصورة مؤقتة بفعل التمرد المشترك للفريقين ضد الهيمنة المصرية في عام 1840م، فقد ظل الزعماء الدروز يشعرون بمرارة ثقيلة الوطأة حيال ما كانوا يعدونه تآكلاً مطرداً لنفوذهم في الجبل. ولاستعادة ذلك النفوذ، أطلقوا في عام 1860م شرارة حرب أهلية عنيفة ألهبت قرى الجبل وأحياء دمشق، حيث قتل فيها مسيحيون بأعداد كبيرة. وعند هذه النقطة، آلت الأمور إلى تدويل المسألة اللبنانية تدويلاً كاملاً، حيث تدخلت سلطات أوروبية والسلطة العثمانية بفرض حل من الخارج. وكان حلاً حقق قدراً من الرخاء والاستقرار في آن معاً في المنطقة من عام 1861م وحتى زمن نشوب الحرب العالمية الأولى.

والتنظيمات الجديدة، التي استعادت اللغة الديبلوماسية الأوروبية، ووضعت لوائح وبروتوكولاً يقضي بإعادة تنظيم جبل لبنان، تمثل هدفاها الرئيسان في حماية الموارنة من الدروز وفي استعادة الطمأنينة والهدوء إلى الجبل[4]. وبالنتيجة استمر تقسيم الإمبراطورية العثمانية وذلك بمنح جبل لبنان، إدارياً، وضعية الحكم الذاتي.

وبسبب تركة انعدام الثقة الجديدة بين الطوائف والجماعات الدينية، بات يُعَدُّ تخليص إدارة نظام الحكم الجديد هذا من الضغوط الطائفية أمراً ضرورياً. وقد جرى ذلك باستخدام تعابير طائفية – حيث نصت اللوائح التنظيمية على وجوب حكم جبل لبنان من قبل متصرف أجنبي مسيحي عثماني غير لبناني، تعينه الدولة العثمانية بموافقة

الدول الأوروبية العظمى الست وهي: بريطانيا وبروسيا وروسيا والنمسا وإيطاليا وفرنسا، وهي الدول الموقعة على النظام الأساسي للوائح المنظمة لهذا الاتفاق. ونص الاتفاق على أنه يتعين على المتصرف أن يحافظ على النظام من خلال قوة أمنية لبنانية تتمتع باستقلال ذاتي، وأن يتلقى النصح والمشورة في مسائل الحكم من مجلس إداري يتألف من اثني عشر عضواً يمثلون الطوائف الدينية في المتصرفية. وانعكست هيمنة الموارنة والدروز على المجلس عبر شغلهم أربعة مقاعد وثلاثة مقاعد فيه على التعاقب. وعلى الرغم من أن سلطات المتصرف كانت محدودة ومحددة، فقد كان له شيء من الاستقلالية في العمل تتمثل في قدرته على تعيين سبعة من حكام المناطق (كان يدعى أحدهم القائمّقام)، وهم يحكمون مناطق في الجبل تسمى أقضية (جمع قضاء). وكانت تحيزات المتصرف وأهواؤه، إضافة إلى شخصيته، تحدث فارقاً في أسلوب تفاعله مع بنية السلطة المحلية. وكون معظم المتصرفين من ذوي الكفايات العالية لا يعني أن عائلة درزية كبيرة وشهيرة مثل عائلة أرسلان تعاملت معهم جميعاً بوئام وانسجام على حد سواء.

وإن كان التنظيم الجديد قد حال دون إمكانية استمرار هيمنة الدروز، فقد بدا دينهم نفسه مقيداً للطائفة. إذ إن عقائده المعقدة وشديدة الاحتراس متشابكة مع المفاهيم الإسماعيلية الباكرة، وتواريخ ظهورها ترجع إلى عهد الخليفة الفاطمي (السادس) الحاكم بأمر الله (996 - 1021م). وعلى الرغم من أن هذا المعتقد الجديد اكتسب اسمه بانتسابه إلى أحد المبشرين الأوائل به وهو شخص يدعى الدَّرَزي، فإن الدين يتمركز حول قداسة الحاكم، وحدانية الإله التي لا هوادة فيها، والإله الذي لا سبيل إلى معرفته، والاعتقاد المقدس بالعودة النهائية للحاكم الإلهي المقدس الموجود ولكن في حالة من "الاحتجاب المؤقت ليس إلا"[5]. وعندما أضحت معارضة هذه الفِكَرِ من القوة بمكان في مصر، انتقلت الطائفة الصغيرة إلى سوريا، واجتذبت مريدين تحولوا عن دياناتهم إليها من المناطق الجبلية التي تعد حالياً جزءاً من وسط لبنان الجنوبي ومن مناطق سوريا الجنوبية الغربية. وفي عام 1031م أغلقت الطائفة أبوابها في وجه المريدين

الجدد الراغبين في الانضمام إليها، وشرعت في إطلاق عملية ممارسة الطقوس السرية والتكافل الفطري الذي ميز الطائفة، وما زال، حتى يومنا هذا.

وغالباً ما يرى مراقبون خارجيون أن الدروز طائفة عشائرية وغير ودية، وأصبح تعبير "دروز عنيدين" عبارة مكررة يستعملها المؤرخون كثيراً[6]. وفي معرض دفاعهم عن دينهم وعن أراضيهم، حظي المقاتلون الدروز بسمعة مستحقة هم جديرون بها بوصفهم مقاتلين أشاوس أولي عزم وأصحاب عزيمة. وإلى ذلك اتصفوا أيضاً بأنهم ساسة يتمتعون بالمرونة، وفي حالة آل أرسلان تمكنوا أيضاً من إحراز مراتب النبالة والرفعة والشرف، جاعلين من ذلك التصنيف واسع النطاق للدروز بوصفهم فلاحي الجبال تصنيفاً يفتقر إلى الدقة. وفي تطور النظام الإقطاعي المميز لجبل لبنان، جرى الاعتراف بآل أرسلان بوصفهم الأسرة الأكثر عراقة والأرفع مستوى بين عائلات الدروز، وغدوا أبناء إحدى ثلاث عائلات فقط في لبنان يحق لأبنائها الذكور أن يلقبوا بالأمراء، وهذا اللقب هو المكافئ تقريباً للقب "الأمير" الذي يكتسب وراثياً. وكان مقر قاعدة سلطتهم منطقة الشوف التي تتركز فيها تجمعات الدروز، وتقع على بعد عشرة أميال تقريباً إلى الجنوب من بيروت، حيث انخرطوا على مدى القرن التاسع عشر في منافسة لم تنقطع مع أسرة جنبلاط، أسرة درزية أخرى طموحة، منافسة تهدف إلى السيادة والهيمنة.

وبالنسبة لقادة أسرة أرسلان، لم يكن التضامن الطائفي بين الدروز يعني عزلة سياسية. وكان التنظيم الجديد قد وفر أكثر من مجرد حماية الموارنة، حيث اعترف بمكانه الدروز ضمن المتصرفية، فأتاح بذلك الفرصة لعائلة طموحة من أجل تعزيز نفوذها السياسي وتوسيع دائرته. وقد نشط الأمراء من أبناء أسرة أرسلان في أعقاب الحرب الأهلية، فعززوا علاقاتهم مع الذين شغلوا منصب المتصرف في جبل لبنان، وأجروا اتصالات مهمة مع مركز السلطة العثمانية في اسطنبول. وخلال العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، كان العنصر المهيمن على الأسرة هو الأمير مصطفى، عم الأمير شكيب، الذي انعقدت بينه وبين قصر السلطان عبد الحميد الثاني صلات قوية وجيدة.

وبالإضافة إلى ذلك، منذ السنوات الأولى لتأسيس المتصرفية وحتى وقت استقالته في عام 1902م، كان مصطفى يشغل منصب قائمّقام الشوف. وكان هو المهيمن على مسألة خلافة متصرفي الجبل وتعاقبهم طوعاً أو كرهاً، وضمن تعزيز قاعدة نفوذ آل أرسلان حتى سنة وفاته عام 1910م. وحتى الحدث المحتوم استعمل لتعزيز مكانة الأسرة، ومن ذلك أن طقوس جنازة مصطفى أجريت جرياً على التقليد الإسلامي السني، لا وفقاً للتقاليد الدرزية[7]. استفاد أقارب مصطفى من جهوده، فشغلوا وظائف ومناصب مسؤولين محليين، ومبعوثين أجانب، وعينوا نواباً في البرلمان الإمبراطوري، وكان منهم أدباء بارزون في السنوات التي شهدت آخر عهد الإمبراطورية العثمانية. لقد كانت أسرة آل أرسلان عائلة أرستقراطية طموحة بارزة وشهيرة، وكان أبناؤها موهوبين بصورة عامة، وأمنت مكانة الأسرة لأبنائها الشباب شهرة ومكانة متميزة منذ نعومة أظفارهم، وأمن لهم طموح الأسرة كل الفرص لتعزيز تلك المكانة وذاك التميز.

وهكذا فإن المناخ السياسي الذي ترعرع فيه أرسلان، والذي خبر فيه مسؤولياته الأولى بوصفه رجلاً راشداً كان ينطوي على ميزة مضاعفة ثلاث مرات حيال الولاء للقائد والشعور بالواجب: أولاً، نحو الأسرة، ثانياً، حيال حماية مصالح الطائفة الدرزية (والتي كانت على الأغلب رديفاً لمصالح الأسرة) في المجال السياسي الأوسع نطاقاً في المتصرفية، وثالثاً، الولاء للإمبراطورية العثمانية بسياساتها الإمبراطورية وطموحاتها الإسلامية العالمية. والعالمان الأول والثاني من هذه العوالم استقطبا شكيباً بعض الوقت، إلا أن سياق السياسة الإمبراطورية الإسلامية الأوسع نطاقاً هو ما استرعى اهتمامه في نهاية المطاف، وهو ما حدد ولاءاته. ورحلة صعوده من الشوف إلى الدوائر الداخلية للمؤسسة العثمانية لم يكن متفرداً في إنجازها، فقد شق اثنان من إخوانه الثلاثة طريقهما انطلاقاً من خلفيتيهما الريفية وهويتيهما ليحققا شهرة لنفسيهما في المجتمع العربي العثماني. وعلى الرغم من أن ديناميات الأسرة لا يمكن أن تعرف على وجه اليقين، فإن تحرك الأخوين أرسلان خارج نطاق الدائرة الدرزية ربما يكون تلقى دعماً وتشجيعاً من والدهما، الأمير حمود، وهو رجل دمث الأخلاق لطيف بدا اهتمامه بالأدب أكثر من

اهتمامه بالمنصب الذي كان يشغله، بوصفه مدير ناحية في قضاء الشوف[8]. والأمير حمود خرق أعراف الدروز بزواجه بامرأة شركسية (وكذا فعل شكيب فيما بعد)، أنجبت له أربعة أولاد ذكور. وكان شكيب، وهو الثاني من حيث زمن الولادة، شديد التعلق بأمه التي كان لها تأثير قوي عليه عبر سني رشده. وإن كانت قوة شخصيتها تنسجم مع طبيعتها البدنية، حيث كانت امرأة رائعة لافتة للنظر: عندما كان لشكيب من عمره ستون عاماً سافرت من الشوف إلى السويس لتقضي معه سويعات قليلة، وعندما عاد إلى لبنان متوعكاً هرماً حيث كان قد بلغ السادسة والسبعين كانت حاضرة لاستقباله.

أما والد شكيب فقد ترك أمر توجيه مصائر الأسرة السياسية لأخيه القوي، الأمير مصطفى، وهو رجل لم يكن ليسمح بأن يقبع أبناء أخيه الأربعة في منطقة الشوف. خطط مصطفى لتعليمهم، وعمل بما لا يدع مجالاً للشك على ضمان وجود وضع مؤاتٍ لهم في المتصرفية.

كما انعكس نجاح مصطفى على مجرى الحياة العملية لاثنين من إخوان شكيب، أظهرت أنشطتهما إمكانية التحرك التي أتاحها لأبناء أرسلان نفوذهم ومكانتهم الرفيعة في المتصرفية: نسيب (1867-1927م)، أخو شكيب الأكبر والأقرب شخصياً إليه، أمضى معظم سني حياته راشداً في بيروت حيث انخرط في طائفة متنوعة من الأوساط الأدبية، وشارك بوصفه صحفياً في حركة الاحتجاجات العربية المناهضة لسياسات جمعية الاتحاد والترقي قبل الحرب العالمية الأولى. وعادل (1883- 1954م)، أصغر أشقائه سناً، انتسب إلى جامعة اسطنبول، وأظهر موهبة واعدة عظيمة على صعيد الشعر، لكنه غدا أكثر شهرة بفضل نشاطه السياسي الذي امتد ردحاً طويلاً من الزمن شغل خلاله مناصب رسمية وأدى مهام غير رسمية، وعمل في كنف الدولة العثمانية حيث أوكلت له مهام قائمّقام الشوف بين عامي (1914- 1916م)، وعين نائباً في البرلمان العثماني بين عامي (1916- 1918م). وانبرى للقتال ضمن صفوف الثورة السورية الوطنية التي قادها الدروز ضد الانتداب الفرنسي بين عامي (1925- 1926م) وذلك

سعياً لنيل الاستقلال. وأخيراً شغل منصب وزير بين عامي (1946- 1949م) في أول حكومة تشكلت في سوريا المستقلة[9].

يعود الفضل في اتساع نطاق عالم عادل الوظيفي باكراً إلى خبرات أخويه الأكبر سناً وتجاربهما؛ إذ تلقى شكيب ونسيب منذ بداية تدريبهما تعليماً تجاوز حدود نطاق الدروز الضيق، وبدا مصمماً بحيث يفتح لهما آفاقاً أوسع. وقد تزامنت سنوات دراستهما مع الأعوام الأولى للنهضة العربية، ومكنهما مركزهما المرموق الناجم عن انحدارهما من إحدى الأسر العظيمة من جني ثمار التغييرات التعليمية الثقافية التي كانت تنفذ إلى سوريا والمتصرفية؛ حيث أدت البعثات التبشيرية التي أرسلتها منظمات بروتستانتية أمريكية وكاثوليكية أوروبية إلى تأسيس مدارس جديدة في الأوساط المسيحية في جبل لبنان. وشجع ظهور هذه المدارس التبشيرية الأجنبية الطوائف الدينية المحلية على توسيع نطاق الفرص التعليمية لأبنائها، ولبناتها أحياناً أيضاً؛ وذلك للحيلولة دون اضطرارهم إلى تلقي العلم على أيدي اللازريين الفرنسيين أو أتباع الكنيسة المشيخية الأمريكية أو القساوسة الأرثوذكس الروس. أحيا الموارنة معهدهم العالي المتخصص في تعليم اللاهوت في عين ورقة عام (1834م)، وأسس المسلمون جامعة في بيروت سنة (1874م)، لتنافس الكلية البروتستانتية السورية التي أسست عام (1866م) والجامعة اليسوعية للقديس يوسف، وقدمت الحكومة العثمانية إعانات متزايدة للمدارس الإسلامية في الأقاليم السورية[10].

وفي الوقت الذي بدأ شكيب فيه تعليمه، كان قادراً على الاستفادة من هذه الفرص الموسعة، وعلى المشاركة في التيارات الفكرية للنهضة العربية. واستناداً إلى المعاهد التعليمية التي التحق بها، كان تعليمه انتقائياً ومتعدداً طائفياً. فعندما كان لشكيب من عمره ست سنوات، انتسب هو ونسيب إلى المدرسة الأمريكية في منطقة الشوف. ولم يكن هذا أمراً غير عادي كما يمكن أن يبدو. وبدءاً من منتصف ثلاثينيات القرن التاسع عشر، توصلت البعثة التبشيرية البروتستانتية الأمريكية إلى استنتاج يفيد بأن الدروز الذين كانوا في واقع الحال محشورين بين السلطات العثمانية السنية وبين الموارنة الأقوياء،

كانوا أتباع الطائفة غير المســيحية الأكثر رجحاناً للتحــول عن معتقدهم واعتناق دين جديد (المســيحية). وأعدت خططاً عديدة لكن لم تصل أي منها إلى مرحلة التنفيذ، أي إلى مرحلة التمكن من الهيمنة على تعليم الدروز والتبشير بينهم بغية تنصيرهم، بل توقف نشاط هذه البعثة عبر السنين[11]. وعلى الرغم من أن مدارس هذه البعثات كانت تحاول عادةً أن يقتصر تدريسها على اســتعمال اللغة واللهجة المحلية، فإن شكيباً كان يستذكر الإنجليزية وبعض التراتيل الإنجليزية بوصفهما جزءاً من منهاجه الدراسي[12]. غالباً ما كانت تستمر الدراسة في مدارس ريفية من هذا القبيل فصلاً واحداً، وقد درس شكيب في مدرسة هذا حالها سنة واحدة ثم انقطع عنها.

وفي عام (1879م)، فيما بدا أنه تحرك مركز تجهيزاً لشباب الأسرة لتسلم مراكز قيادية في لبنان المتغير، انتســب شكيب ونسيب إلى مدرســة الحكمة، وهي المدرسة الرائدة في بيروت. أسس المدرسة يوسف الدبس، مطران بيروت عام (1874م)، وكان يعول على المدرسة في أن تحقق نجاحاً وأن تصيب شهرة بوصفها مدرسة إعدادية مهمة، وقد تخرج فيها عدد من الشــخصيات البارزة الأدبية والسياسية في لبنان الجديد. كانت السنوات السبع التي قضاها شكيب في مدرسة الحكمة ذات أهمية خاصة بالنسبة له، فعلى الصعيد الاجتماعي انتقل من بيئته الريفية الأصلية التي نشأ فيها إلى بيئة مدينية. وعلى الرغم من أنه عاد إلى مناطق الشوف في عام 1887م تنفيذاً لإملاءات سياسة العائلة، فقد تشكل في أجواء بــيروت المتحررة، وظل رجلاً مدينياً طوال حياته. وهو، إلى ذلك، اكتســب ذائقة الأجواء الأدبية التي يمكن أن تؤمنها الأجواء المدينية دون سواها. وبوصفه طفلاً ترعرع في حقبة شــهدت النهضة العربية افتتن أرسلان بسحر النهضة الثقافية، وكتب لاحقاً عن السنوات التي قضاها في المدرســة في بيروت، وجاء فيما كتبه: "كنا أصبحنا يومئذ في المدرســة مغرمين بأخبار الكتاب والشــعراء والأدباء، لا يهمنا شيء أكثر من هذا، فكنا نرى الدنيا كلها نظماً ونثراً[13]". كان يقرأ بنهم وينتقي الكتب انتقاء. وأدرك المعلمون في مدرســة الحكمة حماسه ومواهبه الفكرية وقدروها، فاستجاب لتشجيعهم له بنضــج فكري باكر. وعندما بلــغ الرابعة عشرة من عمره، ظهــرت بعض مؤلفاته

في الصحافــة الدورية المحلية، وعندما كان له من عمره ســبعة عشر ربيعاً، نشر ديوانه الشــعري الأول، وكان عنوانه **الباكورة**. وحتى في مرحلة مراهقته سعى للحصول على منتدى عام يصلح لأن يكون منبراً للمناظرات والنقاش، وشرع يبدو واثقاً بنفســه ثقة تجاور الغطرسة، وتلكم كانت الهيئة التي ميزته بوصفه رجلاً راشداً.

بالإضافة إلى تطويره مواهبه في الأدب العربي، شــملت المناهج الدراسية في مدرسة الحكمة تدريباً مكثفاً باللغة الفرنســية، وهي اللغة التي اســتعملها أرسلان على نطاق واسع بيسر وسهولة بقية حياته.

وبعد التأكد من أن إخوان أرســلان اكتســبوا خلفية عربية وفرنســية مناســبة في مدرستهم التمهيدية المسيحية، أرسلتهم الأسرة إلى معهد حكومي عثماني، اسمه مدرسة السلطانية؛ لكي يتمكنوا من تركيز دراســاتهم على العلوم الإسلامية، وحتى يكتسبوا خلفية أكثر رســوخاً في اللغة التركية العثمانية. وبعد مضي سنة واحدة على التحاقه بهذه المدرســة الأخيرة، اكتمل تعليم شكيب أرسلان الرسمي. وكان آنذاك في الثامنة عشرة من عمره. ومن النواحي كلها، حصل عــلى أفضل ما كان في جعبة عصر النهضة. فقد منحته سنواته الســبع التي قضاها في المدرســة المارونية مدخلاً إلى الدوائر والأوساط الأدبية في كل من بيروت ودمشــق، وميزتــه بوصفه رجل العــصر الجديد. كما أهلته الشــهادة التي حصل عليها من مدرسة السلطانية التي كانت ترعاها الدولة، إلى جانب اللغة التركية العثمانية التي أتقنها تماماً، أهلته لتولي مهام رســمية وغير رسمية في كنف الدولة التي كانت تتغير إلا أنها ظلت عثمانية.

كان يفتقر إلى شيء واحد هو التعليم الجامعي. وقد حرم منه بسبب مطالب سياسية فرضتها المتصرفيــة. وبناء على ذلك، في حين كان يعد جيــد التعليم بمقاييس عصره، ربما كان مســتاء لأن الفرصة لم تتح له لتحقيق إنجاز علمــي أكاديمي كامل، وهو أمر من الواضح أنه كان مؤهلاً له. وبوصفه رجلاً ذا شــخصية متميزة، عد أرسلان نفسه نداً يَعْدِلُ أياً من الذين تخرجوا في الكلية البروتســتانتية السورية (كلية الخدمة المدنية)،

وبرنامجه الذي ألزم نفسه به والمتمثل في التعلم ذاتياً مدى الحياة تعلماً انطوى على تبحر في المعرفة، وعادته التي درج عليها في كتاباته اللاحقة التي اعتمد فيها أسلوب الاستشهاد الممزوج بالتباهي، ربما يكونان الوسيلة التي توسلها تعويضاً عن افتقاره لقدر أكبر من التعليم الرسمي الأرحب مدى.

على أي حال، ظل الرعاة والداعمون الأدبيون أجدى نفعاً على صعيد تأمين تطور شخصي. وأسعف الحظ أرسلان بأن التحق برجل ملهم سرعان ما غدا شخصاً مهماً. لقد حظي في آخر سنة من سني دراسته في بيروت برعاية محمد عبده، المصلح المصري، مدرساً. وأثر ذلك تأثيراً حاسماً في حياة أرسلان الفكرية. وآل التزامه بقيم محمد عبده ومثله العليا، على مدى السنوات الأربع اللاحقة، إلى انضمامه إلى حلقات عبده ومن ثم إلى الالتحاق في عام (1892م) بمقر إقامة جمال الدين الأفغاني في اسطنبول. وعلى الرغم من التقلبات التي طرأت على حياة أرسلان جميعها على مدى العقود اللاحقة، ظل راسخ الاعتقاد في أنه الوريث المخلص لرسالة الإصلاح الإسلامي والفاعلية السياسية اللتين تلقاهما مباشرة من اثنين من أعظم رموز عصره.

وبالنسبة لطلبة الشرق الأوسط الحديث، أصبح اسما جمال الدين الافغاني ومحمد عبده رديفين تقريباً لإعادة توجيه الفكر الإسلامي. وثمة بحث موسع رأى فيهما نقطة تحول، وإن كانا يُعَدَّان الآن محافظين أكثر مما كان يُعْتَقَدُ أصلاً، فما زال يعتقد أن لهما تأثيراً واسع النطاق. وكان الأفغاني (1838 - 1897م) ناشطاً سياسياً أكثر منه عالماً بالدين منهجياً[14]، رافضاً فرضية بعض الإصلاحيين القائلة إنه يمكن التصدي للتهديد الغربي عبر الفرنجة والتغرب فقط، ودعا بدلاً من ذلك إلى إحياء الإسلام من الداخل إحياءً كفيلاً بإيجاد نفوذ سياسي إسلامي يرتكز إلى نواميس الإسلام وتعاليمه. وتجديد التوكيد على الوعي الذاتي، لا التقليد الأعمى، كفيل بتوفير القوة اللازمة لصد الدخيل في العالمين المادي والثقافي على حد سواء. والأفغاني المعلم من جانب والمحرض من جانب آخر، تآمر على الحكام وعلى الراغبين في الإطاحة بهم على حد سواء. فراديكاليته الشعبوية الإسلامية واستعداده لمخاصمة البلاط السلطاني حفزا التقى والورع من جهة

وعـــدم الثقة من جهة أخرى في آن معاً، وطرد في مراحـــل مختلفة من حياته من كل من أفغانستان، ومصر، والإمبراطورية العثمانية، وإيران. وعلى الرغم من أنه، كما أوضحت البروفســور كيدي، يكتنــف تعاليم الأفغاني وطابعه الشــخصي - ظاهرياً - شيء من الغموض، فلا شيء من هذا يشوب شخصيته في جوهرها. فالأفغاني رجل قوي نشيط بليغ وصاحب شخصية جذابة آسرة، ألهم الشبان المسلمين في البلاد كلها التي حل فيها وارتحل منها وحفزهم على مواصلة برنامجه النشط. وبات وجوده في نطاق الذاكرة أكثر قدرة على الإلهام حتى من حضوره الشــخصي؛ حيث اكتسبت سمعته بعد وفاته أبعاداً أسطورية، وظل - كما هو الآن - رمزاً مبجلاً بارزاً من ثلة أبطال المسلمين، بطلاً كافح ضد اعتداءات الغرب (على بلاد المسلمين) وانتهاكه لحرماتها.

كان بين تلاميــذ الأفغاني: محمد عبــده (1849- 1905م) وهــو مصري، ومن المســلم به أنه التلميذ الأكثر أهمية[15]. وبعد مرحلة باكرة من النشــاط السياسي الذي تمخض عن نفيه نفياً مؤقتاً من مصر، التحق محمــد عبده بالأفغاني في باريس وعاضده حيث عملا على تحرير مجلة **العــروة الوثقى** وإصدارها، وهي المجلة التي جرى تداولها على نطاق واســع وكان لها تأثير كبير في العالم العربي. ثــم تبنى محمد عبده لاحقاً نهجاً في الإصلاح الإســلامي أكثر تحفظاً وتقييداً من ذاك الذي تبنــاه معلمه الأفغاني. فقد سعى من داخل بوتقة النظام القائم إلى تحقيق إصلاح عملي لمؤسسات الإسلام الثقافية والتعليميــة، وإلى تنقيته روحياً؛ الأمر الذي كان كفيلاً - وفقــاً لما رآه - بأن يؤدي إلى عقد مصالحة بين التفكير المستقل الاستنتاجي وبين الوحي الإلهي. وبذلك يمكن جعل مبادئ الدين الاجتماعية تتوافق مع المتطلبات المعاصرة للتغيير. وفي الوقت نفسه، بذل محمــد عبده قصارى جهده لاجتناب التضحية بالجوهر الأســاسي للخبرة الدينية التي أتاحت للإسلام أن يبقى ذا معنى ومغزى بالنسبة لمعتنقيه.

أقر الأفغاني ومحمد عبده كلاهما بوجود ضعف في العالم الإسلامي في مواجهة الهيمنة المادية الأوروبية الغربية وحيال الثقة الغربية بالنفس على الصعيد الثقافي، ولم يتقبل أي منهما فكرة التفوق المتأصل للحضارة الغربية. وكانا يتوفران على شعور يتسم بوجوب

الإنصاف بين الناس، الأمر الذي اجتذب إليهما الشباب المسلمين من الخلفيات الأكثر تنوعاً. وكان تأثيرهما على شـكيب أرسلان، الدرزي المتحدر من منطقة الشوف، تأثيراً مستداماً على الصعيدين الشخصي والفكري.

كان أرسـلان منجذباً إليهما ومتأثراً بهما حتى قبل أن يلتقي بهما شـخصياً. وبفضل موهبته التي جعلته يبرع في عقد صداقات مع الأشخاص الأقوياء والمؤثرين، تمكن من الاجتـماع بكل منهما على حدة. فمحمد عبده، الذي كان منفياً من مصر، أقام في بيروت سـنة (1886م) إلى سـنة (1888م). وقد التقى أرسـلان به في الكلية البروتستانتية السورية أواخر عام (1886م). ورواية أرسلان التي تحدث من خلالها عن اللقاء الأول الذي جمعهما عززت أسـطورته الخاصة، التي أكد فيها أن محمد عبده قال إنه تعرف إلى اسـمه عبر قراءة قصائده من خلال الصحافة، ثم قال بعد ذلك للفتى اليافع الذي كان له من عمره سـبعة عشر ربيعاً المنكب على الأدب والمسـتغرق فيه أيما استغراق: "أنت ستكون من أحسن الشعراء[16]". وغدا حينذاك أرسلان من فوره تلميذاً لمحمد عبده.

وعندما بدأ محمد عبده التدريس في مدرسة السلطانية، شرع شكيب أرسلان وأخوه يتتلمـذان عنده. ولكن يعزى إلى التفاعل الذي انعقد بين شـكيب ومحمد عبده خارج نطاق قاعة الصف المدرسي الفضل في ثناء شـكيب على محمد عبده ومهمته التبشيرية، وذلك من خلال كتابته عنه بعد سنوات عديدة من لقائهما. واظب أرسلان على الحديث عن الإثارة الفكرية التي كان يبثها في أوساط طلابه. فقد كانت مجموعات من الطلاب تتجمع الليلة تلو الليلة في مقر إقامة رئيس بلدية بيروت، وسُكْنَى محمد عبده، ولم يكن هذا المقر من الكبر بما يكفي، حيث وصفه شـكيب بقوله: "أصبح منزله بصورة دائمة تقريباً غاصّاً بالزائريـن". وكان الذين يقصدون المقر يصغون مفتونين إلى مناقشـات العلامة المصري لطائفـة متنوعة من المواضيع المتعلقة بالإسـلام وباللغة العربية[17]. اتخذ شكيب محمد عبده موجهاً فكرياً. وأظهرت قدرته على إنشاء علاقة وثيقة مع أحد المصريين الذين تخرجوا في الجامع الأزهر، كما أظهرت خبراته وتجاربه التعليمية والثقافية جميعها الانفتاح الخاص الذي تتحلى به أسرة أرسـلان الدرزية. وجاء فيما قاله شكيب:

"وتعارف المرحوم والدنا مع الأستاذ المشـــار إليه وانعقدت بينهما مودة أكيدة، وصرنا نتردد إلى منزله فضلاً عن سماع دروسه، وكان هو يزورنا في بيتنا في الشويفات[18]".

وبالنســبة لأرســلان، فقد أدى محمد عبده وظيفتين مهمتين في آن معاً، حيث كان مرشـــداً فكرياً وسع دائرة إدراكه للقوة السياســية الدافعة للإسلام إذا ما أصلح حاله، كما كان راعياً اجتماعياً عرفه إلى ذوي الشـــأن خارج نطاق جبل لبنان. وعلى الرغم من أنه قـــد يكون صور محمد عبده على نحو يظهره أعظم مما هـــو عليه في واقع الحال، فإن تأثير حضوره النهضوي في بيروت لا ســبيل إلى إنكاره. يقول أرسلان عن محمد عبده: "رأينا فيه عالمـــاً لا كالعلماء الذين نعهدهم، بل عالماً جمع بين العلوم العقلية والنقلية إلى الأمد الأقصى، ونظر إلى جميع الأشــياء نظر الفيلســـوف الذي نظره يعلو على الأنظار المعتادة... وبالاختصار، رأينا في ذلـــك الرجل لا عالماً فقط، بل عالماً لم نعهد رؤية مثله من قبل[19]". وأرســـلان الذي كان متأثراً تأثراً عميقـــاً بتواصله مع محمد عبده، كرس باكورة نتاجه الشـــعري، الباكـــورة، لمحمد عبده "العالم العامل، الفيلســـوف الكامل، واسطة عقد الحكماء، ودرة تاج البلغاء[20]".

وفي عام (1888م)، ســـمح لمحمد عبده بالعودة إلى مصر وطلب من أرســـلان أن يضطلع بالدور المتوقع منه بوصفه ابن أسرة أميرية. مات أبوه في عام (1887م). وعلى الرغم من أن شـــكيباً كان له من العمر آنذاك ثمانية عشر عامـــاً فقط، فقد عين من قبل المتصرفية ليشـــغل منصب مدير ناحية الشويفات وهو المنصب الذي شغر بوفاة والده. شغل هذا المنصب زمناً يزيد عن الســـنتين قليلاً ثم استقال. وهنالك انطباع يتولد عند قارئ مذكراته يفيد بأنه لم يكن مستعداً للمكوث طويلاً في أداء الدور المتوخى منه وهو أن يتبوأ مقام أمير الدروز، وبأنه شعر بأنه مقيد في الشويفات. ويقول عن ذلك: "كنت طامحاً إلى ما هو أعلى وأوســـع[21]". وعلى مدى الأشهر الثلاثين اللاحقة من أوائل عام (1890م) وحتى عام (1892م) أرضى هذه التطلعات عبر قيامه بسلسلة من الرحلات وسعت آفاق رؤيته للعالم، وعرفته إلى مجتمع القاهرة ومجتمع اسطنبول، وأقنعته بأن دور أرسلان التقليدي في منطقة الشويفات يتنافى والآفاق التي فتحت له.

وبدأ رحلته إلى القاهرة، واستقبل بحفاوة وتكريم يليقان بضيف محمد عبده واستمر ذلك على مدى شهرين. وتعرف إلى الحلقة المحيطة بمحمد عبده حيث لاقى قبولاً وترحاباً واضحاً في أوساطها. كان الانخراط في وسط نخبة مصر المثقفة تجربة مهمة بالنسبة لأرسلان. وكان مدركاً لأهمية الفرصة التي أتاحها له محمد عبده وأفاد منها أيما فائدة. وعندما غادر القاهرة أواخر عام (1890م) كان قد قابل سعد زغلول في مناسبات عديدة، وكون صداقة مع أحمد زكي، ووافق على تكليفه بالكتابة في صحيفتي الأهرام والمؤيد. وبالإضافة إلى كل ذلك، قابل الخديوي توفيق حيث ألقى بين يديه قصيدة أطراه فيها[22](*). وأطلق هذا النشاط العنان لنمط ميز سلوك أرسلان على مدى حياته كلها. وإن أردنا تقويمه من خلال زيارته الأولى هذه إلى مصر، في وسعنا القول إنه أمير مثقف يتوفر على مقومات تخوله لأن يكون بحق رجلاً ذا قوة ونفوذ. اعتاد أرسلان في القاهرة على حضور الاحتفالات التي تقام على شرفه احتفاءً به وتكريماً له، وعلى طلب لقاء الملوك والرؤساء، ولم يصدر عنه ما يشي بأنه يمكن أن يتوقع من أصحاب الشأن والنفوذ مطلقاً ما هو أقل من حسن استقباله والترحيب به.

وأتبع نجاحاته التي حققها في القاهرة بإقامة دامت زهاء السنتين في اسطنبول، حيث سعى جاهداً لتأكيد بقاء علاقة أسرته بالسلطات العثمانية علاقة ودية، وللنجاح في تحقيق طموحه الشخصي المتمثل في رغبته في أن يكافأ. وتفيد المعلومات القليلة المتاحة عن إقامته في اسطنبول أنه كانت لديه المقدرة على التحرك بيسر وسهولة بين الساسة المرموقين وبين المثقفين[23]. وسعى، على وجه الخصوص، إلى عقد صداقة مع حسن فهمي، وزير المالية، ومع منيف باشا (1828- 1910م)، الرجل الذي كان متقدماً في السن آنذاك لكن كان ذا موقع مؤثر حيث كان يشغل منصب وزير التربية والتعليم،

(*) من هذه الأبيات:

وأذكر علياه وذكر محمد	ألذ كلام قيل بعد التشهد
عزيز حمدت الدهر عند لقائه	ومن لقي التوفيق للسير يحمد
ولا غرو أن حنت لتقبيل كفه	على البعد نفس تلمس النجم باليد
وشاقت له رب الرقائق طلعة	لعمرك تذكي الشوق في قلب جلمد

وكان هو الراعي البارز للثقافة والتعليم العثمانيين طوال زمن حياته المهنية المديدة. وقد تكون هاتان الســنتان قد أتاحتا الفرصة أيضاً لأرســلان لعقد لقاء مع الســلطان عبد الحميد مرة واحدة على الأقل.

وفي عام (1892م)، غادر أرســلان العاصمة العثمانية متوجهاً إلى أوروبا، في رحلة باتت إلزامية تقريباً بالنســبة للشــباب المثقفين الذين كانوا يتطلعون إلى قيادة المجتمع العــربي العثماني. لم يكن مفتوناً بالغرب كما لم تكن تتملكــه الرهبة منه. إذ كان قد تربى على عدم الثقة بالغرب. ولم يثر حديثــه عن مراكز الثقافة الغربية - باريس ولندن كانتا وجهتيه الرئيســتين - أي تعليقات عن النظم السياسية الأوروبية، ولم يحتوِ على وصف للمدن أو لهندستها المعمارية، كما لم يتضمن نقاشاً مقارناً للأخلاق أو السلوك أو العادات والأعراف. وبالنســبة لأرســلان كانت أوروبا تمثل تهديداً إمبريالياً، لا ثقافة تدعو إلى الإعجاب. وظل متشبثاً برأيه هذا على مدى السنوات الخمسين اللاحقة.

والملاحظات القليلة التي أبداها حيال هذه الرحلة كانت تتعلق بلقائه بالشاعر المصري أحمد شــوقي، الذي عقد معه إحدى أعمق الصداقات في أوســاط النخبة الثقافية[24]. أعجب أرســلان بنتاج أحمد شوقي من الشــعر، وسُرَّ سروراً عظيماً لأنه التقى بالشاعر في فنــدق باريسي. وافتتن كل منهما بصاحبه، وأصبحا - والتعبير لأرســلان - "كأنهما شــقيقان". وفي كنف موهبتيهما الواعدتين اليافعتين في مطلع حياتهما العملية والمهنية، عقدا وفقاً لما كتبه شــوقي: "وانعقدت بيننا الألفة بلا كلفــة[25]" وتعهدها بالرعاية. وكانت تلك العلاقة إحدى العلاقات النادرة التي أمكنت اســتدامتها عبر المراسلات، والتي تعمقــت على الرغم من ندرة اللقاءات التي جمعت بــين الرجلين. وتميزت هذه الصداقة وبرزت بين صداقات أرسلان الكثيرة بوصفها صداقة شخصية جداً ونابضة بالحياة.

تزامنت عودة أرســلان من أوروبا إلى اسطنبول في عام (1892م) مع وصول جمال الدين الأفغاني إلى العاصمة العثمانية. وكان قد دعي من قبل السلطان عبد الحميد الذي

كان معجباً بتعاليم الأفغاني الإســلامية الشاملة، وراغباً في الإفادة منها في تعزيز ما كان يــراه حقاً متمثلاً بادعاء الخلافة والمطالبة بها. وكانت ســمعة الأفغاني محرضاً يشــكل خطورة ذائعة الصيت أيضاً. إلا أن عبد الحميد شعر أن شبكته الأمنية العريضة المتمثلة بســلك الشرطة قادرة على تحييد هذا الجانب غير المرغوب فيه من الرجل الشهير. وعلى الرغم من أن العلاقة بينهما سرعان ما توترت، بخاصة بعد ادعاء الأفغاني بوجود تواطؤ في اغتيال الحاكم الفارسي نصر الدين شــاه في عام (1896م)، فإن الأشهر الأولى التي قضاها في اسطنبول كانت أشهراً مستحسنة[26].

في هذه الحقبة تحديداً نجح أرسلان في مقابلة هذا الزائر المتميز رفيع المقام. وحسب رواية أرســلان لما جرى في هذا اللقاء، طلب منه الأفغــاني أن يصف ما رآه في أوروبا، فسرد له أرســلان حديثاً عن التجارب التي عاشــها في أوروبــا سرداً ببلاغة جعلت الأفغاني يتأثر إلى حد جعله يكور قبضة يده ويرفع صوته قائلاً: "أنا أهنئ أرض الإسلام التي أنبتتك[27]". ولم يدع أرســلان النسيان يلف ذاك اللقاء قط، وبذل قصارى جهده لضمان بقائــه مكوناً من مكونات صورته العامة. كانت ميولــه الفطرية للترويج لذاته قوية، وحقق على هذا الصعيد القدر الذي كان يصبو إليه تقريباً من مجالسة الأفغاني التي لم تــدم إلا أمداً قصيراً، كذلك أفاد من تبني الرجــل، طوال حياته، للمثل العليا. وتأثر تأثراً صادقاً عميقاً باستحسان الأفغاني له، وأضحى لافتاً للنظر كيف أن حياته اللاحقة ضارعت حياة الرجل الذي دعاه: "الموقظ الأعظم للشرق[28]".

كان للتجارب التي مر بها أرسلان والشخصيات التي التقى بها تأثير كبير عليه. وقد عدها كاتبا ســيرته العربيان حاســمة. وعلى الرغم من أن بياناتهما تميل إلى الإشارة على نحو مكثف جداً إلى أحداث لاحقة أَطَّرَتْ نظرة الشــاب إلى العالم في عقد التسعينيات من القرن التاســع عشر، فمن المعقول القول إن أسفار أرسلان أقنعته بالعمل من أجل إصلاح الإسلام والمحافظة على الإمبراطورية العثمانية. ويمكن أن تكون تلك الأسفار قد بينت له أيضاً أنه ينتمي إلى مجتمعي القاهرة واسطنبول، وجعلته يصمم على ألا يدع عودتــه إلى المتصرفية تخفض مســتوى الدور الذي يمكن أن يؤديــه بحيث يغدو مجرد

سياسي إقطاعي معزول. لقد أوتي قضية وأسلوب بيان بارعاً في اللغة العربية جعل من عرض قضيته أمراً ماتعاً، واهتدى إلى أسلوب مكنه من المزج بين الأمرين، ومن جعل اسمه مطروقاً بين الجماهير عبر الصحافة السياسية. ووفقاً لإحدى الروايات التي تسرد سيرته، كان الذي أقنع أرسلان في أن يصبح صحفياً هو محمد عبده الذي رسخ في ذهنه أنه، عبر كتابته نثراً، يمكن أن يكون أقوى تأثيراً منه شاعراً[29]. وأياً كان مورد إلهامه فمما لا شك فيه أن المقالات التي كتبها أرسلان والتي تشي بتمكنه من فن الجدل وصلت إلى جمهور أوسع من الجمهور الذي استقطبه شعره. ولا ريب أيضاً في أنه منذ عقد التسعينيات من القرن التاسع عشر حتى أوائل عقد الأربعينيات من القرن العشرين كان واحداً من أغزر الصحفيين إنتاجاً في العالم العربي وأوفرهم إثماراً.

وعندما التحق أرسلان بركب الصحافة كانت مهنة جديدة نسبياً في العالم العربي العثماني. وكانت، إلى ذلك، تعاني أحوالاً من التقلب المستمر والتغير المتواصل؛ وذلك بسبب الرقابة التي فرضها السلطان عبد الحميد على المطبوعات، والتي كان من شأنها أن دفعت كثيراً من الصحفيين العرب الأوائل إلى مغادرة المقاطعات العثمانية والتوجه إلى مصر، حيث كانت تنتشر بسرعة الصحف اليومية والدوريات في أجواء صحفية متساهلة نسبياً أرسى قواعدها اللورد كرومر. وكانت الصحافة المصرية في سنواتها الأولى مؤسسة مسيحية سورية إلى حد كبير. فمن بين الصحف المصرية اليومية الثلاث التي كانت تصدر باللغة العربية في الحقبة التي سبقت الحرب العالمية الأولى، كانت صحيفتان هما **المقطم** (أسست أواخر عقد الثمانينيات من القرن التاسع عشر) و**الأهرام** (أسست في عام 1876م) تحرران من قبل صحفيين سوريين مسيحيين، واستخدمتا بوصفهما لسان حال المصالح الفرنسية والبريطانية في مصر. وأما الصحيفة الثالثة واسمها **المؤيد** (أسست عام 1889م) فقد كانت تدار من قبل الشيخ علي يوسف، وهو مواطن مصري تخرج في الجامع الأزهر، وكان صاحب مواقف قومية وإسلامية قوية، وكان ذلك واضحاً من خلال منشوراته[30]. وعلى الرغم من أن أرسلان كان ينشر مقالاته في صحيفة **الأهرام** وغيرها من المجلات التي كان يشرف على تحريرها

مسـيحيون، فقد كان معجباً بآراء علي يوسف، وبنى سـمعته الأدبية الخاصة بصورة رئيسة من خلال صفحات جريدة **المؤيد**.

ولم يكن نتاج أرسـلان الأدبي مقتصراً على الصحافة السياسـية، ففي الوقت الذي كان مشـاركاً فيه فكرياً مشـاركة احترافية في أحداث عصره، واظب على نشر الشـعر وعلى الانخراط في أنشطة مرتبطة بأرسـتقراطي مثقف يشتغل في شؤون ثقافية ومساع علمية هو خليق بها على سـبيل الهواية[31]. فكان يسعى سـعياً حثيثاً ويبذل جهداً كبيراً في تحقيق مخطوطات قديمة، حيث حقـق مخطوطين اثنين ونشرهما وهو في العشرين من عمره وهما: **الدرة اليتيمة** لابن المقفع، و**المختار من رسائل الصابي**[32]. وكذا أولى اهتماماً لشـاتوبريان وترجم روايته **مغامرات آخر أبناء بنـي سراج**[33]. وحتى في المحاولات غير الاحترافية هذه، يظهر إحسـاس أرسـلان بالهدف جلياً – كانت قصة شاتوبريان مهمة بسبب تصويرها للحضور الإسـلامي في الأندلس. والمخطوطان بلغتهما العربية والفصحى الرائعة أيدا رأي أرسـلان القائل: "يجب أن يلتمس في كتب السلف، وينشد في منشـئات الأولين من أهل هذا اللسان السابقين في حلبة البيان، بالاستكثار من حفظ تراكيبهم وتحدي أساليبهم، ومحاكاة نغمتهم، والاحتذاء على أمثلتهم[34]". لقد عكست صحافة أرسـلان اهتمامات مماثلة. وبناء على ذلك، على الرغـم من أنه لم يكن يتوجس من الإسهام في مجلة **المقتطف** التي كان محرورها علمانيين مسيحيين، فإن مقالاته الخاصة عالجت مواضيع إسلامية أكثر تقليدية[35].

ومن خلال منشـوراته المختلفة، كوّن أرسلان لنفسه شهرة أدبية قوية منذ السنوات الأولى للقرن العشرين. فإن كان أقل شهرةً من أحمد شوقي أو إبراهيم أو خليل مطران، فإنه يُعَدُّ مع ذلك كاتباً رئيساً. فقد أعرب خليل مطران نفسه عن إعجابه بباكورة إنتاج أرسـلان الشعري، ولقبه بسيد اللغة العربية[36]. وجاء فيما كتبه ناقد وأديب لبناني آخر ذائـع الصيت، وهو مارون عبود، أنه كان يشـعر حين كان طالباً في المدرسـة في مطلع القرن العشرين أن أرسـلان متفوق على أحمد شـوقي في مضمار كتابة الشـعر. وكان واثقاً ثقةً أكيدة بأنه لو لم يحول أرسـلان طاقاته نحو المعترك السـياسي، لكان هو – لا

أحمد شـوقي – من حظي بشرف اكتساب لقب "أمير الشعراء" [37] في العالم العربي. ولقب أمير البيان الذي أُسْبِغَ على أرسلان يعكس التزامه الدقيق بقواعد اللغة العربية الفصيحة وفقاً للمعايير الأسلوبية التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر. وكان هذا جزءاً لا يتجزأ من الحال التي كان عليها أرسلان قبل الحرب. في عصر النهضة، كانت الموهبة الأدبية وحدها كفيلة بمد يد العون لتأمين الشهرة والتقدير. وأرسلان صاحب المكانة المرموقة اجتماعياً وسياسياً منذ ولادته بحكم الانتماء عزز سمعته ومكانته كثيراً عبر إنجازاته الأدبية.

لقد صنفه أسلوبه وآراؤه تقليدياً أكثر منه إبداعياً. ووفقاً لما كانت عليه الحال في السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الأولى، كان يتأرجح بين القديم والجديد تأرجحاً يفتقر إلى الاستقرار، ويرتدي ملابس أوروبية فاخرة لا تشوبها شائبة، وينشر مقالاته في مجلات علمية جديدة، وبهذه وتلك كان يبدو مثقفاً غربي السمة والثقافة. لكنه لم يكن علمانياً ولا متغرباً (لم يتفرنج)، بل كان زعيماً درزياً شب ونضج في زمن شهد حراكاً استثنائياً في متصرفية جبل لبنان. ومُنِحَ فرصةً خاصةً للقاء بعض الشخصيات الفكرية الرائدة في عصره، كما أتيحت له فرص السفر والترحال على نطاق واسع. وخلص إلى استنتاج مؤداه أنه لا يوجد انحراف في هذا العالم إذا ما ترك يمضي وفقاً للنظام الموضوع له. ولا شك في أنه أقر بوجود حاجة لتحقيق إصلاحات شريطة أن تؤدي إلى تعزيز المجتمع القائم. وتبنى مفاهيم الأفغاني الإسلامية الشاملة والالتزام الإصلاحي الذي استقاه من تعاليم محمد عبده. كانت هذه التعاليم وتلك المفاهيم راسخة في وجدانه وعمل على تحقيقها بشجاعة. وكان مدركاً في الوقت ذاته لمكانته بوصفه أميراً وللوجاهة التي تمنحه إياها هذه المكانة. وكان أكثر من مجرد زعيم إقطاعي للدروز، بيد أنه كان ذاك الزعيم كذلك.

وخلال السنوات الخمس والعشرين التي اتخذ أرسلان أثناءها من لبنان مقراً رئيساً لإقامته بعد عام (1892م)، عزز روابط العلاقات الإقطاعية القديمة التي كانت موئلاً لسلطته ونفوذه. وينبغي أن يؤخذ في الحسبان دوره بوصفه زعيماً للدروز من أجل

فهم سلوكه السياسي ومواقفه الاجتماعية. ولم يكن أرسلان يفتقر إلى الطموح المحلي. وبرهن على أنه بارع في التعايش مع الصراع الداخلي الذي كان يميز الحياة السياسية في المتصرفية. وعلى الرغم من أنه لم يشغل أي مناصب رسمية على مدى العقد الذي أعقب عام (1892م)، فثمة إشارات مرجعية عابرة في مذكراته تشير إلى أنه كان يجمع ما بين أنشطته الكتابية وما بين صالح أسرته السياسي. فعندما تسبب مظفر باشا متصرف جبل لبنان (1902- 1907م) إبان فترة حكمه بحدوث أزمة صغيرة لعشيرة أرسلان، لم ينطوِ أرسلان – على نفسه متذرعاً بانشغاله بشؤون الدنيا، بل كان الصراع صراعه وشارك فيه بكل ما في الكلمة من معنى.

وكان سبب الأزمة عودة التنافس قديم العهد بين آل أرسلان وأسرة جنبلاط للهيمنة على منطقة الشوف. محترساً من نفوذ الأمير مصطفى ومكائده، عين المتصرف الجديد أحد أبناء أسرة جنبلاط "قائمّقام" لمنطقة الشوف. وفي إجراء مقتضب يوحي بالهيمنة، خلف شكيب عمه بوصفه قائمّقام واستمر ذلك بضعة أشهر من عام (1902م). لكن لم يحل هذا دون تحقيق المتصرف هدفه المتمثل بالإطاحة بأسرة مصطفى وبتجريدها من سلطتها، فأرغم شكيب على الاستقالة. وعندما تولت مجموعة جنبلاط زمام السلطة، شعر الأرسلانيون بأن وجودهم السياسي تعرض للتهديد، فكرسوا طاقاتهم لاسترداد مركزهم المتمثل بالهيمنة على القائمّقامية. وسنحت لهم الفرصة لتحقيق ذلك في ظل الظروف التي أوجدتها ثورة "تركيا الفتاة". ففي خريف عام (1908م)، كان الرجل الذي أوكلت إليه مهام القائمّقام في رمزية توحي بهيمنة آل أرسلان على منطقة الشوف هو شكيب نفسه. والحدث الذي كان سبباً في إكسابه هذا التعيين موضح أدناه. إثارته لذلك الحدث أظهرت أنه جدير بمشاركة عمه مصطفى بمزايا. وهو (شكيب) الأمير ذاته الذي غدا بعد سنوات متحرراً من النعرات المحلية، وبعيداً كل البعد عن معترك صراعات النفوذ الإقطاعية، علماً بأن آراءه في السياسة تشكلت في بيئة المتصرفية. واصطحب شكيب معه إلى معترك المواجهات المستقبلية التي خاض غمارها لاحقاً خصيصتين متمايزتين – الاحتكاك والاختلاف (مع الخصوم) والقدرة على البقاء

والاستمرار - وهما السمتان اللتان يمكن أن يكون قد اكتسبهما من المعارك السياسية في منطقة الشوف.



شاعر وصحفي وزعيم الدروز: أرسلان في عمر الخامسة والعشرين

وفي الوقت الذي كان يعد فيه الخطط مع أقربائه في جبل لبنان، كان اهتمامه منصباً أيضاً على العالم الأوسع المتمثل بالشؤون العثمانية، وهيأ الأرضية التي كانت كفيلة بتمهيد السبيل أمامه للوصول إلى مركز السلطة الإمبراطورية.

وعندما دعا السلطان عبد الحميد جمال الدين الأفغاني إلى الإقامة في اسطنبول في عام (1892م)، كانت بادرته تلك أكثر من مجرد دعوة سلطانية لاستضافة رجل موقر كرس نفسه لخدمة الإسلام. فتقدير السلطان عبد الحميد الشديد لوضعه الدولي الذي

كان آخذاً بالضعف أكثر فأكثر، أدى به إلى تبني سياســة "الجامعة الإســلامية". وكان أحد العناصر الرئيســة في اســتراتيجيته يرمي إلى ربط مكتب السلطنة بالخلافة، وذلك لتعزيز الإمبراطورية العثمانية من الداخل عبر توحيد شــعوبها الإســلامية المختلفة، لا سيما العرب والأتراك، وجعلها كتلة إســلامية صلبة[38]. وأمل عبد الحميد من اتخاذه وضع خليفة المســلمين في أن يحظى بســلطة أخلاقية عند مسلمي الهند وشمال أفريقيا. وعبر لعبه على وتر المخاوف الفرنســية والإنجليزية من قدرته على الإفادة من ســلطته الإسلامية، واســتغلالها في إثارة المسلمين في البلاد الخاضعة لهيمنتها الإمبريالية، تعمد إقحام "العمل الإســلامي الشــامل" في الديبلوماســية الدوليــة. وإن كانت الوحدة الإســلامية الشــاملة ضرباً من الخيال، إلا أنها تجدي فكرتها نفعاً في استقطاب الدعم من دائرة واسعة من المســلمين من داخل المقاطعات السياسية الخاضعة للسلطان ومن خارجها على حد سواء.

في مصر، تضافر الشعور الوطني مع النزعة الإصلاحية في النظر إلى الخلافة العثمانية بوصفهــا حليفاً لا يمكن الاســتغناء عنــه، ويمكن من خلاله وضــع حد للاحتلال البريطاني. وانضم رجال مثل مصطفى كامل رئيس تحرير جديدة **المؤيد** وعلي يوســف صاحبها إلى المطالبين بالاستقلال المصري، ولكن كانوا ينظرون إلى المجتمع من منطلق إســلامي، وكانا يدعمان، في العلن، روابط مصر مع الخلافة الإسلامية العثمانية. وعبر أحمد شــوقي، صديق أرســلان، عن تطلعات شريحة واســعة وكبيرة من أبناء الشعب المصري عندمــا خاطب الخليفة العثماني قائلاً له: "ومصر بحاجــة إليك[39]". وفَضَّلَ مفكرون مثقفون وساسة سوريون، سواء أكان ذلك انطلاقاً من مخاوف عَقَدِيَّةٍ مذهبيةٍ بالنســبة للإصلاح الإســلامي أو انطلاقاً من اعتبارات ملموسة أكثر تتعلق بالتضامن السياسي، تعزيز أواصر الروابط الإســلامية التي تتمثل في إحياء الخلافة. ويعد رجال مثل محمد كرد علي وعبد القادر المغربي ومرشــدهما الروحي طاهر الجزائري نماذج من هذا القبيل[40]. ولكن حتى بين غلاة دعاة دولة الخلافة الإســلامية العثمانية الشاملة، كان عدد قليل من الشخصيات العامة المعروفة بينهم في المقاطعات الغربية يرغبون، مع

بداية القرن العشرين، في أن يُعرفوا بوصفهم أصدقاء للأتراك. وكان شكيب أرسلان هو الاستثناء.

تبلورت آراء أرسلان السياسية والاجتماعية في الشطر الثاني من عهد حكم السلطان عبد الحميد. فقد عدل أرسلان آراءه لكنه لم يبدلها عبر زمن اشتغاله بالشأن العام الذي استمر زهاء خمسين عاماً، وكان متوافقاً توافقاً مثالياً مع السلطان الخليفة، وغدا آسفاً أشد الأسف وإلى الأبد بسبب زوال حكمه وتفكيك إمبراطوريته. وحاله حال السلطان عبد الحميد، كان أرسلان يرى أن المقاطعات الإسلامية التي مارست عليها الإمبراطورية العثمانية سلطة سياسية كانت تعاني خطر العزلة والاحتلال من قبل القوى الإمبريالية الغربية، كما هي الحال في الجزائر وتونس ومصر. وللحيلولة دون حدوث ذلك، كان لزاماً على الدولة العثمانية أن تعزز كيانها. ولم يكن هذا يعني تبني المفاهيم الأوروبية للدولة والمجتمع كلياً. بل على العكس، إنه يعني بعث الإسلام من جديد وتجديد التأكيد على ضرورة الجامعة الإسلامية، وتعزيز حكم الخليفة. وضم أرسلان صوته الشعري إلى صوت أحمد شوقي وأكد أن "الثناء المعبر عن الشكر والعرفان هو حق للخليفة فهو زينة الدين والدنيا"[41](*). لقد تلقى أرسلان تعليمه إبان عصر النهضة، لكنه ظل في منأى عن تأثير المشاعر الانفصالية العربية التي جاشت لدى آخرين، وزار باريس الجمهورية الثالثة ولندن غلادستون، لكنه لم يعثر على ما يشده إلى مبادئ الليبرالية الأوروبية. لقد عرف أرسلان الوجاهة بوصفه درزياً، لكنه أحال مستقبله السياسي إلى مسألة إحياء الخلافة العثمانية. وفي خضم العملية المعقدة التي يكتسب من خلالها المرء معتقداته وحافز التعبير عنها، تجاهل أرسلان كل شيء لا يمكن أن يُعَدَّ جزءاً من تراثه الحضاري الإسلامي. وجمع بين التزامه الصلب بهذا التراث وبين طموح عنيد للعب دور سياسي يرمي إلى صون هذا التراث والحفاظ عليه. وخلال العقد الأخير الصاخب من عمر الإمبراطورية العثمانية، منذ عام (1908م)

(*) البيت المقصود:

إيتاء حق الشكر حق خليفة تزين الدنيا به والدين

الذي شـــهد قيام ثورة تركيا الفتاة حتى هدنة مـــودروس التي أبرمت عام (1918م)، سنحت الفرصة لأرســـلان ليخدم قضيته. وكان ضباط الجيش الذين قادوا الثورة قد أملوا على الســـلطان مطالب متواضعة في عـــام (1908م)، إلا أنها تمخضت عن إثارة سلســـلة من الأحداث أدت إلى الإطاحة بالسلطان عبد الحميد في عام (1909م)، وإلى توطيد أركان الســـلطة السياسية حول الثلاثي جمال وطلعت وأنور في عام (1913م)، وإلى التحالف المدمر مع ألمانيا في عام (1914م). وبعد استقبال حماسي، لم تتمكن عملية استعادة دســـتور عام (1876م) في عام (1908م) من إصلاح ذات البين بين شعوب الإمبراطورية وهيئة الحكم في اسطنبول، مركز الإمبراطورية، وباتت الضرورة تحتم على الحكومة طرح خيـــارات تتعلق بطبيعة الدولة العثمانية، والرموز التي يتعين على الدولة أن تســـعى من خلالها إلى تعزيز ولاء رعاياها. وفي الوقت نفسه سعت الدول الطامحة، من خارج الإمبراطورية، كبيرهـــا وصغيرها إلى الحصول على البلاد ومقاطعات وهيبة ومقام رفيع على حســـاب الباب العالي العثماني الذي كان آخذاً في الضعف. وبالنســـبة للذين يشـــعرون بانتماء المواطنة إلى الدولة العثمانية مثل أرسلان، اقتضت هذه الظروف مجابهة سلســـلة متواصلة من الأزمات. لقد نجح وسطع نجمه في خضم التحدي وبرز إبان زمن التداعي الأخير لأركان الإمبراطورية بوصفه رجلاً مفعماً بالحيوية، وشـــديد الولاء العاطفي للإمبراطورية العثمانية. وشـــارك في كل المواجهات تقريباً - العسكرية والأيديولوجية والسياســـية - التـــي واجهتها الإمبراطورية العثمانية في آخر ســـنوات عمرها. ولدى اقتفاء أثر أنشـــطته في هذه الحقبة، يمكن الحصول على تقدير أكثر اكتمالاً لولاءاته العثمانية وميوله السياسية الإسلامية.

وكان تدخله العام الأول في أعقاب ثورة "تركيا الفتاة" مباشرة يتعلق بحالة استعادة الدستور في جبل لبنان، والقضية التي تترتب على ذلك والمتعلقة بمكانة أسرته في منطقة الشـــوف. وعلى الرغم من أنه كان ملتزماً بالولاء للســـلطنة، فقد بارك أرسلان نجاح جمعية تركيا الفتاة في إرغام السلطان عبد الحميد على استعادة الدستور. وكان أكثر شيء نال استحســـانه في هذا التدبير الدعم الذي منحه لاعتقاده بأن الإصلاح ممكن في إطار

النظام التقليدي. وأمل أرســلان أيضاً أن يغدو نائباً في البرلمــان المزمع التئام عقده في اسطنبول. ولكن لم يلقَ طموح أرسلان ولا رؤيته للإصلاح تشجيعاً من متصرف جبل لبنان الجديد، يوســف فرانكو باشــا (1907 - 1912م) الذي كانت أساليبه الإدارية ورؤيته السياسية متحفظة واستبدادية[42]. وعلى الرغم من أن أسرة أرسلان استفادت فعلياً من تعيين فرانكو باشا، فقد انضم أبناؤها إلى قادة آخرين في المتصرفية للتعبير عن استيائهم من أسلوبه في الحكم. وكانت وسيلتهم التي توسلوها في احتجاجهم الدستور المســتعاد. وفي شــهر ســبتمبر/ أيلول من عام (1908م)، اجتمع وفــد من الوجهاء اللبنانيين في بيت الدين ومارســوا ضغطاً على يوسف، وطالبوه بإعلان تطبيق الدستور في المتصرفة وبإقالة الموظفين المعينين من قبله ممن لا شــعبية لهم، ووفقاً لرواية أرسلان لحيثيات تلك الحادثة: عندما ظهر يوسف باشــا الذي كانت ترتعد فرائصه خوفاً أمام الوفد ليقســم على الولاء للدستور، كان شكيب أرسلان هو الرجل الواقف أمامه ممثلاً للمتصرفية وصافح يده المرتجفة[43].

وفي أعقاب التدبير الحاسم الذي اتخذه شكيب في هذه الحادثة، عُيِّنَ من فوره قائمّقام لمنطقة الشوف. ويذكر في مذكراته، وهو على الأرجح صادق فيما ذهب إليه، أنه لم يكن يريد حقاً المنصب، بل كان هدفه الحقيقي تمثيل جبل لبنان في اســطنبول[44]. ولكن ألح عمه عليه من أجل قبول المنصب، فوافق نزولاً عند رغبة عميد الأسرة. وشغل منصب قائمّقام منطقة الشوف زمناً يزيد على السنتين قليلاً، ثم استقال من منصبه بسبب خلاف نشــب بينه وبين المتصرف الذي لم يجد أن أرسلان، لأسباب يمكن تفهمها، كان مقبولاً على الإطلاق. ولم يُعَقِّبْ أرسلان في مذكراته على موضوع أدائه مهامه الرسمية، ولكن يتولد لدى المطلع على ســيرته انطباع يوحي بأنه لم يكن مهتماً بصورة خاصة بالواجبات الإدارية اليومية، وعلاوة على ذلك كان مواظبــاً على البحث عن معترك أرحب فضاء من ذاك الذي أتاحه له دور أرسلان التقليدي في منطقة الشوف. وأوجدت ثورة جمعية تركيا الفتاة ظروفاً منحته ذاك الفضــاء، ودفعت به من حيث كان زعيماً محلياً إلى حيث صار سياسياً إمبراطورياً وشخصية عامة.

وعندما أُطِيْحَ أخيراً بالسلطان عبد الحميد في شهر أبريل/ نيسان من عام (1909م)، دعم أرسلان نظام الحكم الجديد وساند جهوده الرامية إلى صد الغزو الأجنبي. ويحتمل أن يكون قد تملكه الأسف لرحيل عامل قوي، لكنه كان نافذ البصيرة بما يكفي ليرى أن السلطة على وشك أن تؤول إلى المؤسسة العسكرية، كما كان يمتلك من الشعور الوطني ما يكفي لجعله يدرك أن بقاء الدولة العثمانية في قيد الحياة يعتمد على نجاح الأداء العسكري. فإن كان أبدى بعض المجاملات السياسية، فقد أعرب أيضاً عن التزام شخصي مكثف بالقضية العثمانية وفقاً لنهج نظام حكم جمعية تركيا الفتاة في الدفاع عنها. وتجلى التزامه وبدا أكثر وضوحاً في معرض رد فعله على الغزو الإيطالي لليبيا في شهر أكتوبر/ تشرين الأول من عام (1911م) عندما توجه هو نفسه إلى ساحة المعركة. وعلى الرغم من أن استجابته هذه كانت مباشرة أكثر من معظم ردود الأفعال، فإنها لم تكن بمنأى عن تمثيل الأصداء التي خلفها الغزو الإيطالي في الأصقاع العربية الإسلامية جميعها. فقد شهدت تونس اضطرابات وأعمال شغب مفتوحة مناهضة للغزو الإيطالي. كما اجتاحت المجتمع في مصر، على الصُّعُدِ كافّةً، موجة عارمة من المشاعر المؤيدة للعثمانيين. واشتدت المخاوف من إطلاق حملة أوروبية ممنهجة مناهضة للإسلام، ونجمت هذه المخاوف عن احتلال القوات الفرنسية فعلياً لمدينة فاس المغربية ربيع عام (1911م)، مكرسة بذلك المراحل النهائية من عملية إضافة المغرب العربي إلى نظام المحميات الدولي.

لقد تصرف أرسلان كما لو أن الغزو الإيطالي كان يستهدفه شخصياً. فاندفع، يتملكه شعور آسر بضرورة التحرك الفوري، من جبل لبنان ليمضي عاماً محموماً بوصفه جندياً، وعامل إغاثة، وناشطاً دعائياً. وفي خطة بعيدة المنال ضعيفة الاحتمال، حالها حال أي تكتيك عسكري يفتقر إلى الخبرة وتعوزه البراعة، أقنع أرسلان القائد العثماني في دمشق بإرسال عدد من الضباط والجنود للخدمة في الجبهة الليبية. رافق أرسلان الضباط والجنود في طريقهم إلى ليبيا، وكان عليهم أن يمروا عبر مصر التي كانت تسيطر عليها القوات البريطانية متنكرين بأزياء بدوية. ولم يتمكن منظم هذه الحملة المريب أن

يمضي إلى ما هو أبعد مـن منطقة العريش، حيث اعتقل وأرسـل في نهاية المطاف على متن قارب إلى يافا[45]. وأرسـلان الذي لم يردعه ما حصل له امتطى متن سفينة أخرى متوجهة من يافا إلى الاسـكندرية، ومن ثم إلى القاهرة حيث أمضى فيها الأشهر الأولى من العام (1912م)، عمل أثناءهـا متطوعاً في خدمة جمعية الهلال الأحمر المصرية التي كانت حديثة العهد. وكما كانت الحال معه دومـاً، وجد الوقت اللازم لعقد صداقات قوية سياسية الطابع تعهدها بالرعاية فعمرت طويلاً، وتخلل زمن إقامته في مصر فترات طويلة من العداء الشخصي مع الخديوي عباس حلمي الثاني.

وعندما وصل في نهاية المطاف إلى حيث كانت تعسـكر القوات العثمانية في طرابلس في شهر أبريل/ نيسان من عام (1912م)، كانت الحرب متوقفة تماماً. ومكث في المنطقة أكثر من شـهرين بقليل، وكان من شأن الاتصالات التي أجراها مع الضباط العثمانيين هناك أن أبلت بلاء حسناً وعادت عليه بنفع كبير، حيث تولى الثلاثي المذكور آنفاً زمام السلطة في العام (1913م). وأصبح صديقاً حميماً، لا سيما، لأنور باشا في ذلك الوقت. وعلى الرغم من أن أرسـلان يكبر أنور باشـا بثلاثة عشر عاماً، فقد كان مفتوناً به أيما افتتان، وكان يرى في زعيم جمعية تركيا الفتاة الزئبقي الماكر هذا بطلاً إسلامياً أصيلاً.

لم يسهم أرسلان إسهاماً عسـكرياً في الدفاع عن طرابلس، بيد أن وجوده في جبهة القتال أكسـبه صيتاً طيباً أُضِيْفَ إلى سـمعته الحسنة وشـهرته ومكانته المرموقة، وكذا فعلت مقالاته التي كرسـها للشـأن الليبي ونشرت ووزعت على نطاق واسـع. كتب أرسلان، في الحقبة الواقعة بين شهر نوفمبر/ تشرين الثاني (1911م) ويونيو/ حزيران (1912م)، سلسـلة من المقالات المثيرة نشرها في صحيفة المؤيد. وكشف فيها النقاب عن عمق التزامه بالإمبراطورية العثمانيـة وعن مرارة موقفه من الإمبريالية الأوروبية. ذاع صيت تلك المقالات وساعدت في توسيع قاعدة جمهور أرسلان ومعارفه الشخصية وصولاً إلى شمال أفريقيا. وأمكن ذلك من خلال الجهود التي بذلها رئيس تحرير صحيفة المؤيد، الشـيخ علي يوسـف، الذي كان يتـصرف بوصفه أحد قادة منظمة إسـلامية شـاملة كانت تسمى الاتحاد المغربي. وجند علي يوسف طلاباً شمال أفريقيين في القاهرة

لصالح المنظمة، وعمل في العامين (1911و1912م) على زيادة توزيع الصحيفة في المغرب[46]. وكان أرسلان منخرطاً بالتأكيد في عمل منظمة الاتحاد المغربي، وقد تكون مقالاته التي كانت تنشر في صحيفة **المؤيد** هي التي أرست أسس الروابط الدائمة بينه وبين شمال أفريقيا. وتضمنت تلك المقالات دعوات إلى العمل وإلى الوحدة والمقاومة.

حدد أرسلان عبر تلك الروايات للمرة الأولى رؤيته وتعريفه للشعور الوطني مدعياً أن: "المسلم العثماني، شأنه شأن إخوانه المسيحيين واليهود لا يألو جهداً في الدفاع عن بلاده، وطن الآباء والأجداد...[47]". وكانت طرابلس تمثل بالنسبة إلى الإمبراطورية بأسرها وإلى أرسلان على الصعيد الفردي فرصة لاتخاذ تدابير حاسمة ضد الاعتداءات الأوروبية. ومَثَّل الغزو الإيطالي تحدياً لجوهر النظام الإسلامي العثماني، واقتضى الأمر، وجود رد فعل فاعل "يحفظ علينا هذا النزر الباقي من كرامتنا[48]". ويعني هذا استعداداً لتقديم أكبر التضحيات: "وبدلاً من أن ندافع عن أرواحنا في قضية الشرف، نفضل أن نموت بشرف[49]".

وتجاوزت المشاركة في النضال حدود الحاجة لاتخاذ تدابير من أجل النضال ذاته، حيث بات النضال يمارس باسم الدولة العثمانية ونسيج الإسلام المتماسك المنيع، الذي حكمت باسمه بوصفها السلطة السياسية الإسلامية الوحيدة الباقية على هذا الكوكب. والرموز التي وظفها أرسلان في تعريف هذه القضية كانت جلية واضحة لا لبس فيها: "... أناشدكم الله أيها العثمانيون، يا أبناء السلطنة المصونة ورعاياها، من أجل بقائكم واستمراركم على هذه الأرض ولكي تنزعوا النير من رقابكم... أناشدكم الله، يا أبناء الشرق، لكي تحافظوا على هذه الدولة الواحدة التي ينبغي ألّا تزول... أناشدكم الله أيها المسلمون في مناطق الخلافة كافة أن تحافظوا على شعاع حياة الإسلام متوهجاً. والتضحية هي طريق الخلود[50]". وأعرب أرسلان عن دوره الشخصي بالصراحة والوضوح نفسيهما حين قال: "نحن نحب الإمبراطورية العثمانية، ولسوف نواظب على دعمنا لها بإخلاص ما بقيت السماء والأرض. وسوف ندافع عن وطننا راجين أن تعزز جهودنا ثقة الإسلام بنفسه وأن تستقطب الشهداء لقضيته[51]". وكان الإسلام بالنسبة

إلى أرسلان أساساً ومرتكزاً لتأييد السـلطة السياسية العثمانية: فلا الحكم الرشيد، ولا مبادئ السـلالة الحاكمة - ولا المبادئ الديمقراطية منها بالتأكيد - ولكن الاعتقاد بأنه ينبغي لخليفة الإسلام أن يحظى بالسلطة في المناطق والبلدان التي يعيش فيها المسلمون. وهذا منطلق أرسـلان في هذا الإطار. حاجج أرسـلان أيضاً في أن إخفاق اسـطنبول في الـرد، بكل ما في الإخـلاص من معنى، على الغزو الإيطـالي أضعفَ ولاء الأقاليم الأخرى الخاضعة للسلطة العثمانية، وشجع فعلياً أوروبا المتغطرسة على ارتكاب مزيد من الأعمال العدائية. ومناهضة أرسلان الشرسة للإمبريالية التي أعرب عنها في البداية عـبر مقالات نشرت في صحيفة المؤيد، تردد صداها في كتاباته حتى آخر أيامه. وشـن حملتـه المتواصلة ضد ما عدَّه مؤامـرة أوروبية تمثلت في التغاضي عـن تفكيك الدولة العثمانية تدريجياً، وأسـفرت لاحقاً عن تكوين نظام الانتداب. وانطوت خطاباته على غضب عارم. ولا يقتصر أمر المطلع على خطاباته على استشـعار حماس وطني حقيقي أصيل فيها، بل يشـعر بالإحباط الشخصي الذي يعانيه رجل واثق بمواهبه الشخصية، وتبين له أنه ينعدم احتمال أن يكون جزءاً من سـلطة آخذة في الانحسار وآيلة إلى زوال، وينظر إلى نخبتها الحاكمة من قبل الأوروبيين بوصفها أحطَّ مكانةً وأدنى درجةً. ولكن المرارة التي يشـعر بها كلها من جراء ذلك لا تطغى على المـرارة التي تجرع علقمها من جراء عدم وجود قوات (للسلطنة) في طرابلس.

وأرغمت التهديدات التي تأتت من جبهات أخـرى الحكومة العثمانية على التخلي عن طرابلس وعلى إبرام اتفاق سـلام غير مؤات مع إيطاليا. وعندما سمع أرسلان عن انسحاب محتمل للقوات العثمانية من ليبيا، سـافر إلى اسطنبول ليرى إن كان في وسعه إقناع الحكومة (العثمانية) بمواصلة القتال في شمال أفريقيا. وشارك في النقاشات المعمقة التي انعقدت إبان اندلاع حرب البلقان الأولى في شهر أكتوبر/ تشرين أول (1912م). ومن جديد، انخرط أرسلان في القضية منسقاً هذه المرة أنشطة الجمعيات الخيرية التابعة للهلال الأحمر المصري لمصلحة اللاجئين المسلمين الذين نزحوا من مناطق البلقان.

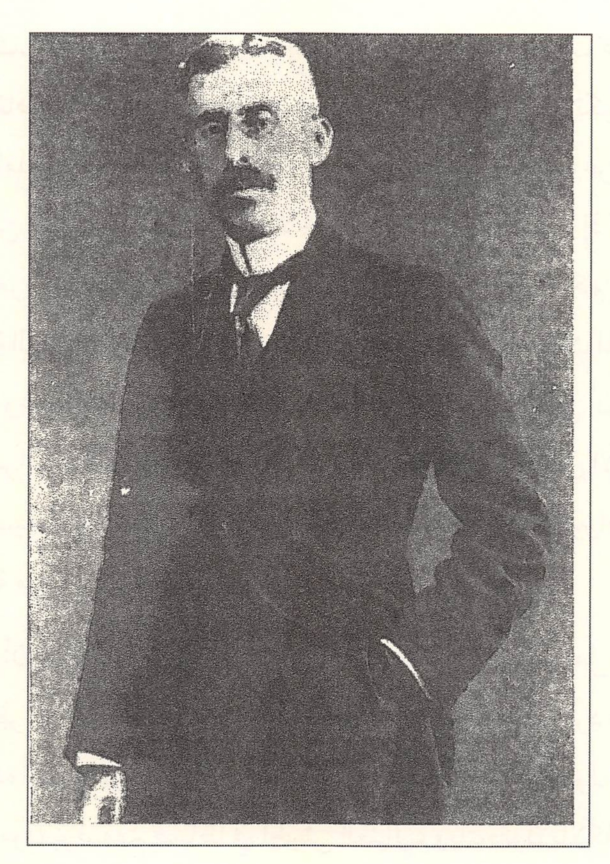
وفي شهر يناير/ كانون الثاني من العام (1913م)، وقع الانقلاب الذي أحكم قبضة أنور والاتحاديين على مقاليد الحكم في اسطنبول. دعم أرسلان هذا النظام دعماً مطلقاً. وارتأى أن الاقتتال السياسي أسهم في خسارة طرابلس، ورحب بوجود حكومة قوية. كما خلص إلى استنتاج يفيد بأنه لكي يبقى الحكم قوياً ينبغي وجود برنامج يستوجب التعاون وتوحيد الجهود. ورأى أن هذه الطريقة كفيلة وحدها بالحفاظ على الإمبراطورية (العثمانية) في مواجهة الاحتلال الأوروبي الذي يسعى إلى تفتيتها. ونتيجة لمواقفه تلك غدا أرسلان المتحدث الفعلي باسم نظام الحكم الجديد. ورأى في قادة جمعية الاتحاد والترقي مجموعة من الأفراد الملتزمين بالبرنامج السياسي الذي لطالما اعتنقه، وكان مستعداً لإعطائه دوراً محورياً على صعيد إقناع الآخرين بنفعه وجدواه. واكتشف قادة الجمعية بدورهم في أرسلان رجلاً عربياً وطنياً بارزاً لا يرقى الشك إلى وطنيته، واستشعروا استعداده لتأييد سياساتهم علناً وبقوة. ورأوا في جعل رجل له مكانة أرسلان حليفاً لهم فرصة ينبغي عدم تفويتها، فعهدوا إليه بمهمة شرح أهدافهم لجماهير المجتمعات العربية.

وعلى مدى معظم العام (1913م) غدا أرسلان مبعوثاً متنقلاً مروجاً "للعثمانية"، حيث زار كلاً من بيروت ودمشق والقدس. وتوجه إلى المدينة المنورة في صحبة داع آخر ذائع الصيت من الدعاة الموالين للإمبراطورية العثمانية المروجين لها هو عبد العزيز جاويش. وإعجاب أرسلان المعلن بهذا الشخص يُعَدُّ مؤشراً مهماً على توجهاته السياسية وعلى أسلوبه في العمل. فجاويش (1876 - 1929م) ذاع صيته بوصفه رئيس تحرير صحيفة اللواء، لسان حال الحزب الوطني المصري. كان جاويش قد نُفي إلى اسطنبول في العام (1911م) بسبب مقالاته المؤيدة للإسلام والمثيرة جداً التي نشرها إبان الحقبة التي شهدت توتراً بين المسلمين والأقباط في مصر. وكان منفى حافلاً بالنشاط حيث أضحى مقر إقامته في اسطنبول نادياً سياسياً فعلياً لمناصري الجامعة العثمانية-الإسلامية. وشأنه شأن أرسلان، وجد نفسه في برلين في العام (1919م)، وعبر تعاون وثيق مع

الأمير، شرع يدعو إلى تأييد الكفاح الإســلامي، وكانت حالة من عدم اليقين تعصف بكيانه حيال استمرار ذاك الكفاح[52].

وانتهز أرسلان فرصة أسفاره عبر المقاطعات العربية لاستطلاع الرأي العام العربي، لتغييره عنــد الضرورة. وخاض غمار جولات من المناقشــات والجدل الســياسي مع انفصاليــين عرب وحتى مع أكثر الداعين إلى لا مركزية الحكم (العثماني) اعتدالاً، منبهاً بشــدة إلى مخاطر التقسيم وإلى أهمية الدولة العثمانية بالنســبة إلى العرب بوصفها ملاذاً يستظل بحماه.

وكان في ذلــك الوقت ينشــط عملاء خاصــون تابعون للقوة الأمنية الشــخصية لأنور باشــا في معرض الحملة الدعائية المساندة للإســلام، وكانت تسمى تلك القوة "التشكيلات المحسوسة" [الاســتخبارات]. وعلى الرغم من أنه لم يعثر على دليل على وجود صلة مباشرة بين أرسلان وهذه الأنشــطة، فإن ارتباطه الوثيق مع أنور والتزامه بأيديولوجية مســاندة للإسلام يوحيان بقوة بأن أســفاره في هذه الأشهر كانت جزءاً من برنامج حكومي منســق[53]. وهكذا أصبح أرســلان وثيق الصلة بجمعية الاتحاد والترقي.



الجنتلمان العربي العثماني: نائب عن منطقة حوران، في العام 1915.

وفي الوقت الذي مكنته علاقاته بالنظام الحاكم في اسطنبول من أن يغدو أحد أبرز الشخصيات العربية المؤثرة في عصره، فقد جعلته أيضاً ينظر إليه بوصفه محل اشتباه وريبة نوعاً ما.

تصميم أرسلان على هدف واحد بعينه وإصراره عليه ووضوح السبيل إليه؛ كل ذلك كان سمة استثنائية في زمن كان يغلب على الناس فيه الارتباك الفكري والمراوغة السياسية. فبالنسبة لكثير من العرب كانت الإصلاحات الدستورية التي وعد بها أعضاء جمعية تركيا الفتاة تتلاشى في خضم قسوة تشديد مركزية الحكم والتمادي في

سياسة التتريك. وفي سبيل مكافحة هذه السياسات، تشكلت جمعيات عربية عديدة في اسطنبول والمقاطعات السورية وفي القاهرة وباريس[54]. ويحتمل أن تكون مجموعة من المخططين العاملين في الخفاء قد أيدت برنامجاً يرمي إلى انفصال العرب عن الإمبراطورية العثمانية. ولكن الذين ناضلوا في هذا الاتجاه كان قليلاً عديدُهم، إذ كان جُلُّ تركيز المجتمعات العربية منصرفاً إلى إظهار الحاجة إلى اللامركزية في الحكم والإدارة، وإلى إحياء المكانة الرفيعة للثقافة العربية في الأقاليم العربية، بخاصة، تلك المتعلقة بالجانب اللغوي منها. وعلى الرغم من أن كل تكتل طائفي أو إقليمي يمكن أن يكون قد لون الرؤية الاستشرافية للمستقبل بلونه الخاص، لكن كان ثمة توافق في الآراء على نطاق واسع على صيغة تتيح استمرار الرابطة العربية، ضمن إطار الإمبراطورية العثمانية بوصفها صيغة مرغوباً فيها وممكنة.

ومن المهم أن ندرك أن الدولة العثمانية في أواخر عهدها كانت عوامل بقائها داخلية. ولا يمكن النظر إلى القرن الذي سبق الحرب العالمية الأولى بوصفه مجرد مقدمة للقومية العربية. فالقادة السياسيون لم يكونوا يعتزمون الانفصال عن اسطنبول، وكان العرب ما يزالون يخدمون بوصفهم ضباطاً في الجيش العثماني، ويلتحقون بالأكاديميات العليا في اسطنبول، ويتطلعون إلى شغل مناصب ضمن إطار السلطة الرسمية العثمانية، ومما لا شك فيه أنهم كانوا يأملون في تحقيق شكل من أشكال اللامركزية في الحكم والإدارة؛ الأمر الذي كان كفيلاً في إتاحة مجال أرحب لطموحاتهم ضمن المقاطعات العربية ذاتها. ومع ذلك فقد كانت أغلبية النخب العربية تسعى إلى البقاء داخل إطار دولة عثمانية قوية معززة، ولم تكن تسعى إلى الانفصال عنها[55].

وكان أرسلان يشكل استثناءً في خضم هذا الشعور العام بسبب دعمه الشديد لسياسات نظام جمعية تركيا الفتاة. وخلافاً للمتحدثين الرسميين الذين كانوا أكثر تناغماً من الناحية الأيديولوجية، لم ينطلق في كتاباته من منطلق عثماني أو إسلامي أو تركي أو عروبي، بل كانت رسالته عملية أكثر: إذا ما تجزأت الإمبراطورية (العثمانية) فإنها سوف تتهاوى وتنهار في مواجهة أوروبا. وخلال جولته في العواصم العربية، أكد على الحاجة

إلى الجامعة العثمانية الإسلامية في مواجهة مخاطر التقسيم: "وفي جميع المدن التي زرتها كنت أتكلم في عدم مناسبة الانشقاق بين العرب والترك، ووجوب الاعتصام بالدولة، وأحذر من سياسة الأجانب الذين يريدون إلقاء الشقاق بين العرب والترك، ليستغلوا الشقاق لمنافعهم ويستولوا على البلاد ويحولوها إلى مستعمرات لهم(56)". وراح أرسلان يسوق الحجج والبراهين على أن الاختلافات بين العرب والأتراك مختلقة أو هي نتاج التلاعب الإمبريالي. وجاء فيما كتبه إبان الحرب التي دارت في طرابلس (الغرب) أن عبارة "العرب والأتراك" عبارة جديدة محدثة، وأنه إذا ما أجازت الدولة العثمانية لنفسها أن تعرف من خلال هذين المكونين المجزأين بدلاً من أن تعرف بوصفها كلاً كاملاً فإن ذلك سيُعَدُّ انتحاراً لها(57). فيما كان بعض (العرب) يرون في الاستقلال المحلي انعتاقاً من ظلم جمعية الاتحاد والترقي الجائر، فإن أرسلان كان يرى فيها دعوة إلى الاستعمار من أجل السيطرة على الولايات (العربية).

كان أرسلان يرى في المقترحات الداعية إلى تحقيق الحكم الذاتي أمراً نابعاً من الطموحات غير المدروسة لبعض الساسة العرب. وأكد على هذه المسألة بكل ما أوتي من قوة في سلسلة من المقالات الرائدة التي نشرها في صحيفة **الرأي العام** المؤيدة للاتحاديين في الأشهر الأولى من العام (1913م). وكشفت مقالاته - تلك التي كانت موجهة بصورة رئيسة إلى قيادة الجمعية التي كانت تدعو إلى لا مركزية الحكم والإدارة، وتتخذ من القاهرة مقراً لها وهي الجمعية الأكثر اعتدالاً، والتي كانت تحظى بتأييد على نطاق واسع من الأوساط الإصلاحية في حقبة ما قبل الحرب - النقاب عن طائفة كاملة من سمات الشخصية السياسية لأرسلان، وتضمنت شن هجمات شخصية شديدة على إصلاحيين عرب بارزين، كما تكشفت عن تشبثه بشعوره الوطني في مواجهة اتهامات بالخيانة استهدفته، وحفلت بدفاعه عن الوحدة العثمانية بوصفها استجابة براغماتية ومبدئية في آن معاً تقتضيها المرحلة.

كما كان أرسلان يرى أن كل المحاولات العربية الرامية إلى إعادة تنظيم علاقات العرب مع اسطنبول، مهما كانت سلمية تُعَدُّ خيانة. وعليه تمكن من كتابة مقالات تشير

إلى أن برنامــج الجمعية المطالب بلا مركزية الحكم وبتحقيــق نوع من الحكم الذاتي في الأقاليم يعد بمثابة محاولة لتمزيق أوصال الوحدة العثمانية، وإخضاع "بلادنا" للحكم الأجنبي المباشر[58]. وجــاء في مقالاته: أولئك الذين ســعوا إلى تقويض دعائم دولة تسترشد بأحكام الشريعة الإســلامية، والذين ابتهجوا نتيجة للانتكاسات التي حلت بها، والذين شجعوا انتشــار الفتنة عبر الانشقاق هم مذنبون، ويتمثل ذنبهم بخداعهم أنفســهم؛ الأمر الذي يمكن أن يتمخض عنه كارثة لا توفــر أحداً: "تعني اللامركزية الذهــاب إلى الجحيم في رحلة سرمدية؛ والحزب الذي ينــادي باللامركزية ويعتقد أنه يشيّد بذلك قصراً، هو في واقع الأمر يحفر قبره بيده[59]".

وكان أرســلان يذم بالقدر ذاته محاولات أخرى تســعى إلى إظهار هموم وبواعث قلــق عربية تحديداً. من ذلك انتقاده لخرافة العروبة، فقد ورد فيما كتبه عن مؤتمر باريس الذي انعقد في شــهر يونيو/ حزيران من عام (1913م): "كنت ساخطاً على عقد هذا المؤتمر[60]". وعلى الرغم من الاعتدال الذي اتســمت بــه قرارات ذاك المؤتمر، فقد عَدَّ أرســلان الاجتماع خيانة، وحث وجهاء سوريا من الطوائف كلها على إمطار اسطنبول بســيل من برقيات الاحتجاج. وكان حماسه في مســعاه هذا شديداً إلى الحد الذي جعل قادة مســيحيين في دمشــق يتهمونه بالتحريض على تدبير مخطط يرمي إلى تزوير تواقيع تذيل برقيات وإلى تغيير نصوص برقيات مؤيدة للمؤتمر بعد توقيعها[61].

وعلى الرغم من انهماكه الشديد، لم يكن أرسلان يتوفر على برنامج واضح للإصلاح. فبالنســبة له لم يكن ينبغي أن يدور الجدل حول الخيار بين نظام حكم دســتوري وآخر اســتبدادي، وكان مســتعداً لإخضاع اعتبارات الحرية السياسية إلى اعتبارات الوجود الســياسي: "لم أنخدع بكلمات الإصلاح واللامركزية وبتعبيرات أخرى من هذا القبيل استعملها رجال فاســدون لجذب الجماهير، وجعلهم يغفلون عن الأخطار التي تتهدد دولتهم ووطنهم ودينهم ووجودهم الدنيوي[62]". وينبغي أن يتأجل ســعي الكيانات المختلفة إلى الحصول على حقوق متساوية إلى حين انبعاث الإمبراطورية انبعاثاً يكتب له النجاح على أن تظل موحدة، وبعد أن تتخلص من أزمتها الراهنة.

وبينما كان أرسلان يغدو أكثر مجاهرةً برأيه دفاعاً عن سياسات جمعية الاتحاد والترقي، كانت معارضة الجماهير له تزداد اتساعاً. فقد أسف إصلاحي من بيروت بسبب الاستلاب الذي ألَمَّ بالأمير وأدى به إلى الابتعاد عن "أصدقاء الأمس"، وأقر أرسلان نفسه بذلك: "وكان الكثير من أصدقائي وإخواني مغتاظين مني لاتخاذي تلك السياسة العثمانية[63]". وكان أحد المستائين رشيد رضا، وهو القوة الرئيسة الفاعلة في الجمعية المطالبة بلامركزية الحكم والإدارة، والمتحدث الديني الأكثر وجاهة وشهرة بين تلاميذ محمد عبده ومريديه. وعلى الرغم من برنامج رضا التحذيري من أن إسلاماً عربي المنحى والتوجه داخل بوتقة الدولة العثمانية يتوفر على كثير من القواسم المشتركة مع برنامج أرسلان، فإن رضا لم يكن قادراً على تقبل ارتباط أرسلان مع جمعية الاتحاد والترقي، ووجه له انتقاداً عبر مجلته الشهيرة المنار. وانتقاده، الذي غدا أوسع انتشاراً ولاقى رواجاً بين الإصلاحيين العرب، المستند إلى أن أرسلان لم يكن سوى شريك قليل الشأن لجمعية الاتحاد والترقي؛ ألحق قليلاً من الضرر به إذا ما قورن بمحاولات رضا تقويض مصداقية أرسلان في منطقة تقدره حق قدره. فالرجل الذي كان الولاء الإسلامي معيار انتمائه ومحك هويته، ندد به المتحدث القيادي الإسلامي البارز في عصره بوصفه ينتمي إلى طائفة [الدروز] التي لم تكن طائفة إسلامية بحق، وعليه فهو غير مؤهل لشغل موقع المدافع عن قضايا الدين[64]. وعمد رضا إلى تعديل موقفه وآرائه في الرجل في وقت لاحق، لكن الأمير في ذلك الحين كان يتعرض لهجوم ثقيل الوطأة.

ولكن على الرغم من كل ذلك، لم تُثْنِ مشاركة أصدقائه في جمعيات الإصلاح العرَبية ولا انتقادهم لمواقفه أرسلان عن الإصرار على هدفه. فهو يدافع في نهاية المطاف عن موقف أقره الأفغاني ووافق عليه. والرابطة الكفيلة بإبقاء العالم الخارجي بعيداً وبكف أذاه أتاحها الإسلام والخلافة الإسلامية، ولا يمكن إبقاؤها على قيد الحياة إلا بتأمين دعم موحد من كل رعايا الإمبراطورية (العثمانية). كان أرسلان يشعر كذلك بوجود ما يبرر الدور الذي يؤديه لا بوصفه شاعراً منفعلاً وسلبياً، بل بوصفه ناشطاً يتقد حماسةً على غرار الأفغاني. وكان مقتنعاً آنذاك، كما كان في الماضي، أن قضيته مشروعة

ومبنية على الحق. وشـــاطره مواقفه وآراءه تلك آخرون، إلا أن الذين جاهروا بآرائهم منهم بقدر ما فعل أرســـلان كان قليلاً عديدهم. وفي العام (1913م) بادرت الحكومة الاتحادية إلى عقد سلســـلة من المؤتمـــرات عمدت خلالها إلى تمكين الـــرأي العربي من إيصال صوته، وإلى خطب ود العرب واســـترضائهم ما أمكن. وحضر أرســـلان تلك المؤتمـــرات لتحقيق غرض محدد واضح تمثل في الاعتراض عـــلى مؤتمر باريس، واغتنم تلك الفرصة للتعبير عن آرائه بقوة بلغت حداً جعل أحد المشـــاركين وهو أسعد داغر يتأثر ويعلق منوّهاً بمكانة أرســـلان الخاصة في أوساط الرأي العام العربي[65]. وما أثار داغر كان شدة الحماس الذي اعترى أرســـلان في مناهضته لناشطي الجمعيات العربية وتجذر دعمه للسياســـات الاتحادية، وقلقله الصارخ من طموحات بريطانيا وفرنسا في الولايات والمقاطعات العربية. بالنســـبة لداغر، كان أرســـلان فريداً في نوعه من حيث قدرته على دعم المطالب العربية المنادية بالإصلاح في الوقت الذي يدافع فيه عن تصلب الحكومة في تنفيذها. ولاحظ معلق آخر ببســـاطة أن أرسلان هو "أحد الزعماء العرب البارزين الذين عملوا على استمرار صداقتهم مع الأتراك[66]". وكان أرسلان يرى أن انتقاد الدولة يعني تقويض أركانها، المتمثلة في وجود ســـلطة مركزية قوية ومتماســـكة، ويعارض الفوضى التي تنجم عن ضعف السلطة وانحلالها، كما يعارض قيام مقاطعات أو ولايات تتمتع بحكم ذاتي. ويحتمل أن يكون أرسلان، شأنه شأن كثيرين من مؤيدي الدولة العثمانية، قد شعر أن سياسات السلطان عبد الحميد أجدت نفعاً على النحو الذي ينبغي، وأنه لم ينجم عن التغيير إلا السخط والهزيمة.

وفي شـــهر أبريل/ نيســـان من العام (1914م)، انتخب أرســـلان نائباً في البرلمان العثماني ممثلاً لمنطقة حوران التي تقع إلى الجنوب من دمشق وأغلب أبنائها من الدروز. وعندما ســـافر إلى اســـطنبول لمباشرة مهامه البرلمانية، كان تبنيه الشديد لقضية الجامعة العثمانية الإســـلامية أهم محددات هويته وتوجهه. وكان توجهه هذا متساوقاً مع العالم الذي ترعرع فيـــه والذي عرف فيه، وهو على عتبة عامـــه الخامس والأربعين، بوصفه رجلاً كثير الإنجازات متنوعها، فقد شـــغل فيما مضى منصب قائمّقام منطقة الشوف،

وترجم للأديب الفرنسي شـاتوبريان، وهو زعيم الدروز، وشـاعر محترم، وصحفي نشرت مقالاته على نطاق واسـع، وصديق حميم لأنور باشا وأحمد شوقي. وكان ينشط في خدمة الدولة وأحد المتطوعين المدنيين زمن الحرب، كما كان نائباً في البرلمان العثماني. وخلاصة القول وزبدة الكلام أنه كان تجسيداً مثالياً للجنتلمان العثماني العربي بكل معنى الكلمـة في عصره. وإن كان لديه شيء من الهم وبواعـث القلق حيال الدولة العثمانية، فقد كان يعتقد أن مجرى التاريخ، بدفع وتأييد من رجال مثله، كفيل بحل المسـائل التي تمخضت عن ذاك الهم وتلك البواعث لمصلحة القيم التي رسختها الأعراف والتقاليد. واستناداً إلى إسـهاماته الكثيرة في الدولة والمجتمع، حظي بمكانة محترمة ومشرفة وهو في منتصف العمر فيما كان يشرع بـأداء خدمة أخرى لمليكه. وفي الصراع القادم، راهن أرسلان بكل شيء في سبيل الحفاظ على الوضع الذي كان قائماً. ونتيجة لهذا الالتزام، لم يقتصر أمر الحرب على تحطيم عالمه، بل كان من شـأنها أيضاً أن شوهت سمعته وحولته إلى منفي مُتَرَحِّل.

الفصل الثاني

الحرب والمنفى

كنت في الصف المقاوم للملك حسين قبل الحرب وأيام الحرب، كما يعلم ذلك الجمهور، منتقداً سياسته في الخروج على دولة الخلافة، وأكثر من هذا في ثقته بالدولة البريطانية وعهودها.

أرسلان[1]

وقد كان كثيرون من الناس يزعمون أن الأمير ليس له مبدأ أو مذهب في السياسة ثابت، وإنما يدهن للدولة ولكبراء رجالها لأجل المنفعة... وقد كنت أنا من هؤلاء المنكرين عليه تشيعه للاتحاديين ودفاعه عنهم على علمي بما ذكرت من مذهبه السياسي في تفضيل الدولة على جميع الأجانب.

رشيد رضا[2]

في الثامن والعشرين من شهر أكتوبر/ تشرين الأول من العام (1914م)، دخلت الدولة العثمانية في الحرب العالمية، وتغير الشرق الأوسط تغيراً أبدياً. ومع أن المعارك التي دارت في أنحاء الشرق الأوسط كانت صغيرة وثانوية مقارنة بالمجازر التي كانت الجبهة الغربية مسرحاً لها، فقد كان للعواقب السياسية التي نجمت عن هزيمة العثمانيين تأثير كبير وشديد على الذين كانوا يعيشون في المناطق المختلفة التي كانت خاضعة للإمبراطورية العثمانية. وكذا فعلت الحرب ذاتها. فلم يقتصر أمرها على تعبئة أعداد هائلة من العسكريين، بل اتخذت أيضاً تدابير صارمة على صعيد الأمن الداخلي.

وعلى الرغم من أنه كان ينظر إلى الإمبراطورية العثمانية منذ عهد بعيد على أنها تحتضر عسـكرياً، فقد استبسلت في الدفاع عن نفسـها في مواجهة مغامرات أعدائها المتقلبة. حيـث صدت القوات العثمانيـة غزو الدردنيل المذهل في العـام (1915م)، وأسرت القسـم الأكبر من جيش بريطاني كامل في معركة المـارن في العام (1916م)، وحالت دون تحقيق أي هجوم بريطاني مهم، انطلاقاً من مصر، على أي من الأقاليم العربية على مدى الزمن الذي سبق هجوم الجنرال اللنبي الكبير الذي بدأ أواخر العام (1917م). وكان الجنود والضباط الذين شكلوا هذه القوة العسكرية العثمانية من العرب إلى جانب الأتراك، كـما كان أحد الجنرالات الذين قادوا القـوات العثمانية التي قاومت القوات العربية (قوات فيصل) المتجهة إلى دمشـق في العام (1918م) هو ياسين الهاشمي وهو عربي من بغداد. ولكن، كما بات مُسَـلَّماً به الآن، "لو ظل معظم العرب مساندين موالين للخلافة والسلطنة[3]"، لكان بين السكان المدنيين في كل من سوريا وجبل لبنان نشطاء ينظـرون إلى الحرب بوصفها فرصة مؤاتية للضغط مـن أجل إجراء تغييرات إدارية في علاقات العرب مع اسطنبول أو، كما هي الحال لدى بعض الجماعات المسيحية، لكانوا طالبوا بإحلال الحماية الفرنسية محل الحماية العثمانية. ومن أجل ضمان ألا تؤدي مواقف مجموعة صغيرة من المحرضين إلى تحريض الموالين من الرعايا العرب والذين يشـكلون أغلبية، أرسـلت جمعية الاتحاد والترقي أحد أعضاء الترويـكا الحاكمة، وزير البحرية أحمد جمال باشـا، ليشـغل منصب القائد الأعلى للجيش العثماني الرابع الذي يتخذ من دمشـق مقراً لقيادته، وليكـون الحاكم المدني الفعلي للأقاليم السـورية. وفي ظل إدارة جمال باشا، ألغيت الوضعية الخاصة لمتصرفية جبل لبنان، وباتت المنطقة بأسرها تعامل معاملة المقاطعات العثمانية النظامية، مع اسـتثناء مهم تَمَثَّلَ في إعفاء سكان تلك المناطق من الخدمة العسـكرية الإلزامية اسـتمراراً لما كان الوضع عليه في السابق. ومنذ العام (1915م) حتى استدعائه في شهر يناير/ كانون الثاني من العام (1918م)، أثار الذعر في المناطق التي كانت خاضعة لسيطرته، وتسبب في خسارة الحكومة العثمانية لقطاعات

مهمــة من الرأي العام العربي. وبوصفه عضواً مميــزاً من أعضاء إحدى أبرز العائلات المؤيدة للعثمانيين، كان من الطبيعي أن يتأثر أرسلان تأثراً شديداً بسياسات جمال باشا.

وكـما كان متوقعاً من تصرفاته إبان الغزو الإيطالي لطرابلس، أيد أرســلان تحالف الإمبراطورية العثمانية مع ألمانيا، واشتراكها في الحرب. ومن جهة نظر أرسلان، الوقوف على الحياد، وهو الموقف الذي أيده بعض أعضاء جمعية الاتحاد والترقي، لن يحول دون إقدام الحلفاء على تقسـيم الإمبراطورية خدمة لمصالحهم الخاصة[4]. ولا يمكن الحفاظ على الإمبراطورية وصون كرامة الإســلام والدفاع عنها إلا من خلال المشاركة المباشرة في الحرب. رحب أرســلان بالصراع ودعم الخلافة والجيوش التي دافعت عنها. وحذا حذوه معظم العرب من حيث المبدأ. لكن الذين اشــتركوا فيها بصدق وإخلاص كان قليلاً عديدهم، وكذا كان عــدد الذين وقفوا إلى جانب القيادة الاتحادية، بخاصة جمال باشــا، ومن هؤلاء كان شكيب أرسلان. وكان ارتباطه بالاتحاديين سبباً في جعله يرتبط في أذهان كثير من أبناء العرب بالنظام الأكثر إثارة للكراهية بين الأتراك.

نجم انخراط أرســلان في قلب أحــداث الحرب عن مكانة أسرتــه الخاصة وعن شــخصيته المفعمة بالحيوية والطاقة. وللأرســلانيين اتصالات عميقة الجذور وقديمة العهد في اســطنبول، ولم يذهب دعمهم لجمعية الاتحــاد والترقي بعد العام (1912م) هباء منثوراً بل قُدر حق قدره. فما إن وصل جمال باشــا إلى ســوريا في شــهر ديسمبر/ كانون الأول من عام (1914م) حتى أصبح شــكيب وأخوه نســيب كلاهما نائبين في البرلمان العثماني، فيما عُين أخوهما الأصغر ســناً، عادل، قائمّقام لمنطقة الشــوف، وغدا بعد ذلك بوقت قصير نائباً في البرلمان أيضــاً. ويتوفر الإخلاص للوطن على امتيازات سياســية، وكذا الولاء للحكم العثماني له مزاياه. لقد أقر شــكيب وإخوانه إلغاء جمال باشــا للامتيازات الخاصة التي كانت ممنوحة للمتصرفية مفضلين، شــأنهم شــأن أسر درزية أخرى، المظلة المهلهلة للدولة الإسلامية العثمانية على تحويل منطقتهم (الشوف) إلى مقاطعــة يهيمن عليها المســيحيون ويحيطون بهــا وتعاني قيــوداً تفرضها الوصاية الأوروبية[5]. وفي هذا المثال، كان موقف أرســلان المؤيد للعثمانيين تأييداً كبيراً ودوره

بوصفه زعيماً للدروز متكاملين. ولم يكن مستغرباً في تلك الحقبة أن يُدَانَ بعض الدروز بممارسة أنشطة مناوئة للعثمانيين إبان الحرب؛ لأن لدى الدروز أسباباً وجيهة تدعوهم إلى تمني النصر للعثمانيين.

وبسبب علاقاته الممتازة مع أنور باشا، حظي أرسلان بمكانة خاصة عند كبار رجال الدولة العثمانيين. وكانت مكانته تلك واضحة منذ اللحظة التي وصل فيها جمال باشا إلى سوريا. ووفقاً لما ذكره أرسلان فقد كان أحد أعضاء الوفد الذي كان في استقبال القائد العثماني، وعن ذلك يقول: "عندما سلمت عليه قال لي إن أنور باشا تكلم له كثيراً عني وأراد بذلك تطييب خاطري[6]". وكان أرسلان مسروراً بتقدير جمال باشا له، ووضع نفسه تحت تصرف القائد العثماني.

ورأى أرسلان في جمال باشا "رجلاً يؤمن إيماناً راسخاً بمزايا القومية العثمانية المرتكزة إلى التضامن الإسلامي وبمستقبلها". وآراؤه هذه تتكامل مع آراء أرسلان[7]. وغالباً ما كان يلقب أحمد جمال باشا (1872 - 1922م) بالسفاح من قبل جماعات دأبوا على النظر إليه من زاوية أحادية البعد، على الرغم من أن تقويمهم له بوصفه سفاحاً يعاني عيباً واعتلالاً عميقاً. وما يثير الاهتمام جداً في هذا السياق هو الأوصاف الأكثر تفصيلاً واكتمالاً التي وصف بها جورج أنطونيوس جمال باشا، والتي بين فيها اهتمام القائد العثماني المخلص والصادق بالخلافة الإسلامية، والتي وضح فيها كيف كانت سياساته المبدئية في الأقاليم العربية استرضائية وتوفيقية ومصممة على نحو يضمن الحفاظ على ولاء العرب للدولة العثمانية. ولكن معتقدات جمال باشا الدينية ومهاراته الإدارية تضافرت مع طموحه الجامح، فتمخضت عن دفعه إلى القيام بأعمال عسكرية الطابع متهورة إظهاراً لشجاعته. وعندما أخفق شعر بالخيبة تجاه أولئك الذين أعاقوا تنفيذ مخططاته الكبيرة، فاستهدفهم بعهد جديد من حكمه اتسم بالإرهاب.

رأى أرسلان أن توجه جمال باشا الديني كان ملائماً لرجل دولة عثماني، وشاطره توق القائد العارم لإنجاز شيء ما ليظهر بأسلوب قوي حيوية الهوية الإسلامية العثمانية.

وشارك وقد اكتنفه الحماس جمال باشا في مغامرته العسكرية الأولى التي تمثلت في إطلاق حملة للاستيلاء على قناة السويس بضربة سريعة خاطفة. وقد استحوذ على أرسلان وهو في ريعان شبابه انجذاب رومانسي إلى الصراع البطولي الملحمي. ولم يكبح تقويمه العسكري الرديء جماح استجابته المتهورة عندما جُوبِهَ باحتمال المبادرة إلى اتخاذ تدبير معين. وفي استذكار أنعش الحماس الذي اعتراه إبان زمن الحرب الطرابلسية، سعى أرسلان إلى حشد الرجال وتأمين الإمدادات من أجل الهجوم على القناة. ونتيجة لسعيه بين الدروز، جمع مئة وعشرين متطوعاً كان عازماً على سوقهم نحو قناة السويس. لكن بدلاً من أن يحظى بالمجد والفخار في مصر، عانى أسابيع مروعة في منطقة معان خائضاً في الصحراء ومنتظراً في نقطة عسكرية متقدمة ومعزولة تسمى منطقة النخل وهو يعاني ومن معه برداً قارساً، وفي نهاية المطاف قفل عائداً إلى سوريا دون القيام بأي عمل[8]. ولعل الحظ كان حليفه في ذلك.

وكانت قوات جمال باشا سيئة الإعداد والتجهيز، ولم يكن التخطيط لحملته ملائماً. ونتج عن ذلك صد هجومه صداً محكماً. فما كان من القائد العثماني الذي تملكه الغضب إلا أن سعى إلى جعل بعض السكان المدنيين كبش فداء.

جعل أرسلان من نفسه وسيطاً على جناح السرعة بين جمال باشا وبين الجماهير العربية. وفي جبل لبنان المرتكز إلى قاعدة طائفية، كان متوقعاً من زعيم الدروز أن يدعم احتواء الطوائف المسيحية إبان الحِقَبِ التي عانت فيها الإمبراطورية العثمانية أزمات. وعلى كل حال بدا أن موقف أرسلان أثناء الحرب العالمية الأولى كان تصالحياً حيال الموارنة، بينما كانت السلطات العثمانية تنظر إلى الموارنة غالباً بوصفهم طابوراً خامساً محتملاً يتيحون الفرصة لدعم أي احتلال فرنسي محتمل. وعلى الرغم من أن أرسلان كان يعارض المشاعر الفرنكوفونية التي تتملك كثيراً من القادة المسيحيين، فإنه كان يفضل التخفيف من حدة مخاوفهم لكي يكسب ولاءهم للقضية العثمانية. وبطبيعة الحال، كان بعض تصرفاته منطلقاً من منطلق شخصي ومستنداً إلى تحالفات أسرية تراكمت وترسخت على مر السنين، إلا أن هدفه الرئيس كان يتمثل في الحفاظ على وحدة الدولة

العثمانية عبر ترسيخ الهدوء والاستقرار الداخلي في إحدى مقاطعاتها. وورد فيما كتبه عن ذلك لاحقاً: "اعتدت أن أقول للدروز من كان له منكم صديق مسيحي كان يزوره مرة في الشهر يتعين عليه، في ظل الظروف الراهنة، أن يزوره مرة في الأسبوع. وإن كان أحدكم قادراً على أن يعمل عملاً إنسانياً خدمة لأبناء وطنه من المسيحيين، فالآن هو الوقت المناسب لفعل ذلك؛ لأن دعامة وجودنا الرئيسة تتمثل في التآلف والوئام. هذا من ناحية، أما من الناحية الأخرى، هذا السلوك كفيل بتحويل الأفعال المسيئة والمعيبة إلى أفعال لطيفة[9]". في هذا السياق، كانت حججه مقنعة ومتسقة.

وعلى الرغم من سياسته ذات النوايا الحسنة حيال القومية العثمانية، فقد اكتشف أرسلان أن دور الوسيط يمكن أن يكون خطيراً. وبافتراض وجود درجة من المسؤولية العامة التي تلقى على عاتقه، بات أرسلان مقترناً بكل ما يثير السخط إبان سنوات الحرب. وبسبب مواقفه الداعمة بقوة للحكومة (العثمانية) قبل الحرب، وسهولة وصوله إلى جمال باشا واتصاله به، وبسبب قدرته على التصرف والتحرك بحرية متحرراً من القيود نسبياً، كان ينظر إلى أرسلان من قبل بعض المعنيين بالأمر بوصفه متعاوناً مع جمال باشا (العدو المحتل) في تنفيذ سياسته القومية، وهي تهمة لاحقت أرسلان على مدى ما تبقى من حياته. وبين القضايا المثيرة للجدل التي حامت جميعها حوله، كانت تلك المتعلقة بتعاونه مع جمال باشا هي الأشد صعوبةً والأكثر إقلاقاً لراحته. فكلما كان خصومه يرغبون في توجيه ضربة له، بصرف النظر عن ماهية القضية الحقيقة، كانوا يثيرون قضية أفعاله التي قام بها إبان الحرب العالمية الأولى. وكانت تظهر الشائعات التي تحوم حوله في الأوساط الأكثر تنوعاً واختلافاً: أشار تقرير صادر عن وزارة الخارجية البريطانية في العام (1922م) إلى أرسلان بوصفه "الساعد الأيمن" لجمال باشا على صعيد أعمال الاضطهاد التي حدثت في العام (1915م). وفي العام (1927م) اتهمته صحيفة إخبارية كانت تصدر باللغة العربية وتتخذ من نيويورك مقراً لها بإرسال مواطنيه إلى المشانق[10].

مجبراً على الدفاع عن نفسه مراراً وتكراراً في مواجهة هذه الاتهامات الخطيرة، عمد أرسلان إلى كتابة مقال تلو آخر، وضَمَّنَ تلك المقالات توضيحات تفصيلية وتبريرات، ودعا بأسلوب بلاغي منمق عدداً من الشهود المطلعين على حقائق الأمور إلى تبرئته. ولكن على الرغم من الأدلة التي جمعها كلها ومؤيديه الذين حشدهم للدفاع عنه على مر السنين، فإن الدور الذي لعبه من العام (1914م) إلى العام (1916م) لم يُعْرَفْ ولم يُصَرْ إلى تحديده على وجه اليقين، وظل على مدى تلك الحقبة من حياته كما دعاه توما: "رجل المواقف الملتبسة[11]". حظيت أربعة من تلك المواقف باهتمام خاص إبان الحرب وبعد أن وضعت أوزارها على حد سواء، وتلك المواقف هي: معاملة البطريرك الماروني، وترحيل عدة مئات من وجهاء العرب إلى القدس وإلى الأناضول، وإعدام زعماء عرب في كل من دمشق وبيروت في العامين (1915م) و(1916م)، وإخفاق جهود الإغاثة من المجاعة. وتحتاج هذه المواقف إلى دراسة وتمحيص لأنها تشكل جانباً ثابتاً من الجوانب التي أثرت في سمعة أرسلان. كما أن هذه المواقف سلطت الضوء على طبيعة السلطة التي تراكمت في يديه، وعلى الأسلوب الذي اختاره لاستعمالها والإفادة منها، وعلى القيود التي عاناها حتى من كان موالياً للعثمانيين من المدنيين العرب (أرسلان) في سوريا إبان نشوب الحرب. وبوصفه موالياً للحكم (العثماني) موثوقاً به، حظي بمكانة مرموقة وأحيط بعطف ورعاية، وعمل مع جمال باشا لضمان جعل الظروف المحلية في خدمة أهداف الدولة (العثمانية) في الحرب. ولكن في الوقت نفسه سعى أيضاً بوصفه وجيهاً محلياً مسؤولاً إلى التخفيف من حدة وحشية الحاكم المعين من قبل الدولة. لقد كان وضعاً صعباً، وإنه لمن المشكوك فيه وجود شخصية عربية عامة في سوريا الكبرى بين العامين (1915م) و(1916م) أكثر إثارة للجدل من أرسلان.

وعقب وصول جمال باشا إلى دمشق مباشرة، تمثل أول تدبير اتخذه في استدعاء البطريرك الماروني حويك ومتصرف جبل لبنان كليهما للإقامة في دمشق، حيث يمكن أن يصبحا تحت إشرافه المباشر. وكان ذلك بمثابة إهانة للبطريرك، ويمكن أن يكون هو السبب الذي أدى إلى نفور الطائفة المارونية من القضية العثمانية. وانتهز أرسلان فرصة

أحد لقاءاته الأولى مع جمال باشا للإشارة إلى أن في وسع حويك أن يلبي متطلبات رعيته على نحو أفضل من خلال بقائه في جبل لبنان. واقتنع جمال باشـــا بهذه المشــورة، وأثنى الزعماء الموارنة على أرسلان لصونه قدسية البطريرك[12].

والأمر الذي ينطوي على مفارقة شـــديدة هو أن هذه الحادثة أرست أساساً لانتقاد موقف أرسلان من البطريرك. ففي الأشهر التي تلت ذلك تصلب جمال باشا في مواقفه وأجبر يوسف حويك على تقديم نفســـه مرات عديدة إلى القائد العثماني. ولدى مقارنة هذا السلوك بالمعاملة المهذبة التي أولاها جمال باشا صاحب المكانة الدينية الأرفع مقاماً لدى الدروز، بما في ذلك الزيارة الشخصية التي قام بها إلى مقر إقامته مصحوباً بأرسلان، شـــعر بعض الموارنة بأنه عمل فعلاً على الحط من قدر مقـــام البطريرك[13]. وهذا اتهام لا ســـبيل إلى تأييده، غير أنه يعد نموذجاً يمثل التوترات الطائفية التي ســـادت في جبل لبنان، ويشير إلى المشاعر التي كان يكنها بعض أبناء جبل لبنان لأمير الدروز الذي أدت خدماته للقضية الإمبراطورية إلى فرط تعزيز نفوذه الإقليمي على نحو غير ملائم. وإن كان قادة المجموعات ذات المصالح المتباينة يشعرون بالقلق حيال نفوذ أرسلان المتنامي في ســـوريا الكبرى فقد كانوا، على الرغم من ذلك، يقرون بالتزامـــه بالوئام الداخلي، وكان يُعَدُّ من قبلهم صاحب تأثير معتدل على جمال باشـــا، وكانوا يناشـــدونه على نحو متزايد ليتوسط لهم لدى القائد العثماني ويحاوره من أجلهم.

وسرعان ما اســـتدعي أرســـلان بعد إخفاق رحلته إلى السويس من قبل جمال باشا الذي طلب منه أن يحد من قوة جماعته المقاتلة عبر إرســـاله تعزيزات للدفاع عن مضيق الدردنيل. ومضيفاً ذلك إلى شـــعوره باضطراب الأمن، بدأ جمال باشا يتخذ تدابير أشد صرامة لضمان الاستقرار وولاء المقاطعة. ولأنه كان يفتقر إلى الحنكة السياسية، خلص جمال باشـــا إلى استنتاج يفيد بأن ترويع السكان باســـتعمال القوة كفيل بإسكاتهم، إن لم يضمـــن ولاءهم الصريـــح[14]. وكان أكثر التكتيكات التي يتبعها اســـتعمالاً النفي إلى القدس أو إلى الأناضول على الأغلب. وبين تدشـــينه عهده الذي اتســـم بالإرهاب في العام (1915م) واستدعائه في العام (1918م)، يحتمل أن يكون قد أدان ألف شخص

وحكـــم عليهم بالنفي إلى الأناضول، فيما يحتمل أن يكون عدد الذين نفاهم إلى القدس أقل من مئة شخص[15]. وكان يتوقع من أرسلان، بسبب قدرته على الوصول إلى القائد والتواصل معه، من قبل الأسر المتضررة أن يتدخل لديه نيابةً عنهم. وكما كانت الحال في قضية البطريرك حويك، حقق أرسلان نجاحاً مبدئياً بتوليده انطباعاً بأنه تمكن من إقناع جمال باشـــا بالأمور التي رغب فيها، ولكن عندما اســـتمرت أعمال النفي اتهم بتجاهل محنة أبناء بلده.

واستهلت سياسة الأبعاد والنفي أوائل العام (1915م). وبطريقة مماثلة لتلك التي أمـــل منها أن يحكم رقابته على البطريرك الماروني، أصدر جمال باشـــا أوامره إلى عشرين رجلاً تقريباً من وجهاء جبل لبنان التي قضت بتأسيسهم كياناً لهم في دمشق أولاً ثم في القدس بعد ذلك. وكان أولئك الرجال في رأي جمال باشـــا فاسدين مفسدين تلطخت أيديهم وســـمعتهم بإقامتهم علاقات وطيدة إما مع القناصل الفرنســـيين أو الإنجليز قبل الحرب، وعليه يحتمـــل أن يكونوا خونة. وكان بينهم الماروني البارز خليل الخوري وقائمّقام قضاء جزين، ســـليم بك المعوشي. وانبرى أرسلان للدفاع عنهم بكل ما أوتي من نفوذ وقدرة على التدخل (لدى القائد العثماني)، فأخبر جمال باشا أن أولئك الوجهاء لم يكونوا مجرد أصدقاء شخصيين له، بل كانوا إلى ذلك رفاقاً محترمين قديمي العهد لأسرة أرسلان، وأن الاستمرار في نفيهم سيكون مصدر قلق وإزعاج لأفراد هذه الأسرة[16]. وقد أيد رواية أرســـلان المتضمنة ادعاءه الدفاع عـــن الوجهاء ابن خليل الخوري وهو بشارة الخوري، أول رئيس للبنان، الذي دون في مذكراته عن "الجهد الذي بذله الأمير شكيب أرســـلان لدى جمال باشـــا لوضع حد لنفي (والدي) إبان الحرب[17]". وكان توسط الأمير ناجحاً وأسفر عن السماح للرجلين بالعودة إلى ديارهما في لبنان.

ومعضلة الرجل الذي استطاع أن يحقق مثل هذا النجاح مع الحاكم الذي دأب على الاحتكام إلى نزواته أصبحت واضحة من فورها. فإن كان أرسلان قد تمكن من الإفراج عن رجلين، فَلِمَ لم يحاول الإفراج عن مزيد من الرجال. غدا موقفه أكثر حرجاً وأشـــد صعوبة بممارســـات جمال باشا المتمثلة بالتماس المشورة من أرسلان حيال أفراد مختارين

كان ينظر في مسألة إطلاق سراحهم أو إنهاء نفيهم. وأصبح هذا الأمر معروفاً على وجه العموم، وامتدح أرســلان لتوسـطه من قبل أولئك الذين أطلق سراحهم، وأدين من قبل أسر الذين ظلوا في المنفى. وأشــار أحد الكتاب إلى أن ادعاء أرســلان بذله جهوداً كبيرة وأنه عمل بالقدر نفسه على تحرير جميع المنفيين قد لا يكون صحيحاً. ولفت النظر إلى أنه لم يكن من قبيل الصدفــة مطلقاً أن يكون الدرزيان اللذان نفيا نفياً دائماً خَصْمَيْ شــكيب السياسيين وهما توفيق مجيد أرسلان وفؤاد أرسلان[18]. في الواقع، في معرض جهوده التي بذلها في سبيل إطلاق سراح مزيد من المنفيين من منافيهم في القدس، طلب أرســلان من جمال باشــا الســماح بإطلاق سراح أحد معارضيه وتمكينه من العودة إلى موطنه، بحيث لا تبدو الأمور وكأنه (شكيب) يعمل نيابة عن أصدقائه الشخصيين أو السياسيين فقط[19]. حتى الوطنيون يتعين عليهم حماية أجنحتهم السياسية.

عبر اســتعماله ســلطته ونفوذه وتصرفه بهذه الطريقة، وعبر إفادته من مكانة عائلته بوصفها رافعة للحصول على عفو عن بعض الأشــخاص، جعل أرسلان نفسه عرضة للاتهام بالمحاباة والتحيز. ولكن كما أشــار هو نفسه لم يكن يتمتع بحرية كاملة فيما يقوم به بوصفه ممثلاً عن منطقته ووسيطاً لدى العثمانيين. فعلى الرغم من قدرته على الوصول إلى جمال باشــا والتواصل معه، ومن أن ذلك أتاح له إمكانية التوسط والتدخل، فإنه لم يكن يتوفر على نفوذ يتيح له تجاوز قرارات القائد، كما أشار إلى أن التهديد باستياء أسرته كان ينبغي استعماله بقدر قليل وبحذر شديد. ولا يوجد دليل على أنه كان مسؤولاً عن اختيار أي شخص ليصار إلى نفيه، في الوقت الذي يوجد فيه قدر كبير من الدلائل التي تشــير إلى قلقه على المنفيين واهتمامه بما يحقق لهم الخير. وعلى الرغم من ذلك كان يحوم حوله الشك بين أسر عديدة تعتقد أن أرسلان ربما توانى عن محاولة استصدار عفو عن الأشخاص الذين يهتمون بهم.

صار الاحتجاج على أرسلان جوهرياً أكثر وأشد وطأة مع تحول سياسات جمال باشا عن أحكام النفي إلى أحكام الإعدام. فقد كان جمال باشــا في منتصف العام (1915م) حاكماً قمعياً شــديد الإزعاج: كانت قواته قد أنهكت واســتنزفت كــما كانت المناطق

الخاضعة له تجيش اضطراباً وسخطاً. وكانت تنتهي إلى مسمعه دوماً شائعات تفيد بوجود حركات سرية، فقرر تشديد نهجه القمعي. وفي لفتة تصالحية رمى من خلالها إلى استمالة القادة العرب، اختار جمال باشا فيما مضى طمس أدلة احتوت عليها وثائق ضبطت في القنصلية الفرنسية في أسابيع الحرب الأولى[20]. الآن ومع تزايد الضغوط عليه، أفرج عن الوثائق وأعلن أن الأشخاص الواردة أسماؤهم فيها مذنبون ووجه إليهم تهمة الخيانة العظمى. وجاء فيما كتبه عن ذلك أنه: "قرر اتخاذ تدابير قاسية ضد الخونة[21]". وتضمن هذا الإجراء شن حملة اعتقالات، والتحقيق مع المعتقلين واستجوابهم أمام محكمة عسكرية تشكلت في عاليه لهذا الغرض، وتنفيذ أحكام الإعدام شنقاً في أحد عشر شخصاً في بيروت في اليوم الحادي والعشرين من شهر أغسطس/ آب من العام (1915م)، وفي واحد وعشرين شخصاً آخرين في كل من بيروت ودمشق في اليوم السادس من شهر مايو/ أيار من العام (1916م)[22].

ولأن الإعدامات طالت أبرياء إلى جانب (المذنبين)، فقد أصبحت رمزاً للشهادة بالنسبة للسوريين العرب، ورمزاً لوحشية الاضطهاد العثماني. وبانتهاجه هذه السياسات الجائرة، أثار الحاكم العثماني مشاعر عارمة مناهضة للأتراك، وكانت من الحدة بمكان لم تكن لتبلغه لو ظل ضحايا جمال باشا على قيد الحياة. ومع الإعلان عن انطلاقة الثورة العربية في شهر يونيو/ حزيران من العام (1916م)، شكل استشهاد الضحايا هالة وطنية وأصبح مرتبطاً بقضية النزعة الانفصالية العربية.

ويرى بعض المعنيين بالأمر أن الغضب الذي أججته هذه الأفاعيل طاول الرجل، الذي بدا أن ارتباطه بجمال باشا وضعه في موقع يمكنه من الحيلولة دون تنفيذ أحكام الإعدام لو أراد ذلك. وأرسلان الذي استهدف بهذا الاتهام المسيء والمؤذي كان قد قطع أشواطاً بعيدة في الدفاع عن نفسه درءاً لأي اتهامات بالتواطؤ في قضية تنفيذ الإعدامات شنقاً، وتوضيحاً لعلاقاته مع جمال باشا في ذلك الوقت. إنها صورة خادعة لرجل وثيق الصلة بمركز السلطة لكن دون القدرة على التأثير في الأحداث.

وعندمــا حدثت عمليات إلقاء القبض على الأعيان، ظن أرســلان، شــأنه شــأن الآخرين، أنهــا مجرد عمليات احتجــاز مؤقت تهدف إلى انتــزاع معلومات. وأصابته الإعدامات التي نفذت في شهر أغســطس/ آب بصدمة عنيفة، وانتابه قلق بشأن حياة عشرات الأعيان المعتقلين الذين زُجَّ بهم في ســجن في عاليــه أواخر العام (1915م) ومطلع العام (1916م). وزعم أنه جادل باشــا بشأن أحكام الإعدام بإصرار إلى الحد الذي جعل جمال باشا في نهاية المطاف يهدد أرسلان بالإجهاز عليه، إذا ما حاول إيصال رسائل إلى طلعت في اســطنبول بشأن المخاطر المتأصلة في سياسات جمال باشا، وإذا ما أقدم على تحذير أنور باشــا حيال الوضع المتدهور وذلك أثناء جولة الأخير التفتيشية في سوريا[23]. وذكر أرسلان أن إخفاقه في تغيير سياسة جمال باشا لم تكن بسبب توانيه عن بذل الجهود. لقد حاول، فيما يعتقد، أن يثني جمال باشا عن تنفيذ أحكام الإعدام بأقصى ما استطاع من قوة، وعندما أمر الحاكم بتنفيذ الأحكام كان عاجزاً عن فعل أي شيء.

أشار الذين يحاولون تشويه سمعة شكيب أرسلان إلى أنه لم يكن عاجزاً بالقدر الذي كان يوحي بأنه بلغه، واستشــهدوا على ذلك بأنه في الحــالات التي كانت أسرته تحديداً متورطة فيها، كان قادراً على التأثير في قرارات جمال باشــا. فعادل، مثلاً، أصغر أشقائه سناً كان أقل احتراساً وحذراً في ارتباطاته من شــكيب. وكان عضواً ناشطاً في جمعية الفتاة، إحدى أكثر الجمعيــات السرية العربية شــهرةً. وكان بعض الضحايا من الذين أعدموا شــنقاً في العام (1916م) أعضاء في هذه المنظمة. وأشــيع أن عادلاً كان مشــتبهاً بــه ولم يُلْقَ القبض عليه بســبب العلاقة الحميمة بين شكيب وبين جمال باشا[24]. لقد استنكر رجل المواقف الملتبسة الثورة المناهضة للســلطات الدستورية في الوقت الذي دأب فيه على حماية أعضاء من أسرته الشخصية من الذين يحتمل أن يكونوا قد دعموا تلك الثورة.

وعلى الرغم من أنه بدأ يفقد الثقة بجمال باشا، بقيت أنشطة أرسلان ملتزمة بالقضية الأكبر، القضية العثمانية، ولم تهتز ولاءاته للدولة العثمانية بسبب الأحداث التي شهدتها سوريا. ومن المرجح أن يكون موقفه هذا المستمر في مساندة الدولة العثمانية هو ما جعله عرضــة لاتهام آخر من قبل بعض اللبنانيين بعد الحرب، تحديداً، عدم مبادرته لفعل أي

شيء للتخفيف من حدة المعاناة التي تسـببت بها المجاعـة في لبنان. وكانت تلك تهمة خطيرة في نظر من وجهوها له. ومع فقدان الأيدي العاملة بسـبب التجنيد، إلى جانب الإبعاد والترحيل ومصادرة الأراضي والغـلال والمحاصيل من قبل جيش الاحتلال، واجه السـكان المدنيون في سـوريا ولبنان مصاعب رهيبة إبان زمن الحرب. واستنفد مزيد من المحاصيل بسـبب كارثة الجراد التي اجتاحت البلاد في العام (1915م). كل ذلك إضافة إلى الإسـهام الذي نجم عن تعاون بعض التجار السـوريين مع مسؤولين عثمانيين على الإثم في إمساك المؤن وعدم طرحها في السوق، مع الحصار الساحلي المطبق من قبل الحلفاء، سبب المجاعة التي اجتاحت المنطقة في الجزء الأخير من الحرب[25].

وأرسـلان الذي غادر سـوريا أواخر العام (1916م) وأمـضى معظم زمن العام اللاحق في اسطنبول ادعى أنه لم يألُ جهداً وسعى دونما كلل أو ملل في البرلمان العثماني، واعتماداً على علاقاته الخاصة مع السـلطات العثمانية من أجل إجراء الترتيبات اللازمة لجعل منظمات الإغاثـة الدولية توزع مواد غذائية في لبنان[26]. ونظراً لخبرة أرسـلان وتجاربه السـابقة مع منظمات الإغاثة، يبـدو دفاعه عن موقفه في هذه الحالة مسـوغاً تماماً. ولا يوجد سـبب واضح للإشارة إليه بوصفه مسؤولاً بصفة خاصة عن المجاعة. وكما يبين توما، فإن الحصار أضر بأصدقائه وبأسرته بقدر ما ألحق الأذى بسـكان لبنان الآخرين[27]. ومع أن التهمة مستبعدة جداً ولكن إلصاقها بأرسلان كان مؤذياً جداً له، كما كان أحد العوامل التي استعملت لإقامة الدليل عليه بوصفه شريكاً لجمال باشا.

وعلى مدى مناقشة سلوك أرسلان في غضون السـنتين الأولى والثانية من الحرب، كان موقعه القريب من مركز السـلطة وصنع القرار هو العامل الذي أثار الجدل بشأنه: كيف أجاز لنفسه التشابك مع ظروف من هذا القبيل؟ لماذا لم يَنْأَ بنفسه عن جمال باشا؟ يمكن العثور على إجابة عن هذين السؤالين في شخصية أرسلان، وفي عقيدته السياسية ومعتقداتـه الاجتماعية، وفي التعقيدات الخاصة بجبل لبنان. كان واضحاً أن أرسـلان رجل مشـاركة. إذ لم يكن في وسعه أن يتخذ موقفاً سـلبياً في وقت الأزمة التي كانت قائمـة. ولم يبدُ مطلقاً أنه من النوع الذي يمكن أن يفوت فرصة للعمل. ولم يقتصر أمره

على انخراطه في المجادلات السياسـية التي أشرت إليها أعلاه، بل كرس نفسه لمشاريع أخرى أيضاً، منها الاشتراك في منظمة قوة المتطوعين لحماية الساحل اللبناني والسوري. وتصور مذكراته رجلاً دائم الحركة، مرتحلاً باسـتمرار بين مدن عديدة، ناهضاً بأعباء مهام متعددة. وتتكشـف مذكراته ذاتها أيضاً عن رجل آمن من أعماقه بأن القضية التي يعمل مـن أجلها قضية عادلة. وعلى مدى احتدام الحرب، ظل ولاء أرسـلان للدولة العثمانية والخلافة الإسلامية راسخاً. وعلى مدى الزمن الذي سبق تنفيذ أحكام الإعدام في العام (1915م)، لم يَرَ في التدابير الأمنية الصارمة الذي اتخذها جمال باشـا ما يعيبها قط. ويقول عن ذلك: "بقيت على صفاء تام مع جمال باشا إلى أن بدأت منه هذه السياسة الجديدة، سياسـة الإرهاب والإرهاق التي كنت أرى منها خطراً عظيماً على مسـتقبل الدولة العثمانية[28]".

هذا الاهتمام الأوسـع نطاقاً بقضايا الدولة والدين، وربما كان على حساب الاهتمام بالشؤون المحلية، هو ما ميز دائرة استشراف أرسلان للأوضاع التي كانت سائدة زمن الحرب. وبناء على ذلك عندما انتقد الحاكم العثماني عبر كتابته الآتي: "إن سياسـة جمال باشا في سـوريا كانت من أعظم المصائب على الدولة العثمانية وعلى الأمة الإسلامية"، لم يذكـر الريف الذي كان يعاني مجاعة أو الوجهاء المنفيـين[29]. ولم يكن اعتراضه على سياسات جمال باشـا منصباً على شدة بطشها ولا على إخفاقها، بقدر ما كان منطلقاً من الرغبة في الحيلولة دون حدوث انشـقاق بين العرب والأتراك، وكانت سياسـاته تلك سبباً في حدوث انشقاق. واشتكى إلى القائد أواخر العام (1915م) قائلاً: "إن سياسة الشدة هذه غير موافقة لمصلحة الدولة، وإني خائف من عواقبها[30]". وكانت مناقشات أرسـلان تنحو هذا المنحى مراراً وتكراراً. وعلى سبيل المثال، في الطلب الذي رفعه إلى أنور باشـا التماسـاً للمسـاعدة في الإفراج عن المجموعة الثانية من السجناء، ورد فيما ذكره أرسـلان الآتي: "إن الأشخاص المعتقلين في عاليه ليسـوا جميعاً بأصدقائي حتى يكون توسـطي من أجلهم مبنيّاً على مجرد صداقة، بل المسألة بالعكس، فمنهم من هم

أعدائي، ولكني الآن لست في باب الصداقة والعداوة، بل في باب مصلحة الدولة والملة فقط[31]".

كان أرسلان يشرح موقفه دوماً لا بوصفه مناهضاً للعرب، فهو لم يكن كذلك، بل بوصفه داعماً للرابطة الإسلامية. وفي هذا السياق، تكفل رده على إعلان الثورة العربية بتوضيح اتساقه وتناغمه مع الرابطة العثمانية. وكان ساخطاً على الشريف حسين لأنه لم يكن في وسعه تقبل اندلاع ثورة عربية ضد الكيان الذي كان ينظر إليه بوصفه الخلافة الإسلامية الشرعية. وما كانت تعده حركة القوميين العرب نضالاً من أجل التحرير، كان أرسلان ينظر إليه دوماً بوصفه تدبيراً انفصالياً غادراً مسؤولاً مسؤولية مباشرة عن الاحتلال الأوروبي الذي أعقب الحرب لمقاطعات وأقاليم عربية. وعلى الرغم من أنه تصالح مع الملك فيصل لاحقاً، فقد واظب على النظر إلى الشريف حسين بوصفه مرتكباً لجريمة لا تغتفر تمثلت في تفتيت العالم الإسلامي.

وتفسر رؤية أرسلان لمجتمع إسلامي متكامل سياسيّاً، في جانب منها، علاقاته مع جمال باشا. فالقائد العثماني يُكِنُّ احتراماً عميقاً لشعائر الإسلام: كان ملتزماً بالأسلوب ذاته الذي كان أرسلان ملتزماً به بالحفاظ على الدولة العثمانية. وكانت له آراء مشوبة بالعاطفة حيال الدور السياسي للإسلام، وهو مماثل في ذلك، تقريباً، لأرسلان. فبالنسبة لجمال باشا، كان إعلان الشريف حسين عن انطلاق الثورة العربية، إلى جانب تأثيراته العسكرية والسياسية الخالصة، "جريمةً استهدفت الإسلام وعظمته[32]". والمعتقدات التي شكلت قاسماً مشتركاً بينه وبين جمال باشا مكنته (أرسلان) من البقاء في سوريا عقب الإعدامات التي نفذت في شهر مايو/ أيار من العام (1916م)، وأفسحت في المجال لجعل اسمه مقترناً بصحيفة الشرق التي كانت تقوم بأعمال الدعاية لجمال باشا. وكانت تلك الصحيفة تناشد الوجدان الإسلامي للمسلمين الموجودين داخل حدود الإمبراطورية من أجل تكوين جبهة إسلامية دولية مساندة للخلافة العثمانية[33]. وكان أداء الصحيفة مصمماً، على الصعيد المحلي، بحيث يعزز سياسات جمال باشا في سوريا، تلك السياسات التي كانت تفقد شعبيتها على نحو متزايد. وقد أرسلت السلطات

العثمانية في ذلك الوقت مستشرقين من ألمانيا إلى دمشق للعمل ضمن هيئة موظفي الدولة، ولتقديم معلومات عن فوائد التحالف في زمن الحرب للشعوب الإسلامية. وحظيت تلك المعلومات بهيئة تحرير متطوعة محلية عملت على طباعتها ونشرها وجعلتها جديرة بالاحترام. وكان أرسلان رئيساً لتحرير صحيفة **الشرق**، وكان لها مديرا تحرير هما محمد كرد علي وعبد القادر المغربي.

وبدت صحيفة **الشرق** أكثر من مجرد أداة لتأمين الدعاية لسياسات جمال باشا. واعترف أرسلان بأن السلطات المركزية شوهت سمعة الصحيفة وقوضت أركانها، بسبب إملائها المضمون الذي ينبغي نشره، واستقال من عمله في رئاسة تحريرها أواخر العام (1916م). ولكن ارتباطه بهذه المطبوعة وتبنيه للسياسات التي كانت تدافع عنها – ظهرت الإعلانات عن إعدامات شهر مايو/ أيار من العام (1916م)، وتبريرات تلك الإعدامات في عدد خاص من صحيفة **الشرق** – كانا مثالاً آخر على تعاونه مع جمال باشا.

وجلب العام (1916م) تغييرات عديدة إلى حياة أرسلان. وتمثل أحدها في اتخاذه قراراً بالزواج في وقت متأخر نسبياً استناداً إلى معايير الزواج في المجتمع العربي، إذ كان له من عمره آنذاك سبعة وأربعون عاماً. وكانت عروسه سُليمى أصغر منه سناً بعشرين سنة على الأقل[34]. أبصرت عروسه النور في منطقة القوقاز التابعة لروسيا، ثم هربت من الاضطهاد القيصري للمسلمين وهي في ميعة الصبا، ويممت أول الأمر مع أسرتها شطر منطقة السلط، وهي جزء من الأردن حالياً، ثم استقرت في اسطنبول حيث التقت بأرسلان. وعلى الرغم من أن سُليمى لم تكن تعرف اللغة العربية في ذلك الوقت إلا قليلاً، فقد تزوجت بأمير البلاغة المستقبلي في بيروت في صيف العام (1916م)، وولد ابنهما غالب في عاليه في العام اللاحق. وجرياً على عادة كُتَّاب السيرة الذاتية العرب، لم يفصح أرسلان عن المشاعر التي كان يكنها لزوجته. واتسم زواجهما بفترات طويلة من الانفصال، وبمكابدته صعوبات مالية، كما اتسم بمعاناته زوجاً ربما كان مهتماً بصورته العامة أكثر من اهتمامه بواجباته الأسرية.

وحتى الوقت الذي أمضياه معاً بعيد الزواج كان قصيراً. ففي أواخر العام (1916م)، ذهب أرسلان إلى اسطنبول ليستأنف ممارسة أنشطته في البرلمان العثماني. ولم يعد بعد ذلك مطلقاً للعيش في سوريا بصورة دائمة من جديد. وكما أشرت في بداية هذا الفصل، كانت سمعته بين كثير من أبناء العرب تستند إلى تصوراتهم عن أفعاله في الحقبة التي تقل عن السنتين قليلاً، وتنحصر بين شهر ديسمبر/ كانون الأول من العام (1914م) وخريف العام (1916م). وعلى الرغم من أن سمعته امتزجت بشيء من الثناء عليه في السنوات اللاحقة، فإنها ظلت تولد شعوراً بعدم الارتياح بسبب ارتباطه (أرسلان) إبان زمن الحرب. وكان الوضع كما لو أن أولئك الذين رغبوا في الثناء عليه وإعلاء شأنه كان عليهم أن يحرروا ضمائرهم مما سمعوا عن أنشطته في سوريا، وكما لو أن مؤيديه اغتنموا الفرصة إما في مذكراتهم أو على صعيد استجاباتهم المختلفة لأحداث معينة، لعرض بيانات تفصيلية لجهود أرسلان التي بذلها إبان الحرب والتي كانت نتاجاً لنواياه الحسنة[35]. ولكن يوجد في هذه الكتابات أيضاً شيء من التحفظ، نوع من الاعتذار عن الحقبة الواقعة بين العامين (1914- 1916م)، عندما كتب أحد معجبي (أرسلان) عنها لاحقاً الآتي: "لقد كان مكرساً للأتراك والألمان...[36]".

وخلال السنتين الأخيرتين من زمن الحرب، كانت أنشطة أرسلان مختلفة اختلافاً ملحوظاً عن أنشطته أثناء الحقبة السورية. فقد استبدلت واجباته المجهدة التي كان يؤديها محلياً بأخرى أكثر كوزموبوليتانية، وذلك من خلال عمله بوصفه نائباً في البرلمان (العثماني) ومبعوثاً إلى أوروبا. أمضى أرسلان معظم العام (1917م) في اسطنبول منصرفاً إلى الاضطلاع بمسؤولياته في البرلمان العثماني. وفي وقت لاحق من تلك السنة، وفي منتصف العام (1918م) أيضاً أوفد إلى ألمانيا مبعوثاً لأداء مهمتين خاصتين بناء على تكليف من قبل أنور باشا[37]. شعر أنور باشا بأنه بإرساله مبعوثاً شخصياً جديراً بالثقة، يمكنه الحصول على معلومات لا تتوفر عادة من خلال القنوات العادية للتحالف الألماني العثماني. وكان شغله الشاغل وهمه الرئيس معرفة الموقف الألماني حيال الأقاليم الشرقية للإمبراطورية، وهي المنطقة التي لطالما كان مهتماً بها اهتماماً خاصاً. وجعل

أرسلان تحوله من الشوف إلى دوائر فايلهيلماني الألمانية تحولاً ناجحاً. واستطاع بأسلوبه المهذب وحذقه السياسي أن يتواصل مع الأوساط الدبلوماسية والأكاديمية، وأرسى معها أسس علاقات استطاع أن يتعهدها بالرعاية وأن يفيد منها في السنوات اللاحقة. وبوصفه صحفياً متمكناً أفاد أيضاً من بعثته تلك في الدعاية للقضية العثمانية في أوساط الجماهير الألمانية، وفي الحض على استمرار التحالف الألماني العثماني(38).

وعندما حققت الثورة العربية انتصارها الأخير، ودخلت قوات فيصل إلى دمشق في شهر أكتوبر/ تشرين أول من العام (1918م)، كان أرسلان في برلين يعمل من أجل خدمة القضية العثمانية. وعندما بدا انهيار الإمبراطورية العثمانية وشيكاً، بذل جهوداً جبارة من أجل العودة إلى الشرق الأوسط، وكان في طريقه في منطقة البحر الأسود عندما جرى توقيع اتفاقية هدنة مودروس في شهر نوفمبر/ تشرين الثاني، التي أشارت إلى استسلام الإمبراطورية العثمانية إلى الحلفاء. فتغيرت وجهة رحلة أرسلان فجأة. وفي ميناء نيكولاييف، التقى بمحض الصدفة بمجموعة من العرب كان بينهم صديقه الحميم عبد العزيز جاويش. وكانوا قد لاذوا بالفرار من اسطنبول بعد أن اكتشفوا أن ولاءهم لحكومة جمعية الاتحاد والترقي إبان الحرب يمكن أن يؤدي بهم إلى السجن(39). فقرر أرسلان أنه هو أيضاً يمكن أن يكون معرضاً للخطر في اسطنبول التي باتت محتلة من قبل البريطانيين، فانضم إلى اللاجئين السياسيين في رحلتهم الصعبة إلى برلين عبر روسيا. وتابع بعد ذلك رحلته ميمماً شطر سويسرا، حيث أمضى بصعوبة السنة الأولى مما أصبحت لاحقاً ثمانية وعشرين عاماً قضاها في المنفى. وكتب أرسلان في مذكراته كيف أخبره أنور باشا، عندما غادر اسطنبول مبعوثاً للمرة الثانية إلى ألمانيا في العام (1918م)، أنه ينبغي أن تستغرق تلك المهمة شهراً واحداً فقط. ولكن أرسلان لاحظ في هذا السياق ملاحظة شابها الحزن والأسى: "لقد بقيت في أوروبا منذ ذلك الحين(40)".

وحتى العام (1919م)، تألق أرسلان بوصفه أحد رواد النخبة العربية العثمانية. وكانت نخبة انتمى إليها بحكم الولادة. غير أنه لم يكن قانعاً بهذه المنزلة الرفيعة

الموروثـــة؛ فامتازت حياته المهنية بالتفاني في الخدمـــة، وبإنجاز مميز على الصعيد الأدبي، بإســـهامه في معترك السياسة. وإن كان أرسلان قد أصاب شـــهرة في مثابرته على بذل المســـاعي على صعيد المهام التي تصدى للاضطلاع بها، فلم يكن ذلك لمجرد رغبته في اســـتعراض مواهبه، بل لأنه كان يعتقد أن الواجب يقتضي التزاماً شخصياً فعلياً. وكان التزامه مكرســـاً للحفاظ على الإمبراطورية العثمانية وعلى النظام الإسلامي الذي دَأَبَتْ على دعمه.

كان ينتمي إلى ذاك النظام ومنه أفاد، أما الآن وقد بلغ عمره خمسين عاماً - إخلاصه للدولة الدستورية هو ســـبب نفيه - فقد بدا شخصاً هامشياً، ثم عاد بعد ذلك ونهض من جديد، وحظي بمكانة دوليـــة. لكن ذلك لم يكن في العام (1919م) واضحاً كيف سيتحقق. وصار وضع أرسلان مضطرباً ومقلقلاً جداً بسبب هزيمة العثمانيين. ووجد التكيف مع الظروف المتغيرة من الصعوبة بمكان. وكان بطيئاً في إدراك حقيقة أن انهيار الإمبراطورية العثمانية نهائي ولا رجعة عنه. وبدا غير قادر على استيعاب القوى الجديدة التي طالبت بولاءات الشـــعوب التـــي كانت خاضعة ســـابقاً للإمبراطورية العثمانية. وتراكبت عند أرسلان اضطرابات الهوية الشخصية الناجمة عن كونه وجد نفسه مواظباً على التعلق بعهد مضى وانقضى إلى غير رجعة؛ تراكبت مع الاختلالات الطبيعية الناجمة عن العيش منفياً. وظلت زوجته ومعها ولده في لبنان في وقت كان يسعى فيه إلى التماس مكان يمكنه الاستقرار فيه، كما يسعى إلى إيجاد حل لمسألة إرثه العثماني العربي المزدوج.

وبعد قضائه معظم العام (1919م) في ســـويسرا، عاد إلى برلين. وعلى الرغم من أن برلين ما برحت تشـــكل قاعدة له حتى أواخر العـــام (1924م)، فإنه لم يمكث حقاً في مـــكان واحد ردحاً طويلاً من الزمن. وحتى ترحالـــه بين المنافي في حقبة ما بعد الحرب كان ترحالاً معقداً متعرجاً تقلب فيه ذات اليمين وذات الشمال. وافتقاره المتكرر للقدرة على تحديد الاتجاه الذي يناسبه كان محبطاً جداً للرجل الذي كان دوماً متأكداً من المكان الذي يضع نفســـه فيه. وعلى مدى سبع سنوات شابها الاضطراب كان هائماً على وجهه ودائم الارتحال بين أوروبا الغربية والشرق، وســـافر من لوزان إلى موسكو، ومن روما

إلى اسطنبول. وكان دوماً واثقاً بمواقفه المناوئة للإمبريالية والمؤيدة للرابطة الإسلامية. بيد أنه كان عالقاً بين القومية العربية حديثة النشأة وبين عالم أوهام الإمبراطورية العثمانية البائدة كما كانت تمثلها جمعية الاتحاد والترقي في المنفى.

ولا يعني هـــذا أنه كان بمنأى عن حركات الاحتجاج العربية التي كانت تتشـــكل حينها. ولســـوف أعرج على انخراطه التدريجي في المعترك الســـياسي القومي العربي في الفصل اللاحق فأتناوله بالبحث والدراســـة. أما هنا فالاهتمام مركز على المكون الآخر من مكونات هويته الذي كان أشـــد إلحاحاً عليه في حينه. وســـأورده كما تجلى في سيرته الذاتية ذلك لأنه يعكس خيارات أرسلان المؤيدة للعثمانيين، ولهذا السبب تطرقت إليه أنا وأغفله كتاب السيرة الآخرون.

بعـــد نجاحه في مغادرة البحر الأســـود في شـــهر نوفمبر/ تشرين الثـــاني من العام (1918م)، لم يحـــاول أرســـلان أن يعود إلى أسرته في لبنان. من جانب لأن سياســـات القوى العظمى كانـــت تحظر عليه فعل ذلك، ومن جانب آخر لأن الامتناع عن العودة كان يتساوق مع ميوله. وفي الأشهر الثمانية عشر الأولى التي قضاها منفياً لم يكن يتناغم مع الانتداب الفرنسي على ســـوريا، بل مـــع الزمن الوجيز الذي بـــدت فيه الأهداف السياسية للثورة العربية تتحقق في دمشق التي باتت خاضعة لحكم الملك فيصل. وتقاطر كثير من أفراد النخب العربية إلى مملكة العرب الجديدة بصرف النظر عن ولاءاتهم زمن الحرب. أما أرسلان فقد بقي في أوروبا، وما انفك يأمل، عقب الحرب مباشرة، في إحياء الإمبراطورية العثمانية وعودتها إلى ســـابق عهدها، ولما يكن بعد مستعداً لأن يلزم نفسه بحركة سياسية عربية خالصة.

ولم يكن أرسلان وحيداً في توجهه المؤيد للعثمانيين، حيث كان القادة الكبار لجمعية الاتحاد والترقي قد فروا من اســـطنبول على متن زورق حربي ألماني قبل احتلالها من قبل القوى المتحالفة، وأعادوا تجميع أنفســـهم في برلـــين بتوجيه من طلعت، حيث حاولوا بكل مـــا أوتوا من إصرار وعزيمة العودة إلى الســـلطة[41]. وكان ثمة داعمون آخرون

لنظام حكم جمعية تركيا الفتاة مشـــتتين ومنتشرين من جنيف إلى موســـكو، ومن مالطا إلى شرقي الأناضـــول، وكانوا يحلمون أيضاً بإحياء الأســـس السياســـية والاجتماعية والأخلاقية للنظام العثماني، وباســـتعادة المناصب والمراكز التي كانوا ينعمون بها داخل بوتقتـــه. وبصرف النظر عن عدم واقعية تلك الآمال كما تبدت في ضوء التطورات التي حدثت لاحقاً، فـــإن الصراع بين مصطفى كمال وبين قيـــادة جمعية الاتحاد والترقي من أجل الســـيطرة على تركيا ما بعد الحرب كان شديداً في الواقع. ولم يكن أحد أشد رغبة في بزوغ شـــمس الإمبراطورية العثمانية مجدداً من شكيب أرسلان. وعلى الرغم من أن إجراء نقاش موســـع لحركة جمعية تركيا الفتـــاة في حقبة ما بعد الحرب يقع خارج نطاق هذا البحث، فإن علاقة أرســـلان الخاصة بها تتطلب تفسيراً. ورؤيته للمستقبل كانت مقيدة بالماضي من خلال التزامه بأهداف جمعية الاتحاد والترقي.

وبدا إحياء جمعية الاتحاد والترقي ممكناً لســـببين: أوضاع الفوضى التي اســـتشرت داخل الأناضول عقب توقيع هدنة مودروس، ورغبات كل من ألمانيا وروسيا في إعاقة الاســـتقرار الذي كان آخذاً بالتبلور بعد الحرب. وجد قـــادة جمعية الاتحاد والترقي في برلين ملاذاً اســـتظلوا فيه بظل المؤسســـة العســـكرية الألمانية، وتلقوا تشجيعاً من قبل الحكومة البلشفية التي وفرت لهم إعانات[42]. وكان الذي رسخ دعائم العلاقة الأخيرة هو أنور باشـــا، الذي كان يعتقد أن حركات الاســـتقلال الوليدة للشعوب الإسلامية المحكومة برفق والموجودة على الحدود الجنوبية لروسيا يمكنها، إذا ما أُحْسِنَ توجيهها، أن تؤمن مســـاعدة عسكرية مباشرة لمصلحة إعادة إحياء الســـلطة العثمانية. ولما كانت هذه الحركات في العام (1920م) موجهة ضد احتـــلال الحلفاء للقوقاز، فمن الممكن أن تدعم قوات البلاشـــفة العسكرية أنور باشـــا لتنفيذ مخططاته. وأعلن أنور باشا من موسكو أوائل العام (1920م) عن تشكيل "اتحاد جمعيات إسلامية ثورية". وفي اجتماع الشـــعوب الإسلامية الذي انعقد في باكو في شهر سبتمبر/ أيلول من العام (1920م)، ألقى أنور باشا خطاباً باسم الحركات الإسلامية الثورية من المغرب إلى الهند[43].

ويفسر هذا الاستعمال المحسوب للمشاعر الإسلامية الجياشة، في جانب منه، انجذاب أرسلان لإحياء جمعية الاتحاد والترقي. وكان الانبعاث السياسي الإسلامي المناهض للإمبريالية والمرتبط بما هو مناهض لها قضية لطالما جعلها أرسلان قضيته الشخصية. وكان متوقعاً منه أن يواظب على دعمها وأن يثابر على منحها طاقاته التي كانت ما تزال رائعة واستثنائية. كما كان متوقعاً منه، على قدم المساواة لكن ليس بالزخم ذاته، مناصرته لهذه القضية بالاشتراك مع جمعية الاتحاد والترقي ذات السمعة المشوهة. وفي الوقت الذي سارع فيه معظم العرب - والأتراك-من الذين لديهم حساسيات سياسية إلى قطع علاقاتهم مع زعماء جمعية الاتحاد والترقي، ظل أرسلان جزءاً لا يتجزأ من دائرتهم. وأبقى على صلاته معهم هم، لا مع الساسة العرب، في السنوات التي أعقبت الحرب مباشرة.

وبدعم من طلعت، انتخب أرسلان رئيساً لنادي برلين الشرقي، وهو مؤسسة صممت بحيث تجمع المسلمين معاً من كل أنحاء العالم. وحتى على صعيد هذا النشاط، كان تماهيه مع جمعية الاتحاد والترقي كبيراً جداً إلى الحد الذي جعل تقرير وزارة الخارجية البريطانية الصادر في العام (1921م) يصفه بالقول: "هو رئيس النادي الشرقي، وأصبح زعيماً للقوميين الأتراك في برلين منذ وفاة طلعت[44]". ويبدو من خلال المراجع التي أعدها أرسلان للنادي أن المنفيين أمضوا كثيراً من أوقاتهم في التخطيط من أجل العودة إلى الإمساك بزمام السلطة. إلى ذلك يشي الانطباع الذي تخلفه تلك المراجع بأن إنجازاتهم الفعلية على هذا الصعيد لا يعتد بها. وعلى الرغم من خططهم الطموحة، فقد كانوا مجموعة تبعث على الأسى وتثير الشفقة، ويعاني أفرادها مخاوف من أن يصار إلى تسليمهم لجهة ما كما يُفْعَلُ بالمجرمين، وكانوا يستعملون أسماء مستعارة، ويحلمون باستعادة مجدهم التليد أحلاماً ميؤوساً منها، وتطاردهم المشكلات المحدقة باللاجئين السياسيين جميعهم - لقد أُسْقِطَ في أيديهم: ما عساهم يفعلون وأين يستقرون وكيف يعيشون! وفي ظل هذه الأجواء الثقيلة الوطأة التي استبدت بهم، لم يكن مستغرباً أن تسترعي اهتمامهم مغامرات أنور باشا البراقة في القوقاز، وأن توقد لدى بعضهم على

الأقل شـعلة آمال بعودتهم إلى الإمساك بزمام السـلطة منتصرين من جديد تحت راية الإسلام المجاهد.

وكان أرسلان أحد أكثر المتحمسـين لأنور باشا المعجبين به، وأسرته جاذبية زعيم جمعية تركيا الفتاة من أول لقاء ضمهما في ليبيا. عمر أنور باشـا في ذاكرة أرسلان طويلاً بعـد وفاته[45]، ومر زمن كانت حياة كل منهما فيـه مرتبطة بحياة الآخر ارتباطاً وثيقاً، عنوانه الأرستقراطية الأدبية والمغامرات العسكرية. كانا شريكين في السذاجة السياسية وفي الاعتقاد بأنه يمكن توجيه المشاعر الإسلامية الجياشة توجيهاً يكفل تلاحمها بحيث تغدو عاملاً رئيساً في العلاقات الدولية. وقد أكد أنور باشا في رسالة خَطَّها إلى مصطفى كمال في السادس عشر من يوليو/ تموز من العام (1921م) على الآتي: "أما أنا، فلسوف أمتثل إلى المثل العليا وحدها. وهذا يعني أنني سـأعمل على لم شـمل المسلمين ورص صفوفهم، والتصدي للوحوش الأوروبيين الذين يسـحقون الإسلام[46]". وكان هذا المثل الأعلى لأرسـلان أيضاً طوال حياته. وعلى الرغـم من أنه كان يقر من حين لآخر بتهور مخططات أنور باشا، فإنه كان مفتوناً بصورة أنور البطولية افتتاناً لا أمل في الشفاء منه. وقد تجشـم أرسلان عناء القيام برحلة شـاقة إلى موسكو في شهر يونيو/ حزيران من العام (1921م) دفعه أنور باشـا إلى القيام بها. وعلى الرغم من أن ما قاله أرسلان عـن تلك الرحلة كان قليلاً جداً، فإن وثائـق وزارة الخارجية البريطانية تؤكد أنه قابل شـيشرين وناقش معه شؤون منطقة القوقاز السياسـية[47]. وأما النتيجة غير المتوقعة لرحلة أرسلان إلى موسكو فقد أكسبته سمعة لكونه متعاطفاً مع الشيوعيين.

وبعد عودة أرسـلان إلى برلين في شـهر يوليو/ تموز من العـام (1921م) بوقت قصـير بدأت أحلام إحياء جمعيـة الاتحاد والترقي تنهار. فقد تبددت آمال أنور باشـا باسـتعراض قوة جمعية الاتحاد والترقي استعراضاً عسكرياً في الأناضول، بفعل انتصار الكماليـين الذي حققوه على الغزاة اليونانيين وتوطيد دعائم وضعهم العسـكري. وفي الوقت نفسـه، كان البلاشفة قد فقدوا حماسهم حيال الجيوش الإسلامية المتحركة التي كانت تجوب المناطق الجنوبية من بلادهم. وأرسلوا، عوضاً عن دعمهم تلك الجيوش،

الجيشَ الأحمر لاحتلال تلك المنطقة. وعلى الرغم من ذلك، ظل أنور باشـا متناغماً مع نفسه وثابتاً على مبدئه في سعيه لتأييد القضايا الإسلامية التي كانت ميئوساً منها. ومات بينما كان يقود هجوماً ضد قوة تابعة للجيش الأحمر في شـهر أغسطس/ آب من العام (1922م). وأحزن موته أرسـلان حزناً شديداً إلا أنه، مقترناً بأحداث أخرى، أسدى له خدمة تمثلت في جعله يدرك مدى عقم آماله في إحياء المجد العثماني إحياء كاملاً.

وفي أوروبا أيضـاً، أبيد معظم أعضاء قيادة المنفيين من أتباع جمعية الاتحاد والترقي، حيث انقلبت عليهم سياسـتهم المشـهرة التي انتهجوها زمن الحرب وجعلتهم هدفاً لكراهية عارمة. وكانت الفرصة سانحة لمسلحين أرمن للانتقام في شوارع برلين، حيث اغتالوا طلعت في شـهر مارس/ آذار من العام (1921م)، والدكتور عزمي والدكتور بهاء الدين شـاكر في العام (1922م). وفي روما، قتل رئيس الوزارة الاتحادي الأسبق في الدولة العثمانية، محمد سعيد حلمي، في العام (1921م). وفي تفليس البعيدة، أصبح جمال باشـا السـفاح، وهو الحاكم المتوحش الذي حكم سـوريا زمن الحرب، ضحية أخرى من ضحايا الاغتيالات التي نفذها الأرمن فيها في العام (1922م). لقد نسـف قتل كل هؤلاء كلياً تحركات اللاجئين ومناوراتهم الطامحة إلى استعادة الحكم. ويضاف إلى ذلك أن الأوضاع في الأناضـول لم تعد متقلبة مضطربة، حيث ألغى مصطفى كمال السـلطنة العثمانية في شـهر نوفمبر/ تشرين الثاني من العام (1922م)، وحصل على اعتراف ديبلوماسي بجمهوريته عبر توقيع معاهدة لوزان في شهر يوليو/ تموز من العام (1923م).

اسـتجاب أرسـلان لهذه التغييرات بصرف انتباهه إلى قضيـة الاحتلال الأوروبي لمقاطعـات عثمانيـة عربية أكثر فأكثـر. ولم يعمل من فوره على التخلـص من آماله في تشـكيل حركة ذات قاعدة إسـلامية، بل ما فعله كان مجرد إعـادة توجيه تلك الآمال بحيث صـارت تتمركز حول التعـاون التركي العربي. وزار اسـطنبول أول مرة بعد الحرب أواخر العام (1923م) في محاولة لتشكيل جبهة عربية تركية مشتركة تعمل على طرد الفرنسيين من سوريا. إلا أن مصطفى كمال رفض تلبية نداءات أولئك الذين حثوه

على إعادة إرســـاء حدود عثمانية في البلاد غير الناطقة باللغة التركية. ثم استقر أرسلان بعد ذلك في مدينة مرســين التركية القريبة من الحدود الســورية، حيث أمضى الأشهر الثمانية الأولى من العام (1924م). وكان يوجد إيحاءات تشير إلى تدبيره مكيدة باختياره الموقع. وذكرت المخابرات الفرنسية أنه كان قائداً معترفاً به للجان الثورية العربية في كل من دمشق وحلب[48]. غير أن المعلومات الفرنســية التي طرحت في هذا المقام ليست صحيحة؛ وذلك لأن تصرفات أرسلان في مرســين تقطع بصحة التفسير الذي أفاد به تبيانــاً لوجوده هناك: "كنت آمل أن أرى عائلتي وأصدقائي الذين خشــيت أن يُغيِّبَ الموت بعضهم قبل أن أتمكن من العــودة، بخاصة أمي وأخي. ولأن أمي لم تتمكن من المجيء إلى أوروبا، ولأنه لم يكن في وســعي أن أذهب إلى سوريا، أو فلسطين، أو حتى مصر... توجهت إلى مرســين حتى أكون قريباً قدر المستطاع من سوريا تسهيلاً لرحلة أمي[49]".

التم شمل الأسرة في ربيع العام (1924م)، وكتب أرسلان عن ذلك الحدث معرباً عن ســعادته لرؤيته أمه، ولقائه بزوجته وابنه بعد فراق دام ست سنوات[50]. وكانت تلك المناسبة إحدى المناسبات القليلة في حياته الزوجية التي كرس فيها أرسلان اهتمامه الكامل لغالب، حيث عكف عــلى العناية بتربيته، ووضع خطة لتعليمه. والأمير الذي لم يعرف الاســتقرار في حياته لم يكن وضعه مناسباً لأن يعيش حياة أسرية مثالية. وعلى الرغم من أنه اختار أن يعيش في مرســين لوعدها بتأمين حياة هادئة ولقربها من سوريا أيضاً، فإنه سرعان ما وجد نفســه يرزح تحت وطأة عزلة فرضت عليه عبر إكراهه على الإقامة في جنوبي تركيا. واشتكى لرشــيد رضا محتداً ومتذمراً من القيود التي يفرضها العيش في بلدة صغيرة. وكتب له: "ولو أردت أن أخرج إلى السوق بالقفطان ما لاحظ ذلك أحد، وتمضي الجمعتان والثلاث ولا يأتيني زائر... وبمدة خمسة أشهر ما أدبت إلا مأدبة واحدة[51]".

مدفوعاً بشــعوره بعدم الارتياح من جراء استبعاده من دوائر النفوذ السياسي، ترك أرســلان أسرته وعاد إلى أوروبا ليقضي فيها عدة أشهر في وقت متأخر من صيف العام

(1924م). وأجـرى مجموعة من الاتصالات وأقام علاقات جديدة مع الجالية العربية التي تتخذ من سـويسرا منفى لها. وعزز علاقاته مع المسـؤولين الألمان في برلين[52]. وفي شـهر يناير/ كانون الثـاني من العام (1925م) عاد إلى مرسـين. وعلى الرغم من أنه قضى فيها أيضاً ثمانية أشـهر أخرى، لم يكن يعتـزم أن يتخذ منها مقراً دائماً لإقامته؛ ذلك لأنها معزولة جداً عن مراكز الأنشـطة السياسـية والاجتماعية. وعندما اندلعت الثورة السـورية ضد الانتداب الفرنسي صيف العام (1925م)، اقترح المنفيون في كل من القاهرة وأوروبا تشكيل وفد يمثل مصالح سوريا أمام عصبة الأمم. وعَدَّ أرسلان المسألة طارئة وشديدة الإلحاح وقرر أن يعود إلى أوروبا[53].

ومهما كان الهدف المقصود من إقامة أرسـلان في مرسين، فقد شكلت تلك الإقامة نقطـة تحول في طيه نهائياً صفحة إحيـاء الإمبراطورية العثمانيـة، وفي تنامي تماهيه مع "العروبة" سياسـياً. بعد انقضاء حقبة إقامته في مرسـين، أنشـأ مجموعة من الروابط الجديدة وكانت عربية الهوية بالمقام الأول، وشارك في ضرب من النشاط السياسي الذي دعا إلى التوجه إلى المسـتقبل، لا إلى الماضي. ولم يَتَخَـلَّ عـن أولوياته المتمثلة في إقامة اتحاد إسـلامي مناهض للإمبريالية، لكنه ركز على الاهتمامات السياسية مؤكداً، لا على اسـتعادة الأمجاد العثمانية، بل على أنشـطة أكثر قرباً وأوثق ارتباطاً بالمناضلين العرب، وهو الذي عَدَّ قضيتهم ذات مرة مقيتةً وتبعث على الاشـمئزاز. ولكي يحقق النجاح في توجهه هذا، كان عليه أن يقدم أوراق اعتماده بوصفه مسـلماً عربياً، وأن يزيل السـمعة التي لحقت به بوصفه مسـاعداً سابقاً للمجرم جمال باشـا. لقد كانت مهمة هائلة، كما كانت عامة وعلنية جداً وجماهيرية أيضاً، وحققت لأرسلان الاهتمام الذي كان يلزمه.

الفصل الثالث

تبني القضية العربية

وقــد كان هذا دأب كثير من المخلصين الذين قاوموا سياســتي قبل الحرب وفي أثنائها، وكانت مقاومتهم عن عقيدة واقتناع. فلما انجلى الغبار وانكشــفت الأسرار وعرفوا أني ما تكهّنت إلا بما وقع عادوا فوضعوا أيديهم في يدي، وعوَّلوا عليّ.

أرسلان[1]

ليســت نوعية السيد هي التي تثير اهتمام السوريين، بل ما يثير اهتمامهم قضية أن يكونوا سادة أنفسهم.

أرسلان[2]

كان التركيز الرئيس لالتزام شــكيب أرسلان الشخصي عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى مباشرة منصباً على استعادة النظام العثماني، ووفقاً لما جرى استعراضه في الفصل السابق من هذا الكتاب، فقد كانت ارتباطاته بصورة رئيسة مع من كانوا ذات يوم حكام ذاك النظام الأقوياء. كانت توجد أحداث ضمن الأقاليم العربية الســابقة اســترعت أيضاً اهتمام أرســلان واستقطبته إلى مدار العرب فضلاً عن المنفيين الأتراك. وقد شكل إنشــاء نظام الانتداب في كل من سوريا وفلسطين اختلالات كبيرة في النمط الاعتيادي للعلاقــات الإدارية في المنطقة، ونجم عنه إعادة ترتيب الارتباطات السياســية للأفراد

الـــرواد والأسر القياديـــة. وحتى عندما كان في برلين، تأثر أرســـلان من جراء تفكيك النظام القديم في المشرق العربي.

ولم تكد فرنسا تحكم قبضتها على سوريا الخاضعة لسلطة الانتداب، وذلك باستيلائها على دمشـــق وتفكيك مملكة فيصل في شـــهر يوليو/ تموز من العـــام (1920م)، حتى أنشأت بنية أطلق عليها ســـتيفن إتش لونغريغ اسم "البنية متعددة المكونات"، وسماها آخرون سياسة: فَرِّقْ تَسُـدْ[3]. وعلى الرغم من أن إعادة تنظيم المناطق والأقاليم ظلت سمة ثابتة من سمات نهج الانتداب حتى نيل الاستقلال، فإن التقسيمات الإدارية كانت قد رســـمت في العام (1920م). وكان أكبر المستفيدين منها موارنة لبنان. فقد ضمنت السياسة الفرنسية عبر تلك التقســـيمات ألا يُصَارَ إلى إخضاع موارنة لبنان والمسيحيين الآخرين إلى سُـــنَّةِ دمشق. وتحقق ذلك عبر تشكيل ما سمي بلبنان الكبير المستقل ذاتياً، وشكل فيه الموارنة أكبر تجمع أحادي التركيبة (الدينية الطائفية). ولكنهم لم يشكلوا، على أي حال، أغلبية مذهبية بين الســـكان؛ ذلك لأن المتصرفية القديمة كانت منضوية تحت لواء المناطق الخاضعة للهيمنة الإســـلامية في كل من بيروت، وصيدا، والبقاع، ومناطق أخرى كانت في صميم الحياة الزراعية والتجارية والسياسية السورية التقليدية. وجرى تقطيع جوهر الكيان الســـوري أكثر فأكثر، وذلك عبر إنشـــاء دولة العلويين في المناطق الســـاحلية المهمة من اللاذقية، وإنشاء حكم وكيان لجبل الدروز في منطقة حوران، فيما شُـــكِّلَتْ الدولة الســـورية حول مناطق مدن دمشـــق، وحلب، وحمص، وحماة، وهي مناطق باتت بموجب هذا التقســـيم معزولة عن المنافذ الطبيعيـــة التقليدية الضرورية لتصريـــف منتجاتها. وبطبيعة الحال، كان الانتداب البريطاني في فلســـطين يمثل منطقة عزل وفصل أخرى، الأمر الذي عده كثير من العرب يشـــكل، مع التقسيم الذي جرى وسبقت الإشارة إليه، سوريا الكبرى.

وأدت هذه التقســـيمات الإقليميـــة إلى إثارة ردود فعل متنوعـــة ومتباينة بين القادة العرب داخل مناطق الانتداب وخارجها. فقـــد كان الموارنة على وجه العموم راضين عن الحماية الفرنســـية، ورأوا أن مصالحهم تتحقق على أفضل وجه بواسطة الحفاظ على

لبنان الكبير. ومن المرجح أن تكون حالة الرضا هذه قد انسحبت على كثير من الوجهاء المسلمين السوريين الذين كانوا على استعداد للعمل ضمن إطار الانتداب ما دام يحافظ على وضعهم التقليدي. ولكن في دمشق، بخاصة في أوساط من تبقى من الذين كانوا مسؤولين في حكومة فيصل، كان يوجد فيض من المشاعر الجياشة للقومية العربية، فضلاً عن مشاعر غضب عارم وإحباط ناجمة عن فرض الانتداب، وفقدان الاستقلال السياسي، وعن التقسيم التعسفي للبلاد.

وعلاوة على ما تقدم، نفرت سلطات الانتداب الفرنسي منها القوميين السوريين ووجهاء محليين على حد سواء بسبب طبقة موظفيها ثقيلي الوطأة. لقد كان حضور موظفي الانتداب الفرنسيين المتعددين في كل وزارة من وزارات الدويلات السورية الأربع، مروراً بمجموعة المستشارين الفنيين، وبوحدة خدمات المعلومات العسكرية الخاصة المقيتة التي كان لها نفوذ عميق الغور في سلطة الانتداب، كان حضورهم جميعاً كامل النفوذ وثقيل الظل[4]. وبينما كان البريطانيون يرخون قبضة انتدابهم على العراق تدريجياً وصولاً إلى نقطة منح العراقيين استقلالهم في العام (1932م)، كانت السياسة الفرنسية في سوريا تخلف مزيداً من الاستياء والنقمة في أوساط النخبة الوطنية، من الذين شعروا أن دولتهم أكثر جاهزيةً واستعداداً لأن يحكموا أنفسهم حكماً ذاتياً من المناطق المتخلفة المدمجة دمجاً غير ملائم والتي تشكل العراق.

وبالنسبة لأفراد النخب من الطبقات السياسية والفكرية السورية، كانت السياسات الفرنسية غالباً ما تعد تخريبية إلى حد شديد الإيلام. فمنذ البداية، تبنت سلطات الانتداب تطبيق سياسة النفي وتنفيذ أحكام الإعدام بالوطنيين[5]. فمعظم أعضاء مجلسي فيصل الاستشاريين، فضلاً عن الضباط الذين قاتلوا تحت لواء الثورة العربية اعتقلوا في وقت من الأوقات أو أدينوا غيابياً. وفي ظل هذه الظروف، تضاعف عدد اللاجئين السياسيين السوريين كثيراً، وازدادت المنظمات السورية في المنفى عدداً. ولما فرت النخبة السورية من اضطهاد نظام السلطان عبد الحميد إلى مصر، التي كانت متسامحة نسبياً في ظل حكم كرومر في العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر، تجمع أفرادها من جديد في القاهرة،

حيث أسسوا مجلات كما فعل أسلافهم، ونظموا لجان احتجاج. وكانوا ناشطين أيضاً في مدن أوروبا، بخاصة في باريس، وبرلين، وبوينس أيرس، وفي ديترويت ونيويورك، "حيث ما برحوا يحاكمون المعلومات المجزأة والمتحيزة التي تخص الشؤون العامة لأوطانهم الأم، ويرسلون البرقيات إلى كل من جنيف، وباريس، وبيروت نُصْرَةً لأي من سياسات سوريا ولبنان، أو تأييداً لسياساتها المحتملة جميعها[6]".

وبالنسبة لطالب يدرس تاريخ الشرق الأوسط الحديث، يمثل تَغَيُّرُ الظروف هذا منعطفاً حاسماً. فلدى إلقاء نظرة فاحصة على هذا الأمر من منظور النخب الاجتماعية والسياسية العثمانية العربية، يعد ذلك تَغَيُّراً، على الرغم من كونه في كل الأحوال حصرياً، وثيق الصلة، بخاصة، بأبناء الجيل العربي الذين ولدوا بين أواسط ستينيات القرن التاسع عشر وأواسط ثمانينيات القرن نفسه تقريباً، وهم الرجال الذين أتيح لهم من الوقت ما يكفي لتأسيس نماذج أعمال ناجحة، وربما لتحقيق التميز داخل بوتقة الإمبراطورية العثمانية، إنهم الرجال الذين كانت بالنسبة لهم الإمبراطورية العثمانية حقيقة من حقائق الحياة، وكان السلطان الخليفة بالنسبة لهم مركز ولائهم. وبعد العام (1919م)، بات لزاماً على هذا الجيل أن يتكيف مع تلاشي الإمبراطورية العثمانية، ومع وجود الإدارتين الإمبرياليتين البريطانية والفرنسية، ومع إلغاء الخلافة والتقسيمات الإدارية، والقضاء، أي إلغاء المؤسسات والرموز التي عرفوا أنفسهم من خلالها. فتمرد بعض أبناء النخب المذكورة، وأذعن بعضهم للأمر الواقع بانتظار تحسن الأوضاع، ومنهم من نفي قسراً، ومنهم من هاجر طوعاً.

كان أرسلان علماً بارزاً من الذين تشملهم الفئة الأخيرة. وسيعمل هذا الفصل من الكتاب على استكشاف الجزء الثاني والحاسم من تكيف أرسلان في حقبة ما بعد الحرب وظهوره من جديد بوصفه ناطقاً مؤثراً يتحدث عن القضية العربية الإسلامية. ومن خلال الجمع بين مبادرته الشخصية والشهرة التي انبغت له في الوقت المناسب، أصبح أكثر من مجرد عضو آخر مبعد عن وطنه من أتباع النظام القديم. وبوصفه منظماً للجمعيات، ورئيساً للمؤتمرات، ومعلماً مرشداً للشباب الوطنيين والقوميين، وصحفياً

وافر الإنتاج، ومندوباً سورياً في عصبة الأمم، فقد جمع في شخصه الحركات العربية الإسلامية والساخطة على الاستعمار؛ فنال بذلك مرتبة رفيعة لا تتحقق بسهولة. وجدير بالذكر أنه، لم يتأتَ له دوره بوصفه متحدثاً باسم العرب عن قضاياهم السياسية والقومية بصورة طبيعية. ولم يكن ينظر إليه في البداية بوصفه مجنداً مرحباً به في رحاب القضية العربية. فقد كان عليه، قبل أن يغدو شخصاً بارزاً في حركة عرب المنفى، أن يتواءم مع حالة إخفاق الدولة العثمانية، وأن يعيد صياغة هويته العثمانية عبر سبكها في قالب عربي أكثر ملاءمة.

ولم يكن موقفه المؤيد للعثمانيين قبل الحرب وأثناءها في حد ذاته مشكلة لا يمكن التغلب عليها؛ نظراً لنهج رجال مثل محمد كرد علي، وساطع الحصري، وياسين الهاشمي وآخرين كثيرين من الذين أصبحوا يعرفون بمواقفهم القومية العربية أو المحلية والإقليمية الوطنية على الرغم من أنهم كانوا سابقاً مساندين للدولة العثمانية. وجُعِلَ موقف أرسلان في هذا الإطار أشد صعوبة من حيث المبدأ، وذلك بسبب ارتباطه الدائم والثابت مع النظام (العثماني) القديم. وسهل تحول ولائه النهائي انهيار حركة جمعية الاتحاد والترقي، والحقيقة البسيطة المتمثلة في أنه لم يعد ثمة وجود لحكومة عثمانية يمكن أن تستعاد. وأجبرته سياسات الدولة التركية الجديدة نفسها على التنديد بالحكومة العثمانية البائدة. ولم يكن هناك مجال للتعاون بين أشد المنادين باستمرار الخلافة والمدافعين عنها مثل أرسلان وبين دولة أتاتورك العلمانية القوية. وكان بناء على ذلك مدفوعاً إلى البحث عن هوية عربية، وإن كانت وفقاً لما حدده الإسلام.

وفي مطلع عشرينيات القرن العشرين، كان يدلي بين الفينة والفينة ببيانات وتصريحات تتعلق بمسائل عربية، وكان أبرزها التصريح الذي أدلى به في العام (1923م)، ودعا من خلاله إلى تأسيس جامعة عربية يكون من شأنها العمل على مكافحة الضعف المتأصل في دول عربية عديدة لكل منها كيان مستقل ومنفصل عن الدول الأخرى[7]. وفضلاً عن دعم زعمه بوصفه ممثل العروبة، غالباً ما كان أرسلان يستغل بياناً يزعم أنه أدلى به الملك فيصل الذي كان آنذاك ملكاً على العراق، وضمنه في رسالة أرسلها لأرسلان

وكتب فيها مخاطباً أرسلان: "أشهد بأنك أول من تكلم معي من العرب في قضية الوحدة العربية[8]". وخارج السياق، يمكن أن يفسر كلام الملك فيصل هذا بوصفه ينسب إلى أرسلان الفضل في توفره على برنامج باكر من أجل قيام وحدة سياسية بين دول عربية عديدة انفصلت عن الإمبراطورية العثمانية. والأمر الأكثر رجحاناً هو أن هذا الكلام يشير إلى مشاعر مماثلة لتلك التي عبر عنها أرسلان في مقالة عنوانها: "أزفت ساعة الاتحاد أيها العرب"، وهي المقالة التي كان تركيزها أضيق نطاقاً بكثير مما يوحي به عنوانها؛ ذلك لأنها كانت مقتصرة على الشخصيات البارزة في شبه الجزيرة العربية فقط[9].

وعلى الرغم من هذه التأكيدات وغيرها على اهتمامه بالقضية العربية، فإن أرسلان لم يبذل جهداً منسقاً لنيل القبول بوصفه متحدثاً معتمداً باسم العرب بكل معنى الكلمة إلا بعد أن استقر في سويسرا بصورة دائمة، وقبل تحمل المسؤولية التي أفضت إلى تمثيله القضية السورية في عصبة الأمم. ولم يكن من قبيل المصادفة ظهور سلسلة من مقالاته في تلك المرحلة عن العروبة كما يفهمها هو. وتشير تلك المقالات إلى أنه رأى أن أصوله الدرزية تشكل عائقاً يحول دون قبول الآخرين اضطلاعه بمهام دوره الجديد أكثر مما كان يفعل انتماؤه العثماني. وبناء على ذلك، ذهب بعيداً، وإلى أقصى مدى ممكن، في تأكيد عروبة الدروز، وفي القضاء على أي شكوك تحوم حول انغلاق الدروز على أنفسهم دينياً، أو حول انحرافهم الديني. وكانت الحجج التي ساقها في هذا الصدد حازمة أكثر منها مقنعة. وزعم أن للدروز خطاباً عربياً عَزَّ نظيره براعةً وتفوقاً خارج نطاق شبه الجزيرة العربية. وأكد أن الدروز والعرب متماثلون من حيث الهيئة والمظهر، وهي حقيقة رصدها، والكلام لأرسلان، رجل رفيع المكانة هو "أستاذي محمد عبده"[10]. وكان حريصاً، بصورة خاصة، على ربط الدروز، بوصفهم جماعة دينية، بالفاطميين الإسماعيليين مؤكداً بذلك الطابع الإسلامي المتأصل للمعتقدات الدرزية، وشدد على مراعاة الجماعة لممارسات العقيدة الإسلامية وعلى اعتمادها على القرآن الكريم. وكان هدفه من تأكيده وتشديده هو التعتيم على أهمية الطقوس السرية والنصوص

التكميلية[11]. ومهما بدت هذه الحجج متكلفة، فهي تعبر عما كان يحبذه أرسلان، فقد كانت حياته كلها رفضاً وإنكاراً لانغلاق الدروز واقتصار المذهب على أبنائه، وزواجه من غير بنات طائفته شكل انفصالاً حاداً عن العرف المفضل. وعلى الرغم من أن لقبه الأميري كان مرتكزاً على هيبة أسرته السياسية بوصفها أسرة درزية، فقد حقق شكيب نجاحاً ملحوظاً في ترسيخ نفسه بوصفه مسلماً أصيلاً قوياً كرس نفسه لخدمة مصالح الإسلام السني. وعندما عاد أرسلان إلى بلاد الشام في العام (1937م)، وأمضى فيها مدة وجيزة، ذكر المندوب السامي الفرنسي أن بعض أعيان طائفة الموحدين اللبنانية وبخوا الأمير "بسبب تحوله الصريح عن معتقده إلى الإسلام [كذا][12]". وفي حين كان كاتب سيرته، أحمد الشرباصي، الذي تخرج في جامع الأزهر الشريف حساساً لجهة ازدواجية موقف أرسلان المذهبي، فقد خلص إلى الحكم الآتي: "لقد كان الأمير شكيب سنياً[13]".

لعب رشيد رضا دوراً رئيساً في إعادة إدماج أرسلان في بوتقة القادة العرب الذين شعروا بالتهميش بفعل سياساته التي انتهجها زمن الحرب. كان رضا قد تعرف إلى أرسلان منذ العام (1895م). وكان كل منهما أثيراً لدى الآخر عزيزاً عليه، وكلاهما معجبان بإصلاح حال الإسلام تبعاً لأسلوب محمد عبده، وكانا يعتقدان أنه يمكن تطبيق تعاليمه في مجتمع ما بعد الحرب. كما كانا على خلاف شديد حيال دعم رضا لمجتمع قائم على اللامركزية في ظل الدولة العثمانية: ("أعداء الإمبراطورية"، كما يراهم أرسلان)، لكن صداقتهما عادت إلى سابق عهدها عقب انتهاء الحرب[14].

وكما كانت جمعية الاتحاد والترقي تأمل في استغلال وضع أرسلان في العام (1913م)، كذلك تمنى رضا أن يفيد من قدراته في مناخات ما بعد الحرب. كان يدرك أن أرسلان بارع في عالم الدعاية، وأنه جريء وصريح، وأنه يشترك معه في الرأي وفي وجهات النظر. وكان يعي أيضاً أن رجلاً يتوفر على هذه السجايا لا ينبغي أن تترك طاقاته لتتبدد في برلين ومرسين. لذلك زج به رضا في صلب المقاومة العربية، وحتى موته في العام (1935م)، أحاطه برعايته، ونشر كثيراً من كتبه، وكان يصاب أحياناً

بالإحباط الباعث على اليأس من تعنته، إلا أنه كان يوفر له الحماية دوماً؛ لأن أرسلان لم يكن مجرد صديق بل كان، إلى ذلك، خطيباً مفوهاً ومتحدثاً مؤثراً باسم الاستقلال العربي والصحوة الإسلامية. وفيما كانت تتوثق عرى العلاقة بينهما، أفاد كل منهما من تلك العلاقة.

بادر رضا إلى إطلاق إيماءة المصالحة الأولى. وإبان عهد فيصل ملكاً على سوريا، كتب إلى أرسلان حيث كان في برلين: "إنه مضى الذي مضى، وصار علينا أن نجتمع ونتفق لأجل معالجة الحال الحاضرة[15]". وتعززت عملية إصلاح ذات البين أكثر عبر المؤتمر السوري الفلسطيني الذي انعقد في جنيف أواخر صيف العام (1921م). كان المؤتمر أول مظهر من مظاهر الاحتجاج العربي المنظم الذي أعقب فرض الانتداب الفرنسي على سوريا، ودُعِيَ إلى انعقاده من أجل بلورة موقف متماسك مناهض لنظام الانتداب، ومن أجل تقرير أفضل السبل المناسبة لعرض هذا الموقف على عصبة الأمم[16].

كان المحرك والقوة الدافعة الكامنة وراء تنظيم المؤتمر وتمويله هو الأمير ميشيل لطف الله، وهو صاحب أراض وتاجر ثري من طائفة الروم الأرثوذكس، ومن أبناء الجالية السورية المقيمة في مصر. كان أبوه، حبيب باشا، مقاولاً كبيراً وجريئاً راكم ثروة كبيرة بوصفه تاجراً ومرابياً، واستعمل ثروته في شراء أراض شاسعة معدة لزراعة القطن، وأصبح أحد أثرى أثرياء مالكي الأراضي في مصر[17]. وقد منحته الحكومة المصرية لقب باشا في السنة الأخيرة من سنوات عمره المديد، وأسبغ عليه الشريف الحسين ابن علي لقب أمير الذي يمنح للأعيان، ومنحه هذا اللقب بموجب السلطة المتقلقلة والآيلة للتداعي بوصفه ملكاً للعرب. وبناء على ذلك، فضلاً عن توريثه أبناءه الثلاثة ثروة هائلة، أورثهم ألقاباً نافعة. وخلف هذا المزيج لدى أحد الصحفيين الفرنسيين انطباعاً بأن أبناء لطف الله "ملومون بسبب ثروتهم التي تعد هائلة، وبسبب ترقيتهم إلى مرتبة النبلاء، وهذا يعد فخاً آخر، وبسبب طموحاتهم التي وصفت بأنها مفرطة ومشوبة بالعجرفة[18]". وميشيل المولود في (العام 1880م تقريباً)، وهو الابن البكر الذي ارتبط معه أرسلان بعلاقة كانت الأكثر ديمومةً، كان زعيماً فاعلاً ونشطاً للجالية

السورية في القاهرة، وغدا بعد الحرب منظماً قوياً للشؤون المتعلقة بقضية الاستقلال السوري.

وثبت أن المؤتمر كان بالغ الأهمية بالنسبة إلى أرسلان وانتخب أميناً عاماً له، وأفاد من هذا المنصب ليظهر بوصفه شخصية بارزة في أوساط المنفى. انتخب لطف الله رئيساً للمؤتمر ورشيد رضا نائباً للرئيس. وشكل الأخيران إلى جانب كتلة مرتحلة من منفيين آخرين، ومنهم أسعد داغر، لجنة تنفيذية دائمة للمؤتمر اتخذت من القاهرة مقراً لعملها. وقرر المؤتمر أيضاً تشكيل وفد أوروبي دائم من أجل تمثيل الشعبين السوري والفلسطيني أمام عصبة الأمم. واختير لأداء هذه المهمة كل من شكيب أرسلان وإحسان الجابري وسليمان بيه كنعان، وهو ماروني لبناني[19]. وأصبح ما تبقى من حياة أرسلان متشابكاً تشابكاً وثيقاً مع حياة الجابري، ومع الخدمات التي كان بحاجة إليها الوفد السوري الفلسطيني الذي حدد مهامها على مدى معظم الحقبة الفاصلة بين الحربين العالميتين.



الوفد السوري الفلسطيني، جنيف، 1921
الجالسون من اليسار: سليمان كنعان ورشيد رضا وميشيل لطف الله وطعن العماد وتوفيق حمد وشكيب أرسلان. والواقفون من اليسار: إحسان الجابري وشبلي الجمل ونجيب شقير وأمين التميمي

كان الجابــري (1882 - 1980م) المتحدر من أسرة حلبية متميزة، حاله حال أبناء لطف الله، مشــبعاً بفكرة خدمة الدولة العثمانية، ولديه طموح ســياسي شخصي. وبعد تلقيه تعليماً قانونياً في كل من اســطنبول وباريــس، ترأس الجابري بلدية حلب، وخدم لاحقاً في قصر الســلطان بوصفه ســكرتيراً لخليفتين ورثا العرش بعد الســلطان عبد الحميد. وأدت أســاليبه المتطورة بالملك فيصل إلى تعيينه رئيساً لأمناء المملكة السورية. وعندما احتل الفرنسيون دمشق في العام (1920م)، فر الجابري بمعية الملك فيصل إلى أوروبــا، وانضم إلى المجموعات المنفية فيها. وعلى الرغم من أنه لم يعد نشــيطاً وفاعلاً بقدر ما كان أرســلان، فإنه تفانى في خدمة القضية الســورية الفلســطينية، وقال عنه أرسلان: "هو رفيقي في السلاح في النضال الوطني الذي خضناه معاً[20]".

وشارك أرســلان نفســه في طائفة متنوعة من الاحتجاجات، الأمر الذي حقق له مســتوى رفيعاً من الاعتراف به من رفاقه ومواطنيه ومن خصومه الأوروبيين على حد سواء. وفي شهر مايو/ أيار من العام (1922م)، ألقى كلمة أمام مؤتمر لرابطة الشعوب المضطهدة انعقــد في مدينة جنوة الإيطالية، تحدث فيها عــن الحاجة إلى إقامة علاقات أوثق مع الدول التي لا أطماع لها في (بلادنا) مثل إيطاليا، وفي شــهر يوليو/ تموز، ذهب إلى لندن من أجل الاحتجاج على قرار أصدرتــه عصبة الأمم ويقضي بإقرار الانتداب المزدوج على ســوريا وفلسطين، وفي شــهر أغســطس/ آب، ظهر في روما سعياً وراء الحصول على دعم إيطالي في عصبة الأمم[21]. ولم يكن في وسع ناشط عربي مواظب على الإقامة في برلين أن يتفادى المراقبة اللصيقة التي تمارس عليه من قبل المندوبين البريطاني والفرنسي. فقد أبلغ الســفير البريطاني في روما عن حضور الوفد السوري الفلسطيني مؤتمر الاتحاد الإسلامي، فيما راقب اللورد دابرنون في برلين عن كثب تحركات اللاجئين السوريين في تلك المدينة، وحدد أرسلان بوصفه زعيماً لهم، وعبر عن رأيه في أنهم كانوا يُمولون من سويسرا[22]. وكان ما يزال ينظر إلى أرسلان من قبل المسؤولين البريطانيين بوصفــه موالياً للأتراك، كما كان اهتمام وزارة الخارجية البريطانية فيه نابعاً من تصورها

لقدرتــه على التأثير في الأحــداث في شرق الأناضول وفي منطقــة القوقاز، كما فعل في المناطق العربية من قارة آسيا.

ودفع به موفقه من الثورة الســورية التي اندلعت بين العامين (1925م- 1926م) إلى مقدمة الأحداث، ليحتل مكان الصدارة فيما يتعلق بالقضية العربية في أذهان مواطنيه وفي أذهان القادة الأوروبيين. وكانت الثورة حدثاً رئيساً في العالم العربي في حقبة ما بعد الحرب. ولأن الثورة الســورية تزامنت، بطبيعة الحال، مع النجاح الذي حققته حركة عبد الكريم في المغــرب، فقد جعلت لفترة وجيزة قوة الــصرح الإمبريالي الفرنسي في موضع تشكيك. وعلى الرغم من أن القائمين على الأعمال الدعائية والمهتمين بالشؤون والعلاقات العامة من الســوريين نجحــوا آنذاك في تصوير الثــورات المختلفة داخل سوريا، بوصفها حملة وطنية موحدة ذات طابع ديني، فإن دوافع المشاركين السوريين في الثورة وأهدافهم أظهرت تنوعاً كبيراً. وسعى أنصار سلطان الأطرش، زعيم الدروز، الذين تمردوا في جبل الدروز في شهر يوليو/ تموز من العام (1925م)، إلى الحصول على حكــم ذاتي، وإلى الحفاظ على طبقة النبلاء الإقطاعيين في مواجهة الاتجاهات التحديثية لإدارة الانتــداب. ونظر وجهاء مدن حلب وحمص وحماة إلى السياســات الفرنســية بوصفها تشــكل تهديداً لقواعد سلطتهم وهيبتهم التقليدية، فيما دعا المثقفون الوطنيون المتمركزون في دمشــق إلى تحقيق الاستقلال التام وتكوين دولة سورية عربية[23]. ومع أن الدافع المحرك للثورة كان طائفة من المظالم المتنوعة لدى مجموعات وقطاعات مختلفة من الســكان، فقد حققت بعض النجاحات المهمــة في مراحلها الباكرة. فقد اضطرت الحامية الفرنسية إلى الانسحاب من جبل الدروز، وفي خريف العام (1925م)، شهدت ضواحي مدينة دمشق مجموعة من حركات التمرد المتفرقة.

ونتيجــة للإحباط الذي ألم بها من جراء عجزها عــن احتواء الانتفاضة، انخرطت القوات الفرنسية في واحد من أسوأ استعراضات القوة التي أبدتها في حروبها الإمبريالية قاطبةً. فقد تعرضت مدينة دمشق على مدى يومين بدءاً من الثامن عشر من شهر أكتوبر/

تشرين أول من العام (1925م) إلى قصف جوي ومدفعي مكثف أدى إلى إلحاق أضرار جسيمة بالمدينة القديمة، وخلف عدداً كبيراً من القتلى بين سكانها المدنيين. واستتبع ذلك احتجاجات صارخة على تدنيس مدينة إسلامية عربية ترددت أصداؤها خارج حدود سوريا، فعززت احتجاجات الشعوب الإسلامية الأخرى المناهضة للأوروبيين. وعنونت صحيفة الشورى الأسبوعية التي كانت تصدر في القاهرة صدر صفحتها الرئيسة بالعنوان: "فرنسا تدمر بر الشام كما دمر التتار بغداد[24]". ومن جانب آخر أبلت ثورة عبد الكريم الخطابي في الفترة نفسها بلاء حسناً في جبال الريف المغربي، وحققت نجاحات مذهلة ضد القوات الإسبانية، وكان الثوار المغاربة أواخر صيف العام (1925م) يمتدون عبر حدود المحمية وصولاً إلى المنطقة الفرنسية، وشكلوا تهديداً لمدينة فاس نفسها.

ورداً على الثورة السورية، جرى تفعيل الوفد الأوروبي الذي سبق أن شارك في المؤتمر السوري الفلسطيني، وكان ذلك في شهر أغسطس/ آب من العام (1925م). طُلبَ من أرسلان أن يستأنف قيادته للوفد، وشجعه رشيد رضا على العودة من مرسين إلى سويسرا. وأدرك أنه إذا ما رغب في لعب دور مهم على صعيد القضية العربية فتلكم كانت فرصته[25]. وعلى الرغم من رغبته الجامحة في استعادة سمعته، فإنه كان يدرك مدى التخريب الذي كان ينطوي عليه التغيير. وكان دوماً يشعر أنه دخيل غريب في أوروبا، فلم تجذبه الإنجازات الفكرية للحضارة الغربية، ولا المسرات المادية التي كانت توفرها. ولكن مرسين، في الجانب الآخر، لم تتح له مجالاً لتوظيف طاقاته، أو لتحقيق طموحه، أو لإرضاء غروره. وعاد في شهر سبتمبر/ أيلول من العام (1925م) إلى سويسرا، واستقدم في العام اللاحق زوجته وابنه من مرسين، واستأجر منزلاً صغيراً في مدينة لوزان، ودشن تلك المرحلة من حياته العملية التي أسبغت عليه لقب: مجاهد الشرق في الغرب[26].

وبينما كانت سياسات السلطة المنتدبة تخضع للمراقبة والتدقيق الدوليين عن كثب، قطف أرسلان، بوصفه الناطق الرسمي باسم واحدة من الجماعات السورية القليلة المنظمة في أوروبا، ثمار حظ غير مرتقب وشهرة غير متوقعة دفعت به إلى صدارة المشهد العام في أوروبا والشرق الأوسط. كما أتاح له ارتباطه بالمسألة السورية في عصبة الأمم فرصة لإثبات وطنيته، وللظفر باستعادة مكانته المرموقة، بصورة نهائية، في الأوساط العربية. ولم تكن عودته إلى صدارة المشهد بفضل التوقيت الملائم وحده.

وما إن سخر عواطفه وسمعته لخدمة القضية السورية في عصبة الأمم، حتى نالت تلك القضية ظهوراً ملحوظاً. وفي مقابلة أجريت معه في العام (1929م)، شرح أرسلان أسلوبه:

> القضية السورية دعوة سياسية معلقة، وينبغي أن تبقى معلقة لدى هذه المحكمة الكبرى، التي هي جمعية الأمم؛ وذلك حتى لا يتخذ الأجانب سكوت السوريين حجة ويعتمدوه علامة على الرضا بالحالة الحاضرة. إن المظلوم من عادته أن لا يكتفي بمراجعة المحاكم فقط، بل أن يصحب تقاريره ولوائحه القانونية بدعاية ونشرات ينبه بها الرأي العام على ما يصيبه. فالوفد السوري قائم والحمد لله بما يجب عليه، سواء كان من جهة المحاكم أم من جهة الرأي العام، ولذلك فالقضية السورية حية، بل هي ممتلئة حياة وتزداد نمواً، وكلما اجتمعت الدول في جنيف تجد فرنسا في وجهها الوفد السوري[27].

إن تفسير أرسلان لحقوق المدعى عليه قد يسبب شيئاً من عدم الارتياح في الدوائر القانونية، ولكن وصفه لاتساع نطاق أنشطته كان دقيقاً. وفي الواقع، الملاحظات التي أبداها رئيس تحرير مجلة الشورى، في هذه الحالة، لا تنطوي على شيء من المبالغة: "والحق أن رجلنا الكبير لم يدّخر سعياً منذ وصل إلى سويسرا لخدمة وطنه إلا بذله، ولا باباً إلا طرقه[28]". ولم يذكر أي شخص آخر ينتمي إلى منطقة واقعة تحت الانتداب

ضمن وقائع محـــاضر الهيئة الدائمة للـــدول الخاضعة للانتـــداب في عشرينيات القرن العشرين بقدر ما ذكر فيها أرسلان. هو والجابري، من خلال عدد العرائض والمطالب التي قدماها، ومن خلال صلابتهما في طلب تحديد مواعيد، كانا يضطران الهيئة المذكورة دوماً لأن تكون على اطلاع على أوضاع الوفد السوري الفلسطيني، وعلى تواصل معه. ووفقاً لما أشار إليه نائب الرئيس فإن: "كل عضو من أعضاء الهيئة استمع إليهم بصورة شخصية[29]". وعلى الرغم من أن الوفد لم يضم في عضويته أي أعضاء فلسطينيين، فقد بين أن مهمته تشمل القضية الفلســطينية إلى جانب القضية السورية. وفي حين منحت سوريا الأفضلية الأولى في العامين (1925م- 1926م)، فإن الوفد الذي كان خاضعاً لإدارة شـــخصيتين بارزتين مواليتين للعثمانيين هما أرسلان والجابري، سرعان ما وسع دائرة اهتمامه لتشـــمل "جنوب ســـوريا". وبذلك وضع أرسلان نفسه في موقف جعله أحد أبناء العرب الأوائل الذين طرحوا القضية الفلسطينية على العالم بأسره. وعلى مدى الزمن الذي كان ينظر إليه بوصفه قادراً على اســـتقطاب دعم الساســـة العرب المنفيين وبعض سكان كل من سوريا وفلسطين، كان يعامل بصورة جدية في أوروبا، كما كان له تأثير على جدول أعمال الهيئة.

وربما كانت المراحل الأكثر فاعليةً هي تلك التي ســـطرت بدايات مهامه التمثيلية. وعلى الرغم من أن الوفد الســـوري الفلسطيني لم يتعرض لعقوبات دولية رسمية، فإن الهيئة كانت منزعجة للغاية من الثورة الســـورية والسياســـات الفرنسية التي يمكن أن تكون أدت إلى اندلاعها، ولولا ذلك لكان حظي أرســـلان والعرائض التي قدمها إلى الهيئة بمزيد مـــن التقدير والرعاية. وقررت الهيئة، في دورة انعقادها في شـــهر أكتوبر/ تشرين أول من العام (1925م)، الامتناع عن استلام التقرير الفرنسي السنوي المتعلق بسوريا، ما لم تعمل (فرنســـا) على تحديثه وتضمينه المعلومات الضرورية اللازمة لفهم أحوال الثورة، فضلاً عن معلومات أخرى محددة عن معاملة الســـكان السوريين، على أن يصار إلى مناقشـــة المعلومات الجديدة في دورة خاصة تعقدها الهيئة، وتقرر انعقادها في روما في شهر شـــباط/ فبراير من العام (1926م). ومع انتهاء الاجتماع الذي انعقد

في شـــهر أكتوبر/ تشرين أول، أخذت العرائض التي تقدم بها أرســـلان في الحســـبان، وأدرجـــت ضمن وقائع محـــاضر اجتماعات الهيئـــة، وعومل أرســـلان معاملة الناطق الرسمي باســـم ســـوريا في أوروبا. وطلب هنري دوجوفينال قبل مغادرته إلى بيروت لتســـلم مهام منصبه الجديد بوصفه مندوباً ســـامياً في شـــهر نوفمبر/ تشرين ثاني من العام (1925م) من أرســـلان، بوصفه قائداً للوفد، أن يأتي إلى باريس ليناقش الوضع الســـوري معه. كانت الهيبة التي أسبغتها على أرسلان لفتة دوجوفينال هائلة. وأبرزت صحيفة الشـــورى في صدر صفحتها الأولى عنواناً ينطوي على شيء من التضليل، جاء فيه: "فرنسا تستدعي الأمير شكيب أرسلان إلى باريس لمفاوضته بأمور سورية[30]".

وعلى الرغم من أنه لم يتمخض عن هذه المناقشـــات الخاصـــة توقيع اتفاقيات، على أســـاس العرض الذي تلقاه الوفد، فقد توقع أرســـلان أن تنعقد جلســـة استماع للهيئة بأعضائهـــا جميعهم، ويعرض عليها الموضوع. ورأى أرســـلان أن يتم ذلك في جلســـة استثنائية تنعقد في روما. وذهب أرسلان والجابري ونجيب الأرمنازي إلى روما، وطلبوا عقد جلسة اســـتماع يتحدثون فيها بوصفهم "مندوبين معينين حسب الأصول من قبل الأمة الســـورية[31]". وأثار هذا الطلب نقاشـــاً مطولاً، وأظهر الهيئة في أشـــد حالاتها احتراســـاً. وفي نهاية المطاف، مســـتندة بصورة صارمة على الإجـــراءات، صاغت الهيئة رداً على طلب أرســـلان، وقالت فيه بكلمات مقتضبة وقاطعـــة الدلالة: "ترى الهيئة أن الظروف لا تســـمح لها بالموافقة على طلبـــك[32]". وعلى الرغم من أن حضور الوفد إلى روما أبقاه في دائرة الاهتمام العام، فإن إخفاقه في تحقيق طلبه بعقد جلســـة اســـتماع كان، من دون شـــك، مهيناً لأرســـلان ومخيباً لآماله. وكذلك كان تقرير الهيئة النهائي محبطاً. وبعد الاستماع للعرض الفرنسي، لاحظت الهيئة أنه في حين أن بعض ممارسات سلطات الانتداب الفرنسي يمكن أن تكون محل انتقاد، إلا أن الســـوريين ليســـوا مستعدين بعد لتحمل أعباء "الظروف الشـــاقة" للاســـتقلال، وأفادت اللجنة بأنـــه ينبغي للأطراف جميعها محاولة التعاون لجعل أداء مهام الانتداب تتم بسلاسة[33].

عكست الأحداث التي وقعت في سوريا القرارات التي اتخذت في روما. ففي صيف العام (1926م)، انتهت الثورة فعلياً وتوطدت دعائم سلطة الانتداب الفرنسي في المنطقة وهيمنت عليها على مدى السنوات العشرين اللاحقة. ولكن الموافقة التي اتخذت من قبل مجموعات متنوعة سورية ولبنانية في سياق الثورة، كان لها تداعيات مستمرة بين المنفيين والقادة السياسيين داخل المنطقة على حد سواء. انعقدت اتصالات وثيقة بين هاتين المجموعتين، وكانت تتخذ قرارات مهمة في كثير من الأحيان في القاهرة أو في أوروبا؛ لأن فرنسا أرغمت كثيراً من السياسيين الأكثر نشاطاً على العيش في هاتين المنطقتين. ولم يكن منفاهم منفى مقابل نظام حكم مستقل وطيد الأركان يرغبون في الإطاحة به، كما أن أرسلان لم يكن لينين، بل كان سياسياً أرستقراطياً نفي من مجتمع لم يشهد انقلاباً، إنما كان ببساطة محتلاً من قبل سلطة أجنبية. ولذلك عندما كان خارج وطنه لم يكن خارج نطاق معتركه السياسي. وينسحب ذلك على أخيه عادل، وعلى الجابري، وعلى شخصيات بارزة أخرى منفية أيضاً. وعلى سبيل المثال، شغل عضوان من أعضاء الوفد السوري الفلسطيني في أوروبا، في نهاية المطاف، منصبين محليين مهمين، وهما رياض الصلح الذي صار رئيساً لوزراء لبنان في العام (1943م)، والجابري الذي تولى مهام منصب حاكم اللاذقية في العام (1937م). وفي ظل الظروف الخاصة والفريدة في نوعها التي أحاطت بكل من سوريا، ولبنان، وفلسطين في العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين، تمكنت شخصيات بارزة، مثل أرسلان، من أصحاب الشأن والنفوذ الكبيرين الراسخين محلياً، ومن كان لهم سمعة حسنة وشهرة واسعة قبل الحرب، من تمثيل مناطق وبلاد لم يكن مسموحاً لهم العيش فيها. وكان التصدي للعمل السياسي في المنفى سمة ميزت ما تبقى من حياته. ولم تكن السياسات التي انتهجها مصممة للتعاطي مع الأوضاع المتقلبة في المنفى فحسب، بل كانت، إلى ذلك، ترمي إلى السيطرة على سوريا الكبرى.

وبسبب توليه مهام المفاوض الرئيس عن المشرق العربي مع الدول الأوروبية، حظي نشـاط أرسـلان بتغطية واسـعة من الصحافة العربية. وكان مضموناً أيضاً أن يكون الاهتمام الكبير به، من جديد، محل انتقادات واسعة النطاق.

وكان كثير من الخلافات التي كان طرفاً فيها تافهاً أو شـخصياً، بيد أنه كان مضطراً إلى التعامل معها، إن رغب في أن يكون لآرائه في أمور أكثر أهمية مصداقية. وإبان انهيار حركة الاتحاد والترقي في برلين، أدرك أرسـلان، فيما يبدو، مدى احتياجه في منفاه لأن يبدو مسـتنداً إلى دعم كبير يتأتى من وطنه، فضلاً عن إسـناد آخر من زملائه المبعدين المنفيين لكي يكون مؤثراً وفاعلاً. وكان الصراع على النفوذ سـمة دائمة ملازمة لوجود المنفيين في منفاهم بدأ مع بداية الثورة السورية، إلا أن له أصولاً ضاربة في تركيبة نسيج المجتمع السوري اللبناني.

وفي ظل النظام العثماني، تم اسـتيعاب الانقسامات الجغرافية والسياسية التي كانت قائمة بين مكونات النخبة السـورية التقليدية في إطار إمبراطوري أوسـع نطاقاً. ومع قيام كيان سياسي متميز، انكفأت هذه الانقسـامات إلى الداخل وتغذت على ذاتها؛ مما أضر بتشـكيل حركة قومية متماسكة[34]. وشـكلت الانتماءات الإقليمية القوية داخل الدولة بعداً واحداً من الصراع داخل النخبة. ولكن انسحب الوضع نفسه على الحدود غير المؤكدة للدولة السـورية نفسـها. هل ينبغي أن يكون لها كيان مستقل منفصل؟ أم هل يجب أن تشـمل لبنان؟ أم هل يتعين أن تكون بمثابة نـواة لدولة عربية أكبر تضم في بوتقتها القومية السـورية؟ وظلت هذه القضايا في أعقاب ثورة العامين (1925م-1926م) عالقة دونما حلول، بخاصة، مشـكلة التحديد المحـلي للهوية التي تفاقمت بسبب سياسة «فرق تسد» الفرنسية.

وانعكست هذه الانقسـامات في سياسـات منظمات المنفى، وازدادت كثافةً بفعل الطموحات الفردية للشـخصيات المعينـة المختلفة. وقد تبدى ذلـك جلياً، بخاصة، في الـصراع الداخـلي الذي كان قائـماً بين أعضاء الهيئـة التنفيذية للمؤتمر السـوري

الفلســطيني[35]. وليس القصد من هذه الدراسة اســتقصاء أسباب كل خلاف عديم القيمة أو غيرة شــخص. ولكن من الواضح أن أجواء من الارتياب المتبادل كانت تعم المنظمــة، الأمر الذي أضعف قدرتها على التصرف بصورة حاســمة، ومن المحتمل أن يكون ذلك قد أثر في المواقف التي اتخذها بعض أعضائها.

وفي أعقاب الثورة السورية، ازدادت طبقات المناضلين المنفيين في القاهرة وتعددت صفوفاً. ومن وجهة نظر أرسلان العملية، كانت الشخصية الجديدة الأكثر أهمية الدكتور عبد الرحمن الشهبندر (1882 - 1940م)، وهو من أبناء مدينة دمشق وتخرج في الكلية الطبية التابعة إلى الجامعة الأمريكية في بيروت. عارض الشــهبندر سياســات التريك التي انتهجتها جمعية الاتحاد والترقي، وأمضى معظم ســنوات الحرب في القاهرة عاملاً من أجل القضية الهاشــمية. وكان داعيةً صلباً ومنظماً سياسياً، وعاد الشهبندر في العام (1919م) إلى دمشــق، ودفعت هناك انتقاداته المزعجــة للحكومة فيصلاً إلى الإعلان أن ســورياً يمكن أن تخدم عــلى أفضل وجه إذا ما اقتصرت مهــارات أخصائييها على مجالات اختصاصاتهم: " ...ينبغي على الزعيم أن يقود قواته، وعلى الســياسي أن يتدبر الأمور... وعلى الطبيب أن يعالج المريض[36]". لم يُجْدِ هذا النصح نفعاً مع الشــهبندر، وعاد بعد مشاركته في الثورة السورية التي اندلعت بين العامين (1925م- 1926م) إلى القاهرة، وتحالف مع جناح ميشــيل لطف الله ضمن أعضاء المجلس التنفيذي السوري الفلسطيني، وشرع بتبني موقف سياسي مؤيد للهاشميين، وعقيدة قومية علمانية[37].

أصبح هو وأرســلان عدوين لدودين. وما أثار العداء بينهما هو تصادم طموحاتهما وشــخصيتيهما بقدر ما أضرمت ناره رؤاهما المختلفة للمســتقبل. وأســماه بـ"الرجل الخبيث" بناءً على اتهامات وجهها إليه، وقطع على نفســه عهــداً: "لا أقبل أن أصالح رجــلاً طعن بي بهذه البذاءة[38]". ومن ســوء طالع الحركة الوطنية الســورية أن أوفى أرسلان بعهده.

وقد أسهم العداء الذي استشرى بين الشهبندر وأرسلان في تعميق الشرخ بين مكونات الجالية السورية في المنفى. ويوجد مثال توضيحي عن الطريقة التي ازدادت الخلافات فيها حدةً وتحولت إلى أزمة كبيرة بين السوريين، هذا المثال مستمد من الأحداث التي جرت أواخر العام (1925م). وكان أرسلان قد بدأ الخلاف في شهر نوفمبر/ تشرين ثاني عندما قبل دعوة المندوب السامي هنري دو جوفينال لمناقشة القضية السورية في باريس. ونظراً لأنه لا يمكن لأحد أن يشكك مطلقاً في مركزية دوره، فقد افترض أرسلان أنه مخول بالتفاوض نيابة عن المجتمع السوري اللبناني كله. وكان افتراض دو جوفينال مماثلاً لافتراض أرسلان، وأجرى الرجلان نقاشاً مثمراً، وقال المندوب السامي لهيئة الانتداب لاحقاً إنهما كانا قريبين من إبرام اتفاق على بعض النقط[39].

ولكن، كان أرسلان يفاوض من موقع لا يوافق آخرون من المعنيين بالأمر على شغله إياه، ويعرض تقديم تنازلات عن أشياء ليس من حقه التنازل عنها. فقد قبل، أولاً، مفهوم لبنان الكبير، موافقاً على أن تُكَوِّن فرنسا دولة لبنانية منفصلة عبر إضافتها إلى حدود المتصرفية القديمة مناطق هي سورية منذ القدم. وربما أفاد تكيف أرسلان مع هذه النقطة في حماية قاعدة سلطته المحلية. فقد كان في كل إدارة من الإدارات التي تشكلت في لبنان في عهد الانتداب تقريباً، أحد أعضاء أسرة أرسلان إما وزيراً في الحكومة أو زعيماً للمعارضة. ويمكن للمرء أن يتصور أنه في حال الاندماج مع سوريا، لن يكون للأسر الدرزية المتحدرة من منطقة الشوف دور "وطني" له أهمية الدور الذي كانت تلعبه تلك الأسر في بوتقة النظام السياسي اللبناني.

طالب أرسلان أيضاً بأن يُصَارَ إلى إدماج فلسطين في سوريا، وأن تمنح سوريا ولبنان استقلالهما إضافة إلى حق العضوية في عصبة الأمم. وباستثناء مهم وجدير بالذكر وهو ذاك المتعلق بقبوله طرح لبنان الكبير، كان يمكن التنبؤ بهذه المطالب، وكانت متساوقة مع الأهداف الوطنية لمعظم السوريين. أما الأمور التي كان التنبؤ بها أضعف احتمالاً فهي التنازلات التي كان أرسلان مستعداً لتقديمها إلى فرنسا. وهذه تتضمن التدريس

المستمر للغة الفرنسية في المدارس السورية، وحصر المستشارين العسكريين الأجانب الذين يمكن لسوريا أن تتعامل معهم بالضباط الفرنسيين، ووعد من القوات السورية بمساعدة فرنسا في حال نشوب حرب، وإقامة تحالف بين البلدين مدته ثلاثون عاماً. وبدت هذه التنازلات متهورة، لكن أرسلان لم يتنكر لها مطلقاً ولم يتنصل من مسؤوليته عنها. وكان في هذه الحالة، على الأقل، على استعداد لتقديم تنازلات في سبيل تحقيق الاستقلال. وكان يفاوض ويتحدث لا بوصفه فرداً بل بوصفه ممثلاً، وأصبح ما قاله جزءاً من سجل الديبلوماسية الفرنسية السورية.

تكشف الجدال الذي أعقب نشر مقترحات أرسلان عن هشاشة العلاقات بين المنفيين وعن تضارب تطلعاتهم. وكان النزاع مريراً، بخاصة، بين أعضاء اللجنة التنفيذية في القاهرة. ومن خلال انخراطه في مفاوضات مباشرة مع مسؤول رفيع المستوى، كان قد أعَدَّ نفسه للتعامل مع أعضاء اللجنة التنفيذية في القاهرة بوصفهم خصوماً، وتجاهل القادة السوريين الموجودين في الميدان وتجنبهم، وكان الدكتور الشهبندر واحداً منهم[40].

وفي السنوات التي تلت ذلك، تراكمت الاتهامات المتبادلة بعضها فوق بعض، الأمر الذي جعل فاعلية المؤتمر السوري الفلسطيني تتقلص كثيراً. وفي خريف العام (1927م) حاول لطف الله اتخاذ التدابير اللازمة لإقالة أرسلان من الوفد الأوروبي بغية تخطي سلطته في التعامل مع دو جوفينال، فما كان من أرسلان إلا أن رد عليه قائلاً إنه مفوض بالتصرف من دون استشارة القاهرة، ورفض الإذعان والتخلي عن مزوالة مهامه[41]. وفي الوقت نفسه، طرد لطف الله والشهبندر من مجلس القاهرة التنفيذي، وأمست الحركة السورية في المنفى أكثر انقساماً وتصدعاً من أي وقت مضى.

والمرارة التي نجمت عن مبادرة أرسلان التي تقدم بها من فرنسا جعلته بحاجة إلى مواقف داعمة معبر عنها بقوة، إذا ما أريد لمهمته بوصفه "مفوضاً منتدباً حسب الأصول" أن يكون لها أي مصداقية في أعين الجماهير العربية. وما إن عاد من مرسين حتى بذل

هو وأنصاره قصارى جهودهم من أجل تقديم دليل ملموس على وجود جمهور عريض يناصره. وزعموا أنهم حققوا انتصاراً كبيراً عندما أُعْلِنَ أن المؤتمر الفلسطيني السادس فوض أرسلان بالدفاع عن مصالح فلسطين أمام عصبة الأمم[42]. أكد أرسلان في تمهيد استهل به أحد مطالبه أن الوفد السوري الفلسطيني يُعدُّ من قبل جميع العرب المظلومين مترجماً لمظالمهم أمام عصبة الأمم ولدى العالم المتحضر[43]. وامتد السعي التماساً للدعم وصولاً إلى أمريكا الشمالية. وفي أعقاب زيارة قام بها أرسلان إلى الولايات المتحدة في العام (1927م)، وسبق لي أن بحثت فيها في الفصل الرابع من هذا الكتاب، وصل سيل من البرقيات إلى وزير الخارجية الفرنسي. وهذا نموذج يعبر عن فحوى تلك البرقيات: "الأمير أرسلان ورفاقه هم الممثلون الوحيدون لسوريا أمام الحكومة الفرنسية، وأمام عصبة الأمم[44]". كما وصلت رسائل مماثلة من ويسكونسن، وأوهايو، ونيويورك. والطبيعة الإبداعية المتكلفة لهذه البرقيات كانت أقل أهمية من الصراع المكثف من أجل الدعم الذي كانت تمثله. وعلى المستوى الشخصي تميزت الحملة بجعلها هدفاً لمناكفات صحفية مريرة متبادلة. وكان أرسلان أشد ما يكون تأثراً عندما أثار الدكتور الشهبندر قضية علاقته مع جمال باشا السفاح، وكان ما أثاره في هذا الصدد بمثابة اتهام يقتضي نفياً وتقديم تفسيرات من قبل أرسلان ورفاقه[45].

كان هذا أحد أبعاد وجود أرسلان في المنفى بوصفه ناشطاً. وكان عالماً خِلْواً من المسؤولية السياسية. وكانت مواقفه تتخذ وهو ينظر بإحدى عينيه إلى الفرنسيين، ويرصد بالعين الأخرى ردود فعل مواطنيه. كما كان أرسلان، شأنه شأن الآخرين، عرضة دوماً لاتهامات بأنه مفرط بالتشدد في مواقفه، أو بأنه مساوم خائن يبحث عن تسوية مذلة. وكان يبدي شجاعة أكثر من البراعة ويميل إلى اتخاذ موقف صريح واضح إزاء كل المعلومات المتاحة عن أي موضوع يجري البحث فيه. وكان هذا يستلزم بذل قدر كبير من الطاقة من أجل الدفاع عن آرائه الأصلية وصقلها وتشذيبها، والتي كانت غالباً ما تتعرض لهجوم من فصيل أو من آخر. ولكن كان يوجد مع ذلك اتساق في نظرته العامة الشاملة للأمور، وكان هذا الاتساق في الرؤية يتمثل في اتخاذه موقفاً

صلبـــاً لا هوادة فيه في رفض احتلال أراض عربية من قبل الأوروبيين؛ الأمر الذي ولد انطباعاً طيباً مستحســـناً لدى الجماهير العربية التي صارت ترى فيه ضميرها في أوروبا. وعلى مـــدى الحقبة الممتدة ما بين الحربين العالميتين، كانـــت كتاباته تعبر عن غضبه من الذين ينظرون إليه بوصفه استعمارياً، ومن حرمانه من السيادة، ومن وصفه بأنه "ناطق محلي" من قبل ســـلطات الانتداب. وبدلاً من أن يكون للعرب حضارة رفيعة المستوى جوهرهـــا العروبة والإســـلام، ومعترف بها في حقبة ما بعد الحرب، جرى تقســـيمهم وتفريقهم والتلاعب بهم من قبل الاســـتعمار الأوروبي الـــذي زعم منافقاً أنه يتصرف بدوافع إنســـانية، ولكن ما كان يحركه في الحقيقة هـــو "بترول الموصل، وقطن كيليكية، وحرير ســـورية[46]". وتدليلاً على المستوى المتقدم الذي أحرزه سكان سوريا الكبرى، عرض أرسلان نموذجه الخاص عن العنصرية: "إن سكان هذه البلاد متطورون جداً، وينتمون بلا جدال إلى العرق الأبيض. وتجب الإشارة إلى أن سوريا هي مهد الحضارة، وفيها ومنها تطورت الفِكَرُ الدينية والأخلاقية التي تحكم البشرية اليوم". وتابع أرسلان قائلاً:

"وبنـــاء على ذلـــك، فإن الأمـــة العربية التي تعـــي تماماً ماضيها وتـــدرك حقوقها وتعـــرف احتياجاتها، لن تقبـــل أن تعامل طويلاً بوصفها قاصراً على قدم المســـاواة مع السود في الكاميرون وتوغو"[47]. وبالنســـبة للذين كانوا ذات يوم يشكلون النخبة في الإمبراطورية المســـتقلة، إلى جانب الجيل الأحدث عهداً الذين توقعوا شيئاً أكثر وأكبر من الثورة العربية ومن الوعود البريطانية، لاقت هذه المشـــاعر التي عبر عنها أرسلان استحسانهم وراقت لهم.

وبناء على ذلك، وعلى الرغم من الشرخ الذي حل بالمجلس الســـوري الفلسطيني، والاتهامـــات المتبادلة بين أعضائه، ظلت هيبة أرســـلان كبـــيرة. ونجحت الحملة التي أطلقت نيابة عنه في تصويره بوصفه صاحب شـــخصية مميزة، وبأنه كرس نفســـه لأداء الواجب في جنيف، وبأنه بات معترفاً به بوصفه فريداً في نوعه وأساسياً بالنسبة للمهام التي يؤديها. وفي العام (1928م)، أصبح ناطقاً رســـمياً يتحدث عن كل قضية رئيسة،

تقريبـــاً، كانت تجابه عـــالم المشرق العربي في علاقاته مع أوروبـــا. ولا يعني هذا أنه كان وحيـــداً من حيث الأمور التـــي تثير قلقه ومخاوفه، بل كان لـــه موقف خاص دأب من خلاله على التعبير عـــن تلك المخاوف، وعلى جذب الآخرين إلى شـــخصه. تمكن من الهيمنة على جمهور بسبب لقبه بوصفه ممثلاً لدى عصبة الأمم، وأسبغ عليه زعمه حيازته هذا اللقب مظهر المتحدث الرسمي. وبســـبب هذا، أصبح الوفد السوري الفلسطيني مســـتودعاً لآمال كثير من المثقفين المتنورين العرب في حقبـــة ما بين الحربين العالميتين. فإذا كان الذي أنجزه الوفد الســـوري الفلسطيني من خلال الجهود التي بذلها لدى لجنة الانتداب قليـــلًا ومتواضعاً، فقد كان له، من دون ريب، تأثـــير كبير في المشرق العربي بمجرد وجوده.

والذين جذبتهم شـــخصية أرسلان يكشفون النقاب من خلال مواقعهم العامة عن شيء من موقع الأمير وشخصه. وبين كثير من الصحفيين والسياسيين الذين ارتبط بهم على مر الســـنين، ثمة رجلان اثنان كانا صديقين شخصيين لأرسلان، فضلاً عن كونهما مســـهمين رئيسين في تشكيل أســـطورته بوصفه مجاهداً. أحدهما رشـــيد رضا، الوجيه الأبرز الذي ســـبق لي أن أتيت على ذكره في هذا الكتاب. وعلى الرغم من أن أرســـلان لم يلتق به إلا نادراً بعد العام (1921م)، فقد واظب على تبادل رســـائل حميمة وعظيمة معه، وهو أكثر من أثار إعجابـــه بين معاصريه، وقال عنه: "كنت أمُتُّ إليه وكان يمُتّ إليّ بأواصر روحية لا توجد بيني وبين شخص آخر من العرب[48]".



في مكتب الشورى، القاهرة، 1939. محمد علي الطاهر جالس خلف الطاولة

وأما صديق أرسلان الثاني الحميم ودائم التعاون معه فهو محمد علي الطاهر. كان الطاهر المولود في فلسطين في تسعينيات القرن التاسع عشر (توفي عام 1974م) صحفياً جدلياً متمكناً، وناشطاً سياسياً دؤوباً، عبر عن ازدرائه السياسات البريطانية حيال الشرق الأوسط في سلسلة صحف كانت تصدر في القاهرة ويرأس تحريرها[49]. وكان الطاهر يعد نفسه "ابناً" لأرسلان، ويفرد للأمير دوماً الصفحة الأولى من الصحيفة التي يحررها ليتمكن من خلالها من التعبير عن آرائه. وخلافاً لبعض الذين تخلوا عن أرسلان بعد العام (1945م)، ظل الطاهر مخلصاً ووفياً له، وبذل قصارى جهده لمساعدة الرجل الذي سماه "ملكاً غير متوج[50]".

يوجد صحفي ثالث هو محب الدين الخطيب (1885م- 1969م)، ويمكن أن يعد حليفاً أيديولوجياً لأرسلان أكثر منه صديقاً حميماً. والخطيب من أصول سورية، شغل منصب سكرتير مؤتمر باريس العربي في العام (1913م)، وكان رئيس تحرير صحيفة الشريف حسين الرسمية، وهي صحيفة القبلة. وبعد الحرب، برز بوصفه مدافعاً قوياً عن الأصولية الإسلامية. وشغل منصب سكرتير اتحاد الشباب المسلمين في مصر، وتمازج مع الإخوان المسلمين، ونشر صحيفة أسبوعية اسمها الفتح، كانت تعبر عن آراء المناهضين لليبرالية العلمانية في ذلك الزمن. كان أرسلان يسهم في نشر مقالات رئيسة تتصدر الصفحة الأولى من تلك الصحيفة على نحو متكرر. ونشر الخطيب أيضاً مجلة أسبوعية اسمها مجلة الزهراء، كما أدار دار نشر اختار لها اسماً صريحاً عن توجهها وهو مؤسسة الصحافة السلفية، وأخرجت تلك الدار كتباً عديدة لأرسلان[51].

وكان عدد من الأعلام الذين انجذبوا إلى أرسلان، مثل الطاهر والخطيب، مؤلفي كتيبات وكتاب مقالات وناشطين تنظيميين، ومدافعين عن النظام القديم، ومعارضين للتغيير العلماني، ومناهضين للهيمنة الأجنبية. واتسعت دائرة المعجبين به وامتدت عبر الأجيال. ومن خلال جهود أخيه عادل والناشط السوري شكري القوتلي، حظي كذلك باحترام ناشطين من جيل الشباب الأحدث عهداً والأكثر علمانية[52]. ويرجع السبب الذي جعله مثلاً أعلى بالنسبة لهم، جزئياً، إلى كونه بعيداً عنهم. فكانت مقاومته انعكاساً لمقاومتهم، ونفيه رمزاً للعقاب الذي تعرضوا له جميعاً على أيدي أوروبا، وإرادته التي لا تقهر أملاً لكل منهم. والصحفيون، من خلال تغطياتهم لكل تحركاته تقريباً ونشرهم معين مقالاته الذي لم ينضب، كونوا سمعته واستداموها بين شريحة واسعة من الجماهير المثقفة المتنورة.

ومع نهايات عشرينيات القرن العشرين، كان أرسلان قد لاقى قبولاً بوصفه ناطقاً باسم قضية المشرق العربي. وأما نقطة ضعفه، كما أشار الشهبندر إبان الصراع الذي احتدم بينهما في سبيل الهيمنة على المؤتمر السوري الفلسطيني، فقد تمثلت بهشاشة موقفه حيال اتهامه بالتعاون مع جمال باشا السفاح. وحتى المندوب السامي الفرنسي دو

جوفينال في شـــهادته أمام هيئة الانتداب، حاول أن يطعن بمصداقية أحد الالتماسات التي تقدم بها أرســلان بملاحظته أن الحجج المتطرفة التي ساقها لا يمكن تفسيرها إلا في إطار حقيقة أن "الأمير أرســلان كان عميل جمال باشـــا في سوريا، وأنه كان في ذلك الوقت زعيماً للمتطوعين الدروز الذين خدموا جمال باشـــا[53]". ومن الواضح أن هذه القضية لم تتلاشَ. فعلى الرغم من أن نشـــاط أرســـلان الوطني في أوروبا أفاد في إعادة تأهيلـــه في نظر معظم الناس، فإنه لم يفعل الشيء ذاته في نظر ألد خصومه السياســـيين. وأكدت المهاترات العدائية التي احتدمت بينهم وبينه أن نزاعات جديدة ســـتحل محل الخلافات القديمة.

أثار الاعتراف الذي حظي به أرســلان من الجماهير العربية انتباه سلطات الانتداب التي لطالما احتـــج على سياســـاتها. وكان القلق الأوروبي المتنامي مـــن جراء تحركات أرسلان لافتاً للنظر في كثير من الأحيان، من حيث نطاقه وافتقاره للدقة وإثارته مخاوف لا مســـوغ لها. وكان القنصلان الفرنســـيان في كل من جنيف ولوزان يرســـلان تقارير عن أنشـــطته، فيما أبقى مفوض خاص الطلاب العرب في ســـويسرا تحت المراقبة. كان أرســـلان ضمن نطاق هذه المراقبة بوصفه، أولاً، محرضاً بين الطلاب، ومن ثم بوصفه خصماً كبيراً قيل إنه عاد إلى تركيا في العام (1926م) من أجل تنســـيق شؤون المنظمات الموالية لســـوريا جميعها في ذلك البلد[54]. وبينما أعد المفوض الخاص تقريراً عن نشاط أرسلان في تركيا، كان دو جوفينال يعد تقريراً تقويمياً لأداء أرسلان ونشاطه في برلين، حيث، وفقاً لما أفاد به المندوب الســـامي، كان يحاول تجنيد ضباط ألمان لقيادة العصابات المتمردة في ســـوريا[55]. وورد في التقرير أنه بينما كان أرسلان في روما من أجل حضور اجتماعات لجنـــة الانتداب، أعَـــدَّ الترتيبات الضرورية لتكليف عميل بشراء أســـلحة ألمانية للحكومة التركية، ليصار بعد ذلك إلى إرســـالها إلى متمردي ســـوريا الدروز من خلال اللجنة السورية في اســـطنبول[56]. واضطر التأثير التراكمي بهذه التقارير صناع القرار إلى الاعتقاد بأنهم يتعاملون مع متآمر قوي ومؤثر. وفيما كانت تتواصل نظريات الدسائس التآمرية هذه على مر السنين، فقد لعبت دوراً كبيراً في نسج الأسطورة التي ما

برحت تكبر حول أرسلان. وبالنسبة للسلطات الفرنسية الرسمية الحساسة التي كانت قد شــهدت لتوها ثورتين في الأراضي العربية التــي تحتلها، وتعرضت لحملة انتقادات دولية بسبب أســلوبها في التعامل معها، كان أرسلان بوصفه "الشخص الذي شارك في حــركات التمرد الموجهة ضدنا جميعها منذ العام (1920م)"، "يضربنا على العصب الحساس[57]". وعندما ازداد استعارُ أُوَارِ قضية فلسطين، حول موظفو وزارة الخارجية البريطانية كذلك انتباههم نحو الأمير، فربطوا بين أنشطته السابقة في تركيا وبين تخطيطه لتعزيز نفوذه في العالم العربي.

كان الدافع وراء كثير من الاهتمام الذي اســتقطبه أرسلان قد تغذى على العلاقات الحميمة التي كانت تربطه بألمانيا. فمنذ الأســابيع الأولى التي مهدت لحياته في المنفى في العــام (1918م) وإلى ما قبل وفاته بوقت قصير، كانت برلين عاملاً مســتقراً وثابتاً في حياة أرسلان. وفي السنوات الصعبة التي أعقبت الحرب كانت العاصمة الألمانية تشعره بأنه محل ترحيب فيها دوماً. وكان مســؤولون ألمان يصلونه بأمور بسيطة تشعره أنه أثير عندهم. كما كان مستشرقون رواد يبدون إعجابهم به بوصفه علماً أدبياً مبدعاً[58]. وهو، إلى ذلك، كان منخرطــاً في منظمات عديدة تتخذ من برلين مقــرات لها، وتهتم بخدمة المصالح الألمانية في الشرق الأوســط هذا، وفضلاً عن شــغله منصــب رئيس النادي الشرقي، كانت له اليد الطولى في تأســيس جمعية العبادة الإسلامية في العام (1924م)، وهي منظمة كانت ترمي إلى تأمين دور عبادة للمسلمين في ألمانيا.

وفي حقبة عشرينيات القرن العشريــن، كان وضعه العام ما يزال وضع طرف متألم محزون يسعى جاهداً إلى العثور على ميزة أينما كان وجودها محتملاً. وفي حفل شاي أقيم على شرفه في برلين، قال للضيوف: "نحن ليس في صدورنا غل خاص للفرنســيس ولا للإنكليــز لو لم يحتلوا بلادنا، وما نحب الألمان إلا عــلى شرط أن لا يأتوا ما أتاه أولئك من الطمع في ملكنا، فإنهم إذا طمعوا يوماً في اســتعمار بلادنا كانوا في نظرنا أعداء مثل غيرهم[59]". وبالنسبة للوقت الراهن، في الفترة التي ألقيت فيها الكلمة، بدت العلاقة ذات نفع متبادل للطرفين وتحت سيطرة أرسلان، ولم تستمر دوماً على تلك الحال.

وبالإضافة إلى تعديل الولاءات السياســية التي أجبرت نهاية الإمبراطورية العثمانية أرسلان على إجرائها، كان مضطراً أيضاً إلى إعادة توجيه دفة حياته الشخصية على نحو جعلها شــديدة التطلب. وفي وســعنا الافتراض أن حياته قبل العام (1918م) كانت مريحــة، وكانت إمكانية حصوله على أســباب الراحة مرتبطة بصــورة طبيعية مع أحد أعضاء النخبة اللبنانية/ العثمانية السياسية والاجتماعية. وكان الاحتلال الفرنسي لبلاد الشــام ونفيه منها يعنيان أن دخل أرسلان من الشرق الأوسط تقلص بصورة جوهرية في زمن ازدادت فيه حاجته إلى الأموال النقدية. وكانت تلك نقلة قاســية بالنسبة لرجل اعتاد على توفر وســائل الراحة التي من الطبيعي أن تتاح لإنسان وجيه في قومه: "نحن هنا في ديار غربة، وجميع أشــغالنا نقوم بها بأنفسنا، إذ ما معين ولا مساعد[60]". وعلى الرغم من أنه عدل أســلوبه في العيش، فقد كان يعــاني نقصاً مزمناً في الأموال. وإذا ما كان يراد لأنشــطة الوفد السوري الفلسطيني أن تســتمر، فإنه كان ينبغي لأرسلان أن يجــد دخلاً كافياً. ولأنه كان ينجح أحياناً في تدبر الأمر والحصول على المال اللازم، فقد كان يؤدي ذلك إلى سوء الظن فيه، رجماً بالغيب، فيما يتعلق بموارد دعمه المالي، كما كان يؤدي إلى كيل اتهامات تفضي إلى أن ولاءاته السياســية تعكس توجهات رعاته وأولياء نعمته. وأصبحت شــؤونه المالية جزءاً من مكونات شخصيته العامة، وعنصراً مهماً من عناصر هذه الدراســة. ومن سعيه المســتمر للحصول على أموال، يحتمل أن يكون قد انجر إلى علاقات وارتباطات قائمة على أساس تسويات مثيرة للشبهة.

وبعد انتهاء الحرب بوقت قصير، المستشــار المصرفي، الدكتور ميشــيل بيضا، أقنعه بشراء مبنى صغير في برلين على ســبيل الاستثمار[61]، وكان قرار شرائه بائساً؛ فقد أدى التضخم الرهيب الذي شهدته ألمانيا في الســنوات التي أعقبت الحرب إلى تدني القيمة الســوقية للمبنى، ونجم عن ذلك انخفاض دخل الإيجار الســنوي له والبالغ 7000 مارك ألماني انخفاضاً شــديداً؛ بســبب الضرائب والقيود التي فرضت على العملة التي لم يتلق منها أرســلان بالنتيجة إلا قدراً قليلاً جداً. وعــلاوة على ذلك، أفضت ملكية المبنى إلى تشابك أرســلان في بعض العلاقات التي لم تكن ذات طبيعة مالية. وفي العام

(1925)، صـــدر أمر قضائي قضى بأن تعود حيازة الطابـــق الأول من المبنى إلى مالكه السـابق ما لم يخضع إلى عمليات إصلاح محــددة في موعد معين. نجح الدكتور بيضا في معالجة المســألة في غياب أرسلان، وتلقى "عوناً كبيراً" في هذا الشأن بفضل كتاب كان يحمله من البارون ريتشـــهوفن من وزارة الخارجية[62]. وقد عبر أرســـلان عن امتنانه للمساعدة التي تلقاها من ريتشـــهوفن، ورد البارون على ذلك بقوله: "إن الذي فعلته من أجلك، يا صاحب السعادة، لم يكن ســـوى واجبي، وأقل ما يمكنني فعله لصديق مرموق ومخلص مثلك مـــن أصدقاء بلدي[63]". ولكن ما أبعـــد الأمور المالية عن أن تغدو مسائل سياسية.

وعندما ضرب الكســـاد أوروبا وازدادت ديون أرســـلان، اضطر إلى بيع أرض في منطقة الشـــوف من أجل تســـديد الأقساط المســـتحقة لجهة الرهن العقاري على المبنى الصغير الذي اشتراه في برلين. كانت رسائله إلى رشيد رضا مليئة بتفاصيل عن الضائقة الاقتصادية التي يعانيها، وتكشف النقاب عن رجل يعيش حالة فوضى مالية ناجمة عن مزيج من ســـوء الطالع وسوء الإدارة. وأضحت المديونية سمة قائمة ودائمة من سمات حياة أرسلان، وسببت له كثيراً من القلق.

ولكي يمول رحلاته واســـعة النطاق وينفذ واجباتـــه كاملة في عصبة الأمم، كانت أوضاع أرســـلان تتطلب من المـــال ما يفوق رغبتـــه في الاقتراض. وتلقي أرســـلان مســـاعدات مالية أمر معروف، أما القول إنه كان يمكن أن يشـــترى فهو أمر مشكوك فيه. وإلى أن دب خلاف بينه وبين ميشـــيل في أواخـــر عشرينيات القرن العشرين، كان الوفد السوري الفلســـطيني يمول من قبل أسرة لطف الله[64]. وذلك فضلاً عن تلقي أرســـلان معونة مالية شـــخصية مباشرة من أحد معارفه من حقبة ما قبل الحرب وهو عباس حلمي، خديوي مصر السابق[65].

بدأت العلاقة بينهما في العام (1911م)، وتجددت في العام (1922م) في لوزان حين أعلن عباس بصراحة وعلى الملأ أنه يرغب في مد يد العون لأرسلان؛ لتمكينه من تحمل

أعباء نفقات نشــاطاته في أوروبا، عبر تزويده بمعونة مالية مقدارها 30 جنيهاً شهرياً. وعندما تأكد أرســلان من أن هذه المعونة لا ترمي إلى ربطه بمواقف أي جهة سياســية خاصة، وافق على قبولها. وتبــين أن هذا التدبير كان موطئاً لإثارة حرج لاحق. فعندما بدا أن الحكومة الفرنســية، عندما كان هنري بونسو مندوباً سامياً في سوريا (1926م-1933 م)، على استعداد لأن تأخذ في الحسبان إقامة مملكة سورية بوصف ذلك وسيلة لتشــكيل حكومة فاعلة في هــذا البلد الذي كان تحت الانتــداب، أماط عباس حلمي اللثام عن طموحاته في اعتلاء عرش المملكة الســورية، إلا أنه أصيب بخيبة أمل عندما أعلن أرسلان أن الوفد الســوري الفلسطيني معني فقط بتحقيق الاستقلال السوري، ولن يبذل أي جهد دعماً للخديوي الســابق لكي يغدو ملكاً[66]. كما نشــبت مجموعة من الخلافات الإضافية بين ولي النعمة وبين المنعم عليه صاحب الفكر المســتقل إلى أن توقفت المعونة المالية في العام (1931م).

وتضرر أرسلان كثيراً بسبب هذه العلاقة. ولم يقتصر الأمر على اتهامه بأنه باع سوريا مقابل ثلاثين جنيهاً شــهرياً، بل تعداه إلى حد النظر إليه بوصفه متآمراً يسعى إلى عودة عباس إلى اعتــلاء عرش مصر؛ الأمر الذي جعل الملك فــؤاد ومن بعده الملك فاروق ينظران إليه بوصفه محل شك كبير. وحاجة أرسلان إلى الأموال دفعته إلى إقامة علاقات كان يدرك أنه يتعين عليه تجنبها. وصار مزيد من الإنكار العام والتنصل من المســؤولية ضرورياً. فبعد قطع المعونة المالية، أرسل إلى رضا بعض الوثائق التي أمل منها أن تثبت أن "العلاقة ليســت كما يظنون بيني وبين ذلك الرجل [عبــاس]. وأنه هو الذي بغاها وأصرّ عليها، وكان لــه فيها مآرب أخرى... وأنا برغم العسرة مغتبط بانقطاع علاقتي مع هذا الرجل؛ لأن علاقتي به أضرت بي وأتعبتني[67]". وأكد موقف أرسلان الفريد في نوعه والغريب الأطوار أيضاً أن هذه العلاقة لم تكن الأخيرة التي سببت له متاعب.

وأســهم آخرون في أنشطة الوفد الســوري الفلســطيني، وفي الحفاظ على الناطق الرئيس باســمه. ويحتمل أن يكون الملك فيصل قد قدم مســاعدات من حين إلى آخر. وابن سعود، الزعيم العربي الذي كان أرسلان شديد الإعجاب به، وعلى الرغم من أنه

كان أبعد ما يكون حينها عن العاهل الغني بالنفط (وصار غنياً به في السنوات اللاحقة)، قدم إلى الأمير مساعدة مالية قدر استطاعته[68]. كما قدم له هدية أغلى من المال. فإحدى المعضلات الأخرى التي تسبب بها الانهيار العثماني للرجال الذين هم في مثل حالة أرسلان هي مواجهتهم لمسألة المواطنة. وكان من المفترض أن تحل من خلال معاهدة لوزان (1923م)، حيث نصت بنود تلك المعاهدة على منح رعايا السلطان السابقين مدة سنتين يمكنهم أن يختاروا خلالها إما أن يصبحوا مواطنين في تركيا، أو في إحدى الدول العربية الجديدة؛ فاختار أرسلان أن يحتفظ بجواز سفره العثماني متجاوزاً الموعد النهائي المضروب للاختيار بأشهر عديدة. وعندما حاول الحصول على المواطنة اللبنانية من قبل القنصل الفرنسي في لوزان (وهي تجربة مزعجة بحد ذاتها)، قيل له إن الموعد النهائي المضروب للاختيار قد انتهى -وكان رجلاً من دون مواطنة (بطاقة جنسية)، ونتيجة لذلك لم يكن يحق له الحصول على وثائق سفر[69]. ولكن كانت مملكة ابن سعود في الحجاز تتوفر على مُوَاطَنَةٍ، ولها الحق في منحها. وهكذا كان، فقبلها أرسلان وكذا فعلت أسرته، وعكف بعد ذلك على السفر بجوار سفر عربي طوال حياته الباقية[70].

وأصبح الدرزي المساند للعثمانيين والمتحدر من منطقة الشوف مواطناً حجازياً، وناطقاً رسمياً معترفاً به باسم القضية السورية الفلسطينية في عصبة الأمم. يا له من عالم انقلب رأساً على عقب! والملاحظة التي أبداها توما عنه، وقال فيها: "بدلاً من الموت في سبيل قضية معينة، قرر أرسلان أن يحيا مع قضية أخرى"، ما هي إلا ملاحظة سطحية جداً وتنم عن سخرية، ومن الصعب الإقرار بها[71]. فأرسلان يتوفر، من غير ريب، على غريزة تمكنه من البقاء والتعايش سياسياً، وله أذن تستعذب هتافات الجماهير وتهليلها له. ولكن كانت لديه نقطة قوة تتمثل في شعوره بأنه صاحب قضية ومهمة مضى فيها بعيداً متجاوزاً أنواع التسويات المرتبطة بمجرد البقاء في قيد الحياة. وكانت السنوات التي أعقبت الحرب في غاية الصعوبة بالنسبة لأرسلان. وإن كان غروره قد اقتاده إلى السعي إلى الحصول على الشهرة والأضواء ضماناً لاعتلائه مكانة رفيعة يستحقها، فقد كان يعاني أيضاً من أجل تكوين سمعة لنفسه ليصار إلى الحكم عليه من

خلالها، تبعاً لرغبته، ولكي يتمكن من خدمة القضية التي يعتقد أنها قضية حق. ونجح في منتصف عشرينيات القرن العشرين من تأســيس موقع حقق لــه نفوذاً، ومكنه من اســتعادة جمهوره العربي ومن توسيع قاعدته. وصار لزاماً عليه بعد ذلك أن يمكن ذاك الجمهور من الحصول على الوسائل التي يمكن للعالم العربي الإسلامي اعتماداً عليها أن يحدد هويته، وأن يفرض احترام كرامته في عالم حرم من ســيادته السياسية ومن سلطته التي كانت تتأتى من الخلافة.

الفصل الرابع

المدافع عن القومية الإسلامية: المشرق العربي

إنها وصمة عار يندى لها جبين المسلمين الذين تركوا خليفتهم السابق يهيم على وجهه في البلاد الأجنبية مغلوباً على أمره وعاجزاً عن إيجاد موطئ قدم في أرض إسلامية.

أرسلان[1]

مع إخفاق الثورة السورية في المشرق العربي، وإلقاء القبض على عبد الكريم الخطابي في المغرب، أحكمت الإمبريالية الأوروبية قبضتها على العالم الناطق بالعربية. والزعماء العرب الذين عقدوا آمالاً على قلب المعادلة عبر تسوية تتحقق في أعقاب الحرب مباشرة عدلوا توقعاتهم، واستعدوا للتعايش المضطرب مع المحتلين الأوروبيين. وعلى الرغم من أن النخبة السورية بدأت في تأسيس منظمات سياسية، فقد ظلت منقسمة على نفسها، وكانت الممارسات الإدارية الفرنسية تشجع الشقاق الحزبي. ولم تتخذ أي خطوات مهمة لجهة تحقيق الاستقلال حتى العام (1936م). وفي فلسطين، أصبحت تعقيدات التزام الانتداب المستحيل الرامي إلى تشجيع إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي، مع عدم الإضرار بحقوق العرب الفلسطينيين واضحة. والسم المتسرب من تلك المأساة سمم العلاقات بين العرب وبريطانيا كما سمم العلاقات بين الفلسطينيين والصهاينة. وفي

الأراضي العربية الأخرى الخاضعة لهيمنتها، كانت بريطانيا قادرة على تبني سياسة أكثر إيجابيــة، وعلى منح كل من مــصر في العامــين (1922م- 1936م) والعراق في العام (1932م) استقلالاً اســمياً. ولكن كانت الســيادة الناجمة عن هذا الاستقلال مقيدة جداً بموجــب معاهدات كبلت أيــدي الدولتين عبر ربطهــا ببريطانيا وضمان تأمين الاحتياجات الإمبريالية البريطانية.

وبينما كان يعاين حطام النظام العثماني من جنيف، شعر أرسلان بيأس مرير:

> ما كنت في حياتي أشد استيحاشاً من الدنيا، وتبرماً بتكور الليل على النهار وتكور النهار على الليل مما أنا فيه هذه الأيام الأخيرة. قد يشــعر الإنسان بحالات نفسية لا يعلم لها أســباباً، ويتألم من مواجيد في قلبه لا يدرك لهــا مصدراً... وكيف لا تتراكم الهموم وتتجمع الكرائه ونحن كل يوم أمــام مظلمة تثور لها كل نفس أبية، وعرضة لخســف لا يرضى به إلا الأذلان عير الحيّ والوتد. ننظر إلى ســورية فنجد فرنســة متشبثة بتحويلها إلى مستعمرة، ومؤملة أن تتلاشى حرارتها الوطنية في برد المماطلات والمراوغات. وننظــر إلى العراق فنجده في المقيم المقعد مــع إنكلترة التي لا تريد أن تعطيه من الاستقلال إلا أسماء وألفاظاً. ونتطلع إلى فلسطين فنجد الإنكليز يحاولون أن يصبوا عليها اليهود صبّاً، وأن يفرغوا العرب الذي فيها في قالب يهودي شاءوا أم أبوا... ونتأمل في مصر فنجد الإنكليز لا يرضون أن يعطوها هذا الاســتقلال المقيد الأعرج المشوه إلا إذا قدمت لهم السودان غنيمة باردة[2].

وكانت هذه الظروف والأحــوال تقتضي الإنصاف، كما كان أرســلان عازماً على التأثير فيها. ولم يفسر مهمته بوصفها مقتصرة على القضية السورية الفلسطينية، ولم يقبل الظروف التي جعلته منفياً. وكان ينتج عن تصديه لليأس الذي يراوده أحياناً صلابة في الموقف تعزز تفويضه وتعينه على مواصلة احتجاجه: "كلما عاتبهم الإنســان على خيانة اعتذروا بعدم إمكان المقاومة، أو باتقاء ظلــم الأجنبي، أو بارتكاب أخف الضررين، وجميــع أعذارهم لا تتكئ على شيء مــن الحق. ولقد كانوا قادريــن أن يخدموا ملتهم بســيوفهم، فإن لم يستطيعوا فبأقلامهم، فإن لم يســتطيعوا فبألسنتهم، فإن لم يستطيعوا

فبقلوبهم[3]". وكان أرسلان نفسه ملتزماً بالنصح الذي يسديه للآخرين. ودفع به اتساع نطاق نضاله ضد الإمبريالية وشدته إلى اعتلاء مكانة أسمى من أي وقت مضى، وعززا سمعته بوصفه ناشطاً مثالياً، وجعلا من مقر إقامته في جنيف، حسب تعبير جوليان الذي لا ينسى: "الحبل السري للعالم الإسلامي[4]".

وتركزت جهود أرسلان التي كرست لتوجيه دفة المقاومة العربية في حقبة ما بين الحربين، وتحديداً، بعد العام (1925م) على الأنشطة الأربعة الرئيسة الآتية: إبقاء القضية السورية الفلسطينية حيةً في أروقة عصبة الأمم، وتعبئة عرب شمال أفريقيا ضمن بوتقة النضال الإسلامي المشترك المناهض للإمبريالية، والتصرف بوصفه مصلحاً دينياً عبر التعليق على أحداث المشهد الإسلامي المعاصر، والتفاوض من أجل التحالف مع دول عظمى تساند مواقف العرب المناهضة لكل من بريطانيا وفرنسا. وانخرط أرسلان في هذه المهام جميعها على نحو متزامن، مخلفاً بذلك انطباعاً هائلاً، لكنه مشوش. وَعَدَّهُ بعض المعنيين بالأمر مجاهداً ضحى بنفسه مبدياً سجايا شخصية رائعة تشي بشجاعته وثباته وجلده، وحيوية فكرية. ورأى فيه آخرون محرضاً مثيراً للاضطرابات يحشر أنفه فيما لا يعنيه، وعميلاً سياسياً مأجوراً، ومتآمراً طموحاً فاسداً. لقد كان ينطوي على شيء من كل شيء مما ذكر، فهو صورة مركبة تتكشف عن رجل ذي شخصية مركبة، وكان يعمل في ظروف معقدة. وتشف شخصيته كذلك عن إنسان فذ ذي شخصية مميزة انبغى له نفوذ واسع متراكم منه ما هو حقيقي ومنه ما هو متصور. وفي معرض اكتسابه سمعته بالتزامن مع ممارسته نفوذه، أصبح أرسلان شخصية بارزة مهيمنة في سنوات ما بين الحربين.

وسوف يفحص ما تبقى من هذه الدراسة أداء أرسلان المتصل بهذه الأدوار الأربعة. وأما هذا الفصل من الكتاب فهو مكرس لبحث دوره في متابعة القضايا المتصلة، في المقام الأول، بالمشرق العربي إبان العقد الذي يستهله العام (1927م). ويبدأ بمناقشة الوسائل التي بنيت بواسطتها أسطورة أرسلان.

وفقاً لما أشـــير إليه في الفصل السابق من هذا الكتاب، أوجد وضع أرسلان بوصفه منفياً في أوروبا الظروف المؤاتية لانخراطه في القضية العربية. فقد اكتســـب، من ناحية، ميزة، ببســـاطة، بســـبب كونه في المكان المناسب في الوقت المناســـب. وإلى ذلك، أدى استمرار فرض حظر على وجوده في الأراضي التي تهيمن عليها كل من بريطانيا وفرنسا إلى اســـتبعاده من المشاركة المباشرة في السياسة الداخلية، ولكن أدى في الوقت نفسه إلى تمكينه من أن يغدو مقبولاً بوصفه متحدثاً عالمياً. وكانت هذه ميزة تتبدد ولا يستفاد منها أحياناً بســـبب أسلوبه السياسي المشاكس والمناور. ولكنه أفاد، على أي حال، من موقعه في أوروبا في تطوير مجموعة من الاهتمامات الاستثنائية والارتقاء بها. وكان يوجد بعض الموهوبين المعاصرين له قد كرسوا أنفسهم في معظم الحالات لخدمة مناطق محددة-سعد زغلول في مصر، ورياض الصلح في لبنان، وعلال الفاسي في المغرب-ذلك لأنه لم يكن لديهم ميل إلى الوصول إلى جمهور أوســـع، ولم تسنح لهم فرص لفعل ذلك. ومن ناحية أخرى، أعار أرسلان اســـمه وهيبته وحضوره الفعلي إلى مجموعة واسعة من الحركات السياسية والثقافية من المغرب إلى المملكة العربية السعودية، ومن البوسنة إلى فلسطين. وبتعبير آخر جاء على لسان أحد معاصريه: "عاش الأمير شكيب حياته مجاهداً في سبيل الحرية والاســـتقلال، حرية العرب في كل قطر، واستقلال المسلمين في كل بلد، ولهذا لم يكن جهاده محصوراً في دائرة وطنه وبلده، بل سما به إلى أن يكون جهاداً واسع النطاق، يدفـــع عن كل مظلوم ويرد كل عدوان وينصر كل ضعيـــف[5]". وتبقى اللغة الخطابية المبالغ فيها إطراءً ومديحاً تخلب ألباب ما يعنيه شخص مميز بعينه بالنسبة للمرتبطين به.

وتمثلت مهمة أرســـلان في حقبة ما بين الحربين في تدويل القضايا التي كانت تعانيها البلاد العربية الإسلامية الرازحة تحت نير الهيمنة الأوروبية، وحشد الرأي العام العربي الإســـلامي تأييداً لفكرة تفيـــد بأنه فقط من خلال التعاون المتبادل القائم على أســـاس الروابط الإسلامية المشـــتركة يمكن لهذه البلاد أن تنال استقلالها، وأن تستعيد نظامها الاجتماعي السليم. وكان وسطه الحيوي الرئيس الصحافة الدورية (الدوريات). وكما كان جزءاً من المجال الجديد للصحافة العربية قبل غروب شـــمس القرن التاسع عشر،

كذلك أصبح جزءاً-في حقبة ما بين الحربين-من عملية جديدة أخرى شـــهدت ظهور كُتّاب الكراريس وناشريها عن مواضيع تتصل بالمستعمر الإمبريالي في القارة الأوروبية. وكانت مقالاته العربيـــة التي تتراوح عدداً بين ثمانين ومئة ســـنوياً في ثلاثينيات القرن العشريـــن غالباً ما يعاد نشرها في مطبوعات مختلفـــة عديدة؛ الأمر الذي أظهره بوصفه كاتب عمود صحفي تنشر مقالاته في مطبوعات متعددة في وقت واحد[6].

وإبان حقبة ثلاثينيات القرن العشرين، استحوذ أرسلان أيضاً على جمهور فرنكوفوني من خلال مجلة **الأمة العربية**، التي يحتمل أنها كانت أقرب المطبوعات إلى قلبه وأرسخها في ذهنه. ومنذ انطلاقتها في العام (1930م) حين كانت تطبع مرة واحدة شهرياً، أعلنت أنها لسان حال الوفد الســـوري الفلسطيني، وكان يشرف على تحريرها كل من أرسلان وإحسان الجابري معاً. وكانا هما المســـهمين الرئيسين فيها، وغالباً ما كانا الوحيدين في هذا المضمار. وكان الهدف من المجلة "إطلاع العالم الغربي على مطالب الأمة التي سبق لها أن نشرت نورها الحضاري عبر ظلمات العصور الوســـطى، وعلى أنقاض العالم اليوناني الروماني، وأدت بذلك دوراً رائداً بوصفها إحدى القوى التي أسهمت في تشكيل العالم الحديث[7]".

وكانت المجلة تطبع في أنيماس، فرنسا، واستمر إصدارها حتى وقت متأخر من العام (1938م)، وكانت مشروعاً طموحاً واســـتنزفت مزيداً من أموال أرسلان الشخصية. وعلى الرغم من احتمال أن يكون قد استعمل بعض الأموال الألمانية والإيطالية لتمكين المجلة من الاســـتمرار في الوقوف على قدميها، يبدو أنه حاول إنتاجها بالكامل اعتماداً على عائدات الاكتتاب فيها، وعلى الإسهامات العربية وعلى دخله الخاص. وأدى ذلك إلى إعاقة سير المشروع بشدة، واضطر أرسلان خلال عام من إصدار المجلة إلى الاعتذار مرات عديدة إلى المشـــتركين بســـبب التأخر في إصدار أعدادها. وفي العام (1936م)، عندما كانت الأموال الإيطالية تمر بالتأكيد عبر يدي أرسلان، تقلص فعلياً عدد الأعداد الســـنوية لمجلة **الأمة العربية**، وباتت تصدر مرة واحدة كل ثلاثة أشـــهر وبصورة غير منتظمة. وعلى الرغم من أن المجلة كانت تدافع عن السياسة الإيطالية، فقد كان أرسلان

مصمماً على إبقائها مســتقلة وفي منأى عن التمويل الإيطالي. وبلغ مجموع الأعداد التي طبعت منها ثمانية وثلاثين عدداً.

أصبحــت مجلة **الأمة العربية**، في واقع الحال، الناطق الرســمي الشــخصي باســم أرســلان، وهيمن على صفحاتها فأضفى عليها نغمة جدل مناهض للإمبريالية، ولغة خطابية إسلامية مسيســة. وإلى ذلك، استغل أرسلان هذه المطبوعة للتنديد بخصومه، أوروبيين وعرباً على حد ســواء، وللدفاع عن نفسه في مواجهة الاتهامات الكثيرة التي وجهت إليــه. وفي جعله المجلة منتداه الخاص، نجح في الربــط بين اهتماماته وبواعث قلقه وبين قضايا عصره الكبرى، مانحاً بذلك مجلة **الأمة العربية** قدرة على التأثير تتجاوز واقع إصدارها غير المنتظم وتداولها المحدود. وبعد مرور أقل من ســنة على نشر العدد الأول منها، أمكن لأرسلان أن يزعم أن "مجلتنا الدورية، **الأمة العربية**، باتت تقرأ الآن في كل مكان باهتمام متزايد، وتعد الناطق الرســمي باسم العرب. ويوجد عدد كبير من المشتركين في المجلة في الأوساط السياسية الباريسية، وتحظى باهتمام بالغ[8]". وحظيت المجلة أيضاً باهتمام في لنــدن حيث أقرت وزارة الخارجية فيهــا بأنها "تتلقاها بصورة منتظمــة[9]". وكما هو مبين في الفصل الخامس من هذا الكتاب، عندما أصبح الإصدار المنقح الصحيح متاحاً، تمكن أرسلان من جعل المجلة قوة تعبئة قوية.

كان أرســلان أكثر من إنسان مولع بالجدل. فقد عمد إلى استكمال قدراته الصحفية بكم هائل من الكتب التي تراوحت من حيث موضوعاتها من كتب الســيرة إلى الشعر، فالتعليق الديني والسرد التاريخي. وعــاد عليه هذا الجهد الأدبي بدخل متواضع، لكنه منحه شهرة واسعة.

كما كان أرسلان يتوفر على أسلوب آخر من أساليب تعزيز النفوذ وهو ذاك الذي تمثل بارتباطه شخصياً، من فوره، بمؤتمر هنا جدير بالاهتمام أو بحركة استقلال وليدة هناك. وكان مســافراً لا يبالي بالتعب ولا يكل ولا يمل. وعــززت في أحيان كثيرة الرحلات الشــاقة التي قام بها إلى أنحــاء متفرقة من العالم صورته بوصفــه مجاهداً لا يقهر. فعلى

ســبيل المثال، أمضى في العام (1927م)، أربعة أشــهر في الولايات المتحدة الأمريكية، وحضر مؤتمراً في موسكو. وخلال ستة أشهر من العام (1934م)، جال في دول البلقان وصولاً إلى بودابست، وتوسط لفض نزاع في اليمن، والتقى مرتين بموسوليني في روما، وتناول طعام الغداء مع المندوب الســامي البريطاني في القــدس. وكان مثل الأفغاني، في آخر أيامه، يجوب العالم الإســلامي وأوروبا فيســتقطب مريدين مستجدين، ويحذر وينبــه بعض الحكام العرب إلى الخطر، وينتزع تعابير القلق من المســؤولين البريطانيين والفرنســيين الذين يقتفون أثر تجواله. ويبدو أن ابنته أخبرتني ذات مرة أنه حيثما يوجد مسلم واحد يذهب لإسداء النصح ومن أجل التشجيع.

إلى الحد الــذي كانت فيه هذه الرحلات تحدد هدف أرســلان وتقوي نفوذه، فهي تستحق أن تؤخذ في الحسبان. وكانت إحدى أهم الرحلات التي قام بها تلك التي يمم فيها شطر المسجد الحرام بمكة المكرمة لأداء مناسك الحج في العام (1929م)، وكانت مشروعاً تضمن أهدافاً تعدت أداء مناسك الحج، وأدت إلى بلورة آراء الأمير في قضايا الجامعة الإسلامية والقيادة العربية.

وفي الشــطر الثاني من العقد الثالث من القرن العشرين، تركز انتباه أولئك العرب، الذين سعوا إلى تغيير النظام الإمبراطوري المفروض، على البحث عن قيادة بين الحكام المتنافســين الذين نصبــوا حكاماً وملــوكاً في أعقاب تقطيع أوصــال النظام العثماني. وبالنسبة لأولئك الذين اقترحوا تشكيل تنظيم اجتماعي من منطلق إسلامي بالضرورة، كانت مســألة السلطة السياســية مرتبطة أيضاً بمصير الخلافة الروحية، وهي المؤسسة التي كان أتاتورك قد ألغاها في شهر مارس/ آذار من العام (1924م).

ومع تقســيم سوريا وتشتيت نخبتها السياسية، بدا أنه من المرجح أن تؤول الهيمنة على السياســات الروحية والزمنية في الجزء المركزي من البلاد العربية إلى الهاشميين المدعومين من قبل ســادتهم البريطانيين المهيمنين عليهم. فقد اعترف البريطانيون بالشريف حســين ملكاً على الحجاز، وتجرأ على إعلان نفســه خليفة (للمســلمين) بعد يومين فقط من إلغاء

أتاتورك للخلافة. وأصبح عبد الله وهو ابن الشريف حسين أميراً، ثم ملكاً لاحقاً، على شرقي الأردن، كما توج فيصل، وهو ابن آخر من أبناء الشريف حسين، ملكاً على العراق في العام (1921م). وكان هذا التعظيم المبالغ فيه لأسرة تحولت إلى سلالة حاكمة ومالكة منذراً بالخطر بالنسبة للملك فؤاد ملك مصر، الذي كان له طموحاته الإقليمية الخاصة وأطماعه الشخصية في اعتلاء سدة الخلافة[10].

وفي الوقت الذي كان أرسلان يستعد فيه لأداء مناسك الحج، أضيف متنافس ثالث إلى حلبة الصراع على القيادة. ففي قصة ملحمية، ارتقى عبد العزيز بن سعود من مجرد شيخ متواضع ضئيل الأهمية في العام (1910م)، إلى أن حظي باعتراف رسمي من قبل كل من بريطانيا، وفرنسا، والاتحاد السوفياتي بوصفه "ملكاً على الحجاز وسلطاناً على نجد والأقاليم التابعة لها" في العام (1926م). وأما بالنسبة للمسلمين في كل مكان فقد كان معترفاً به بوصفه حامي المدينتين المقدستين مكة والمدينة، والقيم على الحج[11]. وبمجرد تحقيق ابن سعود هذا النصر، كثف المنافسات المحتدمة بين الأسر العربية الحاكمة. وقد أدت الهزيمة التي ألحقها ابن سعود بالشريف حسين، واحتلاله مكة في العام (1926م)، إلى تحويل خليفة المسلمين وملك الحجاز السابق إلى مجرد شخص منسي ومنفي في قبرص، وجعلت ابن سعود أيضاً هدفاً "لثأر هاشمي"، وورطته في سلسلة متواصلة من الاشتباكات مع أبناء الشريف حسين على طول الحدود الشمالية المهلهلة[12]. وعلاوة على ذلك، بما أن الملك فؤاد أصبح نزاعاً إلى الشك في وجود منافس يدعي أحقيته بتولي زمام القيادة الإسلامية، سحبت مصر دعمها من الأمير الجديد، ورفضت منح دولته اعترافاً ديبلوماسياً، وبقيت الأوضاع على هذه الحال إلى ما بعد وفاة الملك فؤاد في العام (1936م).

طفا على السطح التنافس المحموم بين عبد العزيز آل سعود، والملك فؤاد، والهاشميين. وكان، في المقام الأول، صراعاً على الحدود، ومن أجل الحفاظ على امتيازات السلالات الحاكمة، وعلى أمور دنيوية أخرى. وحدث كل هذا في وقت كانت الجماهير العربية فيه منخرطة فيه في جدال دائر حول استعادة الخلافة. كان بعض المعنيين بالأمر يعتقدون

أنه سيكون لنتاج التنافس العلماني تأثير في مسألة القيادة الروحية. وراهن الجمهور على نطاق واسع على قضية إذا ما كانت المبادئ السياسية الإسلامية قادرة على إنتاج حل مُجْدٍ وفاعل للأزمات الخطيرة التي تواجه المسلمين بأسرهم، وجعل رهانه هذا على المحك. وانطلاقاً من خلفيـــات أضيق نطاقاً وأقل تصوراً، رأى رجال طامحون مناصب وظيفية وهيبـــة هائلة متاحة فلهثوا وراءها تســـولاً، وناوروا أمـــلاً في الحصول على المناصب. وعقب تنازل الشريف حســـين عن العرش، نظم مؤيدو الملك فؤاد مؤتمراً بشأن قضية الخلافة انعقد في القاهـــرة في العام (1926م)، ولم يكن العاهل المصري مرتاحاً للنتائج التي تمخضت عن انعقاد المؤتمر. ونظراً لعدم تمكن الوفود التي شـــاركت في المؤتمر من التوافق على مرشح محدد لاعتلاء ســـدة الخلافة، اكتفى المؤتمرون بالتأكيد على ضرورة وجود خليفة لاحقاً، وعلى إبقاء كرسي الخلافة شاغراً حتى وقت لاحق[13].

وحتى لا يتعرض إلى هزيمة من قبل منافســـه المصري، دعا عبد العزيز آل سعود إلى عقد اجتماع دولي في العام (1926م)، وأطلق على الاجتماع اسم مؤتمر العالم الإسلامي، وجمع لهذا الغرض في مكة المكرمة وفوداً رســـمية ممثلةً لحكومات إســـلامية عديدة من أجل مناقشة قضايا تهم المســـلمين كافة[14]. وعلى الرغم من أن الحلول التي تمخضت عن مؤتمر مكة بشـــأن قضية الخلافة كانت مماثلة لتلك التي نجمت عن مؤتمر القاهرة، فقـــد انطوى المؤتمر على نوايا أشـــد طموحاً في أن يغدو هيئة دائمـــة، واختارت الوفود المشاركة فيه لجنة دائمة من المندوبين. وعبر منح أرسلان الذي تغيب عنه مرتبة مرموقة في اللجنـــة، لم يكتـــفِ المؤتمر بتأكيد مكانته بين المســـلمين، بل أضفـــى عليها الشرعية أيضاً[15]. فإن كان بحاجة إلى التشجيع لتعزيز آرائه، فقد حصل عليه الآن.

فورة النشـــاط التي أعقبت إلغاء الخلافة تكشـــف النقاب عن مدى مركزية مشكلة الخلافة بالنســـبة إلى المســـلمين في ذلك العصر، فقد جرى تســـييس القضية بكل ما في الكلمة من معنى. وبالنســـبة لرجال مثل شكيب أرســـلان ورشيد رضا، كان مستقبل المجتمع على المحـــك. وبناء على ذلك، لم يكن وارداً أن يلـــوذا بالصمت. ورضا الذي ثارت ثائرته وصولاً بها إلى "ذروة السخط" نتيجة لادعاء الشريف حسين أحقيته بتولي

زمام الخلافة، شعر أن استمرار قيام الخلافة ليس واجباً فحسب، بل ينبغي أيضاً أن يتبوأ هذه المرتبة من تتوفر فيه كل المؤهلات التي أوجب توفرها في شخص الخليفة صفوة الفقهاء[16]. ولكن رضا رفض أن يسمي خليفة قبل أن يصار إلى اختيار رجل يتمتع بالمؤهلات المذكورة، وإلى تدريبه، ويكون بذلك "خليفة توافقياً". وكان اختيار رضا المفضل لهذا المنصب الإمام يحيى إمام اليمن[17].

وشارك أرسلان صديقه آراءه إلى حد معين. وخلال عقد عشرينيات القرن العشرين، لم يكن مستعداً لمجرد تصور أن وجود عالم لا خليفة فيه أمر ممكن بالنسبة للذين يسمون أنفسهم مسلمين. ثم عدل موقفه لاحقاً، وخلص إلى الاعتقاد في أن ملكين أو ثلاثة ملوك لبلاد إسلامية ذات سيادة يمكن أن يؤدوا الغرض الذي كان يؤديه الخليفة. وكان هذا الارتباط بالحكم الإسلامي، الذي يفضل أن يكون على هيئة ملكية دستورية، عنصراً رئيساً من عناصر فكر أرسلان السياسي. كما كان استمرار التزامه بالخلفاء السلاطين العثمانيين وبالنظام الاجتماعي الإسلامي موقفاً لم يتردد مطلقاً في الالتزام به، وكان يدعو الناس إلى اتباعه بلا هوادة.

وفي أعقاب إلغاء الخلافة في تركيا مباشرة، تقبل أرسلان، شأنه شأن رضا، فكرة وجوب استعادة وضع الخلافة، وضرورة امتلاك الخليفة للسلطتين المادية والروحية في آن معاً. وفي الوقت نفسه، خالف رضا القائل إنه يتعين على الخليفة الذي سيستعيد منصب الخلافة أن يلبي كل الشروط المطلوبة التي كان قد وضعها صفوة الفقهاء. وكان أرسلان يرى أن هذه العملية غير مجدية؛ لأنه "لا يوجد في كل الإسلام رجل توفرت فيه شروط الخلافة، إذا راعينا الشرع كما يجب[18]". وكان أرسلان مستعداً للقبول بحل وسط بالنسبة للمؤهلات التي تحتم أن يكون الخليفة قرشي النسب، وحافظاً للقرآن عن ظهر قلب مقابل توفر مؤهل جوهري وأساسي-السلطة.

وقد راود أرسلان شعور لبعض الوقت يفضي إلى أنه إذا ما زود الخليفة العثماني المخلوع عبد المجيد بمقاطعة، في البصرة، ربما، أو في اليمن، ثم يحاط بما يكفي من

مقومات السلطة المميزة من أجل استمراره في الحكم، فهذا يفي بالغرض. ولكن سرعان ما تخلى أرسلان عن تلك الفكرة، وحول دعمه إلى عاهل سلطانه ملموس أكثر: "فأليق كرسي بالخلافة هو كرسي مصر بدون نزاع[19]". ولم يكن اهتمامه برجل قرشي النسب، ولا برجل حافظ لكتاب الله هو ما حدا بأرسلان إلى دعم حفيد مغامر ألباني تلقى علومه في إيطاليا. فالإسلام يقتضي توفر مركز للسلطة، وقدرة على الحزم، ووحدها مصر تستطيع توفير هذين المطلبين. ولسوف تغدو هذه المقدرة واضحة جلية تماماً عندما تحصل على استقلال غير مشروط، وتشرع في بناء جيش يتوافق مع حجم سكانها. وعندما يرى المسلمون هذه الدولة لديها قوة عسكرية معبأة قوامها مليون وخمس مئة ألف عسكري، وأسطول يضارع أسطول دولة أوروبية من الدرجة الثانية، عندها سيتهافتون "حتى التتر والترك منهم على مبايعة ملك مصر[20]". ولم يكن أرسلان صديقاً خاصاً من أصدقاء ورثة عباس حلمي، لكنه أدرك أن مصر تتوفر على أفضل فرصة لتزويد الإسلام بأسباب القوة المادية التي تمكنه من منافسة التفوق الأوروبي، ولأن تمده برجال مثله لهم مكانتهم المرموقة والمؤاتية في العالم.

وكون ولعه في أن تكون الخلافة الإسلامية مصرية يمكن أن ينتقل ويتحول بسرعة إلى عاهل آخر، فإن هذا لا يغير طبيعة الاختبار الأساسي الذي يحكم أرسلان من خلاله على الحاكم المسلم. وإنما يعني هذا أن مقومات السلطة تحققت في شخص من يعده هو أكثر استحقاقاً لشغل هذا المنصب. فقد أدت الانتصارات الحاسمة التي حققها عبد العزيز آل سعود في الحجاز بأرسلان إلى إعادة اكتشاف الفضائل الإسلامية الأقل تلوثاً من تلك التي أبداها ملك مصر. وفي الوقت الذي أنهى فيه استعداداته لأداء فريضة الحج، أعلن أن الرجل، الذي عده ذات يوم أميراً ضئيل الأهمية، هو المرشح المرجح أكثر لكي يظهر للغرب "الأمة العربية لم تمت[21]". وبطريقته الخاصة، عقد أرسلان العزم على تعزيز سمعة عبد العزيز آل سعود. وأداء رجل شهير له سمعة أرسلان ومكانته فريضة الحج مع وقع الدعاية المصاحبة من شأنه -إذا ما تم بسلاسة- أن يعزز هيبة ابن سعود عبر إظهاره قادراً على إبقاء الحج متاحاً وآمناً. ومن شأنه أيضاً أن يبين

أنه يمكن للمشــاهير وذوي النفوذ أن يؤدوا مناســك الحج من دون أن يساورهم قلق حيال سلامتهم.

وفي الواقــع، بمجرد وصوله إلى الحجــاز، بات ما يلاقيه أرســلان من صعوبات أقــل من تلك التي كابدها وهو في طريقه إليها. وكانت العقبة الرئيســة التي اعترضت ســبيله تتمثل في حصوله على إذن من الحكومة المصرية يمكنه من النزول من السفينة في ذلك البلد، لكي يتمكن من الانتقال إلى ســفينة أخرى متجهة إلى جدة. وســاور الملك فؤاد قلق حيال تسهيل مرور رجل سيئ الســمعة وصديق لعباس حلمي إلى دولة ابن ســعود. وبعد قضائه وقتاً محبطاً روجعت فيه خطط، وتلقــي وعوداً غير مؤكدة، منح أرسلان التصريح الذي سعى إلى الحصول عليه. وشكلت وفود للترحيب به، وشرعت الصحافة الإســلامية تروج لزيارته، ورضا، لكــي يضمن أن يكون الهدف النهائي من الرحلة قد أنجز على النحو الذي ينبغي، أبلغ أرســلان الآتي: "هذا وإنني مرسل إليك نسخة من مناسك الحج لتطالعها في البحر[22]".

ومن وجهة نظر قطاع معين من قطاعات النخبة المصرية، كان وصول أرســلان إلى ميناء بورسعيد في السابع من شهر مايو/ أيار من العام (1929م)، وعبوره إلى السويس صبيحة اليوم اللاحق حدثاً على جانب من الأهمية. كتب رضا عن ذلك يقول: لم يكن في وسعه أن يكفكف دموع الفرح حين رأى صديقه القديم. وحضرت مجموعة أخرى من الشخصيات البارزة تعبيراً عن احترامها وتقديرها لصديق سابق، وإعراباً عن تضامنها مع رجال مماثلين لها رأياً وتفكيراً[23].

والحكومــة المصرية التي بدت معنيــة بالاهتمام الذي حظي به أرســلان، سَرَّعت مغادرته الســويس في اليوم اللاحق. وقد كانت نتيجة مفاجئة لخطط رضا التي أعدها بعناية على صعيد الاستقبال والمناقشات، وصمم مع ذلك على ضرورة أن يؤدي الأمير شــعائر حجه على النحو الذي ينبغي، فقصد أسواق الســويس على عجل ليشتري له ملابس الإحرام[24].

ولم يكن هناك سلوك حكومي عدائي حين وصل أرسلان إلى وجهته النهائية. وكان ابن سـعود مدركاً للإمكانات التي يتوفر عليها أداء أرسلان لفريضة الحج على صعيد إضفاء الشرعية على نظام حكمه، ولجهة إحكام قبضته على المقدسات الإسلامية. وكما جاء فيما كتبه أرسـلان، وحرص الكتاب الذين نقلوا عنه أن يكرروه بدقة، فقد استقبل الملك نفسه أرسـلان في جدة، واصطحبه على متن السيارة الملكية إلى مكة المكرمة[25]. وطوال فترة إقامة أرسلان في الحجاز، أكرم ابن سعود وفادته إكراماً سخياً وأشاد به في العلن، وحتى عرض عليه أن يحضر أسرته إلى المملكة إن وافق أرسـلان على أن يشغل منصباً في حكومته[26].

ومن جانبه، فعل أرسـلان كل ما في وسـعه في سبيل تعزيز سـمعة مضيفه، ونقل إلى مملكـة الحجاز المتخلفة كل الإنجـازات التي حرم العرب منهـا في أماكن أخرى: "شـعرت منذ وطئت بقدمي رصيف جدة أني عربي حر في بلاد عربية حرة. شـعرت أني تملصت من حكم الأجنبي الثقيل الملقى بكلكله على جميع البلاد العربية... شعرت أني إن كنـت خاضعاً هنا لحكومة، فكخضوع لويد جورج لحكومة إنكلترا، وكخضوع كليمنسو لحكومة فرنسا[27]". وكان على القدر نفسه من الأهمية بالنسبة لمفهوم أرسلان عن الحكم الرشـيد أن بقيت شبه الجزيرة العربية "خاضعة لأحكام الشريعة الإسلامية بجميع أحكامها[28]".

عزا أرسـلان الفضل في وجود هـذه الظروف والأحوال التـي تثير الإعجاب إلى حاكم الحجاز الجديد: "وجدت منه رجلاً نادراً في الذكاء والمضاء وسرعة اللحظ وسعة الفكر وشدة العزم، هذا عدا كرم الخلق وعلو النفس وتقوى الله، وأقول لا ينقص هذا الرجل إلا استمرار التوفيق، فنرجو من الله أنه كما وفقه بالماضي بسلسلة توفيقات غريبة يوفقه في المسـتقبل، ويوالي صعوده ويواصل تأييده، فيكون بذلك للإسـلام وللعرب نهضة حقيقية..."[29]. عثر أرسـلان على بطله المنشود من أجل مستقبل العرب، فابن سعود لم يكن مجرد عاهل عربي مستقل ومتمتع بسيادة كاملة، ويحكم استناداً إلى المبادئ الإسـلامية، بل كان، فضلاً عن ذلك، محارباً شجاعاً يسـتجيب لسجايا المآثر البطولية

العسكرية للمقاتلين الشجعان، وهي سجايا تعلق بها أرسلان تعلقاً رومانسياً[30]. وكما سبق له أن انجذب إلى عبد الحميد في الأدوار التي مارسها بوصفه سلطاناً إمبراطورياً وخليفة إسلامياً، وكما سبق له أن سحرته المآثر البطولية التي رآها في أنور باشا، كذلك ألفى نفسه منجذباً إلى أمير الحجاز، المحارب الذي لا يمكن في الديار الخاضعة لحكمه وسلطانه "أن تعلو فيها يد أفرنجية على يد عربية[31]".

كان الترحيب الذي حظي به أرسلان في الحجاز مناقضاً تماماً للتضييق عليه الذي عاناه في الدول العربية الخاضعة للهيمنة البريطانية والفرنسية؛ الأمر الذي أدى به إلى الخلط بين الاستقلال والسلطة. وفي وصفه للنغمة التي لونت خطابات أرسلان في الحجاز على وجه الإجمال، قال القنصل البريطاني في جدة إن الأمير مضى في خطاباته بعيداً جداً، وصولاً إلى الحد الذي أعرب عنده عن أمله في أن تغدو مكة العاصمة السياسية، فضلاً عن كونها العاصمة الدينية، للعالم الإسلامي[32].

وبوصفه مِرَاناً في العلاقات العامة وترويجاً للذات، كان حج أرسلان ناجحاً. ولكن بوصفه مشروعاً لرجل مضى من عمره ستون عاماً وأوشك أن يحط الرحال، فقد تبين أنه كان ينطوي على كثير من المبالغة. فأرسلان الذي أنهكته الرحلة من جنيف، أمسى مريضاً جداً بعد أيام قليلة من وصوله إلى المدينة المقدسة. فنقل إلى الطائف، وهي تعد منتجعاً صيفياً لشيوخ القبائل، والأعيان الحجازيين، ولكن تعافيه كان بطيئاً، ولم يستعد عافيته تماماً إلا في منتصف شهر سبتمبر/ أيلول من العام (1929م)، أي بعد أربعة أشهر تقريباً أمضاها في العربية السعودية، وعندها أصبح قادراً على الانطلاق في رحلة العودة إلى أوروبا. وتميز مروره عبر مصر باستقبالات عامة، وبلقاءات شخصية مؤثرة وقصيرة الأمد. وكانت أمه قد وصلت إلى السويس لتلتقي به، وكان لقاء أرسلان بأمه تذكيراً مؤلماً بالقيود التي فرضت على تحركاته. كان أحمد شوقي ينتظره أيضاً في السويس، وكثف هذا اللقاء العابر مع صديق قديم، من جديد، شعور أرسلان بالوحدة، وتذكر أنه قال لشوقي حينها: "لا أقدر أن أدعوك إلى سورية لأني لا أقدر أن أطأها بقدمي، ولا

إلى فلسطين ولا إلى مصر التي لا أدخلها إلا بعد اللتيا والتي، فأنا أدعوك إلى سويسرة، حيث يمكنك أن تقضي الصيف ونشاهدك ملياً[33]".

كان لزاماً على المنفيين أن يحققوا أقصى ما يستطيعون من الفرص النادرة التي تتاح لهم. وعليه فقد أمضى أرسلان مع عزام ورضا وعشرة آخرين تقريباً ليلتهم في بورسعيد. ورصد مراسل الشورى أجواء لم الشمل المفعمة بالحنين التي هيمنت على فندق كازينو، حيث التقى الرفاق القدامى المعمرون مع مريديهم الشباب، وحدتهم قضية عامة واحدة، وفرقهم الزمن والمسافات والمرسوم الإمبراطوري، وقد ظفروا اليوم بأمسية ثمينة جداً قضوها معاً. كان الحاضرون تلك الأمسية خليطاً من كل الأطياف، وكانت بينهم مطربة مصرية شابة صادف أنها كانت تؤدي بعض الأغاني في الفندق تلك الليلة. وعندما ألح أصدقاء أرسلان عليه ليعرفوا ردة فعله على غناء تلك النجمة الصاعدة، رد عليهم بشعر مرتجل جاء فيه أنه حتى أصحاب الرؤوس التي اشتعلت شيباً لا يمكن إلا أن يهتزوا طرباً لدى سماعهم صوت أم كلثوم[34](*).

ورؤيةُ أرسلان أصدقاءَهُ عمقت حدة شعور انفصاله عنهم، وبعد أشهر قليلة، وسط غمرة الشتاء السويسري، نشر مقالاً مشاكساً لكنه شجي، تحدث فيه كيف تم اختياره ليلقى معاملة خاصة من قبل بريطانيا العظمى. وكان فخوراً بسجله المناهض للإمبريالية في حقبة ما قبل الحرب، أما الآن وقد ساد السلام بين بريطانيا من جهة وكل من ألمانيا وتركيا من جهة أخرى، فما السبب الذي يدعو إلى استهدافه بهذا العداء إلى الحد الذي يحول بينه وبين زيارة أمه في فلسطين؟ والحجاز واليمن هما الدولتان الوحيدتان اللتان تنعمان بالسيادة، ولأنهما دولتان مستقلتان تجرأتا على توفير ملاذ له.

(*) الأبيات المرتجلة:

رؤوس تُغطّى بثلج المشيب ... ولكنها النار من تحتها
تميل من الطرب المستمر ... لدى أم كلثوم مع تختها
أتيح لنا سمع آياتها ... فعدته نفسي من بختها

مجلة الشورى، القاهرة، السنة الخامسة، العدد 244، 9 أكتوبر 1929.

وجاء فيما كتبه: "والحمد لله على أن أبقى لنا راية ابن سعود[35]". إنها الراية التي أعلن ولاءه لها بوصفه مواطناً، كما قدم دعمه الدعائي لها على مدى ما تبقى من حياته.

وما دامت القيود المفروضة على سفره إلى البلاد العربية معمولاً بها وسارية المفعول، فإن فاعلية أرسلان بوصفه داعية منفياً كانت تكمن في قدرته على لفت الانتباه إلى أنشطته، وفي نشره أغلب الأحيان في الصحافة العربية، وفي المواظبة على التواصل مع مجموعات لها نفوذ داخل الدول العربية. وكرست رحلات أخرى عديدة قام بها لخدمة هذه الغايات. عثر أرسلان على إحدى هذه الغايات الأكثر غرابة في الولايات المتحدة الأمريكية حيث أمضى هناك الأشهر الأربعة الأولى من العام (1927م)، وحضر اجتماعات المؤتمر السنوي لحزب سوريا الجديدة في ديترويت. وكان يرمي من حضوره المؤتمر إلى تزويد الجالية السورية في الولايات المتحدة الأمريكية بمعلومات عن الثورة الأخيرة، وجمع أموال تبرعات اللاجئين، وكان هدفه المستتر حشد التأييد لنفسه بوصفه الممثل الشرعي للسوريين بأسرهم أمام عصبة الأمم.

وقد تمكن بذلك من مخاطبة المؤتمر المذكور ومن جمع التبرعات من أجل القضية السورية، وكانت بالنتيجة رحلته مرضية[36]. لكنه أخفق في تبريد شكوك المكون المسيحي الكبير بين الأمريكيين ذوي الأصول السورية في أنه رجل يؤمن بضرورة تفوق المسلمين وسيطرتهم على الآخرين. واحتشد أربع مئة متظاهر من المحتجين المنتمين إلى الجمعية المسيحية السورية في ديترويت للتنديد بـ"افتراضه" الجسور المفضي إلى زعمه بأنه يتحدث بوصفه ممثلاً رسمياً لسوريا. ووصفته صحيفة السائح التي كانت تتخذ من نيويورك مقراً لها بالأجنبي المتعطش إلى الاحتفالات الطنانة الرنانة[37].

وعلى الرغم من استقباله استقبالاً يفتقر إلى الود من قبل الجالية المسيحية السورية، فإن سمعة أرسلان بوصفه ناشطاً في مجال قضية استقلال سوريا كانت تحظى بالعناية والرعاية في المشرق العربي، من خلال التغطية الجيدة لجولته في أمريكا التي أمنتها صحيفة الشورى وأحاطتها بإطرائه والثناء عليه، وتجاهلت الجدل الذي أثارته،

وركزت عــلى الحفاوة والأجــواء الاحتفالية التي واكبت الجولة[38]. شرع أرســلان بإجراء جولة في الولايات المتحدة حسب ما بينت الخطوط التاريخية لصحيفة **الشورى**، وذلك عقب انتهاء جلســات مؤتمر ديترويت، وتوقف أثنــاء جولته في أماكن متعددة منها فورت ســميث، وأركنساس، وشــوني، وجورجيا. ولم يسجل أرسلان انطباعاته الخاصة عن هذه الرحلة، والكتابات التي دونها لاحقاً خلت تقريباً من أي إشارات إلى هذا الحدث الخاص. وكانت هذه الرحلة، على وجــه الإجمال، غريبة ومكلفة، بيد أنها أظهرت حرصه الشديد على تأكيد وجوده في أي مكان يشعر أنه يمكن أن يجدي نفعاً.

ومضى به الدافع نفسه، في شهر نوفمبر/ تشرين ثاني من العام (1927م) إلى موسكو لحضــور احتفالاتها في الذكرى العاشرة لاندلاع الثورة البلشــفية. وكان لا يقوى على مقاومة اختياره ممثلاً رســمياً لأي جماعة، وهذه المرة يمم شــطر موسكو بوصفه الممثل العربي للجنة الدولية للنضال ضد الإمبريالية التي كانت تتخذ من برلين مقراً لها. ولكنه لم يكن أكثر انجذاباً إلى الثورة الشــيوعية منه إلى أمريكا الرأسمالية. وعلى أي حال، كان حضوره في موســكو في ذلك الوقت مهماً بقدر مــا كانت آراؤه كذلك. وبرهنت رحلة موســكو لأحد الديبلوماسيين البريطانيين أن أرســلان "كان، بما لا يدع مجالاً للشك، يعمل في ظلِ القيادة الســوفياتية وينفذ توجيهاتهــا[39]". وكانت تلك تهمة لم يتخلص منها تماماً قَطّ، وأضيفت إلى ســمعته المعقدة التي تكونت في ملفات وزارات الخارجية المختلفة.

وسواء أكان يلبي الدعوات أم يوجهها، كان أرسلان يسافر باستمرار. ولم تحقق كل رحلاته أهدافها (تعد رحلته إلى الولايات المتحدة مثالاً ممتازاً)، ولكن كانت كل رحلة تؤرخ وتســجل من قبل الأمير وتغطيها الصحافة وتنشر تقارير عنها، تدليلاً على تفانيه في العمل في إطــار التفويض الممنوح له في أوروبا. وحــوالي العام (1930م) شرع في توسيع نطاق مصالحه متجاوزاً حدود القضية السورية الفلسطينية، مكوناً سمعةً عزت إليه الفضل في تنســيق أعمال حركة الاحتجاج العربية الإســلامية برمتها. وافتتح هذه المرحلة من مســيرته، بحسن نية، بزيارة إلى إســبانيا في صيف العام (1930م). كانت

هــذه الرحلة واحدة من أكثر تجاربه المرضية في حقبة ما بعد الحرب؛ فسـحر الأندلس الذي اسـتوحى منه ترجمته لشاتوبريان في العام (1898م)، أدى به الآن إلى تأليف عدد من مجلداته الخاصة عن أمجاد العـرب في الأندلس[40]. ولم يكن وحيداً في هذا التوجه، فقد بحث كتاب عرب آخرون معاصرون لأرسلان بدءاً من أحمد شوقي في إسبانيا عن أشياء تذكر بأن المسيحيين الأوروبيين لم يكونوا دوماً مهيمنين على العرب المسلمين[41]. وبهذه الروح التي ربطت بين الإنجازات الماضية والإمكانات الراهنة، كرس أرسـلان كتابـه عن الفتوحات العربية في أوروبا لخدمة تنميـة التعاون بين كل من فيصل، وابن سعود، والإمام يحيى، وهي العملية الكفيلة بتجديد مجد الأمة العربية و"استعادة قوتها وعظمتها[42]".

عبر أرسلان من إسبانيا إلى طنجة، وأطلق من هناك ما قدر له أن يكون لاحقاً حملته المناهضة للإمبريالية الأكثر نجاحاً، ولسوف يصار إلى بحثها في الفصل اللاحق من هذا الكتاب.

لم يتقوقع أرسـلان في بوتقة الخطوط التاريخية المتشـابهة والأشد وضوحاً، ولم يقيد نفسه بالمواقف الاستعمارية الأكثر إلحاحاً، بل كان فريداً في نوعه بين الشخصيات البارزة العربية المسلمة التي عاصرته، وسعى إلى تمتين الروابط مع القيادات الإسلامية في أوروبا الوسـطى من الذين تخلى عنهم إخوانهم في الدين، حسـب رأيه، وتركوا ليدافعوا عن أنفسهم بأنفسهم في خضم بحر من النصارى. وفي أواخر صيف العام (1932م)، ومرة أخرى في الشهرين الأول والثاني من العام (1934م)، جال في دول البلقان وصولاً إلى بودابسـت. واهتمامه بهذه المنطقة ربما عكس أكثر فأكثر صلاته مع الماضي العثماني. فهو لم يكرس، على سبيل المثال، اهتماماً بمسلمي الهند بقدر الاهتمام الذي خص به مسلمي البوسنة. وانطلاقاً من شعوره بأنه اختار ينبوعاً ثراً من المشاعر الإسلامية، دعا أرسلان علماء المشرق العربي إلى زيارة دول البلقان بصورة منتظمة بغية إدماج مسلميها في التيار الرئيس للنضال الإسـلامي الرامي إلى تحقيق الاستقلال الثقافي[43]. وقد عمل وحده

على تفعيل هذا الاقتراح، وقربه استعداده لفعل ذلك كثيراً من قلوب القادة المسلمين في دول البلقان، ومكنه من عدهم ضمن المعجبين به.

وبـــين لهم، بتعبير آخر، أنه لم يَجْرِ التخلي عنهم. وإن لم يتمكن من إقناع علماء المشرق العـــربي بالعمل على تنظيم شـــؤون إخوانهم الأوروبيين في الدين، فإنه ســـيفعل ذلك بنفسه. وكان التكتيك الذي اتبعه في هذا الإطار هو التكتيك المعتاد في تلك الحقبة-عقد مؤتمر. وعلى الرغم من أن أرسلان لم يكن هو صاحب فكرة عقد مؤتمر لمسلمي أوروبا، فقـــد أصبح أحد دعاته الرياديين ومنظميه الرئيســـين[44]. عندما انعقد في نهاية المطاف مؤتمر أوروبا الإســـلامي في جنيف من (12-15) من شـــهر سبتمبر/ أيلول من العام (1935م)، كان حدثاً أكثر تواضعاً مما توقع أرسلان. وحيث إنه عانى انخفاضاً في عدد المشـــاركين (شارك فيه سبعون مندوباً تقريباً فقط)، ولأنه شابته اتهامات بأن تمويله كان إيطالياً، اجتذب المؤتمـــر اهتماماً من المراقبين الخارجيين أكبر من ذاك الذي حظي به من المسلمين الذين من أجلهم كان انعقاده[45].

أضفى أرسلان بصمته على التجمع، وتيقن من أن الأمور آلت إلى بث القضايا التي تعنيه ونشرها. وأفاد من موقعه بوصفه رئيســـاً للمؤتمر في إلقائه كلمة افتتح فيها المؤتمر ودعـــا من خلالها إلى اســـتعادة الخلافة، وقرأ برقية أرســـلها إلى المؤتمر الخليفة المخلوع عبد المجيد، وضمنها تســـميته أرسلان ممثلاً شـــخصياً له في المؤتمر. وولد هذا الموقف شـــيئاً من الاستياء في أوســـاط المؤتمر، وحدا بأحد المؤتمرين إلى الإشارة بحدة إلى أنه لا يشاطره المؤتمرون جميعاً تعاطفه مع الخلافة[46]. كما أنهم لم يشاطروا رئيس المؤتمر هيبته. والملاحظات التي أبداها مفتي بودابســـت أو رئيس رابطة مسلمي وارسو لم تكد تحرك ساكناً لدى المؤسسة الإمبريالية في بيروت أو لدى المؤسسة المسيحية في بلغراد.

ومع ذلك لا ينبغي النظر إلى المؤتمر بوصفه مشهداً تمثيلياً أجوف. ربما لم يكن حاسماً، إلا أنه، شـــأنه شأن كثير من أنشـــطة أرســـلان، انطوى على قيمة رمزية. وكما جاء فيما دونه المشـــارك الذي استهجن المشاعر المتعاطفة مع الخلافة: يبدو أن المؤتمر شكل بداية

حركة. وأحضر أرسلان الشـــخصيات الإسلامية الأوروبية الرائدة إلى جنيف، ونجح في إقرار عدد قليل من الالتماسات التي رفعها إلى عصبة الأمم، وأكد هيمنته على اللجنة التنفيذية الدائمة بحصوله على منصب الرئاســـة فيها، وبالتمهيد لاختيار الجابري نائباً للرئيس. وفي الظروف التي انعقد في ظلها يمكن أن يعد التئام شـــمل التجمع إنجازاً. كما كان شهادة على اتساع مجال اهتمامات أرســـلان، وعلى سحر اسمه وجاذبيته. ذلك لأنه لولا رعايته وحضوره لما كان ممكناً لهذا المؤتمر أن ينعقد.

إن إخلاص أرســـلان لابن ســـعود بوصفه العامل المثالي، وانخراطه بين مســـلمي أوروبا، واســـتغراقه في الأندلس، كل ذلك كان جزءاً من تصوره لمفهوم سياسة القومية الإسلامية. ورغب في إظهار أن القضايا التي تعني المسلمين ليست مقتصرة على منطقة بعينها، بل تشـــمل المسلمين الآخرين برمتهم. وفي المشرق العربي، أتاحت له مشكلات الانتداب على فلسطين أفضل فرصة لاستثمار القومية الإسلامية والإفادة منها.

ومنذ الإعلان عن وعد بلفور في العام (1917م) إلى أعمال الشغب المرتبطة بحائط المبكـــى في العام (1929م) إلى ثـــورة العام (1936م)، كانت فلســـطين مسرحاً لكل التهديدات التي استهدفت شـــعور العرب بهويتهم وقيمتهم وكيانهم: الهجرة اليهودية إلى بلاد المســـلمين وأراضيهم انتهكت النظام الاجتماعـــي الذي أمر به الوحي وصدقه العمل، وأظهرت الهيمنة البريطانية الناجمـــة عن الانتداب ازدواجية الدول الأوروبية، وأكدت تسلطها على العرب، وعكس تشظي القيادة الفلسطينية المحلية مواطن الضعف السياسي المثيرة للقلق والتي كانت مســـتشرية في كل من سوريا والعراق أيضاً. وربما لم يكن العرب، فوق كل هذا، مؤهلين لحكم أنفسهم بأنفسهم.

ولم يكن في وســـع من يدعي أنه الصوت المعبر عن الاحتجـــاج العربي أن يتجاهل هذه المخاطر. أفاد أرســـلان من الأدوار المتعددة التي هيأها لنفسه ليغدو مشاركاً نشطاً في القضية الفلســـطينية. وبوصفه مندوباً في عصبة الأمـــم، أمطر لجنة الانتداب (المعينة من قبل عصبة الأمم) بسلســـلة متصلة من الالتماســـات، محـــاولاً بذلك أن يحول دون

تهميش موضوع فلسطين وإقصائه[47]. وبوصفه شخصية عامة بارزة وله شأنه شعر أنه مخول بالتفاوض مع القيادة الصهيونية. وفي شهر سبتمبر (أيلول) من العام (1934م)، زار ديفيد بن غوريون كلاً من أرسلان والجابري في شقة الأمير في جنيف. وخلال المناقشات التي استمرت حتى الصباح الباكر، عزز أرسلان اعتقاد القائد الصهيوني بتصلب موقفه، وأكد بن غوريون اعتقاد أرسلان بأن الصهيونية توسعية وعاقدة العزم على المضي في غيها[48]. وكان الاجتماع غير الحاسم صورة مصغرة عن العلاقات الصهيونية العربية خلال الحقبة الفاصلة بين الحربين العالميتين.

وبوصفه صحفياً متمرساً في الجدل، لم يكتف أرسلان باستيعاب مدى أهمية المعترك الدولي بالنسبة إلى القضية الفلسطينية، بل كان له أيضاً مدخله إلى قلب هذه القضية بقدر ما كان لأي خبير عربي في الشؤون العامة مدخل إليها. وعلى الرغم من أن كتاباته كانت، على وجه العموم، متساوقة مع اللهجة المناهضة للبريطانيين والمعادية للصهيونية، وهي اللهجة التي كانت سائدة في الأوساط العربية في عصره، فقد كان له منظوره الخاص. إذ كان يبدي حساسية عضو ينتمي إلى الطبقة الأرستقراطية العثمانية العربية عندما لاحظ أن البريطانيين شعروا بأن في وسعهم تحويل فلسطين إلى دولة يهودية بسبب ازدرائهم للعرب. ولاحظ بمرارة أن لهذا الموقف بعض الأساس على أرض الواقع حيث حالت المشاحنات المحتدمة بين العرب بعضهم مع بعض دون قيام جبهة موحدة معادية للصهيونية[49]. وعلاوة على ذلك، قد يكون أرسلان أكثر إدراكاً، من بعض المعنيين بالأمر، للترتيبات الإمبريالية الخاصة بالقضية الفلسطينية. ملاحظاً في هذا الصدد أن دعم بريطانيا لقيام دولة يهودية كفيل بأن يضعها في خدمة الأهداف البريطانية، ومن شأنه أن يحول دون تكوين قوة عربية كبيرة[50]. وكان يدرك بوضوح أن الأهداف البريطانية ترمي إلى إيجاد أغلبية يهودية في فلسطين، وتنبأ بدقة بما يمكن أن يحدث في هذا السياق: "بمجرد أن يغدو اليهود أغلبية فإن هذا يعني نهاية العرب[51]".

وإذا ما أريد لعرب فلسطين أن يتصدوا للأطماع الصهيونية ويحبطوها وأن يطردوا البريطانيين من فلسطين، فهم بحاجة إلى المساعدة. وعلى الرغم من أن أرسلان كان

مــدركاً لأهمية تلقي دعم من دولة عظمى، وكان يســعى إلى الحصول عليه من إيطاليا وألمانيا، فإنه كان يشــعر أيضاً أن المسلمين في أنحاء العالم كافة ملزمون أخلاقياً بالدفاع عن فلســطين. وكان جزء، من قضية أكبر تخص الإسلام، يتعرض لهجوم. والإخفاق في إدراك هذه الحقيقة، والإحجام عن معالجة الموقف يعنيان إنكار الإســلام نفسه. كان محــب الدين الخطيب قد أصــدر بياناً بنبرة قوية عبر صحيفة **الفتح**، وعكف أرســلان عــلى الإدلاء به مراراً وتكراراً: "أن فلســطين العالم الإســلامي، والعالم الإســلامي فلســطين[52]". وكما فعل بموضوع الظهير البربري في المغــرب في العامين (1930م و1931م)، شرع أرسلان في تدويل القضية الفلسطينية.

وفي أعقاب أحداث شــغب حائط المبكى التي اندلعت في العــام (1929م)، دعا الحاج أمين الحســيني إلى عقد مؤتمر إســلامي عام في القدس مــن أجل تركيز الاهتمام على الأبعاد الإســلامية للمشكلة الفلســطينية[53]. وكان ذلك المؤتمر هو الأكثر نجاحاً بين مؤتمرات عديدة انعقدت ما بين الحربين العالميتين. وحضر الاجتماعات التي عقدت من 7-17 ديسمبر/ كانون أول من العام (1931م) أكثر من أربع مئة مندوب. وعلى الرغم من أن أرسلان لم يكن حاضراً، شارك بإعرابه عن ارتياحه لتميز المؤتمر ونجاحه، وجاء فيما كتبه عن هذا الحدث: إن المؤتمر كان تأكيداً على أن "الإسلام حي يرزق، وأن وحدتــه لم تكن أتم منها بعد إلغاء الخلافة[54]". وأعلنــت **مجلة الأمة العربية** أن المؤتمر هو "البرلمان الروحي والاجتماعي للإســلام"، معربةً عن الأمل في أن يؤدي إلى تحقيق صحوة إسلامية جديدة[55].

ودعا أحد القرارات الصادرة عن المندوبين المشــاركين في المؤتمر إلى إنشــاء جامعة إســلامية في القدس. وخلب هذا الاحتمال المأمول لُبَّ أرسلان. فالعظمة الثقافية التي شهدتها بغداد في عهد هارون الرشيد ستخفق راياتها من جديد في سماء الحرم الشريف.

لتكن لدينا جامعة إســلامية عليا تــدرس فيها العلوم الحديثــة إلى جانب التعاليم القرآنية الخالصة. ولتكن جامعة تعمل على رعاية الطلاب المسلمين الواثقين بأنفسهم،

لا الذين في قلوبهم مرض. فلتكن لدينا جامعة حديثة لغتها عربية (وهي اللغة التي يهاجمها اليوم الذين في قلوبهم مرض)، ولتكن هذه اللغة لغة الإسلام العلمية بقدر ما هي لغة الإسلام الدينية[56].

كان هذا نداءً مخلصاً صادراً من القلب يهدف إلى تحقيق أمر مُسْتَمْثَلٍ، لكنه لم يعالج قضية فلاحي فلسطين المضطهدين أو الاحتلال البريطاني للأرض. وغالباً ما بدا أن فلسطين أو أي منطقة أخرى كانت تستعمل فقط بوصفها عاملاً محفزاً لرؤية أرسلان لمجتمع إسلامي نفخت فيه الروح من جديد. وقد منحه مؤتمر القدس الإسلامي أملاً بوجود معنى وجوهر في أحلامه، ودعماً لمعتقداته، ولكن هذا الأمل وذاك الدعم لم يُعَمِّرَا طويلاً. ففي العام (1933م)، حُلَّتْ اللجان الدائمة للمؤتمر، وأُسْقِطَتْ خطط إنشاء الجامعة الإسلامية. ومع ذلك، المشاعر التي ولدها المؤتمر وتمثيل مندوبيه واسع النطاق، كل ذلك عزز اعتقاد أرسلان بأن التضامن الإسلامي الشامل كان رداً واقعياً على الاحتلال الإمبريالي ومورداً حيوياً للتجديد الداخلي.

وأما الاهتمام العربي الشامل بفلسطين فقد بلغ أَوْجَهُ إبان الثورة التي اندلعت بين العامين (1936م- 1939م). في تلك الفترة نشبت ثورة حقيقية مناهضة للدولة الإمبريالية التي احتلت مصر وخانت الشريف حسين وفتحت الطريق أمام الهجرة الصهيونية. استحوذت هذه الثورة على اهتمام العرب في كل مكان، وحاول أرسلان مجدداً توجيه مسار الرد: "قلنا ولا نزال نقول إن القضية الفلسطينية ليست قضية عرب فلسطين وحدهم... بل هي فادحة عامة للعالم العربي بأسره، بل للعالم الإسلامي بحذافيره[57]". وفي هذه الأزمة، صور أرسلان فلسطين بوصفها البوتقة التي يجري فيها اختبار التصميم العربي الإسلامي، والمعيار الذي يبين إذا ما كانت الأمة العربية على استعداد لتحويل نفسها عبر التضحية، ولأن تستعيد في المستقبل الحالة التي كانت عليها في الماضي[58]. وعلى الرغم من أن خبراء آخرين في الشأن العام كتبوا في سياق مماثل، فإن قدرة أرسلان على استشفاف الأمور ورؤيتها بوضوح وصلت إلى حد جعله مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالأحداث في فلسطين. وأسهم في تكوين الوعي العربي العام فيما يتعلق

بالمخططات الإمبريالية البريطانية والأهداف الصهيونية، وربط فلسطين بوصفها قضية إسلامية بشمال أفريقيا وربط شمال أفريقيا بفلسطين، وكما هو مبين في الفصل السابع من هذا الكتاب، سمح لنفسه، ولم يبالِ، في أن يصبح عاملاً في السياسة الفلسطينية المحلية.

وبدت فلسطين قضية تتطلب نثراً ملتهباً وتضحيات بطولية. ولم يكن الحفاظ على السلام بين رؤساء الدول العربية عاملاً أقل حسماً في تعزيز السياسة القومية الإسلامية، ولكنه كان يتطلب نفوذاً معتدلاً. وفي معرض التزامه بتكوين جبهة إسلامية صلبة ومتماسكة، كان أرسلان على استعداد للتوقف عن ممارسة دوره بوصفه داعية حماسياً مقابل تحمل أعباء مهمة أكثر تطلباً وهي مهمة المفاوض الحليم طويل الأناة. وفي قيامه بذلك، لم يتخلَّ عن مركزيته ولا عن دوره المتمثل في كونه رجل المبادرات الدراماتيكية.

وفي العام (1934م)، اصطدم توسيع نطاق السلطة السعودية بنزعة التحرير التوحيدي (استعادة أراض يمنية من السعودية وجمعها في نطاق سياقها الطبيعي اليمني) لليمن الذي كان يحكمه الإمام يحيى، ليثير حرباً واسعة النطاق بين دولتي شبه الجزيرة العربية. وعلى الرغم من أن الإمام يحيى مسلم شيعي (حكم بين العامين 1904م-1948م)، فقد كان يتوفر على سجايا عديدة أكسبته إعجاب الرجال العرب المهتمين بالشأن العام والناشطين إعلامياً مثل أرسلان. (علينا أن نتذكر أن اختيار رشيد رضا وقع عليه ليكون "خليفةً توافقياً مؤقتاً"). كان الإمام حاكماً مسلماً قوياً حاول تطبيق أحكام الشريعة في أنحاء مملكته المتفرقة برمتها. وكان للإمام مكانته بوصفه عاهلاً مستقلاً معترفاً به على هذا الأساس من قبل الدول الأوروبية، وهو أمر بالغ الأهمية بالنسبة إلى أرسلان. وفي الوقت الذي يمكن أن يكون فيه لسياسته الانعزالية المتطرفة تأثيرات حاسمة على برامجه المحلية، فإن موقفه المناهض للأوروبيين بدا جديراً بالتقدير في ذلك الوقت[59].

وقد استأثر صراع الإمام يحيى مع ابن سعود بكثير من الاهتمام.

وما يمكن أن يكون، على مدى نصف القرن اللاحق، قد بدا مناوشات غير مؤذية بين الدولتين القبليتين اللتين سُمِحَ باستقلالهما نظراً لعدم أهميتهما، كان ينظر إليه من قبل ناشطين عرب في تلك الحقبة بوصفه صراعاً مؤسفاً بين دولتين من الدول العربية الثلاث ذات السيادة. وبمجرد أن تبنى ابن سعود، لم يكن أرسلان ليسمح بأن يقلل من شأنه، تماماً كما لا يسمح بأن يصار إلى إذلال الإمام يحيى. وعملاً بالصلاحيات الممنوحة إليه بوصفه رئيساً لمؤتمر القدس الإسلامي العام، عندما وجه الحاج أمين الحسيني الدعوة إلى أرسلان للعمل ضمن وفد إسلامي لتحقيق السلام، قبل الدعوة من فوره ووصل مع الوفد إلى مكة في السادس عشر من شهر أبريل/ نيسان من العام (1934م)[60].

ولم يكن تكليف المؤتمر الإسلامي العام للوفد المذكور بالعمل على أداء هذه المهمة إلا دليلاً على تنامي غلبة الطابع الدولي على القضايا العربية بين العرب أنفسهم. كما لم يكن استقبال ابن سعود الحار للمجموعة إلا برهاناً على فهمه المدروس بعناية للشهرة والدعاية اللتين تكتنفان مهمتها. وأمضى الوفد زهاء الشهرين في كل من مكة والطايف وفي صنعاء في نهاية المطاف، في وقت كان فيه ابن سعود والإمام يتراشقان فيه بالتعليقات وبطلقات الرصاص. وانتهى الأمر إلى إبرام معاهدة للصداقة الإسلامية والأخوة العربية بين الحاكمين في العشرين من شهر مايو/ أيار، على الرغم من أنها حررت بعد "تدقيق" من الوفد، وكانت ناجمة عن إقرار الإمام بتفوق السعودية تسليحاً، وإقرار ابن سعود بأن هزيمته الكاملة لليمن يمكن أن تثير تدخلاً أوروبياً[61]. ولكن هيئة الوساطة حظيت باحترام لجهة أعضائها المشاركين ولجهة القضية التي عالجتها. وجاء فيما كتبه أرسلان عن هذا الموضوع: لقد وفرت المعاهدة سبباً للعالم الإسلامي لكي يحتفل. وعلى الرغم من أنه أرجع الفضل في وقف الأعمال العدائية إلى نبل العاهلين وكرم أخلاقهما، فإنه لم يتمكن من الإحجام عن تذكير قرائه بأنه كان طرفاً مشاركاً في الإنجاز الذي تحقق كله: "نظراً إلى العلاقات الشخصية الوثيقة التي تربطني بالحاكمين كليهما منذ أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها، والمراسلات التي تبادلتها مع

كل منهـــما، فأنا في موقع أفضل من موقع أي شـــخص آخر مكنني مـــن أن أحيط علماً بكل هذه المســـائل[62]". وجاد رضا بمزيد من الثناءات مثنياً علناً على الوفد، ومشيداً بأرسلان شخصياً، وخاطبه قائلاً: "أحييك مهنئاً بعودتك من سفرك الشاق... مجاهداً في سبيل الله وخدمة الإســـلام وقوم محمد عليه أفضل الصلاة والسلام[63]" واستنتج الناشطون إعلامياً وعلى صعيد الدعوة مثل أرسلان والمفتي أنه إن كانت الحرب الناجمة عن الصراع على منطقة عســـير المغمورة قد استقطبت هذا الاهتمام الكبير، فمن المرجح أن تفعل مشكلات كل من فلسطين وسوريا الأكثر مركزية الشيء نفسه أيضاً.

وكان الرجـــلان كلاهما قد أجريا عملية جس نبض ســـابقاً. وبســـبب التســـاهل البريطـــاني تمكناً من إعادة الاختبار من جديد فور عودتهما من العربية الســـعودية. ففي شـــهر مـــارس/ آذار من العام (1934م)، طلب أرســـلان إذناً يمكنـــه من الإقامة في فلسطين، فرفض طلبه بشـــدة، إلا أن وزارتي المستعمرات والخارجية وافقتا على زيارته لهذا البلد الخاضع لسلطة الانتداب لكي يلتقي بأمه (لاءَمَ عمرها المديد الحياة السياسية لثاني أبنائها)، شريطة توقيعه على تعهد بعدم المشـــاركة في أي نشـــاط سياسي طيلة فترة وجوده في فلسطين[64]. ووافق أرســـلان على الالتزام بهذا الشرط، ورافق الحاج أمين الحســـيني من جدة إلى القدس، وكانت تلك أول زيارة يقوم بها إلى بلاد الشـــام العربية منذ العام (1917م).

كان جريئاً في تصرفه، حيث كان في وســـعه أن يلتزم بمضمون تعهده للمســـؤولين البريطانيـــين، إلا أنه انتهك بالتأكيد روح التعهد. فقد حضر بصحبة كل من الحاج أمين الحســـيني، ورياض الصلح، والجابري، الاحتفالات التي انعقدت لاستقبالهم، وتلقى التهنئة لنجاحه في التوســـط لفض النزاع بين ابن ســـعود والإمام يحيى، واستقطب من الاهتمام لنفسه قدراً يزيد عما تقتضيه الحكمة. طفح بذلك الكيل بالسلطات الفرنسية في بيروت. واشتكى المندوب السامي، دو مارتيل، من أن وجود كل من أرسلان والجابري في فلسطين عمل على "استقطاب حشود مندفعة من مثيري الاضطرابات"، وسمح على أرض الواقع "بوجود مؤتمر وطني قوي في الخفاء"، وطلب من البريطانيين طردهما[65].

وكانت وزارة الخارجية في لندن حساســة لجهة الرؤية الفرنسية للموضوع منذ اللحظة التي وافقت فيها لأرسلان على زيارة فلسطين، فما كان من المندوب السامي البريطاني، آرثر ووشوب، إلا أن استجاب لطلب زميله الفرنسي بالطريقة الوحيدة الممكنة، حيث استدعى أرســلان ودعاه إلى مغادرة فلسطين على متن أول سفينة متاحة. وفي الخامس من شهر أغسطس/ آب من العام (1934م)، ألفى أرسلان نفسه يتجه بعيداً عن وطنه، منفياً من جديد.

وبعد مرور ثلاث ســنوات، ومع تولي الجبهة الشعبية الفرنسية زمام السلطة، تلقى أرســلان دعوة من دو مارتيل إلى العودة إلى ســوريا. وكانت الدعوة لافتة سواء لجهة موقف فرنســا من أرسلان، أو لجهة المواقف الديبلوماسية للدولتين الأوروبيتين اللتين كانتا تهيمنان على بلاد الشام. ولأن عودة أرسلان تزامنت مع اندلاع الثورة الفلسطينية، انتاب الحكومة البريطانية شــعور بالضيق حيال وجوده في دمشق. كما سبق أن شعرت وزارة الخارجية الفرنســية بالانزعاج بســبب دخوله إلى القدس قبل ثلاث ســنوات. ولكن فرنســا لم تدعُ أرسلان إلى العودة إلى دمشق من أجل إحراج بريطانيا في فلسطين، بل نشــأت فكرة الدعوة من منطلق التصورات الفرنسية لنفوذه، ولاعتقاد فرنسا أن في وسعها استغلال هذا النفوذ لمصلحتها. وقد أظهرت الأحداث أن أرسلان ليس بالرجل الســهل الذي يمكن التلاعب به، ولكن احتياجاته الشــخصية كانت ملحة إلى درجة دفعته إلى الاســتفادة من الفرصة التي سنحت له للعودة إلى سوريا. فقد ألقت سنوات النفي ظلالها عليه، ومع كل مــا أوتي من بيان وبلاغة حيال الإمبريالية الأوروبية، أراد أرسلان العودة إلى وطنه أيضاً.

لقد واظب الوضع المالي لأرســلان على التدهور في النصف الأول من العقد الرابع من القرن العشرين. ولســوف يُصَارُ إلى مناقشة موارده المالية المحتملة من دول المحور في الفصل السابع من هذا الكتاب. وأما في هذا المقام، فسأكتفي بإيراد ما ورد في سجله بصورة مســتمرة عن عدم كفاية موارده المالية، وعن خيبة أمله الشخصية المتنامية حيال وضعه المالي. ولهذه الأمور أهميتها، لا بوصفها إضافات رفدت سجل سيرته الذاتية، بل

لكونها أموراً حددت نوعاً ما سلوك الأمير. وكان هذا الموضوع، بحد ذاته، على جانب من الأهمية بالنسبة لمسؤولين رفيعي المستوى وشخصيات سياسية بارزة في دول مختلفة عديدة.

استنزف السفر موارد أرسلان المالية أكثر مما فعل أي نشاط آخر. فالصيف الذي قضاه في إسبانيا مستكشفاً ماضي العرب المجيد زاد مديونيته إلى الدكتور بيضا مئتي جنيه إسترليني إضافي[66]. وكان يحاول باستمرار أن يعزز دخله عبر المتاجرة والمضاربة مستعملاً ممتلكاته في لبنان، ولكن كانت توجيهاته تولد إرباكاً أكثر من العائدات[67]. وكان يتلقى مبالغ نقدية قصيرة الأمد لقاء إعادة رهن شقته في برلين كلما سنحت له فرصة، ولكن لم تكن هذه المعاملات تدر كثيراً من الربح. وجاء فيما كتبه مع نهاية العام (1930م): "ونحن ركبنا الدّين بدون هذا، فجئنا نسعى في البحث عن مرتهن آخر، ولو بشروط أثقل، يرتهن إلى مدة خمس سنوات، لعل الله يفرج في هذه المدة، وترانا من سمسار إلى سمسار أنا والدكتور بيضا[68]". وبعد سنوات قليلة اشتكى من أن الحياة في سويسرا ببساطة تحمله ما لا طاقة له به: "كيف نصنع؟ مزرعتنا في الشام بعناها، بيتنا في برلين رهناه، والآن لا يفضل عن الرهن شيء إن بعناه". وفكر في بيع بساتين زيتون الأسرة في الشويفات، لكنه تردد وأحجم عن ذلك عندما جال في خاطره السؤال: "وماذا نترك لهؤلاء الأطفال؟[69]".

وبينما كان أرسلان يتراجع صحياً ويتدهور مالياً، كانت مسؤولياته الأبوية تزداد. فقد صار عنده هو وزوجته سليمى أسرة ثانية تقريباً عندما رزقا بابنتيهما مي في العام (1928م) ونظيمة في العام (1930م). وأرسلان مُعَدٌّ لأن يكون أباً حنوناً، ولكن طول عهده بالغياب عن أولاده حال دون أن يكون شديد الاهتمام بهم. وقالت زوجته للبروفسور الشرباصي إن شكيباً أمضى كثيراً جداً من الوقت في القراءة والكتابة إلى درجة أنه لم يدخر وقتاً لأطفاله، ولم يهتم حتى بتعليمهم[70]. وسبب له ذلك مشكلات من نوع خاص مع ابنه غالب الذي أمضى سنوات مراهقته من دون أن يعرف اللغة العربية أو أن يهتم بتعلمها، وأغضب هذا أمير البيان وأحبطه: "أنا من هذا الأمر في ألم

شـــديد، وقد أفهمته أنه إن لم يتعلم العربية ويتقنها، وإن لم يكن عربياً تاماً فليس له من تركتي قليل ولا كثير"[71]. ولما ألفى نفســـه قد بلغ الستين من عمره وهو أب لابنتين ما زالتا رضيعتين، ولابن لم يتلقَ تعليماً مناسباً، وكان دخله آخذاً في التناقص، فكر أرسلان جدياً وسعى جاهداً إلى تغيير مكان إقامته. وفكر في الانتقال إلى فينيا أو بودابست حيث كانت الحياة فيها أقل تكلفة، ولكن تفكيره كان متوجهاً أكثر ما يكون إلى اختيار المشرق العربي مكاناً للعيش ومقراً للإقامة.

أضيفت إلى شـــعوره بعدم الارتياح على الصعيد الشخصي مهمة صحفية محزنة كان لزامـــاً عليه أداؤها بوتيرة متزايـــدة في ثلاثينيات القـــرن العشرين-كتابة كلمات النعي والتأبين. فقد كان الرجال من أبناء جيله يموتون. وقد أثر هذا في أرســـلان تأثيراً عميقاً عندما كان يتذكر كيف حرمه نفيه من عشرة أصدقائه في سنواتهم الأخيرة. ولم يؤثر فيه فقده لأي من أصدقائه تأثيراً شـــديداً جداً بقدر ذاك الذي خلفه في نفســـه موت رشيد رضا في العـــام (1935م). وكانت تأملاته الخاصة في ذلك الوقت متمركزة حول ندرة اللقاءات التي كان يسمح لهما فيها أن يلتقيا في حقبة ما بعد الحرب، وحول القسوة التي انتهجـــت في تقصير أمد اجتماعهما الأخير. وقد جـــرى ذاك اللقاء على متن قطار أقلهما من الإسكندرية إلى السويس خلال رحلة أرسلان إلى المملكة العربية السعودية بوصفه عضواً مشـــاركاً في وفد الســـلام في العام (1934م). كان خاضعـــاً إلى إجراءات أمنية مشـــددة للغاية أثناء عبوره مصر. وكان يرافقه حارس عسكري في رحلته كلها. وكان التحدث معه ممنوعاً تماماً. ورضا الذي استقبل طائرة أرسلان مدفوعاً بإخلاصه وولائه له واســـتقل القطار الذي أقله، "تجرع مرارة" الترتيبات الأمنية. فعندما تقابل الرجلان في ممر عربة القطـــار التي كان أرســـلان فيها-وهما الرجلان اللـــذان تبادلا على مدى حقبة ناهزت الثلاثين عاماً عبر المراســـلات خططهما الفخمة ومشاعر الود والصداقة الشـــخصية الحميمة-تمكنا من أن يتصافحا فقط دون أن ينبس أحدهما ببنت شفة[72]. وقد يبدو هذا الحدث، كما رواه أرســـلان، مثيراً للعواطف إلى حد يستدر الدمع، ولكن حزن أرسلان كان حقيقياً بقدر ما كانت القيود التي سببته.

الحزن، والتقدم في السن، والمرض، والعزلة، والأسرة، والمتاعب المالية، كلها مسائل يحتمل أن تكون قد أثرت في مسار عمل أرسلان. ومع ذلك، فإن تصويره لنفسه بوصفه متفرجاً سلبياً أسيئت معاملته تصوير يفتقر إلى الدقة، وكان هو يعرف هذا. فعلى صعيد الصراع الذي كان يحتدم داخله بين احتياجاته المالية، واختياره لمقر إقامته، ومبادئه المناهضة للإمبريالية، كانت تكتب الغلبة دوماً تقريباً للخيار الأخير. فهو لم يُتِحْ، ببساطة، لبريطانيا أو لفرنسا مدخلاً يمكن لهما أن يعيداه من خلاله إلى وطنه. ففي الالتماس الذي قدمه في العام (1934م) من أجل عودته إلى فلسطين، لم يقدم للمندوب السامي واكهوب أي اعتذار، بل فقط فرصة للتعامل مع رجل محترم بشروطه: "لقد كان مسعاي الثابت مكرساً دوماً لخدمة بلدي وفقاً لما يمليه عليَّ ضميري وقناعاتي، بصرف النظر عن التكلفة[73]". وقال في رسالة أرسلها إلى أحد أصدقائه إنه على الرغم من أمله الكبير في العودة إلى سوريا قبل أن يموت، فإنه يفهم أنه بسبب أنشطته لن يسمح له بدخول وطنه إلا في ظل وجود حكومة سورية مستقلة[74]. وعلى مدى معظم الزمن الذي قضاه في منفاه، بدا هذا الاحتمال بعيداً.

وكان التقدم السياسي الذي أحرز في موضوع الانتداب على سوريا في الحقبة الممتدة بين العامين (1928م- 1935م) ضئيلاً، حيث لم يشكل القادة المحليون تحالفات دائمة، ولم تسمح إدارة الانتداب الفرنسي إلا بقدر ضئيل من الحريات السياسية[75]. وخلال هذه السنوات، كرس أرسلان من الكتابة العامة لشمال أفريقيا قدراً أكبر من ذاك الذي كرسه لسوريا. إلا أنه ظل ينظر إليه بوصفه الشخصية المركزية الرئيسة على صعيد العلاقات الفرنسية السورية. وكانت العرائض والالتماسات تقدم دوماً إلى اللجنة الدائمة للانتداب مشفوعةً باسمه. وكانت أهميته على صعيد الشؤون الفرنسية السورية تنبع من الدور الذي أداه في المفاوضات مع جوفينال في العام (1925م). وخلافاً لعلاقاته مع مناطق عربية محتلة أخرى، كانت مصالحه السورية تشجعه على بذل جهود تتعدى مجرد إلهام الزعماء المحليين الذين كانوا يصوغون برامجهم المحددة الخاصة مسترشدين بتوجيهاته العامة. وكان أرسلان نفسه زعيماً سورياً محلياً، وكان

لديه خطته الخاصة لحل الخلافات الفرنسية السورية. وطرحها في العام (1925م)، وواظب على اعتمادها من دون إجراء أي تعديل عليها على مدى عقد كامل. وقد أتى العام (1936م) بمسوغات لخطته.

ففي شهر يناير/ كانون الثاني من تلك السنة، اندلعت في دمشق أعمال شغب وسرعان ما امتدت لتشمل مدن الشمال الرئيسة. وفي شهر فبراير/ شباط، أعلنت الأحكام العرفية، ودخلت الدبابات الفرنسية مرة أخرى إلى العاصمة. واعتقل مئات المواطنين، ولكن حال دون تكرار القصف الذي استهدف دمشق في العام (1925م) تقديم تنازلات مفاجئة من قبل المندوب السامي الفرنسي، دو مارتيل، إلى الزعماء الوطنيين. وفي نهاية شهر مارس/ آذار، سافر إلى باريس وفد من ستة أشخاص مخول بالتفاوض لإبرام معاهدة استقلال على أساس الاتفاق الذي أبرم مع دو مارتيل. وتبع ذاك الوفد وفد لبناني. وأدى فوز حكومة الجبهة الشعبية بزعامة ليون بلوم في الانتخابات التي جرت في شهر يونيو/ حزيران إلى تحسين أجواء التفاوض، وجرى التوقيع على مشروع معاهدة في شهر سبتمبر/ أيلول. وفي هذه المرحلة، احتل شخص أرسلان مركز الصدارة. والقضية التي واجهت الأطراف المشاركة في المعاهدة جميعها تتعلق بكيفية إشراكه في الأمر بصورة بناءة.

لم يكن ممكناً أن يضمن دعم أرسلان للمعاهدة تمريرها في البرلمان السوري، ولكن كان ممكناً لمعارضته لها أن تقضي عليها. واستعملت تكتيكات عديدة لكسب تأييده. وأثناء سير المفاوضات في باريس، زاره أعضاء من الوفدين السوري واللبناني في جنيف، وذلك لإبقائه معنياً بالمناقشات، وسعياً وراء التزامه بالقرارات التي كانت تتخذ[76]. وبمجرد التوقيع على مسودة المعاهدة بالأحرف الأولى، بذل الموقعون عليها جهوداً جبارة ليضمنوا عدم ارتفاع صوت الأمير اعتراضاً على الوثيقة التي كانت ما تزال هشة. وعقد بيير فينو، وكيل بلوم المساعد للشؤون الخارجية، اجتماعاً مطولاً على العشاء مع أرسلان في جنيف، ومر الفريق السوري المفاوض عبر هذه المدينة في طريقه إلى دمشق، وشكر أعضاؤه أرسلان على جهوده التي بذلها في سبيل تحقيق الوحدة

السورية، وأسبغوا عليه لقب "أبي المسلمين"، وهو لقب عزز الصورة التي كان قد كونها لنفسه[77].

وكانت آراء أرسلان السياسية ومبادئه القديمة المتجددة القادرة على الصمود وطموحاته الشخصية جميعها متناغمة مع رده، الذي يضارع استجابة رجل الدولة، على مسودة المعاهدة. وكان ما أرضاه وأشعره بالارتياح حيال الاتفاق تطابقه التقريبي مع الاتفاق الذي كان قد توصل إليه مع دو جوفينال قبل عقد من الزمن. واستند إلى هذا التشابه بين الحالتين لتبرير دعمه العلني للمقترحات الجديدة، ولتوضيح تماسك موقفه واتساقه على مر الزمان[78]. وانتقد أرسلان بعض جوانب المعاهدة، وعلق على بعض تفاصيلها التي شابها شيء من التشوش، لكنه قال إنها أفضل ما يمكن توقعه في ظل الظروف الراهنة. وبلهجة تحاكي الفخامة الأولمبية قال بعبارة واضحة وقاطعة: "أنا راضٍ". واعتماداً على نقطة مرجعية معهودة في ثقافته، ذكر السوريين بأنه يتعين عليهم تبني مشروع المعاهدة التي تم التوقيع عليها بالأحرف الأولى؛ لأن القرآن دعا المسلمين إلى الوفاء بعهودهم[79].

وكان الفرنسيون راضين أيضاً. كتب فينو لدو مارتيل يقول لقد كان موقف أرسلان صحيحاً، وكان تدخله لدى دول عربية أخرى أثناء سير المفاوضات بشأن المعاهدة مؤثراً وفاعلاً في الحيلولة دون حدوث تحريض خارجي[80]. وأدى اعتدال أرسلان والرغبة الفرنسية في تشجيعه إلى توفر الظروف التي مكنته ومكنت الجابري أيضاً من العودة إلى سوريا في شهر يونيو/ حزيران من العام (1937م).

سنحت له الفرصة أخيراً ليستقبل من قبل الشعب السوري الذي نفذ مهمته باسمه. ولم يخيب هذا الشعب آماله، حتى في ظل سمعته التي باتت موضع شبهة نوعاً ما، ظل أرسلان بوصفه رمزاً، وصاحب شخصية جذابة ومتميزة، وبوصفه أسطورة أيضاً، جذاباً جداً. فما كان عليه، وما يعتقد كثيرون بأنه مازال عليه، أتاح له أن يحظى بمرحلة ختامية مجيدة. ووفقاً لما هو موضح في سجلات المخابرات الفرنسية، "لقد كانت عودة

أمير الدروز إلى بلاد الشـــام عودة مظفرة[81]". كانت كما لو كان حضوره، الذي لطالما حرم منه، دليلاً على حقيقة الاستقلال.

وفي جولتهـــما المظفرة عبر كل من بيروت، ودمشـــق، وحمص، وحماة، وحلب، كان في اســـتقبال أرسلان والجابري حشـــد ضخم[82]. فقد احتشد زعماء وطنيون ورؤساء بلديات لاســـتقبالهما، وجعلت الحكومة الســـورية من دخولهما إلى دمشق احتفالاً فخماً عامـــراً بالحفـــاوة والتكريم. وكتب علي الطاهـــر واصفاً هذا الحدث وقـــال إنه يحتاج إلى خمســـين صفحة من أجـــل وصف الاســـتقبالات الرائعة التي حظـــي بها البطلان العائدان[83]. وأعرب أرســـلان عن مشـــاعره الخاصة بكثير من البساطة في الساعات الأولى التـــي وطأت بها قدماه أرض بـــيروت: "إنني في غاية الســـعادة، فقد عدت إلى هـــذا البلد بعد غياب دام واحداً وعشرين عاماً، وقلبي مفعم بالفرح لرؤيتي التطلعات الوطنية تتحقق أخيراً[84]".

ونسف تسييســـه المتواصل الطقس الاحتفالي برمته تقريباً. فقد كانت خطاباته التي ألقاها، في كل فرصة أتيحت له، تصالحية حيال موضوع العلاقات الفرنســـية السورية، وحماسية لجهة إمكانية تحقيق الوحدة العربية. وهذه المشاعر التي لم تجرِ مشاركتها في كل الأماكـــن لم تكن في حد ذاتها مثيرة. فخلال إقامته في حلب، ألقى أحد أســـوأ خطاباته الطائشـــة التي افتقـــرت إلى الحكمة، حيث ألقـــى في الجامع الأمـــوي، بوصفه مكاناً للتجمعات الكبرى، كلمـــة توجه فيها إلى مناطق من العالم العربي كانت تشـــهد توتراً متزايداً بشـــأن مستقبل الحريات العقدية والمذهبية، جاء فيها: "من ليس مسلماً لا يمكن أن يكون وطنياً[85]". وبعد ذلك، كافح أرسلان للتعافي من الاهتياج الذي أعقب هذه الكلمة. وطلب من رئيس أساقفة حلب أن يأذن له لإلقاء كلمة في إحدى الكنائس لكي يشرح للجمهور المسيحي ما كان يعنيه حقاً-الإلحاد لا ينطوي بداهةً على حب الوطن، والإيمان الديني مكون لازم من مكونات الوطنية، وليس عائقاً يعترض سبيلها. ويدل سياق الكلام على أن هذا ما تضمنته رسالة أرسلان، ولكنه لم يهتم في التعبير عنه بطريقة

مدروسة. وعلى الرغم من أنه لم يلق كلمة في الكنيسة فقد أجرى تعديلات وعرض توضيحات لآرائه. ولم يغير التقدم بالعمر أسلوبه.

وعلى الرغم من أن الخطاب المذكور كان مشوهاً فإنه لم ينسف عودته. ففي ظل أجواء أفضل التقاليد التي يراعيها الوجهاء اللبنانيون، أمضى صيف العام (1937م) في صوفر حيث التقى مراراً وتكراراً مع الحاج أمين الحسيني. وأشيع أيضاً أنه سوف يترشح في الانتخابات البرلمانية القادمة. وتوجت زيارته-وربما اختتمت-بحضوره مؤتمر بلودان في شهر سبتمبر/ أيلول.

والاجتماع الذي يسمى رسمياً المؤتمر القومي العربي عقد في منتجع صيفي سوري قرب دمشق. وتمت الدعوة إلى انعقاده بناء على مبادرة من الحاج أمين الحسيني في أعقاب توصية هيئة بيل (نسبة إلى اللورد روبرت بيل، رئيس الهيئة) التي قضت بتقسيم فلسطين إلى قسمين أحدهما يهودي والآخر عربي. وعلى الرغم من أنه نظم بسرعة ومن دون رعايات رسمية، فقد اجتذب مؤتمر بلودان 411 مندوباً، و"كان حدثاً مهماً وشكل نقطة تحول على صعيد انخراط العالم العربي المتزايد في المشكلة الفلسطينية[86]". ومنذ لحظة وصوله إلى بيروت في شهر يونيو/ حزيران، أكد أرسلان التزامه الشخصي المستمر بهذه المشكلة. وتضمنت تصريحاته إلى الجموع التي احتشدت من أجل الترحيب به هذه الكلمات: "ونحن في غمرة فرحتنا الوطنية، يتعين علينا ألّا ننسى فلسطين... هل يمكن تقديم تنازلات في قضية حيوية من هذا القبيل؟ الحق إلى جانبنا، ولن يقدر أحد على انتهاك حقنا. ولن تتمكن سوريا من الحفاظ على كيانها إن ضاعت فلسطين. ولن يكون في وسع العرب أن يحلموا بتحقيق تقدم إن سمحوا لأنفسهم بأن يضيعوا فلسطين[87]". وبقدر ما كان يريد أن يبقى في بلاد الشام، إلا أنه لم يتمكن من أن يمنع نفسه من الجهر بقول ما يجول في خاطره دونما خوف. وإن كان يعتقد أن إحراجه بريطانيا كفيل بإرضاء الفرنسيين، فقد كان مخطئاً فيما ذهب إليه.

الاهتمام الذي أحاط بوصول أرسلان إلى سوريا، على الصعيدين المحلي والأوروبي، رافقه إلى بلودان. فقد كرمه الوفد أيضاً بتعيينه في منصب آخر (نائباً ثانياً للرئيس)، لمنحه شرف مخاطبة هذا التجمع. وتناقضت تصريحاته نوعاً ما مع طبيعة المؤتمر المتمثلة بالأهمية المركزية للعرب فيه. ففي حين أقر بجدوى التضامن العربي في الدفاع عن فلسطين، ذَكَّرَ المشاركين في المؤتمر بأن حافز الإسلام الديني وحتى الدافع الديني للمسيحية ينبغي أن يوظفا في هذا المضمار[88]. فأرسلان، الذي كان حضوره هو الأكثر استرعاء للاهتمام في المؤتمر الذي قرر أنه "من واجب والمسلمين في كل مكان أن يقاتلوا وهم على قلب رجل واحد من أجل الحرية، والخلاص، وتوحيد فلسطين مع البلاد العربية، وإفشال المساعي الاستعمارية والصهيونية الرامية إلى إقامة دولة يهودية"، لم يحسن التنبؤ بشأن إقامته المستمرة في سوريا[89]. وبعد اختتام أعمال مؤتمر بلودان بأيام قليلة ألقى خطاباً، جرى تداوله ونشره على نطاق واسع، عن الوحدة العربية في مقر النادي العربي في دمشق، فاستهلك رصيده.

وفي شهر ديسمبر/ كانون أول من العام (1937م)، أبحر أرسلان بصورة مفاجئة من بيروت إلى الإسكندرية، من دون تقديم أي تفسيرات لرحيله، ولكن كان مطلوباً منه أن يغادر بالتأكيد. وكانت وزارة الخارجية في لندن مستاءة بسبب وجوده في مكان خاضع للانتداب الفرنسي. وشرع مسؤولون فرنسيون يتساءلون أيضاً إذا ما كان نفعه بوصفه مؤيداً لمشروع المعاهدة أخف وزناً وأقل أهمية من حديثه جهاراً نهاراً وبصراحة عن مسائل أخرى. ولاحظ تقرير المخابرات الفرنسية الذي رصد أنشطته أن خطابه الذي ألقاه في حلب، وحضوره في بلودان، وخطابه الذي ألقاه في النادي العربي، كل ذلك "استرعى انتباه سلطات الانتداب في بلاد الشام[90]". وكان ذلك كافياً على ما يبدو لوضع حد لإقامته. وفي حين تم العفو عن الجابري من قبل فرنسا وبقي في سوريا ليشغل منصب محافظ اللاذقية، طرد أرسلان ثم تعرض إلى مزيد من الإذلال عندما رفضت الحكومة المصرية السماح له بالنزول من السفينة في ميناء الإسكندرية. ولم

يكن لديه خيار ســوى العودة إلى جنيف. وجرى تقليص عدد أعضاء الوفد الســوري الفلسطيني إلى واحد فقط.

وعلى مدى العام اللاحق، كان أرسلان ينظر، وقد تحرر من الأوهام وزالت الغشاوة عن عينيه أكثر فأكثر، إلى تنصل مجلس النواب الفرنسي التدريجي من المعاهدة السورية. وكان يدرك أنه لسوف يحرم من الإقامة الدائمة في سوريا ما بقيت فرنسا مهيمنة عليها. وبالنسبة للأضرار التي يدرك تماماً أنه ألحقها بمفرده بالصرح الإمبريالي في شمال أفريقيا، فإنه لا يمكن التسامح معه أو العفو عنه.

الفصل الخامس

معلم جيل: شمال أفريقيا

هذه المسألة دواؤها حملة عامة... هذا مع الاحتجاجات إلى فرنسة نفسها وإلى جمعية الأمم، ومخاطبة سفير فرنسة بمصر في ذلك، فإن المسائل الدينية لا يقال فيها: هذه مسائل داخلية لا تعني سوانا.

أرسلان(1)

على مدى السنوات الإحدى والعشرين التي قضاها في منفاه الاختياري، لم يكف شكيب أرسلان عن تحريض شمال أفريقيا. وعلينا ألّا ننسى مسألة الظهير البربري.

دسبارمت(2)

تخللت حياة شكيب أرسلان وكتاباته الفوضى الثقافية والسياسية التي أحدثت اضطرابات عنيفة في المشرق العربي، في السنوات الخمس عشرة التي أعقبت اندلاع الثورة السورية في العام (1925م). فقد علق عبر كتاباته على القضايا جميعها، الكبيرة منها والصغيرة، وكان قد خبر كثيراً منها مباشرة. وإن كان دوره قد اقتصر على الفصل في عدد قليل منها، فقد كان له قطعاً تأثير في آراء الآخرين في عصره. ولكن إسهامه في قضايا العروبة المشرقية أتى متأخراً بعض الشيء. ونتيجة لذلك كان عليه مواجهة ارتباطاته العثمانية السابقة، كما تعين عليه أن يكافح من أجل بقائه واستمراره في المعترك

السياسي وسط نظرائه المشاكسين الشرسين. ولم تكن ثمة ظروف مقيدة مماثلة حاضرة في علاقاته مع حركات الاستقلال في شمال أفريقيا، حيث قوبلت تدخلاته هناك بترحيب وحفاوة عارمة. ففي المغرب كانت له اليد الطولى وكان تأثيره واضحاً وقاطعاً، وحقق سمعة وشهرة هناك بوصفه متحدثاً إسلامياً ناطقاً باسم المسلمين وخبيراً سياسياً استراتيجياً. وفي المغرب كانت سمعته مصونة لا تشوبها شائبة. وجاء فيما كتبه عنه شارل – آندريه جوليان: "كان معين ربيع فكره الذي لا ينضب هو السبب في إنعاش القومية المغربية التي أنشأ معظم قادتها أو ألهمهم[3]". وأحضر إلى النخبة السياسية الناشئة في شمال أفريقيا، وتتشكل في معظمها من شباب يافعين يصغرونه بجيلين، حضوره المحترم بوصفه معلقاً نشطاً على قضايا المشرق العربي إلى جانب قدرته على جعل أولئك الشباب يشعرون أنهم جزء من الكيان العربي الإسلامي الشامل. وكذلك رَوَّجَ نضالاتهم لدى زملائه وأصدقائه المشرقيين، ساعياً إلى إذكاء روح الروابط الأخوية القومية العربية والجامعة الإسلامية. وهذا الجهد الذي تميز بتحقيق بعض الإنجازات الأساسية المهمة، شكل مكوناً آخر من مكونات سمعة أرسلان الفريدة في نوعها. ولم يكن أي ناطق عربي آخر في فترة ما بين الحربين مرتبطاً بصداقات خالصة قائمة على المودة في المشرق والمغرب العربي على حد سواء، ولم يتمكن أي شخص آخر من ربط شطري الوطن العربي عبر شخصه كما فعل أرسلان. وأما كيف احتل أرسلان، وهو الرجل المشرقي الصِرْفُ مكانة مركزية مرموقة في المغرب، فهذا أمر يعود إلى مكانته وسط النخبة المتحضرة في المنطقة، وإلى توقيت ظهور الحركات الشمال أفريقية الجديدة، كما يعود مرة أخرى إلى موقعه الخاص في أوروبا.

ووجدت البلدان الثلاثة الشمال أفريقية المستعمرة من قبل فرنسا في الدعوة إلى وحدة الإسلام الشاملة في المشرق العربي عقيدة جذابة، تحض من خلالها على مقاومة فرنسا قبل الحرب العالمية الأولى وأثناءها. والمنظمات السياسية القومية التي تشكلت في السنوات الفاصلة بين الحربين العالميتين الأولى والثانية كان يقودها غالباً رجال ولدوا بين العامين (1890م- 1910م). وكان أولئك القادة حريصين على إخفاء التواصل

الذي كان منعقــداً بين حركاتهم وبين أنماط المقاومة التي تشــكلت قبلهــا. ومن ثَمَّ، صحيح أن معاهدة الحماية المغربية لم توقع إلا قبل ســنتين من الحرب العالمية العظمى، وأن القبائل البربرية لم تعرف الهدوء حتى العام (1934م)، مع ذلك لابد من إدراك أن المحكمة الشريفية وزعماء القبائل والتجار الحضريين والعلماء ما برحوا جميعاً يعارضون الهيمنة الفرنسية على بلادهم. وفي ســياق معارضتهم لها، اعتادوا على التطلع إلى مصر وإلى الإمبراطورية العثمانية سعياً وراء الحصول على مساعدة خارجية وإلهام فكري[4]. واشــتدت هذه النزعة بعد العام (1908م) عندما اســتولت حركــة تركيا الفتاة على السلطة في اســطنبول، وتضافرت المصالح الألمانية والعثمانية وعملت على بذل جهود شبه رســمية متنوعة، ترمي إلى إرباك فرنســا في المغرب، وإلى جذب المقاومين المغاربة وتوجيههم وجهة الوحدة الإسلامية، وهو الخيار الذي يحبذه أنور باشا. وعمل الاتحاد المغربي الذي مر ذكــره في الفصل الأول من هذا الكتاب عــلى تجنيد طلاب مغاربة في جامعــة الأزهر في القاهرة، ووضع خططاً لدعم الثورة المغربية التي اندلعت في العامين (1911م) و(1912م)، وشــجع من خلال جهود الشيخ علي يوسف إرسال صحيفة المؤيد وغيرها من الصحف المصرية إلى المغرب. وإبان الحرب عملت منظمة أنور باشــا الأمنية، التشــكيلات المحسوسة [الاســتخبارات]، مع خبراء ألمان على إرسال عملاء إلى المغرب، وعلى تأســيس مراكز دعائية في كل من اسطنبول ولوزان وبرلين ومدريد، حيث كانت توزع منها المواد المقررة ويصار إلى إيصالها إلى عموم أنحاء المغرب. ونشأت بذلك اتصالات وروابط وثيقة بين بعض أفراد النخبة المغربية وبين ناشطين من أنصار الوحدة الإسلامية الشاملة في المشرق العربي، قبل الانهيار العثماني الذي حدث في العام (1918م).

وفي الجزائــر، لم تكن الإمكانات المتاحة التي يعــول عليها في إحداث تأجيج سري واعدة بالقدر ذاته، بل لم تكن تبشر بخير: إذ كان قد تم القضاء على نخبة رجال القبائل في أعقاب المقاومة التي شهدتها حقبة الأربعينيات والسبعينيات من القرن التاسع عشر، واســتبدل البورجوازيون المدينيــون وأحل محلهم مســتعمرون أوروبيون، وأقصيت

المؤسسة الدينية. ولكن كما هو موضح أدناه ظل الحافز حياً في أوساط القيادة الإسلامية؛ الأمر الذي حملها على إرسال عبد الحميد بن باديس إلى القاهرة وبشير الإبراهيمي إلى دمشق في السنوات الأولى من هذا القرن، فقدمت بذلك ثُلَّةً من الباحثين السياسيين المطلعين على الأسلوب القائم على وحدة الإسلام في الشرق الأدنى والمنجذبين إليه.

وعلى نحو مماثل، لم يكن الشباب التوانسة في تسعينيات القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين مجرد متضامنين ليبراليين، بل عمل رجال مثل الأخوين علي ومحمد باش حانبه وعبد العزيز الثعالبي على تأسيس صحيفة كانت تصدر باللغة العربية إلى جانب الفرنسية، وكانوا يتطلعون، في سياق الجهود المعقدة المبذولة لإنقاذ وطنهم، إلى فضاءات أوسع في رحاب اتحاد إسلامي، إضافة إلى معرفة إمكانية الاندماج مع المستعمرين. وفي العام (1910م)، أعلن علي باشا عبر صحيفة **التونسي** أن "كل مسلم هو داعم ومؤيد لاتحاد المسلمين، والتوانسة مؤيدون وموالون لهذه السياسة ومنضوون تحت لواء الدولة العثمانية التي هي نتاج لهذا المفهوم... ويؤثر الأتراك والمصريون في مشاعرنا ووجداننا تأثيراً ملهماً بقدر ما يفعل جيراننا الأقربون في الجزائر أو الشعوب في آسيا الأبعد مسافةً[5]".

ومن بين الأشخاص الذين تحلقوا حول أنور باشا وعباس حلمي وتحركوا متنقلين بين الجماعات السرية في كل من برلين ولوزان واسطنبول والقاهرة، والذين روجوا لفكرة الاتحاد الإسلامي الشامل منطلقين من منطلق الإيمان الشخصي والالتزام السياسي، لم يكن أحد أكثر حضوراً واستعداداً ومواظبة وشهرة من أرسلان. وعلى الرغم من أنه لا يمكن دوماً توثيق انخراطه المباشر الكلي، فإن ارتباطاته الشخصية معروفة. وفي عالم واضعي الخطط السرية والتجمعات النخبوية الصغيرة، الارتباطات من ذاك القبيل كفيلة بأن تبوح بأمور كثيرة. وأرسلان لم يكتشف فجأة شمال أفريقيا بوصفه جزءاً من قضية إسلامية أكبر منه حجماً في حقبة ما بعد الحرب، بل اتحد مع كل الحركات بغية توحيد المغرب والمشرق العربيين أثناء أدائه مهامه في كنف الدولة العثمانية.

وشــارك أرســلان زميله عبد العزيز جاويش في المحاولات التي سعت إلى تنظيم اتحاد مغاربي كبير إبان الغزو الإيطالي لليبيا في العام (1911م). ومن المحتمل أن يكون قد عمل على إعداد حملة دعائية إســلامية شاملة أثناء اندلاع الحرب. وقيل إنه أفاد من اتصالاته مع جمعية الاتحاد والترقي في تأمين مكانــة مرموقة لعلي باش حانبه، التونسي الذي ترأس مكتب الاســتخبارات التابع لأنور باشــا في اسطنبول في العام (1914م)[6]، وانضم إلى الرجلــين اللذين أوكلت لهما مهمة الإشراف على مكتب لوزان، عباس حلمي ومحمد باش حانبه. وأداؤه مهامه في برلين أثناء الحرب وقيامه بنشاطاته فيها بعد الاستسلام العثماني مكناه من إقامة علاقات متينة عن كثب مع ألمان، من المجتمع المدني، آمنوا بإمكان قيام ثورة إسلامية شــاملة مناهضة لبريطانيا وفرنسا[7]. وفي برلين أيضاً، مات محمد باش حانبه بين ذراعي أرسلان في العام (1919م)[8].

زودتــه مفاهيمه عن الاتحاد الإســلامي الشــامل واتصالاته الواســعة وجاذبيته الشخصية بســلك ناظم عابر للزمان والمكان، مضى به من الشرق الأوسط العثماني إلى المغرب، ومــن جنيف والقاهرة في حقبة ما بعد الحــرب، في طريق العودة إلى المغرب. وكما لاحظ إدموند بيرك، فإنه لا ينبغي اســتغراب تأثير أرسلان على الجيل اللاحق من القوميين في شــمال أفريقيا: "ذلك لأنه لعب دوراً مهماً في تحويل كثير من آبائهم مما كانوا عليه إلى تبني فكرة الاتحاد الإسلامي[9]".

وكما كانت حال آبائهــم، فإن أبناء الجيل الجديد الذين بلغوا أشــدهم بعد الحرب العالميــة الأولى أحيطوا علــماً بالأحداث التــي كانت تجري في المــشرق العربي. ومن خــلال الدور البارز الذي لعبه في الإعلان عن تلك الأحداث، أصبح أرســلان رجلاً مشــهوراً يحظى بالإعجاب والاحترام. وكان حاضراً كلما قصده الناشــطون المغاربة طلباً لإرشــاده وتوجيهه، كما كان على استعداد لخوض غمار مغامرات جديدة. والوجه الأمثل لدراســة دور أرسلان في المغرب في ثلاثينيات القرن العشرين إنما يتم عبر بحث وفحص منفصلين لعلاقاته ببلاد المغرب الأربعة: المغرب وليبيا والجزائر وتونس، دون اعتزام إجراء مراجعة شــاملة لتطور كل حركة من حركات استقلال هذه البلدان، بل

لاستعراض ظروف ارتباطه بها. واستمالة شمال أفريقيا له تميط اللثام عن كثير من محتوى الاحتجاجات المغربية في حقبة ما بين الحربين العالميتين، كما تكشف النقاب عن دوره الشخصي الخاص وطموحاته.

وكانت اتصالاته الأولى مع الجيل الأحدث عهداً من الناشطين المغاربة قد جرت مع بعض الطلاب المغاربة في باريس. جذبتهم سمعته إليه، وهو بدوره وجد أن التوجه الديني لليقظة الثقافية المغربية يتوافق مع آرائه الشخصية الخاصة السياسية منها والاجتماعية. وفي مطلع عشرينيات القرن العشرين، أقرت مجموعات من الحضريين المغاربة بالحاجة إلى إحياء الإسلام من أجل إحياء مجتمعهم كله. وسعوا إلى إنجاز تلك المهمة من خلال منظومة ثقافية تعليمية على أن تكون خارج نطاق هيمنة السلطات الفرنسية. وفي مطلع عشرينيات القرن العشرين أيضاً، أُسست سلسلة من المدارس التي اصطلح على تسميتها المدارس الحرة في كل من فاس والرباط وتطوان. وطرحت هذه المدارس المشبعة بالمفاهيم السلفية مناهج دراسية مصممة خصيصاً لتوليد شعور بالفخر مستمد من الماضي الإسلامي، لإنعاش الأمل في مستقبل إسلامي يستلهم روح العصر، على أن يكون خلواً من تأثيرات الثقافة الأوروبية غير المرغوب فيها[10].

ومع دخول فرنسا في حرب ضد عبد الكريم، انخرط الخريجون في المدارس الحرة بمزيد من المجاهرة في النشاط السياسي عبر تأسيسهم جمعيات سرية ترمي إلى نشر فكر الإصلاح الإسلامي، شأنها شأن المدارس نفسها، بين النخبة الحضرية. وكان أحد زعماء جمعية من هذا القبيل أُسسَتْ أواخر العام (1925م) في فاس هو محمد الفاسي. وكان ثمة مجموعة مسهمة أخرى عملت على تنظيم جمعية أخرى في الرباط ضمت كلاً من أحمد بلفريج ومحمد حسن الوزاني ومكي الناصري[11]. وكان هؤلاء أصدقاء أرسلان الأقرب إليه والأوثق صلة به بين أعضاء القيادة الوطنية المغربية. ذهب هؤلاء الشباب الثلاثة إلى باريس لمتابعة تعليمهم ليصبحوا في العام (1927م) من أبرز مؤسسي جمعية طلبة شمال أفريقيا المسلمين. وكانت الجمعية قد تأسست بدايةً لتقديم طائفة من خدمات الإسكان والخدمات الاستشارية لأعداد متزايدة من الطلاب

المغاربة في العاصمة الفرنسية. وسرعان ما انخرطت هذه المنظمة في شؤون سياسية. وبانتعاشها في ظل أجواء الطلبة البهيجة في الخارج على الضفة اليسرى للبحر الأبيض المتوسط، استقطبت جمعية طلبة شمال أفريقيا المسلمين شباباً من البلاد الشمال أفريقية الثلاثة وجمعتهم معاً، وبينت لهم هويتهم المشتركة ومشكلاتهم المشتركة وجعلت مقرها مركزاً، حيث كانت منه توزع المنشورات وفيه تعقد الاجتماعات[12].

لكن حتى مع التحاق الطلبة المغاربة بمدارس باريس الفرنسية، ظلوا مخلصين لمبادئ الإصلاح الإسلامي ومُثُله، وشرعوا بإطلاق حركة احتجاجاتهم المناهضة للإمبريالية الثقافية الفرنسية انطلاقاً من تمسكهم بتلك المبادئ. وكان يتعين أن يتلازم مسارا السياسة والإصلاح الديني، وكانت حركة المدرسة الحرة الأصلية مؤثرة بما يكفي، وأصبح الخريجون فيها، من ذهب منهم إلى أوروبا ومن تابع منهم دراساته الإسلامية التقليدية العليا على حد سواء، ملتزمين بما يكفي بأن تكون "السلفية الينبوع الذي تستقي منه الوطنية المغربية مبادئها[13]". وبوصفهم طلاباً في المدارس الثانوية في كل من فاس والرباط، تربى هؤلاء "القوميون في المقام الأول" على المنشورات التي كانت تصدر من القاهرة، وأبرزها **المنار**، و**الفتح**، و**الزهراء** وعلى قصائد أحمد شوقي[14]. وعندما قابل المغاربة الشباب فعلياً، في باريس وهم على عتبة الالتزام السياسي، أرسلان مؤلف التعاليم والمبادئ التي ألهمتهم أيما إلهام، وهو الذي كان تلميذاً لمحمد عبده وصديقاً لرضا وأحمد شوقي وداعية ملتزماً بقضية شديدة الشبه بقضيتهم؛ كان للقاء تأثير قوي وفوري فيهم، وعثر نشاطهم الفتي عند أرسلان على التوجيه والإرشاد، وكان على استعداد لإسداء النصح والمشورة لهم.

ويحتمل أن يكون دخول أرسلان إلى الأوساط الطّالبية قد جرى بوساطة بلفريج ومحمد الفاسي. وكان كلاهما وفقاً لما قاله هالستيد قد زارا أرسلان في جنيف مرات عديدة إبان سني دراستهما في باريس بين العامين (1926-1932)، وتلقيا منه معاملة ورعاية كما لو كانا ولديه[15]، ورافقاه في الشطر الأخير من رحلته عبر إسبانيا، وكان لهما دور أساسي في ترتيب النتيجة المهمة للرحلة الأولى التي قام بها أرسلان إلى

المغرب. وصل إلى طنجة في رحلة بحرية في التاسع من شهر أغسطس/ آب من العام (1930م). وفي التاسع عشر من الشهر نفسه قفل عائداً إلى قادش. كانت إقامته في المغرب قصيرة الأمد وخضعت لمراقبة عن كثب. ولكن استناداً إليها تكونت صداقاته السياسية الأكثر ديمومة، وتطورت احتجاجاته المناهضة للإمبريالية الأكثر فاعلية. كتب ليفي بروفنسال عن هذه الزيارة الآتي: "منذ اللحظة الأولى للزيارة، توطدت دعائم علاقات دائمة ومتينة جداً بين شكيب أرسلان والحركات السرية في كل من تطوان والرباط وفاس، وتمكن من خلالها من أن يؤثر في الناس ويلهب مشاعرهم، ومن تنسيق الحملات المناهضة لفرنسا..[16]".

وكما كان يحدث غالباً أثناء رحلات أرسلان، كان حضوره إلى منطقة معينة وقدوم الوجهاء والأعيان للترحيب به والثناء عليه، يتمخض عن اجتماع مجموعات بعضها مع بعض لم يكن اجتماعها ممكناً في الأحوال الأخرى. وخلال إقامته الخاطفة في طنجة والأيام المعدودة التي أمضاها في تطوان، اجتمعت وفود من مدن مغربية عديدة من أجل استقباله والترحيب به، وأتاحت له الفرصة لتدشين دوره بوصفه وسيطاً بين أولئك الذين كان عليهم أن يقودوا حركة الاستقلال المغربية على مدى العقدين اللاحقين[17].

وفي تطوان حل أرسلان ضيفاً على عائلة بنونة الموقرة التي وطد معها عرى صداقة وثيقة للغاية. وكان عميد ناشطي الأسرة، الحاج عبد السلام، قد أسس مدرسة حرة وجمعية سرية في مدينته الأم في العامين (1923م و1926م) على التعاقب. وكان بين الأشخاص الأكثر شهرة في المنطقة الإسبانية. وعمل الحاج عبد السلام، بين آخرين، بوصفه صلة وصل بين أرسلان والوطنيين في كل من فاس والرباط[18]. وأثناء إقامته في تطوان، ألقى أرسلان سلسلة من المحاضرات العامة وسعى، على وجه العموم، إلى مد جسور التواصل بين المغاربة وأبناء المشرق العربي. وكان يتملك مضيفيه شعور مقلق بالدونية حيال مراكز التعليم الإسلامي والنشاط السياسي المشرقية. وفي مقابلة كشفت النقاب عن مواقف مغربية بقدر ما أماطت اللثام عن مواقف أرسلان، طرحت عليه مجموعة من الأسئلة من قبل أحمد بلفريج بدا أنه يبحث من خلالها عن شيء من التوكيد:

ما رأيك في شعب المغرب؟ هل توجد يقظة في المغرب؟ ما هي مناقب المغرب؟ ما رأيك في اللغة العربية في المغـــرب؟ وكانت إجاباته إطرائية، ورمت إلى إعلاء شـــأن القضية المغربية في عيون مناصريه. وكان يهدف من خلال إجاباته أيضاً إلى جعل القضية المغربية محل اهتمام القراء المشارقة[19]. ويعتقد أحد الأشخاص المغاربة البارزين على الأقل أن الزيارة حققت آمال الأمير: "لقد فتحت الباب على مصراعيه أمام مد جسور التواصل مع أشقائنا في المشرق". و"رصعت السلسلة التاريخية لليقظة المغربية الناشئة[20]".

وفي ظل أجواء الإعجاب المتبادل، كرم أرسلان في الأمسية الأخيرة التي قضاها في تطوان وذلك على هامش مأدبة أولمت على شرفه وأعدت بعناية فائقة. وتناوب في تلك المناســبة على إلقاء الخطب والقصائد رجال غدوا لاحقاً من قادة المغرب الوطنيين. فقد ألقــى عبد الخالق الطريس ومحمد داود كلمتين، فيما ألقــى التهامي الوزاني قصيدة هنأ فيها المغرب على حســن حظه الذي تمثل في احتفائه بالزيارة التي قام بها ضيف على هذا القدر مــن التميز. وفي لفتة معبرة توجت حفل التكريم، قدم محمد بنونه للأمير جلابية وعباءة[21]. وهذا قليل من كثير قيل في تقريظ ضيف محترم إكراماً وتشريفاً. ومن جانب آخر، يعد ضرباً من فرط الاحتراس عدم الإشارة إلى العلاقات السببية بين ظهور أرسلان في المغرب وبين انخراطه في التطورات اللاحقة. وثمة رجل مشهور ومراقب عن كثب أشار إشارة شخصية وعامة جداً إلى المغاربة ليبين أنهم ليسوا معزولين. فريبورتاج بنونه على الرغم من كونه مفرطاً في التسامح والتساهل بمقياس بعض المعايير الصحفية، فقد تمخض عن الإثارة ذاتها التي عبر عنها أرســلان نفسه ذات مرة في وصفه حضور محمد عبده إلى بيروت. كانت لزيارة أرســلان قيمة رمزية ومضمــون حقيقي في آن معاً، ولم تكن الاتصالات التي أجراها تفتقر إلى الأهمية.

عندما عبر أرسلان قناة السويس في طريق عودته من مكة في العام (1929م)، كان يرتدي زياً بدوياً. وعلى الرغم من أنه يمكن أن يشك المرء في أنه وصل في طريق عودته إلى قــادش مرتدياً الجلباب والبرنس المغربيين، فقد بينت الأحداث أنه قبل بجدية ورصانة ولاء التطوانيين له وقدر تقديرهم له. وأول تأويلاً دقيقاً حماس الشــباب المغاربة الذين

رأوا فيه قناة يستطيعون من خلالها التعبير عن سخطهم المتزايد على الحكم الفرنسي. ودفع أرسلان قضيتهم إلى مواقع متقدمة أكثر مما كانوا يتوخون، وتمكن في غضون أشهر من جعلها قضية إسلامية عالمية قوية. وساعده في ذلك حماقة كبيرة ارتكبتها إدارة حكومة الوصاية الفرنسية.

ففي شهر مايو/ أيار من العام (1930م)، صدر مرسوم صار يعرف بالظهير البربري وقعه السلطان المغربي الشاب[22]. ومنذ أول عهد الوصاية، أقرت السلطات الفرنسية بوجود نظام قضائي متمايز ومستقل في مناطق البربر المغربية، حيث كانت تهيمن العادات والتقاليد المحلية على بعض أحكام الشريعة. ووسع مرسوم العام (1930م) هذا المفهوم كما وسع نطاق مهام المحاكم البربرية في مجال القانون المدني، في حين أنه فرض القانون الفرنسي في القضايا الجنائية. وكان المرسوم مستنداً إلى مبدأ: فرّق تسد، ويرمي إلى عزل البربر عن العرب إدارياً وثقافياً. ومن غير المرجح أن يكون المندوب السامي لوسيان سان ومستشاروه قد وضعوا على رأس اهتماماتهم إجراء تحول ثقافي كامل لدى البربر. لكن بإخضاعه نصف السكان البربر تقريباً إلى سلطة قضاء المحاكم الفرنسية في مجال القضاء الجنائي، فإنه يمكن أن يفسر الظهير البربري بوصفه طعناً مباشراً في سلطة حكومة السلطان، وفي أحكام الشريعة الإسلامية، وفي سلامة الدين الإسلامي ذاته. كما يمكن أن ينظر إلى الظهير البربري بوصفه محاولة لوضع حد لولاء البربر الهش للدولة المغربية، تسهيلاً لدمجهم واستيعابهم في بوتقة الأعراف والعادات الفرنسية. ولكي يبدو الظهير البربري أشد إيعاداً وأكثر تهديداً، تزامن الإعلان عنه ووضعه موضع التنفيذ الفعلي مع فترة شيدت فيها مدارس عديدة خاصة بالبربر تعتمد منهاجاً دراسياً فرنسياً خالصاً، وبذلت من خلالها جهود محدودة، إلا أنها تثير الذعر وتنذر بالخطر، تشجع البربر على الارتداد عن الإسلام والتحول إلى المسيحية.

وبَيّنَ الرد على الظهير عمق إساءة تقدير إدارة المندوب السامي لمدى المشاعر الإسلامية لدى رعاياها من العرب والبربر على حد سواء. فقد صار لدى حركة التوكيد الثقافي الوليدة قضية محددة ملموسة، وبات في وسعهم أن يتوحدوا حولها. كما أضحى

لدى الحركة شكيب أرسلان متحدثاً دولياً باسمها، وبوساطته غدا في وسع الحركة أن تعبر عن مظالمها. وداخل المغرب، نظم الشباب الذين التقى بهم أرسلان في كل من باريس، وجنيف، وتطوان أنماطاً متنوعة من الاحتجاجات التي لم تتوسل العنف - صلوات الجماعة حداداً على ما حصل، وإيفاد وفود رسمية إلى السلطات الفرنسية، والتظاهر في الشوارع من وقت لآخر. ولم يحقق أي من الإجراءات المذكورة بذاته نجاحاً. وعانى منظموها أحكام سجن ونفي، وفي حالة محمد الوزاني، تعرض الرجل إلى الجلد علناً. ولكن التأثير التراكمي للتظاهر تمثل في إيقاظ الضمير الجماعي للمغرب في معرض الدفاع عن الإسلام الذي كان يتعرض لهجمة.

هذه القضية من النوع الذي يلائم أرسلان. فعندما تم تقييد عمل الحركة في المغرب من قبل الفرنسيين، رسم لنفسه دوراً بذل قصارى جهده للقيام به وذلك بالعمل الوثيق مع بلفريج ومحمد الفاسي ومكي الناصري، ونسق حملة دعائية دولية مناهضة للظهير، وفتح قنوات للمغاربة مكنتهم من التواصل مع العالم الإسلامي على نطاق واسع - لا سيما عبر صحف **الفتح** و**المنار** و**الأمة العربية**، وزودهم بمجموعة من التكتيكات التي تبنوها إلى حد بعيد، وسخر خبرته الكبيرة في الجدل والتفاوض لخدمة احتجاجاتهم. وقد نجم عن كل ذلك جهد جبار مثير للإعجاب كان عاملاً رئيساً في تأطير صورة أرسلان بين ناشطي شمال أفريقيا وفي أوساط المسؤولين الفرنسيين.

وبعد عودة أرسلان من تطوان بوقت قصير، شرعت صحيفة **الأمة العربية** بإطلاق ما غدا لاحقاً حملة صحفية مستمرة أفردت لتفنيد الظهير البربري والتعليق عليه. وبأسلوب الداعية الشهير في عصره، لم يكن أرسلان يهتم بالحقائق التي يتوفر عليها بقدر اهتمامه الذي لا هوادة فيه في تقديم نسخته هو منها. وبالنسبة له، كان في أذهان واضعي الظهير البربري هدف رئيس وحيد يتمثل في عزل البربر وارتدادهم عن الإسلام وتحولهم في نهاية المطاف إلى المسيحية. وصور أرسلان هذا القانون على أنه تتويج لجهود الكاردينال لافيجري التنصيرية، وبوصفه عملاً مدبراً مناهضاً للإسلام شكل انتهاكاً لآمال البربر وتطلعاتهم ولشروط معاهدة الحماية الموقعة في العام (1912م)، ولحرية المعتقدات

الدينية المقررة والمتفق عليها عالمياً، إلى جانب انتهاك القانون لأمور أخرى[23]. والمقطع الآتي نموذج من الحجج التي كان يسوقها أرسلان تفنيداً للظهير:

قد يسأل سائل إن كان تطبيق قانون الظهير البربري، تبعاً لأهداف إدارة المقيم العام، تعني اعتناق البربر للمذهب الكاثوليكي. ونحن نجيب بقولنا: نعم. إنها تعني التطبيق المبدئي لإجراءات أُعْمِلَ الفكر فيها ملياً لتحقيق هذا الهدف. أولاً حِيْلَ بين البربر وبين التشريع الإسلامي، وانتزع منهم حق تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية في مجال الأحوال الشخصية. وكانت تلك الخطوة الأولى في الفصل بين البربر والإسلام. والخطوة الثانية تمثلت في منع البربر من تعلم الدين الإسلامي واللغة العربية التي هي بالنسبة للمسلمين بمثابة اللغة اللاتينية لأتباع المذهب الكاثوليكي. وتمثلت الخطوة الثالثة في إرسال البعثات التبشيرية من أجل التبشير بالديانة المسيحية بين البربر في وقت لم يكن في وسع التعليم الديني الإسلامي فيه أن يتدخل في مساعيهم على صعيد نشر الدعوة إلى المسيحية. وتجدر الإشارة إلى أن الفرنسيين لم ينتظروا إلى حين إتمام الخطوة الأولى ليشرعوا بالخطوتين الثانية والثالثة. بل عملوا على تنفيذ الخطوات الثلاث جميعاً في آن معاً[24].

من خلال تنفيذه هذه السياسة، "يمكن أن يكون قد سوغ اسمه بهذه الطريقة، واشتهر في هذا القرن بوصفه من تمم إنجاز عمل فرديناند وإيزابيلا[25]". وبتوجيهه إصبع الاتهام فيما يتعلق بالنوايا المغرقة في الشر إلى المقيم العام ومستشاريه، تمكن أرسلان من عرض قضية البربر وإظهارهم بوصفهم ضحايا أبرياء، ومصيرهم مرتبط بمصير العالم الإسلامي بأسره: "لقد أحكمت القوة العسكرية الوحشية الغاشمة الآن قبضتها على الدين الإسلامي نفسه واستهدفته باعتداءاتها كما استهدفت حرية الضمير لدى أتباعه[26]".

كان هذا البسط الواسع لقضية البربر في صميم طعن أرسلان بالفرنسيين. وبدا جلياً من خلال المقالات التي نشرها في جريدة **الفتح** أنه كان يسعى إلى تحقيق ما هو أكثر

من مجرد طرد الفرنسيين. فحين عمل على إقناع إخوانه في الدين بأن لسياسة الظهير البربري أبعاداً تحمل في طياتها تهديداً مخيفاً، كان يأمل أن يهز ذلك أركان المجتمع الإسلامي العالمي، فيتخذ تدابير قوية وفاعلة. وأطلق تحذيراً: "وهذه القضية لا يقتصر الاعتداء فيها على إسلام البربر، بل يشمل العالم الإسلامي كله[27]". وكما فعل في العام (1912م) حين أطلق حملته الصحفية المناهضة للغزو الإيطالي لطرابلس، دعا أرسلان المسلمين إلى رفض التهديدات الإمبريالية لدينهم وإلى التصدي لها. وكانت جماعات إسلامية أخرى تراقب من مواقع المتفرجين الإمبراطورية العثمانية وهي تنهار (خلف هذا عند أرسلان حسرةً لا سبيل إلى زوالها)، وقد أصبح معظم العالم الإسلامي خاضعاً للهيمنة الأوروبية. وإن نجح الفرنسيون في تطبيق الظهير البربري "حرمان البربر المسلمين من تطبيق الشريعة القرآنية"، أفلا يشجع ذلك كلاً من إنجلترا وهولندا على تطبيق سياسات مماثلة؟ وإذا لم يتصرف المسلمون من فورهم "إذن يخسرون دينهم كما خسروا ممالكهم وبلدانهم". إذن، لم تكن مسألة الظهير البربري مقتصرة على فرنسا والمغرب: "وكل مسلم في الدنيا له الحق أن يتدخل في هذه المسألة".

عمل أرسلان على تنسيق هذا الانخراط، حيث اقتضت خطته أن يتدفق كم هائل من الرسائل والبرقيات والالتماسات والعرائض إلى عصبة الأمم، وإلى فروع الحكومة الفرنسية جميعها، وإلى سفارات الدول العظمى وقنصلياتها؛ لأن "هذا الخطب لا يزاح إلا بالصراخ المستمر الذي يصم الآذان، حتى لا تبقى فرنسة قادرة أن تتجاهله[28]". وكان سلوكه هذا شبيهاً باستراتيجية الاحتجاج التي كان ينتهجها حيال سلطات الانتداب نيابةً عن سوريا وفلسطين. وما جعل حملة الظهير البربري أكثر تميزاً تَمَثَّلَ في استجابة المسلمين العالمية لمناشدة أرسلان. فتأسست لجان احتجاج من سومطرة إلى برلين، ومن الهند إلى باريس. وفي جاوة، تشكلت هيئة إسلامية للدفاع عن البربر، وفي القاهرة ترأس الأمير عمر طوسون منظمة مماثلة عملت عن كثب مع مجموعات الشباب المسلمين التابعة لعبد الحميد سعيد، وذلك في مجال نشر العرائض وجمع التوقيعات. وجعل رشيد رضا هيبة صحيفة المنار في خدمة الحملة، وانضمت بقية الصحافة العربية، من تونس

إلى دمشق، إلى حملة الاحتجاج المناهضة للظلم الذي لحق بالبربر المسلمين[29]. وأسوق مثالاً على نشر الوعي لدى شخصيات إسلامية عامة حيال مفهوم تهديد الإمبريالية للإسلام، وعن القيمة الدعائية للقضية التي نحن بصددها، والمثال مستمد من مؤتمر القدس الإسلامي الذي أقر قراراً يتعلق "بسلب البربر دينهم الإسلامي"، وتضمن القرار إدانة الوفود المشاركة السياسة المصممة، وفقاً لرؤيتهم، لجعل المسلمين البربر يتحولون عن دينهم ولفرض الدين المسيحي عليهم[30]. وقال محمد الوزاني عن ذلك، وربما يكون قد تملكه الدهش ولكن بالتأكيد كان السرور يغمره. "إن الحركة قد تجاوزت كل التوقعات وتخطت كل الآمال..[31]".

وفي حين كانت حملة إثارة الرأي العام العالمي للمسلمين، على الأرجح، أضيق نطاقاً من تصوير أرسلان لها، فإنه ينبغي أن ينظر إلى الحملة المناهضة للظهير البربري بوصفها حققت نجاحاً. ففي المغرب أدت - إلى جانب تحريك المقاومة المحلية - إلى حمل إدارة الإقامة العامة الفرنسية على إجراء تعديلات على بنود الظهير البربري الأكثر إثارة للجدل في العام (1934م)، وذلك بإعادة إخضاع إدارة المحاكم العدلية الخاصة بالبربر إلى كنف السلطان وبالنتيجة إلى السلطة الإسلامية[32]. وتمثل الأمر الأكثر إثارة، في الحملة، في توسيع مجال تضامن منظمة الحركة القومية نفسها. وكان دور أرسلان مركزياً لجهة هذا التطوير، فقد عمل على إدراج هذه الهجمة على الهوية الثقافية المغربية التي انطوى عليها الظهير المغربي في سياق أوسع نطاقاً؛ سياق التهديد الإمبريالي المصلت فوق رؤوس المسلمين كافةً والمتعلق بحقهم في ممارسة معتقداتهم الدينية. وأصبحت المغرب ومحنتها قضية في الأوساط العربية الإسلامية المشرقية، واكتسب المغاربة بدورهم وعياً جديداً للقضايا التي تواجه بلداناً إسلامية أخرى وحلفاء جدداً لجهة تأييد قضيتهم الخاصة[33].

لقد أظهرت قيادة أرسلان للحملة وإدارته لها مجدداً تفضيل أرسلان للعمل المرتكز إلى مبدأ الجامعة الإسلامية، بوصفه نقيضاً للولاءات الوطنية والقومية الأضيق نطاقاً. ولم يكن الاستقلال الوطني بحد ذاته هو الذي حدد اختياره لرموزه - لم يظهر أدنى

اهتمام في التطلع إلى إجراء أي تغيير في العلاقة الحمائية بين فرنسا والمغرب - بل أعرب عن اقتناعه في أن المسلمين في العالم أجمع عندما يتعرض دينهم لخطر ما يهبون للرد عليه رداً حازماً. وعلى الرغم من تنوع المجتمع الإسلامي فإنه يتقاسم قيماً إسلامية مشتركة، وبإدراكهم هذه الرابطة والتصرف على أساسها يمكن للمسلمين أن يتحرروا من الاضطهاد الراهن وأن يستعيدوا ماضيهم المجيد. وكانت تتناسج في مقالات الاحتجاج التي دأب أرسلان على تسطيرها ضروب من استعادة ذكريات عظمة ماضي الأندلس المُضَيَّعةِ بحلوها ومرها، وسلطان العهد العثماني الذي تلاشى، وتذكير بالإخفاقات الشهيرة التي حدثت في الآونة الأخيرة - عبد الكريم والثورة السورية - وتحذيرات من حاضر مظلم لفته الكآبة بفعل حادثة حائط المبكى، ومؤتمر القربان المقدس في قرطاج، والوحشية الإيطالية في ليبيا، والملاحدة الكماليين في أنقرة. وكانت مناشداته للمسلمين تلامس عاطفة عميقة وتظهر جاذبية الإسلام بوصفه سلاحاً سياسياً. وكما جاء فيما كتبه لوتورنو عن هذا الموضوع: "بسبب شكيب أرسلان، احتلت المغرب دائرة الضوء بوصفها قضية المسلمين[34]". والمسألة التي سعى لتبنيها كانت قضية تهم المسلمين، واستندت تكتيكاته في معالجتها إلى أساس قضية إسلامية، وهذا ما أمن لها مسوغاتها.

ولم تكن متابعته لقضية تصرفه عن الاهتمام بأخرى. ففي خضم التزامه بالقضية المغربية، شن حملة ترمي إلى حشد العالم الإسلامي في وقفة احتجاج عامة مشتركة أخرى، هذه المرة ضد ما دعاها الفظائع الإيطالية في طرابلس وبرقة[35]. فمنذ زمن اشتراكه شخصياً مع القوات العثمانية في العام (1912م) وحتى موته، ارتبطت سمعة أرسلان العامة ارتباطاً وثيقاً بردوده على المشاريع الإيطالية في ليبيا. وردوده تلك التي عززت صورته مبدئياً بوصفه مناهضاً عنيداً للإمبريالية انتهت بتقليص التواصل معه من قبل الليبيين وبالإضرار بسمعته. وعندما سالم موسوليني وعقد صلحاً معه في العام (1934م) كان محل اشتباه رهيب، ليس أقله بسبب معارضته السابقة الشديدة. وفي هذه المرحلة الباكرة، وهي ما يعنينا هنا، لم يكن أرسلان قط أكثر صراحة ووضوحاً مما كان عليه في إدانته للأعمال الوحشية التي ارتكبها الجنرال غراتسياني في حق سكان برقة.

وسَطَّرَ رسالة إلى رضا يخبره فيها بأنه عندما علم بعمليات الإعدام والترحيل والإهانات الجنسية التي تفرض وتمارس على سكان الجبل الأخضر تصرف على النحو الآتي: "وجردت قلمي على هؤلاء الكلاب[36]". وما انفك يعدد، في مقال تلو الآخر، الفظائع التي ارتكبتها القوات الإيطالية، ويدين إيطاليا الفاشية التي يعدها الجنس البشري كله غير معقولة وغير مقبولة على الإطلاق. وحاكى في احتجاجه على الإيطاليين أسلوبه الذي سبق له أن استعمله في حملته المناهضة لقانون الظهير البربري. وأفرغ احتجاجه على الإمبريالية وتوصيفه للمعاناة الإنسانية في قوالب ذات رموز إسلامية. وقال لقرائه إنه عندما استولت القوات الإيطالية على واحة الكُفْرَة، حولت الزاوية السنوسية العظيمة إلى حانة تبادلوا فيها أنخاب إبادة مسلمي طرابلس، وألقوا المصاحف المقدسة تحت سنابك خيولهم، ثم استعملوا أوراقها في إشعال مواقد طبخهم[37].

وكما كان للظهير البربري تبعات أبعد بكثير من لغة المرسوم الذي أجازه، كذلك كان التعسف الإيطالي المسيء بحق الإسلام والسكان في ليبيا يعني أكثر من الفظائع نفسها. فقد كان الهدف الحقيقي للحكومة الفاشية اجتثاث الإسلام من المنطقة برمتها، باستئصال السكان الأصليين في هذه الحالة، وإحلال مستعمرين مسيحيين محلهم. وباستعماله المحاكاة التاريخية التي كان يفضلها في ذلك العصر، رأى أرسلان أن الفاشيين تصرفوا في ليبيا كما سبق أن تصرف فرديناند وإيزابيلا مع المغاربة في إسبانيا. ولتفادي المصير الذي لاقاه المسلمون في الأندلس، عليهم أن يوحدوا صفوفهم. وعندما أعدم الإيطاليون المحارب الشيخ العظيم المهيب عمر المختار، الذي شكلت روحه وتكتيكاته قلب المقاومة في برقة، كتب أرسلان عن هذا الحدث الجلل: "إن دماءه سوف تواظب على الصراخ طلباً للثأر، ولسوف يبقى يُسْمَعُ صداها في أصقاع العالم الإسلامي كله[38]". لم تكن قضية ليبيا، كما حددها أرسلان، محصورة بالعرب، إذ كان يجب أن تكون قضية إسلامية. ولم يكن في وسع أي تركيز آخر على القضية من منطلق طائفي أن يصمد في وجه الهجوم كما قال: "فإذا أصبحت برقة طليانية خالصة، وجارتها طرابلس طليانية خالصة، وقعت مصر من هذا الجوار في أشد الخطر، ولم تنفعها بعد ذلك النعرة

الفرعونية. ولا وقاها بعد ذلك سياسة بعض المتفلسفين من أهلها أن مصر ليس لها شغل بالعالم الإسلامي، وأن مصر ليست بلاداً عربية[39]". والأمر الكفيل بإنقاذ مصر، وربما طرابلس أيضاً، هو استجابة مشتركة متسقة من النوع ذاته الذي كان قد شكل الرد على قانون الظهير البربري.

وعلى الرغم من أن أرسلان شرع في رسم خطة مماثلة تتضمن البرقيات والمقاطعات وما شابه ذلك، فإن الاحتجاج الليبي لم يتمخض عن توليد مستوى الدعم ذاته الذي حظيت به قضية البربر، والظروف كانت ببساطة غير مؤاتية؛ إذ لم تكن النخبة الوطنية الحضرية تمتلك، على الحال التي كانت عليها، أي تنظيم أو دعم، والعقوبات التي أنزلها غراتسياني بمن تبقى من أتباع عمر المختار كسرت شوكة مقاومة البدو وشرعت في تفكيك النظام القبيلي ذاته.

لكن إن كانت الظروف الداخلية قد حالت دون أن تصبح الحملة المناهضة لإيطاليا منصة إطلاق لبرنامج قومي مماثل لما فعله الظهير البربري عند المغاربة، إلا أنها استقطبت اهتماماً مماثلاً من القوة الاستعمارية المعنية. فقد ذكرت المفوضيات والقناصل الإيطاليون أن الهجمات التي شنها أرسلان عبر مقالاته على السياسة الليبية، أعيد طبع المقالات المذكورة فيها في صحف كل من بيروت ودمشق، وأن مقالاته التي نشرت عبر صحيفة الفتح استنسخت وأدرجت في كتيبات ووزعت على الحجيج المسلمين في الديار المقدسة من شبه الجزيرة العربية، وأن دعوته لمقاطعة البضائع الإيطالية لاقت صدى وفي وسعها أن تسبب صعوبات تجارية[40]. أقدمت وزارة الخارجية الإيطالية، وقد استشعرت التأثير المحتمل لانتقادات أرسلان، على إصدار تعليمات تبين سبل مواجهة التهم التي أطلقها. وخلصت وزارة الخارجية الإيطالية، كما فعلت نظيرتاها البريطانية والفرنسية، إلى استنتاج يفيد بأن أرسلان هو السبب الرئيس في التحريض الذي يجابه القوى الاستعمارية في العالم العربي[41]. ولكن قدرة أرسلان على التأثير في الرأي العام العربي جعلت روما تكيد المكائد وأغضبتها في آن معاً. فقد أوصت مذكرة سرية للغاية بأنه: على الرغم من أن كل الدلائل تصور الأمير بوصفه شخصاً متعنتاً

وعديم الاكتراث، فإن قلقه على ســوريا قد يجعله سهل العريكة وقابلاً للمفاتحة، وهنا نقــترح أن يُعرض عليه عرض يقضي بــأن يدعم الضغوطــات الإيطالية على الموقف الفرنسي في بلاد الشــام مقابل تعديل موقفه العدائي بشــأن برقة[42]. وحتى مع بلوغ هيبته قمماً جديدة، فقد كان الأساس مهيأ لانحداره.

لكــن في تلك المرحلــة، ذُكِرَ موقفه باســتعمال أكثر العبارات غموضاً. فشــجاعة أرسلان وإنجازاته، على صعيد القضية المغربية، في تنسيق الحركات الاحتجاجية عززت مكانته بوصفه بطل الإسلام في العالم الإسلامي، كما ذاع بفضلها صيته لدى المسؤولين الفرنســيين بوصفه مثيراً خطراً للاضطرابات والمتاعب. واشتكى المقيم العام الفرنسي في المغرب، لوسيان سان، لمراســل صحفي من الطريقة التي حرفت بها مقاصده بفعل الحملة الغادرة التي شُــنَّتْ عبر بعض المطبوعات الأجنبية. تلقف أرسلان، وقد تملكه الفخار، الإشــارة بوصفها تعني صحيفة **الأمة العربيــة** كونها "تحتل مكان الطليعة بين المنشورات التي هاجمت بشدة السياسة البربرية لــ إم. سانت ومعاونيه[43]". وكان هذا دقيقاً بما يكفي ومعترفاً به على نطاق واسع من قبل المعجبين والمعارضين على حد سواء. ولم يسبق مطلقاً أن كانت ســمعة أرسلان أكثر سطوعاً ولم يكن تأثيره أكثر وضوحاً مما كان عليه في تلك المرحلة.

وفيما كان الشباب المغاربة يبدون نشاطاً ملحوظاً لتعزيز مكتسباتهم من خلال تكوين مجموعات سياســية منظمة وصياغة مطالب متماســكة، واظبوا على التماس إرشادات الأمير وتوجيهاته. وبينما كان أكثر إسهاماً وأفضل أداءً في توجيه استراتيجية الاحتجاج وإدارتها منه في تحديد محتوى الأيديولوجية، فقد كان للدور الذي لعبه أبعاد تكفي لجعل مخبري هالستيد يتفقون على أنه جدير بلقب خبير بارع في التكتيكات والمناورات المتعلقة بالحركة القومية المغربية[44]. وكانت نادراً ما تنخفض كثافة التواصل بين زعماء الحركة وبينه في حقبة ثلاثينيات القرن العشرين: عمل محمد الوزاني ســكرتيراً له في جنيف من خريف العام (1932م) وحتى صيف العام (1933م). وتلقى أحمد بلفريج مســاعدة منه على صعيد الجمع بين الدعم المالي والمجلس الاستشاري؛ الأمر الذي أدى إلى ظهور

المغـــرب في العام (1932م)، أول مجلة تصدرها الحركة الجديدة، كما أجدت وســاطته نفعاً في فض نزاع على مســتوى القيادة كان قد نشب بين محمد الوزاني وعلال الفاسي في العامين (1936م) و(1937م)[45].

ولم تكن القيادة السياســية هي كل ما عرضه أرسلان على أصدقائه المغاربة. فعلاقته الأبويــة بحركتهم تجاوزت الحركة وشــملتهم أفراداً، وكان يمد لهــم يد العون بصفة شــخصية ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. وعلى ســبيل المثال، عندما أدخل أحمد بلفريج إلى مصحة في سويسرا لتلقي علاج بســبب إصابته بمرض السل، أكد عليه أرسلان برفق أن يهتم بتعافيه فقط دون التفكير بموضوع قيمة الفواتير الطبية. وقال له: "في كل وقت أتلقى فيه شــيئاً من المال ســوف أبقي لنفسي قدراً قليلاً منه ولسوف أعطيك الباقي... أنت عنــدي بمثابة ابني، ولا ينبغي عليك عمل أي شيء، ولســوف أعتني بك في كل دقيقة[46]". ويوجد كثير من الأســباب التي تدعونا إلى الاعتقاد بأنه قام بلفتات مماثلة حيال أناس آخرين من شمال أفريقيا في أوروبا.

وكذلك تعهد أرســلان بالرعايــة والمتابعة العلاقات التي أقامهــا مع القوميين في المنطقة الإســبانية إبان زيارته لتطوان. وعاد في زيارة دامت فترة وجيزة إلى تلك المدينة في العام (1936م) عندما بدا أن الفرانكويين والجبهة الشعبية توافقوا على صيغة مبدئية لحكم ذاتي بالنسبة للمنطقة الإسبانية[47]. وفي مثال آسر على التأثيرات التراكمية للنفوذ الشــخصي، يذكر ريزيت في تقرير له أنه بناء على إصرار أرســلان، أرسل عبد السلام بنونة أحد أبنائه إلى نابلس في فلســطين ليلتحق بمدرســة ثانوية لإتمام تعليمه. ونتيجة لهذا التصرف، ارتبطت الدراسة في المعاهد التعليمية العربية المشرقية بقدر من الاحترام والتقديــر وبرِفْعَةِ المكانــة. وحذا حذو بنونة وجهاء تطوان، حيث عزفوا عن إرســال أبنائهم إلى مؤســســات القرويين التعليمية وألحقوهــم بالجامعات المصرية أو بالمدارس الفلسطينية، وهناك كانوا على اتصال مع الأنشطة السياسية الأكثر كثافة في تلك المنطقة من العالم العربي[48]. ويوجد دليل إضافي على اندماج المغاربة المتنامي في شؤون المشرق العربي؛ هذا الدليل مســتمد من الحدث الذي تزامن مع افتتاح مؤتمر بلودان في سوريا

في العــام (1937م)، عندما احتل المغاربة الشــوارع في مظاهــرات منظمة تعبيراً عن تضامنهم مع إخوتهم الفلسطينيين[49]. وهذه البادرة سواء أكانت بتشجيع من أرسلان شخصياً أم لا، فإنها تمثل قدراً من الانتصار للسياسة التي انتهجها في العام (1930م).

وأدت علاقات أرســلان مع المغاربة والحماس الذي أبــدوه في تقبلهم له إلى جعله يوسع مجال ارتباطاته، ليشــمل مجموعات أخرى معنية بالشؤون الشمال أفريقية. وعند نقطة محددة من الحقبة التي تلت الحرب مباشرة، نفذ إلى أوســاط الحزب الاشــتراكي الفرنــسي، وعقد صداقات شــخصية مع زعيمين كبيرين هما بيــير رينوديل وروبرت لونغيه، اللذين كانا مؤيدين لحق المعتقد عبر نشــاطهما في القســم الفرنسي من المنظمة العمالية الأممية[50]. وواظب أيضاً على مراســلة غابرييل بــيري، رئيس تحرير صحيفة **لومانيتيه** الشــيوعية التي كان يســهم هو والجابــري برفدها بمقــالات أحياناً. وكان أرســلان يدرك جيداً أن التوتــرات داخل أروقة الحزب الاشــتراكي كانت من الحدة بمكان، بحيث تحول دون قدرته على اتخاذ موقف صلب حيال المســألة الاســتعمارية، لكنه لم يتردد في تذكير المنضوين تحت لوائه بواجبهم الأســاسي. وإبان الاحتجاج على قانــون الظهير البربري طلب من اليســار الأوروبي أن يرفع صوتــه قوياً بحيث يجعله مســموعاً: "لا نطلب من الاشــتراكيين أن يلتزموا بالدعوة للمســلمين-فهم أبعد ما يكونون عن ذلــك. لكننا ندعوهم كما ندعو أولئك الراديكاليــين الذين أصموا العالم بصرخاتهم المدويــة "علمانية"، ندعوهم إلى مهاجمة السياســة الحكومية التي ترمي إلى تنصير البربر.."[51]. والتحالف بين الأرســتقراطي المسلم صاحب الأملاك والأطيان (أرسلان) وبين حفيد كارل ماركس كان تكتيكياً صِرْفاً، لكنه كان مثمراً أحياناً. وأمَّنَ أرســلان إمكانية الاتصال المتبادل وتأســيس علاقة وثيقة بين رينوديل ولونغيه، وابن لونغيه، روبرت جان، من جهة وبين الهيئة الاستشارية لصحيفة المغرب، وبذلك جعل ظهورها ممكناً[52]. وصحيفة المغرب التي تولى أحمد بلفريج رئاسة تحريرها ظلت تنشر وتوزع في باريــس من العام (1932م) وحتى العام (1934م)، وبإســهام من رعاتها الفرنســيين فضلاً عن محرريها المغاربة اتخذت موقفاً مؤيداً لاســتقلال كل من ســوريا

وتونس والمغرب[53]. وكما يلاحظ هالستيد، على الرغم من أنه لم يكن واضحاً دوماً من يستخدم من في هذا التحالف الغريب ولتحقيق غايات أي طرف، فإن ارتباط أرسلان الشخصي مع قسم باريس من منظمة العمل الدولية قدم دليلاً إضافياً لأولئك الذين يرون فيه تهديداً رئيساً لوجود فرنسا المستمر فيما وراء البحار.

والانتصار الذي حققه أرسلان على صعيد الاحتجاج المناهض لقانون الظهير المغربي، عبر شدة التزامه الواضحة بالشؤون المغربية، نجح في الانتشار وصولاً إلى الدوائر والأوساط الجزائرية والتونسية، وساعد في ترسيخ دوره بوصفه مرشداً لزعماء من هاتين المنطقتين. وكان نطاق اتصالاته يتوسع باستمرار من خلال أنشطة اتحاد الطلاب الشباب لشمال أفريقيا، سواء أكان ذلك عن طريق إصدار كتيبات أم تنظيم مؤتمرات سنوية، أم عقد منتدى للمقاربات والمناهج واسعة التباين لقضايا الوحدة، والاستقلال، والعروبة، والإسلام. وكانت المنظمة الطالبية أرضاً خصبة لتبادل الفِكَرِ وإرساء أسس لاتصالات مغربية داخلية. وربما يوجد شيء من المبالغة التي يغذيها جنون العظمة الاستعمارية في التقرير الذي أعده كاي دورسيه وذكر فيه أن "قادة اتحاد الطلاب الشباب لشمال أفريقيا لا يخفون حقيقة تلقيهم تعليماتهم من شكيب أرسلان[54]". وعلى كل حال، كان نفوذ أرسلان وتأثيره على الطلاب واضحاً وصريحاً. وكان بدوره يحظى بمكانة المرشد المعلم ويمارس دوره على هذا الأساس، وكانت اقتراحاته في كثير من الأحيان تعتمد بكل إخلاص ومحبة. لقد كان تحولاً مرحباً به من الصراع المرير المطلوب واللازم للحفاظ على المكانة بين المنفيين السوريين شديدي الاختلاف أيديولوجياً.

وفي الجزائر، كان توجيه أرسلان للنهضة السياسية والثقافية حاضراً لدى قطبين من أقطاب الطيف السياسي-جمعية العلماء الجزائريين ذات التوجه الإصلاحي من جهة، والاشتراكية الشعبية المنبثقة عن الأحزاب المختلفة التابعة لمصالي الحاج من جهة أخرى. وأما التيار الرئيس الثالث للنشاط الوطني الجزائري في عقد الثلاثينيات من القرن العشرين المتمثل بالمثقفين الداعين إلى الاندماج مع الفرنسيين والساعين إلى تحقيق نوع من التعاون المستمر مع فرنسا على أساس المساواة، فلم يكن يَسْتَدِرُّ تعاطف الأمير.

وقد تجسد التعبير المنظم للمثل السلفية في الجزائر فيما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية في جمعية العلماء الجزائريين وفي مجلتهم الشهاب. وكان الاتحاد الذي تأسس في العام (1931م) يتزعمه عبد الحميد بن باديس الذي تلقى علومه في جامع الزيتونة، وهو عالم صاحب شخصية وقدرات استثنائية. ابن باديس رجل تقي شديد الورع، وكتب متحدثاً عن نفسه: "سبب وجودي هو الإسلام". كان خطيباً مفوهاً وداعياً مؤثراً، ومفكراً إصلاحياً إسلامياً متمكناً[55]. وعقب وفاة رشيد رضا مباشرة في العام (1935م)، كان الوضع مهيأً للاعتراف بابن باديس بوصفه زعيماً روحياً وفكرياً للسلفية الإسلامية في المغرب العربي. وجاء فيما كتبه عنه كبير كتّاب سيرته: "كان غيوراً على دينه، متحمساً متقد العاطفة، ويشعر أنه مدعو لخدمة الإسلام-إسلام السلفية، ومحمد عبده، ورشيد رضا، ومدرسة المنار-على المستويات الاجتماعية كافة، وأنه مدعو أيضاً لحمل لواء الرسالة الإصلاحية من أقصى الجزائر إلى أقصاه[56]"، مشكلاً منظمةً أكدت على وجوب استعادة كرامة الإسلام واللغة العربية، من خلال إحياء نظام تعليمي يرتكز إلى مدارس قرآنية متقدمة تتوسل منهجاً إصلاحياً، ويعلي شأن اللغة العربية بوصفها وسيلة للتبادل الثقافي بين المشرق والمغرب العربيين، وأقرت بأن الجزائر جزء أصيل ومتميز من التراث العربي الإسلامي وبأنه يتوفر على وعي سياسي متميز. مشكلاً هذه المنظمة، تبنى ابن باديس وأعوانه برنامجاً اشتمل على معظم القضايا التي سخر أرسلان طاقاته كلها لخدمتها منذ زمن نشوب الحرب. ولم يتمكن أرسلان من اجتناب جاذبية مهمتهم، كما لم يتمكنوا هم-وكانوا أحوج ما يكونون إلى مشورة خارجية-من مقاومة إمكانية الاستفادة منه.

وكان من جانب على قدر من الأهمية أن أقرت المنظمة بأن أرسلان هو أستاذ المبادئ السلفية الموقر وسيد العربية إبداعاً وأسلوباً وبياناً، وبوأته مكانة مرموقة في حقل الأعمال التي كانت تقوم بها المنظمة. ومن جانب آخر على القدر نفسه من الأهمية، اغتنم أعضاء المنظمة دوره الزمني الذي يؤديه. والعلماء الجزائريون الذين عوقت حركتهم أحادية

اللغة وجهلهم الرهيب في السياســة الأوروبية وجدوا في أرســلان مترجمهم للمشهد الأوروبي، وخولوه صلاحيات التخطيط السياسي الاستراتيجي لهم[57].

كان أرســلان صلة وصل وقناة انتقلت من خلالها فِكَرُ المشرق العربي وأحداثه إلى الجزائر. وأخبار تطور المشرق اجتماعياً وثقافياً وسياســياً الذي دأبت القيادة الإسلامية الجزائرية على محاكاته عــلى صعيد نهضتها الخاصة، كانت تنتقل إليها في أغلب الأحيان عبر صفحات صحيفتــي **الفتح** و**المنار**. ومن خلال رغبتهم في الاقتضاء بالتيار الرئيس من التيارات التي تشكل مصدر إلهامهم، اعتنق الإصلاحيون الجزائريون عقيدة العروبة الثقافية، وكانوا "يمجدون المشرق بوصفه موطنهم الثاني[58]". وشــعر ابن باديس أن سمعة **الشــهاب** كانت تتعزز بإعادة نشرها مقالات ســبق أن كتبها أرسلان لصحيفة **الفتح** ولمجلات مشرقية أخرى، إلى جانب نشرها مراســلاته بين الفينة والأخرى[59]. وعلاوة على ذلك، في تدبير كان يستجيب بالتأكيد لمشورة أرسلان، أرسلت جمعية العلماء المســلمين الجزائريين وفوداً إلى مؤتمرات إسلامية متعددة انعقدت في حقبة الثلاثينيات من القرن العشرين.

وبوصفه مستفيداً من الهيبة ورفعة المكانة المرتبطة بالأدوار المتعددة التي أداها خبيراً في الشــأن الأوروبي، وناطقاً باسم السلفية، ورمزاً مشرقياً، كان نفوذ أرسلان السياسي والأخلاقي في أوساط النخبة الجزائرية من ذوي الثقافة العربية من القوة بمكان بحيث أصبح كما يرى مراد: "مستشــاراً حقيقياً موثوقاً، ومعلماً مرشــداً لدى بعض المثقفين، وموجهاً أخلاقياً للضمير لدى بعضهم الآخر، ومستشاراً قوبلت مشورته بامتنان كبير، وخطيباً مفوهــاً ينتشي الناس بخطابه، وناثراً يطيب نثره لــكل المغرمين باللغة العربية الفصيحــة الجميلة. لقد كان شــكيب أرســلان كل ذلك في آن معــاً، وأكثر من ذلك أيضاً[60]".

ولكن بصمة أرســلان المباشرة لم تكن ملموســة دوماً. فقد كان ابن باديس مفكراً أصيلاً وسلك مسلكه الخاص في مسألة العقيدة. وبينما عكس موقف الإصلاحيين من

الخلافة وكفاحهم المناهض للمرابطين (الأولياء والصوفيين) ميول أرسلان الخاصة، فقد كان أقل انجذاباً إلى العلوم الدينية منه إلى العمل السياسي الإسلامي المتأصل في الجمعية. وكان كثير من أولوياته الخاصة جزءاً من الرؤية العامة للإصلاحيين. وشجع توجه العلماء نحو تعزيز موقع الجزائر في إطار عربي إسلامي أوسع مدىً، وعلى سبيل المثال، كما رأى في ابن سعود زعيماً عربياً إسلامياً مثالياً، كذلك أعجب العلماء الجزائريون وأتباعهم الأصغر سناً بحاكم شبه الجزيرة العربية. ولم يستطيعوا تقبل التعصب الذي رأوه في الوهابية، ولكن مقتفين أثر أرسلان، أعجبوا بحيوية ابن سعود وباستقلاليته وبتطبيقه الحازم لمبادئ العقيدة الإسلامية، ومضوا في طريق الإعجاب به بعيداً إلى حيث باتوا يشيرون إليه في صحيفة الشهاب بوصفه "ملك الإسلام[61]".

إذا ما أُخِذَ في الحسبان زعيمها الموقر المحترم وشبكة مدارسها الرائعة وتنظيمها مؤتمر المسلمين الجزائريين في العام (1936م)، فإنه كان يبدو مُسَوَّغاً توقع استمرار نمو جمعية العلماء المسلمين في الجزائر وازدياد نفوذها. ولكن كان يوجد قوى أخرى في المعترك السياسي سعت أيضاً للهيمنة على ذاك القطاع من الجزائر المسلمة، الذي كان مستعداً للتعبير عن استيائه من المجتمع الاستعماري. ففي الدورة الثانية من مؤتمر المسلمين الذي انعقد في العام (1936م)، ظهر شخص مهم ومثير للاهتمام ظهوراً لم يكن مقرراً، وقال بحماسه المتقد المعهود وقد أمسك بقبضة يده حفنة من تراب أمام جمهور بلغ عديده عدة آلاف: "هذه الأرض ليست للبيع. وورثتها هم أبناؤها جميعاً. ولا يبيع المرء وطنه[62]". وكان هذا الشخص هو مصالي الحاج. وقف مصالي خطيباً وكان في وقفته تناقض واضح بينه وبين العلماء البورجوازيين الجزائريين من حيث الأسلوب السياسي والاستشراف الاجتماعي. وفي منافسته هذه معهم سعياً للحصول على دعم جماهيري عام، أصبح في حقبة ما بين الحربين العالميتين المتحدث الجزائري الأكثر شعبية. وكان أحد أهداف أرسلان الرئيسة في منتصف ثلاثينيات القرن العشرين التوفيق بين هاتين القوتين، وتسخير طاقات مصالي الحاج لقضية الإسلام المتشدد بدلاً

من تسخيرها لمصلحة الاشتراكية المتشددة. وكان يتعين النظر إلى أهمية توجه أرسلان في هذا الإطار في ضوء ما كان يمثله مصالي الحاج أصلاً.

كان أول الأحزاب العديدة التي باتت تعرف باسم الأحزاب المصالية حزب نجم شمال أفريقيا، الذي تشكل في مناطق المحبطين المحيطة بباريس التي كان يعيش فيها عمال مهاجرون من شمال أفريقيا[63]. ومصالي الذي كان في تلك المرحلة من نشاطه متشرباً بالاشتراكية الراديكالية، أصبح رئيساً لحزب نجم شمال أفريقيا في العام (1926م)، وبالتعاون مع الحزب الشيوعي الفرنسي حاول تنظيم العمال المهاجرين. وعلى الرغم من عقده العزم على خلق وعي طبقي، فإن حزب النجم باجتماعاته التي كانت تعقد في المقاهي وبوسطه بوصفه ملاذاً للتواصل بالنسبة للرجال المفعمين بالحنين إلى الوطن، والمنحدرين من طبقات مسحوقة، والقاطنين في الأحياء والمناطق الفقيرة من باريس، كان يُعَد نسخة العمال من اتحاد طلبة شمال أفريقيا المسلمين. وحتى على الرغم من أن الحزب ربط رسالته الهادفة إلى تحرير البروليتاريا بالتحرر السياسي من الحكم الاستعماري، فقد كان على ما يبدو بعيداً كل البعد اجتماعياً وأيديولوجياً عن اهتمامات شكيب أرسلان في جنيف. ومع ذلك فإن حزب النجم وزعيمه المتقد حماساً استرعيا اهتمام الأمير، وقال الأمين العام إن أرسلان كان يمول التنظيم في العام (1933م)[64]. وعلاوة على ذلك، كان مصالي نفسه في تلك الفترة ينقل الحزب تدريجياً من موقعه الذي كان يؤكد منه على أهمية الصراع الطبقي، إلى موقع يركز فيه على أمر أضيق نطاقاً وأكثر وطنيةً يتمثل في تحرير الجزائر من فرنسا. وكون مصالي الحاج ذهب في نهاية المطاف إلى ما هو أبعد من ذلك، منتقلاً في رحلة أيديولوجية كاملة من الماركسية إلى الوطنية الإسلامية، لهو أمر غالباً ما كان يعزى مباشرة إلى الأشهر القليلة التي قضاها في صحبة أرسلان.

وقد نشأت الظروف التي جمعت الرجلين معاً أخيراً من تخطي مصالي للحدود التي رسمتها السلطات الفرنسية لناشط محلي. وبعد أن أمضى ردحاً من عمره وهو يزج به في السجون الفرنسية ثم يفرج عنه، وعندما علم أن اعتقاله مجدداً بات وشيكاً، فر من

باريس ويمم شــطر جنيف أوائل العام (1936م). وليس معروفاً ما الذي حدث على وجه الدقة إبان اتخاذه ملاذاً عند أرســلان. وللمرء أن يتخيــل احتدام مواجهة فكرية عارمة، معركة بين صاحبي شخصيتين مســتقلتين كل منهما مُعَتَدٌّ بنفسه كثيراً، أحدهما أســتاذ موطد العزم والآخر تلميذ عنيد. أو ربما لم يحتدم بينهما صراع على الإطلاق، بل نقاش لخيارات سياســية أكثر تحفظاً. وأياً كانت طبيعــة الجدل الذي دار بين الرجلين، فعندما عاد مصالي إلى باريس في شــهر يونيو/ حزيران من العام (1936م) كان رجلاً مختلفاً، حيث استبدل بزيه الأوروبي رداءً وأطلق لحية مرسلة. موجزاً في وصف شمولية التحــول الذي طرأ على مصالي، لاحظ جوليان الآتي: "انســحب الثوري مفســحاً في المجال للمســلم لكي يحل محله[65]". وقد استشــف من هذا التغيير على نطاق واســع الرأي القائل إن أرسلان "حَوَّلَ" مصالي أثناء إقامة الأخير في جنيف[66]. وقد اكتسب هــذا التأويل مصداقية عبر برنامج مصالي الذي تمثل في تأســيس حزب جديد في العام (1937م) أســماه حزب الشعب الجزائري، معلناً عن "القوة الأخلاقية التي لا تقهر"، قوة الشعب العربي، ووضع على رأس غلاف مجلته شــعاراً يقول: "إرادة الشعب تنبع من إرادة الله، وإرادة الله منيعة[67]". وثمة رأي مخالف بعض الشيء صاحبه جان كلود فاتان الذي حاجج في أن مصالي لم يتحول مســاره بجهد من أرسلان، بل أدخل واعياً ومدركاً عناصر من الوطنية الإســلامية في برنامجه السياسي. ويفترض أن يكون قد بدل رموز مظهره الشــخصي أيضاً؛ لأنه استشعر ضرورة اســتجابة المظهر لمقتضيات هذه العقيدة[68].

وليس التأويلان ثنائيي التفرع. فأرسلان، وهو نفسه لا ينفر من المواقف التكتيكية، لم يكن بحاجة إلى جعل مصالي عالماً تقياً ورعاً ليشعر بأنه راضٍ عن برنامجه. فإن كان قد تمكن، في غضون الأشهر التي أمضياها معاً في جنيف، من إقناع مصالي بأن الاستراتيجية الأكثر ملاءمةً للحركة ولمســتقبل الجزائر على حد سواء تكمن في حشد الدعم للجذور العربية الإسلامية للمجتمع الجزائري، إذن لكان ذلك كافياً. ولربما كانت قراءة مصالي الخاصة لتلك المرحلة السياســية ومشورة أرســلان متماثلتين-فالجزائري عدل برنامجه

السياسي سـعياً وراء اسـتقطاب أتباع ومناصرين. وشـجعه الأمير على إجراء ذلك التعديل لضمان توجه مهارات مصالي الشعبوية نحو خدمة التضامن العربي الإسلامي.

وينبغي عدم إعطاء أهميـة كبيرة للتعديل حديث العهد الـذي أجراه مصالي. فقد حافظ حزب الشعب الجزائري بعد إجرائه على تركيزه الأصلي على المساواة الاجتماعية والعدالة، وعلى الأمـر الأكثر تميزاً وهو ذاك المتمثل بتحقيق الاسـتقلال التام. ولكن سـواء أكان تحول مصالي نحو الإسلام تحولاً مبرمجاً محسـوباً، أم تحولاً صادقاً مخلصاً؛ فإن جاذبيته الخاصة، على المستويين الشخصي والعَقَدِيِّ كليهما، تعززت بفعل أسطورة الأشهر التي قضاها إلى جانب الأمير. وجدير بالانتباه أن تبني حزب الشعب الجزائري رموزاً إسـلامية يتناقض مع موقف حزب النجم السابق. وعندما أعلن مصالي في العام (1938م) أن "الشعب الذي يتطلع إلى الاندماج في بوتقة شعب آخر، إنما يقطع الصلة بينه وبـين الله، ويقطع الروابط التي تربطه بتاريخه وأسـلافه وأجياله القادمة"، عندما أعلن ذلك بدا موقفه شبيهاً جداً بموقف جمعية العلماء في تأكيدها الشهير على أن الجزائر المسلمة هي "أمة أبعد ما تكون عن فرنسا بلغتها وعاداتها وأصولها العرقية ودينها(69)". وهذان الموقفان لمصالي وجمعية العلماء شبيهان بموقف أرسلان القائل: "إن الإسلام هو الحصن الحصين الذي يحمي العرب من الانصهار الكامل في بوتقة الإفرنج(70)".

ولكن حتى ارتباط أرسلان بهم لم يستطع أن يحمل المجموعتين على التعاون بعضهم مع بعـض. فمصالي يتوفر على رؤية حادة جداً للنضال الفـوري تحول دون تقبل فكرة دمجه مع السياسـة الأطول أمداً والأكثر حذراً للنهضة الثقافية التي يتصورها أتباع ابن باديس. لقد ربح أرسـلان وخسر في آن معاً من جراء إبقائه على مسافة تفصل بينه وبين الحركات المختلفة التي سـعى إلى إدارتها وتوجيهها. وتمكن من إقناع القائمين عليها في بعض الأمور، كما تمكن من التوسط بينهم عندما اقتضى الأمر، إلا أنه لم يتمكن من إرغام أحد على شيء. وفي النهاية ليس لديه ما يقدمه سـوى سمعته ومكانته. ولم يكن هذا، إلى جانب قدرته على إلهام الآخرين، كافياً دوماً.



مجاهد يتشاور مع آخر: الحبيب بورقيبة مع أرسلان، عام 1946

وبينما يبدو أن ميل أرسلان إلى رؤية السياسة من خلال منظور الإسلام يحد من قدرته على اختيار حلفاء، فإن علاقته مع مصالي أظهرت أنه لم يتوانَ عن دعم من يأنس فيهم الكفاية والمقدرة حتى إن كانت رؤاهم أكثر علمانيةً من رؤيته. وليس معروفاً إن كان، بفعله ذلك، يسعى إلى توظيف مكانته بوصفها محل مساومة. وعلى كل حال، كان أرسلان في منتصف ثلاثينيات القرن العشرين في وضع يجعل ارتباط أي حركة باسمه كافياً لمنحها حظاً من الظهور والشهرة. ولم ترغب الحركات والمنظمات جميعها في الاستفادة من هذه الفرصة، ولكن مكانته آنذاك شكلت جزءاً من جاذبيته بالنسبة لحزب الدستور الجديد في تونس.

مع ميله الطبيعي إلى دستور الثعالبي الأصلي، واظب أرسلان على الثناء على ذلك الحزب حتى بعد تَـأَكُّلِ قاعدته التنظيمية ونفي زعيمه. ولكن اهتمامات الثعالبي في إحياء أمجاد الماضي الإسلامي والحفاظ على التضامن الإسلامي الشامل أدرجت ضمن ما أكد عليه الدستور الجديد في سياق الشخصية التونسية المميزة، وفي سياق تأكيد الدستور على ضرورة حل مشكلات الشعب التونسي الاجتماعية[71]. وكان الحبيب

بورقيبة يحبذ، أساساً، قيام دولة علمانية، ولكن كان مع ذلك ينجذب إلى الإمكانات الديماغوجية للإسلام السياسي. وفي الوقت الذي كان يجادل فيه انتصاراً للدستورية العلمانية، عكف كذلك في أواخر عشرينيات القرن العشرين وأوائل العقد الثالث منه على أخذ زمام المبادرة في تبني قضايا إسلامية عبر دفاعه عن الحجاب بوصفه رمزاً للهوية الثقافية التونسية، وعبر انتقاده للعلماء بسبب إهمالهم مسؤولياتهم الدينية حيال الشعب التونسي بشأن الجنسية الفرنسية[72]. وتبنى على نحو مماثل الهالة المحيطة بشخص أرسلان وتوجهاته. وفي سرده لانطباعاته عن الاجتماع الأول بينهما الذي جرى في العام (1937م) على هامش مأدبة عشاء باريسية أولمها اتحاد طلبة شمال أفريقيا المسلمين، أشار بورقيبة إلى أنه قبل أي أمر آخر أثار أرسلان إعجابه بوصفه مسلماً عظيماً شعر حياله، كما شعر هو حيال الأمير، بتقارب من الطبيعي أن ينعقد بين أخوين مسلمين يلتقيان في بلد أجنبي[73]. وعلى الرغم من أني لا أرمي إلى عرض تأويل ضيق الأفق لما فعله بورقيبة، فإن الإشارة تجدر إلى أن مديحه لأرسلان نشر في الصحف بعد أشهر عديدة من لقائهما، وتزامن مع مواجهة الدستور الجديد لأزمة نجمت عن عودة الثعالبي الباكرة من منفاه الذي كان يفترض أن يقضي فيه أربعة عشر عاماً. وبناء على ذلك كان الارتباط العلني مع أرسلان، المؤيد الداعم لمنافسه، مفيداً لبورقيبة بخاصة في تلك المرحلة.

ويشير رأي آخر إلى أن الرجلين كانا ببساطة من الاختلاف بمكان بحيث لم يكن ممكناً أن تنعقد بينهما علاقة وثيقة[74]. والدستور الجديد المرتكز على الوعي السياسي الذي شرع في تشكيله الثعالبي ورفاقه في عشرينيات القرن العشرين، لم يكن في حاجة إلى أرسلان على نحو يحاكي الطريقة التي كان يحتاجه بها المناضلون المغاربة والجزائريون. وعلى الرغم من أن الموقف كان يقتضي خطب وده وكسب رضاه-ومن أن بورقيبة كان يراسله كلما اقتضى الأمر طلباً للنصح والمشورة-فإن تعاونه مع جماعة الدستور الجديد كان أقل حميمية وتأثيراً من تعاونه مع بعض المجموعات والأطراف الأخرى في المغرب.

ولــدى التمحيص في تصريحات أرســلان وعلاقاته الشــخصية على وجه الإجمال تتولد انطباعات تظهره بمظهر المتلاعب بالمشــاعر الثورية في أوســاط النخبة الشــمال أفريقية. ورأى أحد تيارات الأبحاث والدراســات الفرنسية في أنشطته مصدراً رئيساً للسخط المغربي. ولم يكن هذا الانطباع مقتصراً على مدافعين عنيدين عن الإمبراطورية مثل روبرت بولين من صحيفة **التايمز** (اســتعمارية)، بل كان أيضاً انطباع مراقبين أكثر تعاطفاً. وهم على الرغم من نشرهم مقالاتهم في صحيفة **أفريقيا الفرنســية**، لسان حال الإمبراطوريــة، فقد حققوا قدراً معقولاً من مقتضيات معايير الدراســات والأبحاث والفهم على صعيد تفســيرهم للشــؤون الشــمال أفريقية[75]. ولكن الاستجابة ذات القاعدة العريضة للحملة المناهضة للظهير البربري خلفت ذاكرة حفرت مجراها عميقاً في أذهانهم. وكانــوا في التحليل النهائي مرغمين على النظــر إلى التوترات المتنامية بين فرنســا ومســتعمراتها في شــمال أفريقيا بوصفها تهديداً. وراغبين عن الاعتراف في أن الوعي الإســلامي الذي كان آخذاً في الاســتيقاظ من غفلته، والــذي أرخوا له بحذر شديد، يمكن أن يبرعم ويزهر بســبب حاجة ملموسة تستشعرها المجتمعات الأهلية الإســلامية، فضل أولئك المراقبون أن ينظروا إلى ذاك الوعــي والتقارب الضمني مع العروبة بوصفه أمراً غير طبيعي، وســعوا إلى البحث عن مصادر خارجية للاستفزاز. فعثروا عليها في **الفتح** و**المنار** وعند رشــيد رضا ولدى السوريين وابن سعود وفي الحج، وقد أســهمت هذه الأمور جميعها في إيجاد "انتماءات يكتنفهــا الغموض" بين المشرق والمغرب. ولكن المصدر الأوحد الأكثر أهمية لتســلل الفِكَــر المشرقية إلى المغرب كان الرأي الجماعي لكتاب ومؤلفين على رأســهم شكيب أرسلان، "الذي كان يحتفى به في الأوساط الإسلامية قاطبة بوصفه مستشاراً سياسياً للمجتمع الإسلامي[76]". وكانت تأثيراته تتبــدى، بطريقة أو بأخــرى، في كل مكان، "لورنس العــرب"، حيث كانت آراؤه تنشر عدوى العروبة والوهّابية كما النار في الهشــيم، فتشكل آراء الطلبة التونسيين والمغاربــة في باريس. وكان يدافع عبر آرائه تلك عــن حلم الوحدة، ويصدر توجيهاته وإرشــاداته من جنيف فتتبع في الرباط وقســنطينة[77]. لقد كان "قائداً وشاعراً ملهماً

ومنبراً للعروبة" في آن معاً، وكان يعتد بأقواله وتصريحاته بوصفها تشكل طليعة الرأي العربي الإسلامي[78].

وكان ارتقاء سمعته إلى مكانة مرموقة كالتي بلغها سبباً في الثناء عليه وفي النيل منه في آن معاً. لذلك كان يتملكه شـعور بالفخر إزاء الدور الذي كان يؤديه، وشعور بالرغبة في التبرؤ منه أيضاً. فكان يرحب من ناحية بالتغطية الفرنسـية له ولأنشـطته ويعدها فرصة للتأكيد على أنه يجهر بآرائه (المناهضة للفرنسـيين)، وعلى أنه كان "ينتفض ضد الظلم والجور والوحشـية حيث كان يَثْقَفُها[79]". فعندما كان الفرنسـيون يرغبون في تصنيفه بوصفـه ناطقاً ومتحدثاً مناهضاً للبغي والضيـم، كان يتقبل اتهامه بلعب هذا الدور مختالاً فخوراً. ولكن يشـك المرء في أنه لم يكن يستاء استياء شديداً لاطلاعه على مائة وثلاثة وثلاثين مقالاً عرضت في مطبوعات فرنسية في غضون عام واحد وأفردت للهجوم عليه[80].

ومن ناحية أخرى، كان يزعجه أن نشـاطه أكسبه لقباً غالباً ما كان يطلق عليه وهو "عدو فرنسا القديم الأبدي[81]".

وصرح بأنه ليس عدواً لفرنسا على الإطلاق، بل عدو للسياسة التي تسمح بمعاملة "مسلمي شمال أفريقيا الذين تربطني بهم روابط الدم واللغة والدين، بوصفهم ينتمون إلى طبقة أدنى مستوى من الفرنسيين والأوروبيين جميعاً واليهود وحتى المالطيين[82]". وحاول أن يميز بـين مقته للحكام الإمبرياليين الفرنسـيين، وبين اسـتعداده لتقديم تنازلات وإجراء تسـويات حين تبدي فرنسا اسـتعداداً لتغيير سياساتها. لقد فعل هذا في موضوع المعاهدة السورية، وكان عازماً على فعله في شمال أفريقياً أيضاً. وقال في هذا السـياق: "أنا لا أخاف أن أكون صديقاً لفرنسـا أو لأي بلد آخر لا يستغل المسلمين، إخوتي في الدين[83]".

بقدر الأهمية التي استشعرها أرسلان في تصريحه هذا تبياناً لموقفه، فإن النقطة الرئيسة في معرض رده على الباحثين والصحفيين الفرنسـيين، تمثلت في رغبته في التأكيد لهم أن

في اختياره من قبلهم سـببـاً وحيداً للهياج المغربي يضيعون البوصلة الموصلة إلى فحوى انتقاده، ويتعامون عن حقائق الأوضاع في شـمال أفريقيـا: "إذا كان المواطن الجزائري يشـتكي متذمراً بسبب الحط من قدره، وخفض مكانته الاجتماعية وإذلاله وتجريده من معظم الحريات الإنسانية الأساسية، ومعاملة سـلك العدالة الفرنسية له بوصفه كائناً وضيعاً بكل مـا في الكلمة من معنى... إذا كان يعاني كل ذلـك، إذن يمكن النظر إلى شكيب أرسلان بوصفه عدواً شرساً لفرنسـا، وعلى أنه هو من عَلَّمَ المواطن الجزائري المذكور أن يجهر بصوته، ببسـاطة، سعياً وراء تلطيخ سمعة فرنسا[84]". ورأى أرسلان أن المحاولات التي بذلت من أجل نسبة الردود الداخلية على القمع إليه مثيرة للسخرية: "لقد قيل للجزائريين إنهم ليسـوا مضطهدين وإن كانـوا يعتقدون أنهم مضطهدون، فذلك لأن شكيب أرسلان زرع هذه الفكرة في عقولهم. ولو لم يكن الأمر كذلك لكانوا في غاية السعادة[85]". ولم يكن من تسبب في يقظة المغرب العرب من الخارج، بل فرنسا نفسـها كانت السبب. ولم يكن المسؤول عن ذلك شـكيب أرسلان، بل يرجع السبب إلى عمليات الترحيل والمصادرات ونزع الملكيات والهجمات التي استهدفت الإسلام، والزج بالناس في السـجون والرقابة على الصحافة والسياسة المالية المنحرفة التي كانت تخلق حالة من الاهتياج بين الشعوب الشمال أفريقية. وفي فقرات بلاغية لاذعة نابعة من بصيرة نافذة محفوفة بالكآبة، أعلن أنه يجب على الفرنسـيين أن يفهموا أن أعداء بلدهم الحقيقيين ليسوا أناسـاً على شاكلته، بل هم مواطنون فرنسيون شوفينيون وعنصريون: "المكفوفون الذيـن لا يرغبون في رؤية الضوء والصم الذين لا يرغبون في الإصغاء إلى صوت العقل". هؤلاء هم الأفراد المسـؤولون عن خيانة القضية الفرنسية، وهم الذين يدفعونها نحو نهاية لا يمكن إلا أن تكون كارثية[86].

وفي إنـكاره لأداء أي دور في أحداث شـمال أفريقيا، كان مراوغـاً أكثر منه مقنعاً: "أذكـر أنني قابلت طالبـين أو ثلاثة من الطلاب المغاربة في باريـس وقد خلفوا لدي انطباعاً ممتازاً؛ وذلك نظراً لمسـتوى تعليمهم الراقي المتألق، بيد أنني لم أتبادل معهم قط آراء تتعلق بشؤون سياسية[87]". وعلى أي حال، تشكل الحجج التي ساقها تدليلاً على

أنه يجب أن تتحمل فرنســا المســؤولية عن ردة الفعل المغربية على سياســاتها بعضاً من أفضل ما كتب ونــشر في مجلة **الأمة العربية**. ووظف أرســلان الاهتمام الذي حظي به أحســن توظيف. فقد فضل أن ينخرط في عملية التفاوض مع ليون بلوم بدلاً من إدانة الطبقة الجاحدة من العدو النبيل، لكنه كان يعرف على الأقل أن لجهوده وقعاً وتأثيراً إلى الحد الذي جعل أحدهم يعده: "عدواً محترفاً للاســتعمار الأوروبي". ولم يقتصر الأمر مع أرسلان على استقطاب جيل جديد من المناهضين للاستعمار، بل أثار انتباه خصومه أيضاً[88].

وكما لاحظ منتقدوه الفرنســيون، وكانوا على حق فيما ذهبــوا إليه، فإن ارتباطات أرسلان الشــمال أفريقية لم تكن معزولة عن همومه وبواعث قلقه حيال المشرق العربي. فقد أخذ على عاتقه بصفة شخصية مهمة مد جسور التواصل بين شطري العالم العربي. وعندما جاء في مقال كتبه روبرت مونتاني في العام (1936م) أن قنابل فلسطين انفجرت في تونــس وتطوان، جادت مخيلته بطرح دليل على التكامل المتزايد بين المغرب والمشرق العربيين[89]. وعندما اتخذ الحبيب بورقيبة لنفســه مجلســاً مجاوراً لأرســلان في المأدبة التي أولمها اتحاد طلبة شــمال أفريقيا المسلمين بعد ســنة من التاريخ المذكور آنفاً، ورأى زميله في مجموعه الدستور الجديد، الدكتور ثامر، منخرطاً في محادثة مفعمة بالحيوية مع أحد المصريين أثناء انشــغال ممثل العلماء الجزائريين في مناقشة أمور مع أحد السوريين، استوقفته الأجواء الأخوية الحميمية الساحرة الناجمة عن وجود أرسلان[90].

وقد شكل العقد الثالث من القرن العشرين، لا سيما الشطر الأول منه، أوج السيرة العملية لأرســلان، حيث بدا لبعض الوقت مجســداً للمناهضة العربية والإســلامية الشــاملة للحملة الاستعمارية. وكان يمارس نفوذه أساســاً من خلال اتصالاته، بصفة شخصية وعبر الرسائل، مع مناضلين أفراد. وعلى الرغم من أن مظالمهم كانت متجذرة في ظــروف حياتهم المحلية والإقليميــة المحددة، فقد أقنعهم أرســلان بوجود روابط مشــتركة تجمعهم وتوحدهم، ووســع بذلك مدى قدرتهم على استشراف الأمور، كما وسع آفاق آمالهم، وقدرتهم على استشعار ما هو ممكن. وبوصفه رجل مهام ومبادرات

متجولاً كان يظهر في اللحظات الحاسمة في مناطق متفرقة من العالم العربي الإسلامي، فقد حظي باحترام من الجهات كافة. فبالنسبة لمكي الناصري، المغربي، كان أرسلان "رجل الساعة في العالم العربي الإسلامي"، أما عند رشيد رضا في القاهرة، فقد كان "الأمير شكيب أكبر رجال السياسة من زعماء الأمة العربية، وأشهر كتابها الذائدين عن حوضها، والمنافحين عن حقوقها والعاملين لمصالحها[91]". والثناء في العلن لا يعني طبعاً بالضرورة انسجاماً وتوافقاً في السر، فقد واجه أرسلان معارضة مريرة حتى في ظل انتصاراته. ومع ذلك كان يضفي قيمة كبيرة على أي إنجاز، وكان ذلك ضرورياً لحشد التأييد له وذلك من أجل عدم تقويض القضية التي كان يمثلها.

وبينما كان يراكم أرسلان حالات الاستحسان من المغرب والمشرق على حد سواء، فإن مكانته في التاريخ السياسي لكل من المنطقتين مختلفة تماماً. لقد ترأس الوفد السوري الفلسطيني إلى اجتماعات عصبة الأمم، لكن لا يمكن أن يطلق عليه لقب الرجل التكتيكي البارع على صعيد حركات الاستقلال المصرية أو السورية. ولكن في المغرب العربي، بخاصة في المغرب، المسحات والإيحاءات الدينية للسياسة، وغياب الطوائف المسيحية عن المكونات الأصلية للسكان - المكونات التي سبب حضورها في المشرق العربي صعوبات لرجل له إصرار أرسلان على التوجه الإسلامي - وتركيبة الشباب المناضلين على وجه العموم توافقت وتساوقت تماماً مع رؤى أرسلان وأهدافه العامة، ومع خبراته المتراكمة، وبراعته السياسية فأعطته دوراً خاصاً. وإنجازات أرسلان التي حققت نجاحاً فورياً لجهة مناهضة قانون الظهير البربري جعلت اختيار المغاربة له بوصفه مخططاً استراتيجياً لهم راسخ الأساس. وعزز هذا النجاح جاذبية أرسلان بوصفه معلماً مرشداً وملهماً، وتوسع مدى جاذبيته وتأثيره في المغرب، أكثر مما فعل في المشرق، ليشمل رموزاً وشخصيات بارزة خارج نطاق جمهوره الطبيعي المتمثل بإصلاحيي التيار السلفي. وكان أقرب المغاربة المقربين إليه أولئك الذين تفرنسوا تماماً. فعلى سبيل المثال، اكتشف هالستيد عبر المقابلات التي أجراها أن الوزاني، على الرغم من انغماسه كلياً في نظام الجامعات الفرنسي، تعلم من أرسلان أكثر من تعلمه من

المؤسسات التعليمية الرســمية. والديماغوجي، مصالي الحاج، صاحب الموقف المغاير لمواقف أبناء مجتمعه قَبِل ســواء بوســاطة الإقناع أو تبعاً لخياره الشخصي آراء أرسلان فيما يتعلق بالإسلام الســياسي. وبورقيبة الذي كان يصور غالباً بوصفه مثالاً للعقلانية السياســية والعلمانية، رأى من المفيد أن يربط نفسه بسمعة أرسلان. ولم يحاول أرسلان تحديد مضمون الأيديولوجية الوطنية في البلدان الثلاثة، إلا أنه سعى إلى توجيه طاقات أصحــاب الكلمة والمتحدثين المختلفــين فيها بطريقة من شــأنها أن تحقق أكبر فاعلية سياسية، وتضمن في الوقت نفسه وجود مكانة مرموقة لمبادئه العربية الإسلامية العزيزة على قلبه داخل مجتمع المستقبل. وكان اهتمام أرسلان في تلك المرحلة موجهاً نحو اختبار تلك المبادئ عن كثب.

الفصل السادس

سلامة التقليد

اَلْفِكَرُ السياسـية تصنع حقائقهم. غالباً في تحدٍ سـافر للمنطق، يحتجزون رجالاً وهم بدورهم محتجزون من قِبَلِهِمْ، مكونين عالماً من صنع مخيلاتهم، ليصلوا بأنفسهم إلى الإنهاك في نهاية المطاف مكبلين بالمشـكلات الروتينية التي لم يأخذها في حسبانهم أولئك الذين نسجوا الأسـطورة، أو ليعيشوا في الماضي ويكفوا عن التأثير في الناس بما فيه الكفاية.

فؤاد عجمي[1]

اسـتناداً إلى الدليل الذي سـقته، يبدو جلياً أن روابط الجامعة الإسلامية أقوى وأكثر أهمية من أواصر الوطنية.

أرسلان[2]

خلال السـنوات الفاصلة بـين الحربين العالميتـين الأولى والثانية، أولى أرسـلان الإسلام المسيس أهمية جوهرية على صعيد إحياء المجتمع وتمكينه من مقاومة الإمبريالية الأوروبية.

وتناول القضايا الكبرى الرئيسـة المثيرة للجدل عبر إخضاعها للمعايير الإسلامية، مبدياً قدراً أقل من الاهتمام في أي منطقة عربية بعينها، مقارنة بالقدر الأكبر من الاهتمام

الذي أولاه العالمَ العربيَّ الإســلاميَّ على وجه الإجمال. وأصبح مشــاركاً أيضاً في هذه المجادلات والمماحكات، وهيأ مكانة خاصة لنفسه بوصفه قوة إلهام وتحفيز.

وتزامناً مع اســتجاباته التكتيكية لمجموعة متنوعة مــن المواقف الإمبريالية، طرح أرســلان فكرة إجراء فحص ومعاينة للمشكلات الداخلية للعالم الإسلامي، ووصف علاج للعلل التي ابتلي بها المسلمون. وعلى الرغم من أن أرسلان لم يكن مفكراً لاهوتياً تأملياً أو مبدعاً، فقد اســتقطبت كتاباته وتعليقاته الإســلامية طيفاً واسعاً من جماهير القــراء. وكتابه الذي انطوى على انتقادات لاذعة وعنوانه: **لماذا تأخر المســلمون ولماذا تقدم غيرهم؟** هو إســهام دائم ومتجدد منه، فقد طبع ثلاث مرات في حياته، وأعيدت طباعتــه في العامين (1965م) و(1981م)[3]. ينتمي هــذا الكتاب والمقالات الكثيرة التي نشرها أرسلان عن موضوع مكان الإسلام في المجتمع الحديث إلى التيار التسويغي للإصلاح السلفي[4]. وبينما كانت نقطة انطلاق أرسلان تتماهى مع منطلقات محمد عبده ورضا، فإن منهجيته، إن جاز لنا أن نسميها كذلك، كانت مختلفة عن منهجيتيهما، فهو لم يطرح رؤية نقدية في أمور الفقه التقليدية، ولم يسهم في التفسير، ولم يتطرق إلى موضوع مراجعة الأحاديث الشريفة والنظر فيها. وإنه لمن الإنصاف لأرســلان أن يتوصل المرء إلى استنتاج يفيد بأن أسلوبه كان أقرب إلى أسلوب جمال الدين الأفغاني منه إلى أسلوب محمد عبده. ولم يكن لدى أرسلان من الوقت ما يتيح له أن يتبحر في الدلالات الدينية، ولم تكن كتاباته عن الإســلام بعيدة بحال من الأحوال عن الأحداث السياســية التي راقبها عن كثب. وإن كان افتقاره إلى الإحاطة بالمعرفة اَلْعَقَدِيَّةِ دفعه أحياناً إلى الانخراط في أكثر الأمور ضحالةً في معرض الدفاع عن العقيدة، إلا أنه لامس كذلك أكثر القضايا الاجتماعية حساسيةً وتطرق إليها.

وعلى الرغم من أن أرســلان طور تدريجياً برنامجاً سياســياً غامضاً بالنسبة للوحدة العربيــة، فــإن إيمانه بأولويــة الجامعة الإســلامية كان هو المهيمن. وترميم النســيج الاجتماعي والتأكيد على الكرامــة في المعترك الدولي، والرأي رأيه، يتحققان من روابط الإســلام بصورة طبيعية أكثر مما يتحققان من روابط العروبة. ولا تجد رؤيته للمستقبل

ضالتها في بناء نظام جديد، بل في إحياء النظام القديم وتنشيطه. وفي أدبيات الإصلاح السلفي، يتطلب هذا تقوياً للأسس التي تشكل المكونات الأصلية للمجتمع الإسلامي، والوقوف على الأسباب التي خلفت المجتمع في الحال التي كان عليها من التشوش.

واستناداً إلى نقطة الانطلاق نفسها التي انطلق منها محمد عبده ورضا، أقر أرسلان بالتخلف القائم في العالم الإسلامي بالمقارنة مع الأوضاع في كل من أوروبا الغربية واليابان، إلا أنه عزا ذلك إلى إخفاقات المسلمين، لا إلى خلل في دينهم. وقد عُثِرَ على دليل يبرهن على صحة هذه الفرضية من الأدلة المستمدة من الماضي، ودافع أرسلان عن سلامة التجربة الإسلامية وصلاحيتها عبر استحضاره السجل التاريخي، وإشارته بكل فخر إلى العصر البطولي الذي شهده صدر الإسلام عندما "فتح العرب نصف العالم في نصف قرن"[5]. وقد تمكنوا من تحقيق ذلك بسبب تمسكهم بالتعاليم القرآنية، واستعدادهم للتضحية بأرواحهم نصرةً للدين، وثباتهم في مواجهة المصاعب والخطر. لقد كان عصر الرجال الشجعان عندما كان "يقوم واحد للعشرة وربما للمئة من غيرهم[6]". وكانت معالجة أرسلان للفتوحات الإسلامية وتطور الحضارة الإسلامية المرموقة تطرح دوماً على هذا النحو. إذ كان يمجد فضائل الرجال ويتجنب الخوض في مناقشة تعقيدات العقيدة، ففي العمل يكمن الإنجاز. "وعندما يتفانى الناس ولاءً ويتقدون حماساً ويتحلون بالشجاعة ويمتلكون صدق العزيمة"، يمكنهم أن ينجحوا في أي أمر[7]. وعليه لا تعود الحال تقتضي مزيداً من التحليل.

وعلى نحو مماثل، في مناقشاته المتكررة لإنجازات الحضارة الإسلامية المتحضرة، لم يربط أرسلان بين محتوى الرسالة الدينية وبين المجتمع الذي أطرها. وأكد عظمة الماضي عبر وصفه روعة الأبنية واستعراضه المدن الكبيرة المزدانة والمزخرفة، وبقياسه أبعاد الفتوحات العسكرية. وكان يلوذ بالماضي التماساً للدعم النفسي والمعنوي لقرائه وله أيضاً، عبر تزويدهم بأدلة قاطعة تثبت أن منظومتهم الدينية كانت تتوفر في الماضي على الهيمنة الزمنية وعلى أسباب المجد والفخار.

ولكـــن لماذا انحدرت العظمة، المعترف بها عالمياً، إلى الدرك الراهن من الانحطاط؟ وفي معالجة هذه المســألة، لم يكن أرسلان راغباً في إعداد سلسلة تاريخية متصلة تشير إلى انحدار المسلمين، كما لم يكن معنياً بتحليل الأسباب والنتائج المرتكزة إلى أحداث محددة أو المســتندة إلى اتجاهات عامة، بل كان معنياً ومتأثراً بأزمة الإســلام القائمة في عهده، وتلك الأزمة هي ما كان يرغب في شرحها وفي شجب مفتعليها بشدة.

وكان حكم الأوروبيين المباشر لبلاد من بلاد المسلمين وهيمنتهم عليها أحد تجليات تلك الأزمة. وكان الغرب دوماً موجوداً في أزمات المســلمين، وتم صده بنجاح حتى عهد قريب مضى، لا بل وهُزِمَ أيضاً. وبناء على ذلك، يتعين على المســلمين أن يتحملوا مسؤوليتهم الرئيســة عن تراجعهم الراهن. وما كان للقوى الغربية أن تحقق نجاحاً في إخضاع العالم الإســلامي لولا الأمراض الداخلية التي تنخر الجســم السياسي بشدة. وبالنسبة لأرسلان، تحديد المســؤولين عن تخلف العالم الإسلامي من السهولة بمكان وهم، والرأي رأيــه، غُلَاةُ المحافظــين التقليديين والمتغربون العلمانيون. وقد أســهم أصحاب الفئة الأولى في هذا التخلف عبر تفســيراتهم المغلوط فيها للإسلام، وعكفوا عــلى ازدراء العلوم كافة، بخاصة الفلســفة، وهم يدينون جهــود المثقفين والمفكرين ويصفون أعمالهم بأنها ممارسات كفار زنادقة[8]. وأخفق الرجعيون في فهم أن "الإسلام هو من أصله ثورة على القديم الفاســد"، وأدوا بالإسلام بســبب عقليتهم المنغلقة إلى حالة من الجمود الذي يناقض طبيعته[9].

وأدان أرسلان الجبريين كذلك بوصفهم أناساً جهلة أخفقوا في فهم الدينامية المتأصلة في صلب الإســلام، وما تقتضيه من استناد الحياة إلى العمل الذي تتناسب النتائج التي تنجم عنه مع الجهود المبذولة. والدراويش، كما يراهم أرســلان، "ليس لهم شــغل ولا عمل، وليس في الواقع إلا أعضاء مشــلولة في جسم المجتمع الإسلامي[10]". وللذين وطنوا أنفسهم على نبذ العمل وبذل الجهد في الحياة الدنيا لصالح الآخرة والتأمل فيها، وجه أرسلان رسالة ازدراء خصهم بها: "فإن كنا طول العمر لا نتكلم إلا فيما هو عائد للآخرة، قالت لنا الأرض: اذهبوا توّاً إلى الآخرة، فليس لكم نصيب مني[11]".

ومن أجل حث فاتري الهمم وجعل النشاط يدب في أوصالهم وفي سبيل استنهاض عزائم غير المبالين، حاول أرسلان أن يبين التلازم بين بذل الجهود الإيجابية وبين تحقيق الإنجازات الإسلامية. وكان متمكناً من عقد مقارنات تاريخية بمنتهى البساطة. ومثال على ذلك ما كتبه عن إحباط النبي (صلى الله عليه وسلم) من جراء نكسة معركة أحد، لكنه علق على ذلك بقوله: بسبب إيمان النبي (صلى الله عليه وسلم) وشجاعته كان هو المنتصر في النهاية[12]. وعليه فإن ما تحقق في صدر الإسلام يمكن أن يتحقق لمسلمي القرن العشرين. إن هم لم يفقدوا الأمل، وإذا ما حافظوا على إيمانهم، وإذا ما قدموا تضحيات شخصية، إذا ما فعلوا ذلك كله سوف تكتب الغلبة لهم. مستفيضاً في استعراض هذه الأنواع من المواعظ ومقتصداً في التحليل، لم يحاول أرسلان أن يعيد التفكير في عقائد الإسلام، إذ لم يجد أن ذلك كان ضرورياً.

والبحث والتفكير في الأمور العقدية كانا من شأن آخرين غيره. أما هو فلديه حل مباشر وبراغماتي وواضح وهو مدرج في أدبيات محمد عبده، ويتمثل في الدمج الجريء بين مذهب المنفعة وبين التنزيل. وورد فيما كتبه أرسلان الآتي: "الإسلام مرن بما فيه الكفاية إلى الحد الذي يجعله قادراً على التوافق والتناغم مع أي موقف في العصر الحديث[13]".

كان محمد عبده قد بين أن "كل أمر مفيد اجتماعياً يعد أخلاقياً... ما لم يتعارض مع أحكام التنزيل وتعاليمه تحديداً". وأضاف أرسلان إلى ذلك ملحقاً شديد الوضوح لا لبس فيه حين قال إن كل ما يحقق المصلحة العامة لا يمكن أن يتعارض مع مقاصد الإسلام: "الذين يفهمون الإسلام حق الفهم يرحبون بكل جديد لا يعارض العقيدة، ولا تخشى منه مفسدة. ولا أظن شيئاً يفيد المجتمع الإسلامي يكون مخالفاً للدين المبني على إسعاد العباد[14]".

وفي المحصلة يمكن للمجتمع أن يحصل على ما يحتاج إليه، فحقيقة الاحتياج تسوغ الاكتساب. وبناء على ذلك كان أرسلان يتقبل النهج العقلاني بوصفه وسيلة لتحقيق

التقدم الاجتماعي. ولم يكن أرســلان يوافق على اســتعمال العلمانيين لهذه الفكرة، لكنه كان أكثر اهتماماً من رشــيد رضا في استعمال المسعى الإنساني لتحقيق أغراض سياسية. وبتأكيده أن "إرادة الإنسان هي الوسيلة الأساسية لتحقيق أهدافه"، كان أرسلان قادراً على تأمين قدر معين من الإقرار الصريح بمشروعية ســورية المستقلة، أو بفكرة الحالة الثوريــة الجزائرية طبقاً لتعريف مصالي الحاج لها[15]. وبــدا أحياناً أن انصياعه للعامل البشري قد تخطى حدود الإلهام. يقول أرســلان: "يقول بعض الناس: مالنا وللرجوع إلى القرآن في ابتعاث همم المسلمين إلى التعليم؟ فإن النهضة لا ينبغي أن تكون دينية، بل وطنية قومية كما هي نهضة أهل أوروبة! ونجيبهم أن المقصود هو النهضة، سواء كانت وطنية أم دينية[16]". وما قاله أرسلان لنفسه بوصفه سياسياً عندما صادق على المعاهدة الفرنســية السورية في العام (1936م)، يمكن أن ينســحب عليه أيضاً بوصفه "رجل دين": دعونا نتجنب القول إن شــكيب أرسلان حالم وليس في وسعه استشعار الأمور عملياً[17].

أتاح اســتشراف الأمور على هذا النحو لأرسلان أن يجعل من الأخلاقيات الدينية مــا كان يعتقد أنه يجب أن تكــون عليه في حينه-إيجابية واســتشرافية. فإن كان الوزن الساحق للاحتلال الأوروبي متفوقاً بالقوة وغالباً على أمره، وقد جاء في القرآن الكريم: "إن الله لا يغــير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفســهم[18]". ألم يبين الأفغاني أن الإســلام مناسب لكل جانب من جوانب الحضارة الحديثة من دون أن يشوش إيمان المؤمن عليه؟ وبناء على ذلك فإن أولئك المســلمين "الجغرافيين" الذين أهملوا العمل لصالح الدين كانوا يخالفون الدين، والذين يشعرون بالســعادة من جراء أدائهم الطقوس المقررة، لم ينفذوا الالتزامات الكاملة التي تقتضيها الشريعة. إنهم مذنبون بســبب عدم مبالاتهم، ودحضــت حججهم المراجع الدينية الحديثة. يقول أرســلان: "أنــا أقول إن مقاصد اللامبالين تتناقض مع مقاصد جمال الدين (الأفغاني)[19]".

ولكي تزدهر أحوال المسلمين كما أراد لهم الله، يجب عليهم أن يعملوا وأن يضحوا. وقد وجه أرســلان إلى المجتمع الإســلامي دعوة للعمل الذي يمكن وصفه بأخلاقية

الجهاد الحديثة التي يجري التأكيد فيها على المسؤولية الفردية لكل مؤمن: "مستعينين بالانضباط المستمر، وبالعزيمة والإصرار على السير قدماً، وبالفهم الصحيح لأساسيات الإيمان تبعاً لما نصت عليه تعاليم القرآن الكريم دعونا نحاول ولنواصل جهادنا"[20]. هذه هي الطريقة التي يتوافق تبعاً لها الإسلام مع الحضارة الحديثة. فإن تمكن المسلمون من استرداد روح بذل الجهد الإيجابي، عند ذلك يكون في وسعهم أيضاً اكتساب المهارات التقنية التي تحتكرها أوروبا حالياً. ولم تكن هذه المهارات إلا نتاجاً للجهود التي بذلها الأوروبيون وأهملها المسلمون. "والأوروبيون، شأنهم شأن المسلمين، هم بشر ليس إلا[21]".

كان أرسلان مصلحاً من دون أن يطرح نوعاً من إعادة الصياغة، وحاول أن يوصل إلى الناس فهماً عملياً سليماً للإمكانات التي أتاحها الإسلام دون محاولة الاستكشاف العميق جداً لحدود التنزيل المحتملة. وقد أكد على أن الإسلام قوة إيجابية ديناميكية، وأدان الذين يقولون ما هو خلاف ذلك أو يتصرفون تبعاً لما هو مغاير له، ووظف العقل دعماً وتأييداً للعمل الذي يحض عليه، وما برح يحاجج في أن العمل أُتِيحَ لأن العقل والمنطق يتطلبان تحقيق ازدهار المجتمع الإسلامي. ولكن في النهاية يتوفر الدين على مسوغات ذاتية تبرر وجوده: "وكل منصف يحكم أن الدين إذا أقيم على أركانه كان مبعثاً للأخلاق الفاضلة، لا يقوم مقامه غيره في إحيائها في صدور الناس[22]". وكل ما تدعو الحاجة إليه مباح ومتاح. ومن شأن التقيد بمقتضيات أخلاقيات الجهاد أن يعيد المسلمين إلى مكانهم الصحيح في العالم. وفي الوقت الذي أتاح فيه أرسلان نطاقاً واسعاً للأمور المباحة والجائزة في المجتمع الإسلامي على وجه الإجمال لكي يحقق التقدم، فإن تشجيعه لحرية العمل لم يكن غير محدود. فإن كان التمسك الأعمى بالتقاليد التي أسيء تأويلها قد ضعضع الحيوية المتأصلة في الإسلام، فإن تهديداً أشد وطأةً شكله أولئك الذين "تخلوا عن التقاليد واعتقدوا أنهم يقودون قافلة التقدم والنجاح[23]". لقد كان هؤلاء المرتدين "المضللين باسم التقدم". وأمثلة عليهم نجدها في كل من طه حسين ومحمد حسين هيكل والدكتور الشهبندر، وعلى رأسهم جميعاً مصطفى كمال

أتاتورك[24]. ويرى أرسـلان أن هـؤلاء أعداء أيضاً ولا بد مـن مجابهتهم والتصدي للتحديات التي فرضوها.

كانت القضية، كما رآها أرسـلان، تتمثل في واجب الإسلام في توليد يقظة اجتماعية جديدة، فقد نظرت الحلقة المؤثرة من المثقفين الليبراليين المصريين إلى الإسـلام بوصفه عائقاً يحول دون تحقيق العملية الوحيدة التي من شـأنها تنشـيط المجتمع، وتحديداً عبر "ضخ القيم العلمانية المسـتمدة من الليبرالية الأوروبية التي شـهدتها أوروبا في القرن التاسـع عشر[25]". وفي بثهم قِيَماً مـن هذا القبيل، انتقدوا الأسـاليب الأدبية المهترئة (وكان أحد الذين اسـتهدفهم طه حسين في هذا الإطار أحمد شوقي)، وتخلوا عن هوية مصر الإسلامية، وأخضعوا التراث الأدبي الديني بما في ذلك القرآن الكريم إلى التدقيق والتمحيص باستعمال أسـاليب نقدية جديدة. وكان أرسلان يبغضهم ويستنزل اللعن عليهم.

وقد تبدو للوهلة الأولى معارضة أرسلان، وهو الساخط على الأوضاع التي كانت قائمة، للجماعات التي التزمت بتغييرها أمراً يفتقر إلى التسـاوق المنطقي. وأرسـلان نفسـه لم يكن يفتقر إلى بعض آثار الفلسـفة الوضعية، والمجتمع الذي دعا إلى تكوينه شـكلته روح السعي الإنساني والإيمان بالتقدم. وربما كان متوقعاً أيضاً أن يكون لرجل له خبرة أرسلان في أوروبا رغبة في أن يستحسن المجتمع الإسلامي شيئاً من الممارسات الغربيـة المنتقاة ويتبناها. إلا أن خبرة أرسـلان في أوروبا كانت نتاج تجربة رجل عاش فيهـا غير أنه ليس منها. وخلافاً لهيكل أو طه حسـين وكلاهما حازا درجات دراسـية عالية من جامعة السـوربون، لم يشارك أرسـلان في عملية المثاقفة التي بثت الإعجاب بالقيم الأوروبية. وكان تأكيده على "أن الضرورة تقتضي أن يظل الشرق شرقياً" تعبيراً عن رفضه الجريء المتحدي لأولئك الذين تصوروا التجديد استنسـاخاً للأسـاليب الأجنبية[26]. وأفاد أرسلان من طلاقته في اللغة الفرنسية وذلك في وضع جماهير القراء الفرنكوفونيـين في صورة نفور أبناء الشرق من أوروبا، وعدم تشربهم تياراتها الفكرية. وتجاوز إلحاحه في حملته الدعائية وشـجبه المشـوب بالازدراء حدود الدفاع عن مجتمع

بعينـه في مرحلة تاريخية محددة. لقد كان ما قام به أرسـلان دفاعاً عن عالمه وعن تراث جمال الدين الأفغـاني ومحمد عبده والتراث العثماني، التراث الذي كان وريثاً مخلصاً له، ولكن بأسلوبه الخاص. وكان يعتقد أنَّ عليه أنْ يقاوم الغرب بسبب ما فعله لذاك العالم (عالمه)، وبسـبب تهديده لشرعية ذاك الإرث. لقد أغلق ذلك العالم على نفسه مؤكداً أن إحياءه إنما يتأتى من التطبيق الرشيد لمنهجه، لا من خلال المناهج المستوردة.

ويرى أرسلان أن المناهج المحلية مفضلة على المناهج الأجنبية لأنها تناسب مجتمعاتها التي تتوفر عليها. وأكد في هذا السياق أن تمايز نظم العالم الثقافية أمر مرغوب فيه، فقد أبلى الأوروبيون بلاء حسناً حين عملوا في ظل النصرانية، وازدهر اليابانيون في ظل بنية دينية معقـدة. وكان ينبغي أن تجري الأمور على هذا المنوال؛ ذلك لأن التعددية الثقافية في بوتقة منظومة بعينها أمر غير مناسب بالتأكيد.

ومن ثَمَّ، فإن التراث الإسـلامي الديناميكي يتوفر على قيم ثقافية وأخلاقية يتعين الحفاظ عليها لأنها مناسبة للمجتمع الإسلامي. ويرى أرسلان أن من شأن مقترحات الليبراليين المتفرنجين أن تنسـف الإسـلام بوصفه نظاماً اجتماعيـاً، وذلك عبر تجريد المسلمين من مناهجهم التي تعد ضماناً لتميزهم.

وبالنسـبة لأرسـلان، المنهج يعني تراثاً ثقافياً متراكماً يحقق غايات متميزة أخلاقياً ومتماسكة اجتماعياً في آن معاً. وأدبياته الجهادية تؤطرها المنظومة الأخلاقية الإسلامية:

وأياً كان المجال الذي أتاحته الشريعة لاكتساب العلوم والفنون، ولتحقيق السلطة والمجـد، فإنه ينبغي اتباع الاتجـاه المعاكس عندما يتعلق الأمر بقضايـا اللياقة وآداب السلوك والتواضع الشخصي والنقاء الأخلاقي... ونحن نعتقد أن الشريعة تحرم تحريماً شـديداً الفسـوق والدعارة والفجور، ويجب أن تتلازم الحرية مع سلسـلة من آداب السلوك، وينبغي أن تواظب على تحريم كل ذلك. والسلوك الذي يدعوه بعض المتغربين من المشارقة سلوكاً حضارياً وضرورة اجتماعية ليس حضارياً ولا تقتضيه الضرورة[27].

وإنه لأمر يخلف شيئاً من الصدمة أن تقرأ ما خطه رجل كوزموبوليتاني، عاش أكثر من عقدين من عمره في كنف أوروبا، ويدعو فيه إلى المواظبة على منع الرقص المختلط بين الجنسين لأنه ينطوي على "احتكاك، ولأن الاحتكاك هو أول مرحلة من مراحل الزنا[28]". ولكن أرسلان رأى في انتهاك الوصايا الأخلاقية للإسلام مقدمة لانحلال المجتمع الإسلامي نفسه. كما رأى أن تحقيق الصالح العام يقتضي صَوْنَ كل ما هو مميز لدى الأمة حتى مع واقع السماح بتحقيق تقدم عقلاني:

> أما الجاحد فهو الذي يأبى إلا أن يفرنج المسلمين وسائر الشرقيين، ويخرجهم عن جميع مقوماتهم ومشخصاتهم، ويحملهم على إنكار ماضيهم، ويجعلهم أشبه بالجزء الكيماوي الذي يدخل في تركيب جسم آخر كان بعيداً فيذوب فيه ويفقد هويته. وهذا الميل في النفس إلى إنكار الإنسان لماضيه واعترافه بأن آباءه كانوا سافلين وأنه هو يريد أن يبرأ منهم، لا يصدر إلا عن الفسل الخسيس، الوضيع النفس، أو الذي يشعر أنه في وسط قومه دنيء الأصل... وهو مخالف لسنن الكون الطبيعية التي جعلت في كل أمة ميلاً طبيعياً للاحتفاظ بمقوماتها ومشخصاتها، من لغة وعقيدة وعادة وطعام وشراب وسكنى[29].

وفي حملته الرامية إلى المحافظة على مجموعة كاملة من مكونات الأصالة الثقافية الإسلامية، اصطدم أرسلان مع الليبراليين العلمانيين، وعارضهم عبر تأكيده على صحة حججه التي كان يسوقها تدليلاً على الأصالة الثقافية التي استعرضت أعلاه، وجعلهم هدفاً لحملة دعائية إعلانية تسخر استنهاض العواطف للتشهير بهم. وكانت حملته وحججهُ ضعيفة فكرياً، لكن كانت ذات أسلوب يبعث على الرضا، لا ريب في ذلك. ولم يتبع أرسلان مطلقاً منهج طه حسين في التحقق من موثوقية الشعر الجاهلي، وفي دراسة السور القرآنية الكريمة دراسة نقدية تحليلية مفصلة. ومتهماً المصريين بانتحال كتابات المستشرق مارغليوث النقدية، زعم أرسلان أن كل ما قام بعمله طه حسين كان مجرد محاولة لتحقيق الشهرة لنفسه[30]. وانطلاقاً من اقتناعه بصوابية نسخته الخاصة من الماضي الإسلامي، لم يسمح أرسلان بالعبث بها من قبل "متفرنجي" القاهرة. وزعم أن

ما كتبوه لم يكن نتاج آراء ســديدة، وأن ما كتبه هو كان تاريخاً واقعياً. ووصف ســلامة موســى ومن لف لفه بأنهم "شــعوبيو العصر" الفوضويون العازمون على التقليل من شــأن تميز الإنجازات العربية، وأنه يتعين، نظراً لوقاحاتهــم، التعامل معهم بوصفهم أعداء[31].

ولكــن كان يوجد عدو أكــبر. فقد كان أرســلان يرى أن القوة الأشــد خبثاً بين العلمانيين المتفرنجين هي تركيا الكمالية، حيــث تعد الأغلاط التي اجترحها القوميون العلمانيون في القاهرة واهية وباهتة إذا ما قورنت بالجرائم التي ارتكبت في أنقرة. ولم تثر قلق أرسلان قضية إســلامية بقدر ما فعل البرنامج الكمالي الإصلاحي، وكرس معظم ما كتب في أواخر عشرينيات القرن العشريــن وأوائل ثلاثينياته لهذا الموضوع أكثر من أي موضوع آخر. وبدا الأمر كما لو أن كمال أتاتورك كان يئد ماضي أرســلان، فرد على ذلك بغضب مستدام. لقد طُعِنَ في صميم معتقداته الجوهرية الأساسية، وجرى تهديد مفهومه المتعلق بالنظام الاجتماعي والأخلاقي المناســب. وغلفت معالجته للمســألة الكمالية هجومه المضاد الكامل الذي كان يستهدف المتفرنجين.

استنكر أرسلان المقترحات "الكمالية الإلحادية" كلها تقريباً[32]، وادعى أن الحكومة في أنقرة (التي يميز بعناية بينها وبين الشعب التركي) كانت تشن هجوماً مباشراً وعديم الرأفة على الإســلام، وكانت كتاباته تحفل بتعابير من قبيل "تدمير أركان الإســلام من قبل الكماليين"، و"تدمير أنقرة لروح الإسلام في تركيا"، و"قضاء الكماليين على أسس الإســلام"[33]. وبالنسبة لأرســلان، كان خطر هذه السياسات من النوع الذي يمكن تلخيصه بــالآتي: "ثورة أنقرة على الخلافــة، وعلى المبادئ الإســلامية، وعلى التقاليد الشرقية، لا بل على الدين وعلى الله[34]".

ونشر هذه الفِكَرِ كفيل بتشــويه الإســلام برمته، وكانت مهمة أرســلان تتلخص بمحاولة احتواء الوباء وإظهار شروره: "الإشفاق على وحدة المسلمين يقضي أن نقارع هذا الغلو وهذا التهور بكل استطاعتنا[35]". وأشار أرسلان إلى أنه جرى تخويف بعض

الناس وإرهابهم وإسكاتهم من قبل دكتاتور أنقرة الذي لا يعرف الرحمة. وكان أرسلان يجاهر في مناهضته للسياسة الكمالية: "لا نخشى أحداً في مقام الدفاع عن الإسلام[36]". وشـــن حملة دفاعه عن الإسلام انطلاقاً من استعراض عدم ملاءمة إصلاحات أتاتورك الاجتماعية أساســاً للأوضاع التي كانـــت قائمة. وبفعله ذلــك، كان يدافع عن رؤاه الخاصة لترتيب الأمور ترتيباً صحيحاً ملائماً. وتشير الأمثلة الآتية إلى طبيعة التهم التي وجهها أرسلان إلى سياســـة أتاتورك: إن اعتماد الأبجدية اللاتينية لا يخدم سوى هدف واحد يتمثل في حمل الأتراك على التخلي عن لغتهم، وفي الحيلولة دون تمكنهم من قراءة القرآن الكريم. كما أن الإصرار على كشـــف نقاب المرأة لا يعدو كونه استبدالاً للفجور بالطهر والعفاف، وترافق مع علامات فســـاد أخلاقي مثل الاختلاط بين الشباب من الجنســين وصولاً إلى حد الســماح لهم بالرقص معاً. وكذلك وضع حد للتعليم الديني تمخض عن تهديد بتكوين جيل من شـــأنه أن يعرف الإسلام بوصفه مجرد تقليد يمارسه أناس آخرون، بالطريقة ذاتها التي يمكن أن يعرف فيها جيل من هذا القبيل شـــيئاً عن البوذية[37].

ورد أرســلان أيضاً على السياســات التي شــكلت خطراً على الرمــوز الخارجية للاستمرارية الثقافية. لقد شن أرسلان، وهو الرجل الذي يرتدي زياً أوروبياً لا تشوبه شـــائبة، من سويسرا حملة دفاع شرســـة عن الطربوش. وسخر من أولئك الذين حطوا من قدر أنفســـهم باعتمارهم القبعات لمجرد محاكاة الممارســـات الأوروبية. وعندما زار أمان الله، ملك أفغانســـتان، لوزان في العام (1928م)، رفض أرســـلان أن يلتقي به؛ لأن الملك كان يعتمر قبعة خلال زيارته الرسمية لمصر قبل بضعة أسابيع[38]. وفي أحد تعليقاته النادرة حول الولايات المتحدة، أشـــار أرسلان إلى أن أعضاء أخوية الشراينرز (الماســـونية) اعتمروا الطرابيش، مبدين بذلك احتراماً أكـــبر للطقوس التي تبنوها من الاحترام الذي أبداه الكماليون لتقاليد أبناء بلدهم[39].

وبالنســـبة لأرســلان، مضى التشريع الكمالي وصـــولاً إلى ما هو أبعـــد من الفصل الإداري بين الدين والسياسة، وشكل هجوماً مباشراً على الدين نفسه. وكانت مشاعره

التي تجيش في صدره حيال هذه المســألة من الحدة بمكان بحيث جعلته في مرحلة معينة يشــكك، عبر مقالات نشرها في الصحف، في قيمة استقلال تركيا. وأشار في مقال إلى أنه إن لم تنتصر تركيا على اليونانيين، ســيبقى احتلال الحلفاء قائماً، وسيواظب مصطفى كمال على التحدث باللغة العربية عن الأحلاف الإسلامية وعن الحاجة إلى الحفاظ على الخلافة[40].

اتهم أرســلان أيضــاً الليبراليين المصريين باســتهداف الدين بهجــوم مباشر عبر ادعاءاتهــم التي زعموا فيهــا أن القومية تتعارض مع الدين، وأنــه لكون القومية هي الأيديولوجية التــي اعتمدتها الأمم المتقدمة، إذن الدين والحداثة أمران متناقضان[41]. وكان من الضرورة بمكان بالنسبة لأرسلان أن يدحض هذه الادعاءات، وأن يثبت أن التحديث ليس مرادفاً لنبذ الدين. وكان هذا الأمر هو جوهر ما كان يســعى إلى تحقيقه، وموضوعه الأســاسي. واستندت حججه التي ســاقها وكررها عبر مقالات نشرها في عشرات المطبوعات إلى فرضية تفيد بأن التقدم كان، كلما حل وفي كل وقت يحدث فيه، يتأتى بالتضافر والاشتراك مع الروح الدينية للمجتمع المعني بالأمر، وأن إحياء التجديد والتطويــر لا يمكن أن يحدث حقاً إلا في إطار التقليد التاريخي. وكان أســلوبه المفضل يتمثل في ذكر أمثلة على الطريقة التي حققت بها أوروبا واليابان مســتويات متقدمة من الحضــارة من دون التخلي عن قيمها الدينية والثقافية التقليدية[42]. ســواء أكان الأمر يتعلق برعاية حكومية رسمية لأنشطة الإرساليات التبشيرية، أم بالصلوات والدعوات التي يخص بها الإنجليز مليكهم، فقد عثر أرسلان على دليل على نوع من الرمزية الدينية في المجتمع الأوروبي المعاصر، وكانت الحجج التي ساقها تفتقر إلى الدليل الموضوعي، إلا أنها تنم عن ذكاء. طرح أرســلان السؤال الآتي: ألم يتوسل ملوك أوروبا ورؤساؤها المســيحية في تبرير سياساتهم الوطنية؟ ألم يتبوأ رئيس أســاقفة كانتربري المكانة الأرفع مقاماً بعد الملك مباشرة في المواكب الاحتفالية؟ ربما يكون أرسلان قد أساء كلياً تأويل اتفاقــات لاتران التي أبرمت بين الســلطة البابوية وبين حكومة موســوليني في العام (1923م)، أو قــد يكون نظر إليها في ضوء آماله الخاصة. وقــرر التأكيد على الاتفاق

بوصفه برهاناً كبيراً، من نظام آخـذ في التحديث، على دور الدين في الدولة. وخاطب فئة بعينها قائلاً: "اسـمعوا! أنتم يا من تلهثون وراء التحديث، أنتم يا من ارتددتم عن دينكم باسـم التقدم، لقد قرر الإيطاليون العودة إلى الدين، لكن لم يعوّق ذلك مسيرهم في طريق التقـدم". ثم قال محذراً وموجهـاً صفعة مباشرة إلى الكماليـين: "وهذا أيها الشرقيون الذين يسفسـط عليكم بعض رجالكم بكيفية فصل الدين عن السياسة نوع من أنواع هذا الفصل، بينـاه لكم وأعطيناكم خلاصته لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية[43]".

خلبت اليابان لُبَّ أرسلان بسبب اعتقاده أنها حققت مستوى حداثوياً موازياً لذاك الذي بلغته أوروبا الغربية مـن دون أن تتنازل عن معتقداتها الأصلية ونظمها الثقافية. وقال: كل أمة من أمم الإسلام تريد أن تنهض وتلحق بالأمم العزيزة يمكنها ذلك وتبقى مسلمة ومتمسـكة بدينها. كما أن اليابانيين تعلموا علوم الأوروبيين كلها وضارعوها، ولم يقصروا في شيء عنهم ولبثوا يابانيين ولبثوا متمسكين بدينهم وأوضاعهم[44].

وتساءل أرسلان: لماذا نحن، المسـلمين، بطيئون جداً في فهم هذه التطورات؟ أفلا نفهم أننا إذا تصرفنـا، تبعاً لما يحثنا على فعله الكماليون، وانسـلخنا عن تاريخنا، ونبذنا القـرآن، ورمينا معتقداتنا وقيمنا التي تجعلنا نفرق بـين الحق والباطل في مهب الريح، سوف يُجْهَزُ علينا؟ ورفع أرسلان صوته محذراً: "إن شئت أيها العالم الإسلامي أن تتعلم وتترقى فأمامك مثال هو العالم الأوروبي. فكما أنه ترقى وبقي مسـيحياً بكليته، يمكنك أنت أن تبقى مسـلماً وأن تترقـى بقدر ما تجدّ، وليس رقيك موقوفـاً على الكفر[45]". وأظهرت هذه الأمثلة وأمثلة أخرى لا تعد ولا تحصى التوافق بين الدين والتقدم.

كان أرسلان عاقداً العزم على إثبات أن أي نجاح نعمت به تركيا قد تحقق على الرغم من العلمانية الكمالية، لا بفضلها. وبينما لم يستطع أن ينكر تحقيق إنجاز السيادة التركية، حرص على ربط هذا التطور الجديد بالثناء بوجود قاعدة إسـلامية اسـتند إليها. وبناء عليه، كما يرى أرسلان، ظلت تركيا محافظة على هويتها الإسلامية، وبقي الإيمان واسع

الانتشار بالإسلام راسخاً لم يتزعزع، "وحافظ الشعب التركي على عقيدته في ظل رابطة الدين التي لا تنفصم عراها، وذلك على الرغم من سياسة حكومته الإلحادية[46]". ودعماً لرأيه هذا، تحدى أرسلان أتاتورك مباشرة في أن يعيد إلى الذاكرة أحداثاً محددة كانت قد أحاطت بحرب الاستقلال ضد الإغريق. هل نسي الكماليون كيف زعمت جمعية أنقرة أنها كانت تقاتل من أجل تحرير خليفة الإسلام من أيدي الدول غير الإسلامية؟ هل نسي مصطفى كمال كيف اعتاد أن يذهب إلى محطة أنقرة لإلقاء السلام على سيد أحمد الشريف السنوسي، وتقبيل يده على مرأى من أعين الناس جميعاً؟ وخلال هذا الوقت، ألم يختلف غازي إلى المساجد جيئة وذهوباً، مراراً وتكراراً؟ وتساءل أرسلان قائلاً: حسناً! إذا كانت المعتقدات الإسلامية تشكل عائقاً، فلماذا لجأ إليها الكماليون إذن ولاذوا بها لإنقاذ بلدهم؟[47].

وجاء فيما كتبه سافران عن القوميين الليبراليين المصريين: "هنالك من الاستدلال المنطقي ما يكفي للتحقق من صحة أي استنتاجات ذات صلة بالموضوع من الناحية الاجتماعية[48]". وينطبق هذا التوصيف على أرسلان أيضاً. حيث يبدو علمانياً، في ظاهر الأمر، بقدر أولئك الذين لطخ سمعتهم بهذا المصطلح. إلا أنه يختلف عنهم اختلافاً ملحوظاً من حيث الموارد التي يستقي منها عقلانيته، ومن حيث مقاومته لتطبيق النماذج المستمدة من الأوروبيين في العالم الإسلامي. ورأى رجلٌ مثل هيكل أنه يتعين على أفراد النخبة المتفرنجة من الذين هم على شاكلته أن يتولوا القيادة: "إن الوسائل الكفيلة بوضع مصر على الطريق التي سلكتها أوروبا تكمن في وجود أولئك المثقفين الذين تعلموا وفقاً للمبادئ الأوروبية[49]". ومن ناحية أخرى، ربط أرسلان شعوره بالتفوق والجدارة بالنظام الإسلامي العثماني الذي حقق في ظله تميزاً. وكان رأس حربة الوعي الإسلامي في عالم معاد، والصائن للنظام الاجتماعي والثقافي الذي يتعين أن يُصَارَ إلى تنشيطه، لا إلى التخلي عنه ونبذه. علماً بأن هذا النظام هو في تغير مستمر، إنه النظام الذي شجع في رجل له مثل فرص أرسلان اكتساب لغات أوروبية وتحقيق حراك جديد. لقد واجه معضلة في العالم المتغير في حقبة العشرينيات والثلاثينيات من

القرن العشرين. ولم يكن مناهضاً للتقدم، ولكن في الوقت ذاته أراد الإبقاء على التقاليد الأصلية. وتصميمه وحيرته، وحزمـــه وارتباكه؛ كل ذلك عبر عنه في معرض رده على الكمالية:

> كلما جاء المسلمون ليحافظوا على دينهم وأخلاقهم وفضائلهم، ويحاربوا الإلحاد والإباحـــة والمبادئ المضرة والخلاعة والفجور وما جـــرى هذا المجرى، يقوم رجال من أنقرة فيقولون: هؤلاء يريدون اتخاذ الدين آلة لترويج السياســـة... المسألة مسألة عقيدة وصيانة أعراض وتبين حقوق، وتطهير أخلاق وتهذيب نفوس وتنمية نســـل، ودرء مفاسد تهدم كل مجتمع بشري. أفكلما قام أناس يحافظون على هذه المبادئ جئتم لهم بهذه النغمة الكاذبة قائلين: هذا من باب خلط الدين بالسياسة؟![50]

ولكن مـــن كان يصر، كما فعل أرســـلان، على تطبيق العقل والمنطـــق على التقليد، ومـــن أَطَّرَ دعوتـــه للحفاظ على التقاليد بـــضرورة توفر المؤهلات لذلك، "باســـتثناء الحالات التي يتعـــارض فيها تطبيق المنطق مع الصالح العـــام ومع معرفة معينة"، من كان يصر على ذلـــك كان في ذهنه نمط من التغيير من نوع مـــا[51]. إلا أنه ليس محدداً، في كل الأحـــوال، في صيغـــة برامج محددة. وكان أرســـلان يتقوقع عـــادة في بوتقة من الإرشـــادات والعظات العامة، مدعوماً بإصراره على أن تضافر الجهود البشرية يمكن أن يتمخض عن الظروف التي يتطلب المجتمـــع توفرها، أياً كانت. وفي مجال التعليم، طرح توصيات حددها بصورة أشـــد وضوحاً. وفي حين أنه لم يتســـامح مع أي تدخل في الشـــؤون الثقافية، أقر بحاجة العالم الإسلامي إلى اكتســـاب مهارات تقنية متقدمة. وكانت العلوم الطبيعية، بالنسبة له، تتوفر على جاذبية لها مفعول السحر، ورصع كتاباته بأمثلة مســـتمدة من معرفته الخاصة بعلم الميكروســـكوب والكيمياء ونظرية النسبية. وكان يرى أنه أمر "ضروري للغاية" بالنســـبة للمسلمين اكتساب معارف هذه المسائل وعلومها وذلك بوساطة الدراسة في أوروبا. وأما الأمر الأكثر أهمية فيتمثل، والرأي ما يراه أرسلان، في عدم الاستسلام لمخاطر التفكير الحر والإلحاد عندما يكون الطلاب في

أوروبا[52]. وقد أعرب أرسلان عن ارتياحه لتزايد أعداد الطلاب السوريين والمصريين الذين يتحدثون بلغات أوروبية، ويؤكدون في الوقت نفسه بإيراد الحجج والبراهين أنه يمكن الحيلولة دون حدوث عمليات مثاقفة كاملة، عن طريق تحصين الشـباب العربي بالتعليم الديني قبل إرسالهم إلى أوروبا[53]. وتشبث بعناد بهذه الرؤية البسيطة لمشكلة معقدة. وكان يتأسى بالنموذج الياباني الذي عكف على استعراضه المرة تلو المرة بوصفه دليلاً على إمكانية الاقتباس الانتقائي للخبرات التقنية من دون تغيير القواعد الروحية والاجتماعيـة للمجتمع. وبتأييده التعبير القائل: "نريـد أن نحقق الحداثة مع المحافظة على أنفسنا"، كشف أرسـلان النقاب عن المعضلة التي تثير الدهش لإنسان محافظ من الناحية الثقافية ومثالي تقدمي في آن معاً[54]. وبالنسبة لأرسلان، تحديد المجتمع لما يجب أن يقتبسـه (من الغرب) وما يتعين عليه رفضه هو شأن ينبغي أن يكون من اختصاص السيادة السياسية. وقدمت له تركيا الكمالية لغزاً تعامل معه باستهدافه بهجمات سجالية مباشرة. وعرض عليه ابن سعود اقتراحاً فتقبله أرسلان متلهفاً: إن تقبل شكيب لخلافة معدلة، تقدم استعراضها في الفصل الرابع من هذا الكتاب، كان أقل استناداً إلى الضرورة الدينية منه إلى السـلطة السياسية. وكان بقاء النظام الإسلامي واستمراره يعتمدان على وجود حاكم مسـتقل وقوي يعتز بتراث الماضي في وقت يجري فيه التعديلات اللازمة والكفيلة بتحقيق الازدهار في المسـتقبل. وقد توصل أرسلان إلى استنتاج يفيد بأن ابن سعود هو هذا الحاكم.

ثمة ناطق آخر عربي إسـلامي ومتحدث رسمي باسـم العرب والمسلمين، شارك أرسلان سـعيه في البحث عن قاعدة سلطة إسـلامية، وأعرب عن إعجابه بإنجازات ابن سعود. فقد كتب رشيد رضا مقالاً قال فيه إن استقلال ابن سعود عن أوروبا جعله "أعظم سلطة إسلامية في العالم بأسره منذ سقوط الدولة العثمانية وقيام حكومة لا دينية في تركيـا[55]". كما امتدح عبـد الحميد بن باديس من الجزائر اسـتقلالية الملك العربي وتمسكه بالشريعة الإسـلامية[56]. وكان لابن سعود جاذبيته بوصفه مناهضاً للكمالية. ورفض مصطفى كمال، بعلمانيته المتصلبة، أن يمدح ويحتفى به بوصفه حاكماً إسـلامياً

ناجحاً. ولكن الأراضي الجرداء عديمة الفائدة التي كانت خاضعة لسلطان ابن سعود لم تكن تثير اهتمام أي سلطة أجنبية في ذلك الوقت. أدرك أرسلان وجود هذا الموقف؛ فحاول أن يغيره عبر إحاطة ابن سعود بصورة إيجابية وجعله مقبولاً للعب دور قيادي أكبر، وأطلق بناء على ذلك حملة لإظهار ابن سعود، لا بوصفه مستقلاً فحسب، كما كانت حال تركيا، ولا بوصفه معنياً بتطبيق أحكام الشريعة فقط، بل بوصفه مجدداً أيضاً. وقد أدى ذلك بأرسلان إلى رسم صورة متكلفة للملك الوهابي بوصفه مخططاً تنموياً تقدمياً، يعمل بحماس كبير على إدخال السيارات والكهرباء ونظام بريدي جديد إلى بلاد الحجاز، إلى جانب خصائص أخرى تميز الحضارة الحديثة[57].

ومهما تكن هذه الدعاية مضللة، فإن الدافع الكامن وراءها واضح. لقد كانت رداً مباشراً على الافتراض الذي استندت إليه إصلاحات أتاتورك وبرامج المتفرنجين العرب، الذي يزعمون فيه أن التحديث والإسلام لا يتوافقان. وكان ابن سعود ناجحاً في إدخاله ضروباً من الحداثة الانتقائية إلى مجتمعه؛ لأنه "حارب (خصومه) بسيف الشريعة نفسها، وبين أن القرآن الكريم والحديث الشريف لا يحرمان الاختراعات الحديثة... وأورد لهم شواهد الجواز من أقوال الله تعالى في محكم كتابه، لا من أقوال أنقرة[58]". إن حكمةً هذا شأنها مقترنةً بنجاح من هذا القبيل قد أظهرت أغلاط أولئك الذين زعموا أن التقدم يقتضي نبذ الإسلام.

وزُجَّ بهذه الرسالة، التي كانت بارزة جداً في كتابات أرسلان، في معترك السياسة العربية البينية. وكان أرسلان يأمل أن يسخر النقاء الديني والسيادة السعودية لابن سعود لتعزيز الدول المتقدمة مادياً والواقعة في شمال شبه الجزيرة العربية، وبذلك تتشكل قوة عربية كفيلة بأن تغدو "إحدى الركائز التي يستند إليها التوازن العالمي[59]". وعلى الرغم من أنه قبل على مضض بوجود دول عديدة في الشطر الشرقي من العالم العربي، فقد واظب على تشجيع إقامة تحالفات دفاعية فيما بينها، وعلى دعم إنشاء كونفدرالية تكون نواتها كل من سوريا والعراق وشبه الجزيرة العربية. ولم يدع مجالاً للشك حيال مرشحه لقيادة اتحاد كونفدرالي من هذا القبيل: "لا أفضل أحداً على ابن سعود، ولا

أحب أحداً ولا فيصل بقدر ما أحب ابن ســعود[60]". وكان ابن سعود خيار أرسلان لأنه يمثل الواقع الإسلامي في رأيه.

إن تشجيع أرسلان على قيام هذه الاتحادات الكونفدرالية العربية المشرقية وانخراطه الموازي في المغرب، جعل بعض المعنيــين بالأمر يرون فيه المحامي المدافع عن العروبة. وهذه واحدة من الحجج الرئيســة التي ساقها كل من الشرباصي والدهان[61]. وخلال حياته كان يسمى "قلعة العروبة وعماد الإسلام"، وتضمنت بيانات نعيه شهادات عديدة ثمنت جهوده حيال الوحدة العربية[62]. وكان أرسلان يرى في التحالفات العربية أمراً مرغوبــاً فيه، وكان يعي وعياً عميقاً مكانة العرب المركزية في العالم الإســلامي. ولكنه لم يكن مع ذلك قوميــاً عربياً بالمعنى الدقيق للكلمة. وعامــلا الولاء للجماعة والهوية الشــخصية اللذان يرى فيهما فاعلية كبرى إذا ما تلازما ظلا في رأيه عاملين إســلاميين في المقــام الأول، وظل يتوســلهما في مناشــدة الناس في حملاته المناهضــة للإمبريالية. وصورت السياســة البربرية الفرنســية في المغرب بوصفها تشــكل انتهاكاً لاســتقامة الإسلام وسلامته، وشكلت الهجرة الصهيونية إلى فلسطين تهديداً للعتبات المقدسة في القدس. وكان من واجب العالم الإســلامي بأسره أن يرد على هذه المخاطر على أساس الشعور المشــترك للأمة. والوحدة، كما يراها أرسلان، هي قبول متبادل للتراث الثقافي الإســلامي، وامتثال متبادل للأوامر الأخلاقية التي جعلت المجتمع الإسلامي مجتمعاً متميزاً. ولم يناصر فكرة قيام أمة عربية موحدة سياســياً. ولم يسعَ إلى إيجاد مركز لسلطة إسلامية عبر المطالبة بإقامة دولة إسلامية موحدة.

وعلى الرغم من أن أرســلان كان يســتعمل بين الفينة والفينة مفــردات لها صبغة عروبية من الناحية السياســية، فإنه كان ميالاً وحريصاً على إيراد تلك المفردات ضمن ســياق ديني. فلم يكن، على ســبيل المثال، دقيقاً في اســتعماله لمصطلــح الأمة، وكان واضحاً أنه كان يقصــد به جماعة المؤمنين (حتى عندما كان يحدد بكلامه جماعة المؤمنين العرب) أكثر مما كان يقصد "أمة علمانية". وكان، في الواقع، ميالاً في أغلب الأحيان إلى اســتعمال مصطلحي العالم الإسلامي والبلاد الإسلامية. وخطابه الذي ألقاه في دمشق

في العام (1937م) وجرى تداوله على نطاق واسع، تلقاه الناس بمزيد من الاهتمام بسبب اعتداله وبراغماتيته أكثر من كونه بسبب مفهومه عن الوحدة العربية. واقترح أرسلان إنشاء أحلاف بين الدول المتميزة تتم على مراحل تبلغ ذروتها في منظمة على غرار الجامعة العربية التي تأسست في العالم (1945م). ونأيه بنفسه عن نموذج القومية الثقافية الذي يمثله ساطع الحصري واضح في اختياره نموذج الإمبراطورية النمساوية المجرية بوصفه نموذجاً تاريخياً، وتحالف الوفاق الصغير بين كل من تشيكوسلوفاكيا ورومانيا ويوغوسلافيا بوصفه مثالاً معاصراً. وعلى الرغم من مثابرته على استعمال مصطلح الوحدة العربية، فقد سعى أرسلان إلى تحقيق اتحاد كونفدرالي يستند إلى قاعدة المصلحة الذاتية المستنيرة، لا إلى قيام اتحاد تكاملي: "لا تتطلب الوحدة السياسية والاقتصادية والعسكرية وحدة إدارية أو اندماجاً كاملاً بين مملكة وأخرى. والوحدة العربية هي شيء قابل للتحقيق من دون أن تعترض طريقها صعوبة تذكر، فالوحدة هذه تتيح للعراق وسوريا والعربية السعودية أن تبقى ممالك مستقلة ضمن بوتقة هيكلية إدارية داخلية[63]". ولكن أرسلان نفى إمكانية حدوث أي شيء آخر خلافاً للتضامن المشترك بين المغرب والمشرق العربيين: "لا تتعدى وحدتنا معهم حدود الوحدة الدينية واللغوية والثقافية والاجتماعية[64]". وقد جرَّ هذا الموقف عليه انتقادات من وطنيين ليبيين شعروا أن أرسلان تخلى عن حملته المناهضة للإمبريالية لقاء تلقيه ذهباً إيطالياً.

تركز برنامج أرسلان السياسي على ضرورة التناغم بين الملوك الهاشميين الغيورين وبين حاكمي شبه الجزيرة العربية الرئيسين. ولم يُكَوِّنْ رؤية لدولة قومية متكاملة، كما أنه لم يلجأ إلى الاستعانة بالقوميين الرومانيين الألمان الذين كانت تتوخى منهم الفائدة بوصفهم نموذجاً يحاكي نماذج ساطع الحصري. وفي الواقع، في حين أقر ساطع الحصري بقصيدة القوميين العرب سياسة الوحدة العربية: "أمة واحدة من إيران إلى تطوان" التي لاقت رواجاً بين الجماهير، أنكرها أرسلان: "ليست الحركة العربية حركة قومية عربية تسعى إلى توحيد كل الناطقين بالعربية في وحدة واحدة. فالوحدة العربية ليست طوباوية إلى هذا الحد، والمثقفون العرب واقعيون بما يكفي للإحجام عن تخيل

قيـــام إمبراطورية عربية تمتد رقعتها من حدود إيران إلى شـــواطئ المحيط الأطلسي، كما يحاول بعض المعنيين بالأمر أن يوحوا[65]".

وكان هذا موقفاً واقعياً أتاح لأرسلان مجالاً إضافياً للمناورة، كما أظهر ميله لتحاشي التعامل مع العروبة السياســية. وكان يفضل الروابط العامة المشتركة التي أَلِفَها وكان معتاداً عليها، وهي الروابط الإســلامية. فقد خشي أن تقوض القومية دعائم التضامن الديني المشـــترك الذي يعده في غاية الأهمية لجهة انبعاث الأمة من جديد. وقد رسخت في ذاكرته حقيقة لا تنسى ولا تغتفر تتمثل في أن الإمبراطورية العثمانية سقطت، جزئياً، بسبب الثورة العربية التي اندلعت ضدها. وهكذا، في حين أنه بدا يتصور الدول العربية تدخل فرادى في حيز الوجود الســياسي، فقد ثابر على التأكيد على أن القواسم المشتركة التـــي تجمع بين هذه الدول لم تكن تلك المتعلقـــة بالقومية العربية بقدر ما كانت عوامل الترابط النابعة من الرابطة الإسلامية. وكان كلما قال مسلماً يعني عادة عربياً، وكلما قال عربياً يعني عادةً مسلماً.

وكانـــت القومية تقض مضجع أرســلان إلى حد أبعد بســبب دلالاتهـــا العلمانية. والجامعة الإسلامية، في رأيه، بوصفها حاجزاً حال دون تحقيق الطموحات الأوروبية، أقوى من القومية العلمانية. والرابط الديني، لا الرابطة القومية، هو الذي استثار السلوك الأخلاقي القويم والذي زود المؤمنين بالمعرفة التي تبعث على الطمأنينة التي تخلف عند المؤمنين الذين يأتمرون بأوامر الله يقيناً بأنه، مهما كان الوضع الراهن، ســيكون النجاح من نصيبهم لا محالة[66]. ووجد الإمبرياليـــون، إلى جانب المتفرنجين المتواطئين معهم والقابعين بين المســلمين، في الحركات القومية أهدافاً سهلة لتعزيز جهودهم الرامية إلى تقويض النســيج الأخلاقي للمجتمع. والكحول والمخدرات، وهي أدوات الإفســاد الإمبريالية المعروفـــة جيداً، لم تكن مـــواد محظورة من قبل الحـــركات القومية، ولكن "الجامعة الإسلامية سد منيع دون السكر[67]". وحده الإسلام، في كل مظاهره، تمكن من الحيلولة دون وقوع المؤمن في قبضة الآخر الأجنبي الدخيل. وشـــأنه شـــأن معلمه الأفغاني أيضاً، شكل أرسلان رداً إسلامياً على الإمبريالية[68].

ويمكـــن الوقوف على دليل إضافي على عدم قدرة أرســـلان على التوافق مع المفهوم الأساسي للعروبة في علاقاته مع مســـيحيي المشرق العربي. وربما نقل عنه كلام خارج السياق في خطابه الشـــهير الذي ألقاه في حلب، وذلك لدى قوله العبارة الآتية: "من لم يكن مســـلماً لا يمكن أن يكون وطنياً"، لكن اقتناعه بأن المفاهيم الإســـلامية في الدولة والمجتمع ينبغي أن تهيمن في العالم العربي كان معروفاً عنه تماماً إلى الحد الذي جعل خطابه يعامل بوصفه مقياســـاً حقيقياً لمشاعره[69]. ونظرة الشـــك التي أحاطه بها المسيحيون العرب إبان الحرب العالمية الأولى لم تتراجع حدتها على الرغم من الخدمات التي قدمها لقضية الاستقلال العربي. وسبب ذلك، على وجه العموم، هو أرسلان نفسه؛ لأنه ينظر إلى هـــذه الخدمة بوصفها عاملاً متلازماً مع قضية تحرير الإســـلام من الهيمنة الأجنبية، وضماناً لكي يبقى الإســـلام مهيمناً على الشرق الأوسط كما كان عهده دوماً. ومجاملته الســـاخرة لزميله الأول في الوفد السوري الفلســـطيني كانت إقصاءً للطوائف العربية المسيحية برمتها: "المسيحيون كسليمان كنعان يبتغون مصلحة قومهم ووطنهم، مؤتلفة مع مصلحة العرب المسلمين، وهم أفراد وأفذاذ معلومون[70]". وضمت لائحته، التي أدرج فيها أولئك الذين خلطوا بين إحياء الأمة وبين روح إصلاحات أتاتورك، مجلات مســـيحية عربية من أمريكا الشـــمالية، وذكر أيضاً أن الآشوريين ليســـوا أبناء حقيقيين للعراق، ولم يُخْفِ قطُّ ارتيابه بالطائفة المارونية في لبنان لما رآه تشجيعاً منها على التدخل الفرنسي، ولتأييدَها محاكاة الثقافة الغربية الزائفة[71]. وظل موقفه نفسه القائم على رفعة مكانة الإســـلام مقارنة بغيره الذي كان يحكم ســـلوكه حيال المسيحيين إبان عهد عبد الحميد، ملازماً له على مدى السنوات الفاصلة بين الحربين العالميتين الأولى والثانية.

ويوجـــد مثال على موقف أرســـلان الذي لا هوادة فيه من المبادئ الإســـلامية على صعيد التنظيم الاجتماعي، ورؤيته الطائفية لمسألة العروبة، وقد تبدى هذا المثال جلياً في مقال استنسخه الشرباصي تبياناً لدعم الأمير لقيام وحدة عربية تكاملية[72]. وفي الواقع يشير المقال إلى أمر مختلف كل الاختلاف عن تأويل الشرباصي له. فهو يشير إلى تَلَمُّسِ أرسلان طريقاً تفضي إلى تعريف السيادة القومية، ويخلص إلى نتيجة مؤداها أنه لا تدعو

الحاجة في الواقع إلى طمس معالم الهوية الدينية الرئيسة في غمرة ضبابية الدولة العلمانية. ومتمثلاً أدبيات الموروث الديني الإسلامي، ومستنداً إلى الممارسات الإسلامية الباكرة بوصفها موئلاً مرجعياً، قال أرسلان: بما أن المسلمين يمتثلون للقرآن، وبما أن الأوامر القرآنية تقضي بأن يعامل المسلمون المسيحيين بالمساواة والعدل، إذن لا ينبغي أن يخاف المسيحيون من العيش مع الأغلبية المسلمة في دولة واحدة. وتجنب أرسلان الخوض في مسائل العروبة العلمانية، وطلب من المسيحيين العرب أن يثقوا بالتزام المسلمين الثابت القويم بالأوامر الربانية التي تدعو إلى ضمان حمايتهم في ظل الدولة العربية الإسلامية.

ورغم كل مباشرة توجهاته الإسلامية الطابع، كان أرسلان محرضاً أكثر منه مُنَظِّراً. وكان إسهامه الفكري في الحياة الفكرية في الحقبة الفاصلة بين الحربين العالميتين الأولى والثانية متساوقاً ومتناغماً مع إسهامه السياسي. لقد كان له شأن بوصفه مصلحاً إسلامياً، إلا أن ملاحظاته عن الإسلام كانت تنزع نحو تأييد اتخاذ تدابير والقيام بأعمال في العالم المادي أكثر من توجهها نحو إعادة بلورة العالم الروحي. ولهذا السبب تحديداً لم يتمكن من الطموح إلى اعتلاء سدة القيادة الفكرية التي انعقدت لمعلمه وملهمه محمد عبده أو لزميله رضا، علماً بأن قاعدته الجماهيرية كانت أكثر اتساعاً من قاعدتيهما معاً.

ولدى استعراض الخطوط العريضة لفكر أرسلان، نتبين أن القضية ليست مسألة إخفاق مفكر، بل تتركز حول كونه، إلى جانب فِكَرِه، حظي بشعبية عارمة، ولأنه- ضمن حدود معينة-كان شديد الفاعلية والتأثير على مدى الحقبة الفاصلة بين الحربين العالميتين الأولى والثانية. وتأثيره مسألة لا يرقى الشك إليها. كان أرسلان شخصاً استثنائياً بارعاً متأصلاً في عصره بوصفه شخصية دولية عامة متميزة، شأنه في ذلك شأن قلة قليلة جداً من عرب آخرين. وبين آيات الثناء والتقدير الكثيرة التي أسبغها عليه معجبوه في معرض الإشادة به، محاولة كرد علي تسليط الضوء عليه بغية تعريفه إلى جيل لم يعاصره، وكان توصيفه له أفضل ما قيل فيه: "لم يشتهر واحد منا شهرة عالمية كما اشتهر الأمير شكيب. اشتهر بالسياسة كما اشتهر بالأدب، وعرف عند الشرقيين كما عرف عند الغربيين، فهو العيار المنقطع النظير...[73]".

تشـــهد الإشادات بأرسلان بكل بســـاطة على مدى تأثيره، والأعمال السياسية التي تظهر النفوذ والتأثـــير، مثل الحملة المناهضة للظهير البربري هـــي مجرد بعد واحد من تأثيره الشـــخصي في عصره. وسيبقى تأثيره ملموســـاً إن كان ارتباط أرسلان بالمواقف الفكرية المستعرضة في هذا الفصل له إسهامه في التقدير الذي حظي به.

وتعقيباً على اتساق موقفه حيال التهديد الأوروبي الإمبريالي للسيادة الإسلامية، كتب أرسلان في أواخر ثلاثينيات القرن العشرين الآتي: "لو قرأ قارئ كتاباتي تلك (زمن ما قبل الحرب) وقرأ ما أكتبه اليوم، ظن أن الذي يكتب اليوم هو شـــكيب أرسلان حفيد شكيب أرسلان الأول[74]". وهذا لم يجعل من أرسلان إســـلاموياً قديماً في عصر القومية العربية العلمانية، إذ لم يكن العالم الإســـلامي العربي قد تقبل بعـــد القومية العلمانية بوصفها مبدأه الناظم. كان كثير من نشـــطاء هذا العالم على استعداد لتأييد استفادة أرسلان من الإسلام بوصفه ســـلاحاً سياسياً وثقافياً، غير مثقل بأعباء تبريرات لاهوتية أكثر تعقيداً من التأكيد الأساس بأن الناشطية مسموح بها. وكون أرســـلان كسب شعبية لتبنيه هذه العقيدة -أو بتعبير أكثر دقة، هذا التكتيك- فهذا عائد إلى أنه تحسس مشاعر أبناء عصره. ويكمن بعض جاذبية رسالة أرسلان في الأشياء التي تمثلها نفسها. كان يحمل آفاق حقبة سابقة وتطلعاتها، ولكن مُثُلَ تلك الحقبة لم تكن قد تلاشـــت تماماً. كما أفاد أرســـلان بوصفه معبراً عن آمال الحقبة التي ســـبقت العام (1914م) وعن مخاوفها، التي كانت أبعد ما تكون من أن تحظى بحلول في بوتقة الحرب، لا بل فاقمتها الحرب أيضاً. والســـيادة الإسلامية التي تعرضت للتهديد في ظل حكم عبد الحميد الثاني أفل نجمها بعد العام (1919م)، باســـتثناء خيط الأمل الذي كان معلقاً على مملكة ابن سعود. وهكذا كان يوجد جو من تقبل النشاط الذي نُظِّمَ متمحوراً حول مبادئ الجامعة الإسلامية ومكرساً لتحقيق هدف التحرر الإسلامي. وكانـــت حقبتا عشرينيات القرن العشرين وثلاثينياته حافلتين بجهود رمت إلى اســـتعادة نسخ معدلة من صيغ روابط الماضي، وباستعدادات تتطلع إلى إنشاء روابط جديدة.

والذيـــن نزعوا إلى النظر إلى حقبة ما بين الحربـــين بوصفها تحضيراً لانتصار القومية العربية الناصرية، فاتَهم الانتباه إلى هيمنة المشاعر الإسلامية في ذلك الوقت؛ فحركات مثل اتحاد الشـــباب المسلمين وحركة الإخوان المســـلمين في مصر، والجمعيات السرية

والمــدارس الحرة في المغرب، وجمعية العلماء الجزائريين، عــلى الرغم من أنهم لم يظفروا دوماً بالسلطة السياسية في الحقبة التي أعقبت الاستقلال، عبرت عن الاتجاه السائد في ثلاثينيات القرن العشرين. ولم يقتصر الأمر مع أرسلان على تمثيله الاتجاه السائد وتعبيره عنه، بل تعداه إلى إلهامه الجماهير.

وعلى الرغم من أن استعانة أرســلان بالإسلام في معرض دعوته إلى العمل عزفت على وتر حســاس، فإن الســمعة الســيئة التي لحقت به تجاوزت تلك الناجمة عن كونه ممارياً مولعاً بالجدل، وعلى المــرء أن ينظر إلى ما هو أبعد من المحتوى في كتاباته، وحتى إلى تواتر الكتابــات إذا ما أراد أن يشرح أهميته. والعامــل الرئيس الكامن وراء قدرته على اكتســاب مكانة الإرشاد بين الشــباب اليافعين الأحدث عهداً، والذي مكنه على الاحتفاظ بمكانته المرموقة بين أقرانه، وأكســبه احترام الأوروبيين الذين تعاملوا معه مباشرةً، يتمثل في شــخصيته القيادية. فقد كان أرســلان ذا شخصية آسرة ساحرة على الصعيد الســياسي ولكنه شــديد الصلابة والعناد في آن معاً، كما كان جريئاً لكنه قادر عــلى الإقناع في الوقت ذاته، وهو على هذا الصعيد يتوفر على مجموعة من المهارات على صعيد العلاقات الشخصية مع الآخرين، وأفاد منها أيما فائدة. وعلى الرغم من أنه ليس غوغائياً كما هــي الحال مع مصالي الحاج-لم يكن يعدو كونه خطيباً عاماً مناســباً-فقد كان أرسلان عظيم الجدوى وشديد الفاعلية في الحالات التي كان يقتصر الحضور فيها على مجموعات صغيرة[75]. وأتاحت له التجمعات المتكررة للطلبة والمنفيين في شــقته في جنيف استعمال قاعة الاســتقبال بوصفها ملحقاً متمماً للصفحة المطبوعة وبوصفها قناةً لنقل الفكَر، واختبار مدى تأثيره. والجابــري، زميله على مدى عشرين عاماً، كان يشعر بالهيبة الناجمة عن شجاعة أرســلان وجرأته، ويشير إليه بوصفه رجلاً يتوفر على "شــجاعة رهيبة[76]". وخلال اللقاء المطول الذي جمعه بأرسلان في العام (1934م)، كان أول ما لفت انتباه ديفيد بن غوريون الضعف البدني لمضيفه، ولكن سرعان ما تأثر "بقوته وحماسته" بمجرد أن بدأ بالكلام[77].

وعزز آخــرون، من وجهات نظر مختلفــة تماماً، انطباعات تفضي إلى أن أرســلان صاحب شــخصية هائلة. فالمندوب السامي الفرنسي في ســوريا، دو جوفينال، واصل التفاوض معه بشــأن المسألة السورية اللبنانية في العام (1925م)، إلى الحد الذي آل إلى اقتراح فقرات ومواد محددة (تشــكل معاهدة)؛ لأنه شعر أن شخصية الأمير ذات أبعاد كافية وكفيلة بأن يُصَارَ إلى توقيع الوثيقة، من قبل الآخرين، إذا ما تم التوافق عليها. وفي لمحة موجزة أعدت من قبل وزارة الخارجية الألمانية، أشــير إلى الأمير بوصفه "متفاخراً متباهياً بصورة اســتثنائية" و"بارعاً ولبقاً جداً اجتماعياً[78]". كان رجلاً واثقاً بنفســه وذا حضور شــخصي قوي. وقدرته على تعزيز نفوذه وتأثيره الشــخصي متيسرة له عبر اتصالاته المباشرة وعبر نتاجه الصحفي.

كان أرسلان واعياً ومدركاً لصورته وللهيئة التي يتبدى عليها لدى الآخرين، وتولى تلك الصورة بالرعاية من خلال تعاونه الثابــت والدائم مع الملوك العرب الجدد. فقد كان ابن ســعود والإمام يحيى صديقين له وهما من الشــخصيات العامة الشــهيرة. كما واظب على زيارة الملك فيصل بانتظام أثناء قضاء الملك عطلاته الصيفية في ســويسرا. وأشــار تقرير إلى أن حاكم العراق تناول طعام العشــاء ذات مره في مقر إقامة أرسلان في "أجــواء حميمية[79]". وعلى صعيد متابعة هذه الاتصــالات وتلك العلاقات، كان أرســلان يتصرف من بعــض النواحي بطريقــة متوقعة من رجل معتــاد على الالتقاء بالسلطان العثماني وبخديوي مصر، لكنه يعلم أيضاً الأوضاع التي كان بصددها، فكان يتعهد الدور الذي يقوم به بالرعاية ويصقله حتى أثناء قيامه به.

ونتيجة لكل ما تقدم، تعززت سمعته واتسعت مدى عبر تصورات الآخرين لقدرته في الســيطرة على الأحداث والتحكم بها وتشــكيل الآراء وتأطيرها. وإذا ما قرأ المرء الملخص الذي أعده لويس جوفيليه للتطورات التي حدثت في العالم العربي في السنوات الواقعة بين العامين (1930م و1933م)، فلســوف يستشعر إلى أي حد تمكن أرسلان من الهيمنة على تفكير بعض المراقبين الفرنســيين المعنيين بشــؤون العالم العربي، وكان مرادفاً فيما ذهب إليه للمعارضة العربية[80]. وســبق لي أن قدمت تحليلاً في هذا الفصل

(الخامس) مـــن هذا الكتاب للرأي الفرنسي في التأثير الذي خلفه أرســـلان في المغرب العربي. وتراوحت الانطباعات التي خلفها لدى المراقبين الفرنسيين بين الشعور بالذعر وتوجيه الاتهامات له من قبل المدرســـة الأفريقية الفرنسية، وبين مشاعر الاحترام التي أَكَنَّها له رجال منهم جوليان ولوتورنو. والأخـــير، من خلال كتاباته من منظور حقبة خمســـينيات القرن العشرين، خلص إلى نتيجة أفادت بأن أرسلان كان صاحب إحدى الشخصيات العربية الأربع الأكثر نفوذاً وتأثيراً في حقبة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية[81]. ولم يؤســـس أرسلان حركة اســـتمرت بعد رحيله، إلا أن تأثيره في عصره كان كبيراً. ويوجد بعد مبالغ فيه في تقويم أرسلان وهو ذاك الذي أعلن عنه بول ألارد من باريس سوار، وجاء فيه: "كان أرســـلان أحد أكثر المغامرين الدوليين الاستثنائيين والرائعين جداً في الأزمنة الحديثة[82]".

وعَدّ مســـؤولون من كل من بريطانيا وفرنسا على حد سواء أرسلان المصدر الوحيد الـــذي حرض العرب وحدد الطموحات العربية، ونســـبوا إليه قـــدرة تنظيمية لم يكن يمتلكها في الواقع. ولكن بالنسبة لأولئك الذين يفضلون العمل السهل البسيط المتمثل في نسبة شـــواهدهم إلى مصدر وحيد على المهمة الصعبة المتمثلة في التحليل الاجتماعي ومراجعة السياســـة، فإن أرسلان يُعَدُّ هدفاً طبيعياً. وكان أسهل بكثير الإناحة باللائمة فيما يتعلق باســـتياء الجزائريين والفلســـطينيين على المكائد التي يُزْعَمُ أنه كان يدبرها في جنيف، من العمل على تخفيف حدة مواقف المدعين المشتكين منه.

وبتصويرهما أرسلان بوصفه شـــخصاً خطيراً، وبإيحائهما بأن قدراته على التلاعب بالحـــركات العربية المناهضة للإمبرياليـــة أكبر مما كانت عليه في واقـــع الحال، عززت بريطانيا وفرنســـا سمعته في العالم العربي. وصارت هيبة أرسلان، بهذه الطريقة، تتغذى مـــن موردين متناقضين-الأوروبيين الذين بالغوا في قدراته على الســـيطرة الفعلية على الأحداث، والجماهير العربية التـــي رأت فيه-جزئياً بفعل تقارير الصحافة الأوروبية-مجاهداً مقداماً زرع الخوف في قلوب المديرين الإمبرياليين عبر أنشطته الاستقلالية التي مارسها في عواصم بلادهم عينها.

وبعد فإن أرســـلان لم يكن مجرد نتاج لنسج الخيال الإمبريالي العصبي. لا، ولا كان، بفعل الثناء كله الذي أســـبغ عليه من قبل أنصاره ومؤيديه، مجرد نتاج أجوف من صنع الصحافـــة، بل كان رجلاً وطنياً محباً لوطنه ومتحمســـاً للدفاع عنـــه منفياً ومضطهداً. وكان أًفي عصبة الأمم، وصاحب شـــخصية بارزة مرموقة وجذابة. وخلب، في مرحلة من مراحل ما بين الحربين، ألباب الناشـــطين السياســـيين وذوي الميـــول الدينية في آن معاً. وبوصفه خبيراً بارعاً في الشـــأن العام، حدد القضايـــا التي يعدها المجتمع العربي الإسلامي أســـباباً للجور الذي ألم به-الظهير البربري، ونظام الانتداب، والاستيطان الصهيوني في فلسطين، والعلمانية المتفشـــية-وزعم أن أوجه الجور هذه يمكن تقويمها وإصلاح حالها. وهـــو إلى ذلك مارس الطقوس التي ســـعى العالم الأقـــدم عهداً من خلالها إلى الحفاظ على نفســـه، وحقق ذلك عبر أدائه فريضة الحج ومن خلال أســـلوبه الأدبي الغني وطريقته الأنيقة (بالمظهر والملبس والتعامل)، وكان يحتفي بمناقبية إنسان أرستقراطي صيره القرن العشرون المتوحش ناشطاً. وهو لم يخاطب الماضي الميئوس من اســـتعادة أمجاده بقدر ما وجه خطابه وصب اهتمامه على الروابط بين الماضي والحاضر. وخاطب رغبة الإنسان عميقة الجذور في استعادة نظام الحياة العادي البسيط المألوف في زمن الاضطراب والبلاء والعناء. ولكنه قرن رسالته بالحض على العمل، وتحلى بالجرأة والشـــجاعة، وكان كما قـــال عنه محمد كرد علي "رجلاً عزَّ نظـــيره"، ولكن على صعيد الجهود التي بذلها استكشـــافاً لاتجاهات جديدة ترمي إلى وضـــع حد لإذلال العرب، وفي إطار حاجته للاســـتفادة من نفوذه الذي تأتى له تجاوز حدود القدر الذي تمكن من التحكم به. واتهم، وهو في قمة شعبيته وجماهيريته واحترام الناس له، بالفساد والخيانة. وكما سوف يتبين من الفصل اللاحق، لم تتعافَ سمعته تماماً قطُّ.

الفصل السابع

نحو المحور

لم ألوث يدي والحمد لله بقبول فلس واحد من أي دولة أجنبية.

أرسلان[1]

في ضوء الظروف الراهنة، يبدو وجود الأمير في سويسرا غير مرغوب فيه؛ ذلك لأنه كان ينظر إليه دوماً بوصفه عميلاً لإيطاليا، ولألمانيا، وحتى للسوفيات.

النيابة العامة الاتحادية، برن[2]

في خضم سعيها وبذلها جهوداً لتحقيق الاستقلال عن الدولتين اللتين تقاسمتا الهيمنة على معظم البلدان والمقاطعات من المغرب إلى العراق، حققت الحركة العربية بعض الانتصارات الحقيقية في أواخر ثلاثينيات القرن العشرين. ولم تغير الثورة التي اتخذت من العنف وسيلة لها ولا التفاوض الهادئ واقع الهيمنة البريطانية والفرنسية. وقد أدت المعاهدات التقييدية مع العراق ومصر، وتشريع الجبهة الشعبية غير المشروع المتعلق بكل من سوريا والمغرب، والهجرة الصهيونية المستمرة إلى فلسطين؛ كل ذلك أدى إلى إقناع الرأي العام العربي بتعنت الإمبريالية الفرنسية البريطانية. وإزاء هذا الموقف، استنتج قطاع واسع من القادة العرب أنه لا يمكن تحقيق أهدافهم إلا بمساعدة من حلفاء أوروبيين قادرين على توظيف الوسائل الدبلوماسية والقوة المسلحة الممكنة

ضد سلطات الاحتلال. هذا وقد تتبعت دراسات أخرى هذه التطورات بالتفصيل[3]. ويكفي في هذا السياق أن نشير إلى النموذج الواسع من تعاون المحور العربي بوصفه إطاراً كان لكتابات أرسلان وأنشطته ضمنه مكانة خاصة. ولم يكتفِ أرسلان بمجرد الترحيب بالتحول الجديد نحو المحور، بل سعى إلى تأطير هذا الواقع وصياغته.

واستندت مبادرات الانفتاح العربية على ألمانيا، وإلى حد أقل بكثير على إيطاليا، في المقام الأول على المزايا الاستراتيجية المتوخاة من التحالف مع قوى أوروبية "منزهة" عن المشاريع الإمبريالية. وبهذا المعنى كان لألمانيا جاذبية خاصة بوصفها حليفاً. ولم تعد حكومة فايمار ولا خليفتها النازية الشرق الأوسط من الأهمية بما يكفي لتسويغ صياغة موقف سياسي متماسك حيال المنطقة. فقد كانت مصالح برلين في أوروبا، ولم تكن لها مصلحة في استعداء بريطانيا في بلاد الشام إن كان ممكناً كسب تنازلات في القارة دون استعدائها. وعلاوة على ذلك، مع الإعلان عن تأسيس المحور في العام (1936م)، أقرت وزارة الخارجية الألمانية بأن البحر الأبيض المتوسط هو منطقة نفوذ إيطالية، معللة قرارها بقولها إنه أجدى نفعاً لأهداف الرايخ الألماني ترك إيطاليا وبريطانيا تحلان خلافاتهما في العالم العربي.

ولكن هذا لا يعني أن الانخراط الألماني الرسمي في المنطقة كان غائباً تماماً. فقد أسست قنوات تواصل مع قادة سياسيين عرب أواخر ثلاثينيات القرن العشرين، وبدأ البث الإذاعي باللغة العربية من برلين في العام (1939م)، واستقبل في تلك المدينة (برلين) طلبة عرب وبعثات عربية. كما زارت مجموعة من كبار الشخصيات النازية مثل غوبلز وفون شيراش بعض العواصم العربية. كان المحرك الدافع لتحقيق هذه المصلحة الألمانية، جزئياً، التوتر المتزايد مع بريطانيا العظمى، وإدراك الألمان أنه يمكن للسياسات اليهودية النازية أن تكون سياسات هزيمة ذاتية. فإذا نجح الصهاينة في الحصول على دولة يهودية في فلسطين تبعاً لما بدا أن خطة التقسيم للعام (1937م) تسمح به، آنذاك تكون، وفقاً للرؤية النازية، قد نجحت المؤامرة اليهودية العالمية في تأمين مركز يكون قاعدة لسلطة اليهود ينسجون من خلالها المكائد. وبناء على ذلك كان لألمانيا مصلحة

نوعــاً ما في دعم العالم العربي عــلى وجه العموم بوصفه عامل تــوازن محتملاً في وجه التهديد المذكور. والثورة الفلسطينية التي اندلعت بين العامين (1936م) و (1939م) أتاحت فرصة لإحراج بريطانيا وتشــجيع العرب. وجرى تمويــل المتمردين الثائرين بقدر متواضع جداً من الأموال، كما تم توفير أســلحة لهــم في العراق[4]. وكانت هذه الإجراءات مجرد خطوات مبدئية. أما السياســة الألمانية الرسمية حيال الشرق الأوسط العــربي في حقبة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، فيمكن وصفها على وجه الدقة بأنها سياسة اتسمت بعدم الاكتراث.

ولم يكن الوضع نفسه ينسحب على إيطاليا الفاشية. ففي ظل هيمنة قيادة موسوليني المغامرة والخطيرة، عقدت إيطاليا العزم على السعي إلى تغيير الوضع الذي كان قائماً على طول شــواطئ البحر الأبيض المتوســط والبحر الأحمر[5]. وفي الوقت الذي كانت فيه خطوط السياســة الخارجية غامضة وتفتقر إلى الدقة، ظهرت بعض الاتجاهات القائمة على مواجهة العالم العربي بعد العام (1933م). وفي محاولة منه لتحدي الموقف المهيمن لكل من بريطانيا وفرنسا، انتهج موسوليني سياسة ترمي إلى إعادة النظر في نظام الانتداب الذي خلف إيطاليا من دون هيمنة في منطقة الشرق الأوســط، وأضعف عصبة الأمم التي حالت دون تمكين إيطاليا من الحصول على منطقة نفوذ. وأطلق موســوليني أيضاً مشاريع توسع إمبريالي مباشر، كما في الحرب الإثيوبية (1935م- 1936م)، ومشاريع الاستعمار التي أطلقت في ليبيا على نطاق واسع في العامين (1938م- 1939م). ومن أجل زعزعة موقع بريطانيــا في البحر الأحمر، كلفت بعثة إيطالية كبرى بتنفيذ عمليات في اليمن، وبُذلت جهود في قصر ابن ســعود. كانت روما تنتهج سياسات معقدة للغاية في بلاد الشــام، ومتناقضة أحياناً، حيث كانــت في مرحلة معينة تدعم كلاً من وايزمان والحاج أمين الحســيني في آن معاً، ولكن كان الهدف من كل ذلك إقلاق راحة بريطانيا وزعزعة موقفها.

جرى إســناد هذه المناورات بحملــة دعاية ثقافية مكلفة صممــت من أجل إزالة الانطباعات التي تشــكلت إبان الغزو الإيطالي لليبيا، ومــن ثَمَّ بغية تعزيز هيبة إيطاليا

بين العرب. فشرع راديــو باري يبث بثاً مباشراً باللغــة العربية، ووزعت إعانات على مختلــف الصحف، وزرعت شــبكة من المخبريــن والعملاء في المنطقــة، وكانت هذه الأدوات الرئيســة التي نقلت باســتخدامها رســالة إلى العالم العربي مؤيدة للإيطاليين ومناهضــة للبريطانيين[6]. وقد أعلن راديو باري أن رومــا عقدت العزم على تخليص الشعوب العربية المضطهدة من قبل الإمبريالية البريطانية والفرنسية، وأن أم الحضارات قررت أن تســتعيد دورها العظيم في مناطق البحر الأبيض المتوســط بوصفها وسيطاً وصلة وصل بين آسيا وأوروبا. غلفت هذه الوعود بمسحة واقعية بعض الشيء وذلك عبر تأســيس معهد جديد في روما للشرقين الأدنى والأقصى في شــهر ديسمبر/ كانون أول من العــام (1933م)، وتزامن حفــل افتتاح المعهد مع اســتضافة مؤتمر لطلاب آسيويين. وفي السنوات اللاحقة، أنشئ نادٍ ثقافي شرقي ومكتب دائم للتعاون الأوروبي الآسيوي، ونشرت نشرات عديدة متنوعة، وترجمت كتب إيطالية قليلة عن الإسلام إلى اللغة العربية. كما تُوّجت صورة روما بوصفها وطناً للطلاب المسلمين وراعياً للإسلام في إعلان موســوليني بوصفه حامياً للإسلام، إبان زيارة الدولة التي قام بها إلى ليبيا في العام (1937م).

وفي حين لاقت المحاولات التــي بذلت لإحراج بريطانيا والإيماءات التي توجهت نحو الإسلام بعض الاستحسان في العالم العربي، فإنها لم تكن كافية إطلاقاً على التغلب على واقع انعدام ثقة العرب بروما بســبب أطماعها الإمبريالية. وكان ينظر إلى إيطاليا في الوطن العربي بوصفها خلفاً لبريطانيا وفرنســا، لا بوصفها محرراً متنزهاً عن الغرض. وهذا "الصراع بين الأطماع الإيطالية والتطلعــات العربية" دفع حتى بعض المتحدثين الرسميين العرب إلى تفضيل التواؤم مع بريطانيا على التحالف مع روما، وأدى بآخرين إلى الطلب من ألمانيا أن تبدد مخاوفهم من الإمبريالية الإيطالية[7].

نظراً لإحباطهم الناجم عن الوجود الخانق لكل من بريطانيا وفرنســا، وعلى الرغم من تحفظاتهم، التي لها ما يبررها، على النوايا الإيطالية، فقد عمل عدد من الحكام العرب

ومجموعـــة من أعلام الفكر والثقافة على التقـــرب من كل من روما وبرلين في آن معاً في السنوات التي سبقت الحرب.

وفي العامين اللذين ســبقا انــدلاع الحرب، ناورت أنظمة كما نـــاور أفراد من أجل تعزيز مواقعهم ومراكزهم، مســتفيدين من المرونة التي أبداها الحلفاء، وذلك لتحسين أوضاعهم التفاوضية مع كلا المعســكرين. فعلى سبيل المثال، ابن سعود، في محاولة منه للحد من اعتماده على بريطانيا العظمى شرع في إجراء سلسلة من المفاوضات مع دولتين فاشيتين؛ الأمر الذي أدى به في العامين (1938م و1939م) إلى الاعتراف بضم إثيوبيا من قبل إيطاليا، وإلى إقامة علاقات ديبلوماســية مع ألمانيــا، وإلى إبرام اتفاقيات شراء أســلحة مع كل من روما وبرلين وعلى نحو مماثل، نظام الحكم في العراق الذي تمخض عن أول انقلاب بين العامين (1936م- 1937م) رتب أموره من أجل شراء أســلحة مــن ألمانيا، وبــادر إلى إقامة علاقات وثيقة الصلة مع الســفير فرتيز غروبا صمدت في وجه صعود الحكومات وســقوطها في بغداد، وبلغت ذروتهــا في الانتفاضة المناهضة للبريطانيين التي اندلعت في العام (1941م). أما الحاج أمين الحسيني الذي كان يمول فعلياً من قبل إيطاليا، فقد أجرى أول اتصالاته الرســمية مع المندوبين الألمان في العام (1937م)، طالباً منهم أســلحة ومعونات مالية للتمرد الفلسطيني، وجرى ذلك عبر القنصل الألماني في القدس. كما عمدت عناصر مناهضة للبريطانيين داخل قصر الحكم المصري وفي الأوســاط العسكرية المصرية إلى سبر غور الألمان بطريقة مماثلة، ففي العام (1938م)، قــام عزيز علي المصري، المفتش العام في القوات المســلحة المصرية، بزيارة برلين، حيث أجرى مفاوضات فيها بشــأن شراء أســلحة. وأطلقت مبادرات أخرى مماثلة ومتزامنة مع هذه المبادرات من قبل كل من بيروت ودمشق إلى جانب المغرب[8].

وعلى الرغــم من أن القيمة الاســتراتيجية لعلاقات المحور كانــت أكثر أهمية من محتوى الفاشــية على صعيــد الترويج لهذه الاتصــالات المبدئية، فقــد تولد شيء من الإعجاب، داخل الأوســاط العربية، ببعض الإنجازات الفاشية. وشأنها شأن الدول العربية، أُضعفت ألمانيا وإيطاليا بســبب الحرب. ولكن خلافاً للعرب، عملتا على قلب

ذاك الواقع رأســاً على عقب. فالمواقف التي اتخذها موسوليني وتظاهره بالقوة أضفى على إيطاليا، على الأقــل، مظهر قوة عظمى. وظفرت ألمانيــا بمزيد من التنازلات من بريطانيا في أوروبا، وازدادت هيبة النظام الفاشي على حساب اضمحلال الهيبة البرلمانية. لم يجلب فرض أنماط الديمقراطية الغربية إلا اســتمرار التبعيــة وعدم كفاية الحكم في الدول العربية المشرقية. وخيبة الأمل من هذا الوضع وجدت مجالاً للتعبير عن نفسها في تشكيل حركات شبابية شبه عسكرية، مثل حركة الفتوة في العراق التي ترعاها الدولة، والحزب الســوري القومي الاجتماعي الذي أسســه أنطون ســعادة في كل من سوريا ولبنان، ومنظمة أصحاب القمصان الخضر من شباب مصر. وقد أعربت هذه المنظمات جميعها عن درجات متفاوتة من الإعجاب بالإنجاز الفاشي.

وينبغــي النظر إلى تعاملات أرســلان مع القوى التي شــكلت المحور في ظل هذه الخلفية، وتتعين دراستها في ظلها أيضاً. فقد لعب الرجل دوراً مركزياً في تنسيق التفاعل بــين الرغبات الألمانية والإيطالية التي تتطلع إلى تكوين نظام عالمي جديد وبين ســعي العرب إلى نيل الاســتقلال. أدى قيامه بهذا الدور إلى الحكم عليه بقسوة من قبل بعض المعنيين بالأمر، واستهجن بعض المؤرخين الغربيين تحالفاته النهائية، بينما رأى منتقدوه المعاصرون دعمه لإيطاليا خيانة لمعاداته السابقة للإمبريالية التي لا لبس فيها، ورأوا في هذا الدعم موقفاً من قبل أرسلان يجب عليه أن يدفع ثمنه. وهذا الشك حيال تعاونه مع الإيطاليين شوه صورته ولطخ سمعته في آخر سنوات حياته. وأما وفقاً لما يراه أرسلان، فقد كان تواصله الــودي مع دول المحور امتداداً طبيعياً لجهوده الرامية إلى الضغط على كل من بريطانيا وفرنســا. وبالتزامن مع تنســيقه الحركات الاحتجاجية والمناقشــات الســلمية، حاول أيضاً أن يتدبر أمر المنافسات الأوروبية بغية كسب حليف للعرب من القوى العظمى. وامتزجت خبرته في الديبلوماسية الأوروبية مع استشعاره لماهية مهمته الشخصية مع مشــاعره حيال أهميته الذاتية، وحملته هذه العوامل جميعها على تولي دور المفاوض الرئيس. وهل تمكن أرســلان في نهاية المطاف من استدراج ألمانيا غير المكترثة إلى التحالف، وهل تمكن من كبح جماح إيطاليــا الطامحة إلى تحقيق أفضل مصالحها من

القضية العربية الإسلامية؟ في الحقيقة، لم يُبْلِ بلاءً حسناً لا في هذه، ولا في تلك، وبات غارقاً في وضع معقد للغاية، فأُسْقِطَ في يده ولم يعد في وسعه أن يتدبر الأمر، إلى أن فقد في نهاية المطاف مرونته التي كانت تمنحه شيئاً من القوة. ولكن انخراطه في الديبلوماسية الأوروبية أزعج، لبعض الوقت، خصومه البريطانيين والفرنسيين، ودفعه أكثر من أي وقت مضى إلى حيث غدا أكثر ظهوراً وبروزاً في الساحة الدولية، وهو الأمر الذي بعث في نفسه سروراً ورضا.

ومن منظور تلك الحكومات الأوروبية التي تعقبت تحركات أرسلان ونشاطه وحاولت تحديد ماهية أهدافه، كان أرسلان يعد مناوراً أكثر منه ضحيةَ منفى. رسمت محفوظات وزارة الخارجية وسجلات الأمن العام لأرسلان صورة مختلفة عن تلك التي رسمها له معجبوه في كل من القاهرة ودمشق. فقد كانت صورة لمحرض مهني ومحترف، صورة لعميل دائم الحركة يسعى إلى القيام بأفضل الترتيبات لنفسه. وبعد مراجعة شاملة لسجلات محفوظات وزارتي الخارجية الإيطالية والبريطانية، أقرت الدكتورة روزاريا كوارتارارو أنها لم تستطع أن تقرر إن كان أرسلان مجرد عميل يحرض الناس بغرض الإيقاع بهم، أو إن كان صاحب قضية حقيقية[9]. أما أنا فلا أتردد مطلقاً في حل إشكال معضلة الدكتورة كوارتارارو، وذلك عبر زعمي وتأكيدي على أن أرسلان أكثر رشداً واستقامة والتزاماً من أن يكون عميلاً محرضاً. وثمة أمر لا سبيل إلى إنكاره يتعلق بموقفه إبان الحرب العالمية الأولى. ذلك الموقف الذي يشوبه تضارب ويعتريه تناقض ظاهر يتمثل بتبرير مبدئي مقترن بتسوية واضحة. وعلى الرغم من موقفه المساند للمحور، فقد كان أرسلان جزءاً من تيار قوي من تيارات الرأي العام العربي. ومناوراته التي تفرد بها وتضمنت مجموعة هائلة من التصرفات التي خلبت ألباب طيف واسع من معجبيه، وقدرته على استقطاب دعم شعبي جماهيري، كل ذلك جعل منه شخصاً مثيراً للجدل. وكثير مما يعنيه شخص أرسلان وصورته لدى جمهوره العربي، وكثير جداً أيضاً مما اختار فعله بتأثيره الهائل ونفوذه الكبير مرتبط بقضية علاقاته مع كل من إيطاليا وألمانيا، إلى الحد الذي يحول دون القدرة على تقويم أرسلان ودراسته

على النحو الذي ينبغي، ما لم تبذل محاولة جادة لاستكشاف ذاك الارتباط. وعلاوة على ذلك، كان للمواقف التي اتخذها أرسلان أصداء في أنحاء العالم العربي بأسره، وأضحى أكثر من أي وقت مضى مركز اهتمام تراصفت معه وتحلقت حوله قوى سياسية إقليمية. وأفضل طريقة للبحث في تطور دوره هذا ودراسته إنما تمر عبر استعراض اتصالاته المنفصلة مع دولتين من دول المحور.

لقد بدأت علاقة أرسلان الخاصة مع ألمانيا وموظفي وزارة الخارجية الألمانية إبان الحرب العالمية الأولى، وتواصلت دونما انقطاع على مدى السنوات الثماني والعشرين التي أقام خلالها في أوروبا. كانت برلين ملاذه الذي لجأ إليه مع فجر عشرينيات القرن العشرين، ولم يحاول لا في السر ولا في العلن أن يخفي موقفه الودي من ألمانيا. وكما أكد هو نفسه ذات مرة لدى محاولته الحصول على موافقة الحكومة الألمانية وتبنيها رؤيته لمسألة معينة فقد كان صديق ألمانيا العربي الأقدم عهداً، الصديق الذي واظب على مدى سبعة وأربعين عاماً على التبشير بتحقق مصالح مشتركة بين ألمانيا والعالم الإسلامي[10].

وتعريف أرسلان لتلك المصالح ولسبب وجودها إنما يُرَدُّ جزئياً إلى الصورة التي شكلها لألمانيا من خلال الصداقات التي عقدها مع أشخاص معينين. فمنذ الزمن الذي أرسله فيه أنور باشا في مهمة خاصة في العام (1917م) وحتى اجتماعاته الأخيرة التي انعقدت في العام (1940م)، كان أصدقاء أرسلان من الأرستقراطيين الذين عملوا في مكاتب الخارجية الألمانية. وكانوا مجموعة صغيرة من الرجال المتحلقين حول فيرنر أوتوفون هنتيغ، والدكتور كيرت ماكس بروفر، وبارون هربرت فون ريتشهوفن، "وصديقه الحميم وأخيه" بارون ماكس فون أوبنهايم، هؤلاء هم الذين شكلوا الوسط الذي كون أرسلان من خلاله انطباعاته عن المواقف الألمانية حيال الشرق الأوسط العربي[11]. وصل أرسلان إلى حَدٍّ عَدَّ فيه حتى القيصر السابق "صديقاً" وأدى زيارة خاصة له في دورن في العام (1934م) [12]. ولم يبدُ أبداً أنه تعامل على نحو مباشر مع مسؤولين تقتضي مناصبهم ووظائفهم منهم خدمة الرايخ الثالث.

وضمن هذه الدائرة الصغيرة من الأرســـتقراطيين، انعقدت العلاقة الأكثر حميمية بين أرسلان وبين فون أوبنهايم (1860م- 1946م). وكانت تربط بينهما علاقة دائمة من الود. فون أوبنهايم الذي ينحدر من أصول يهودية عمل ملحقاً في القنصلية الألمانية العامة في القاهرة من عام (1890م) وحتى عام (1910م)، ثم استقال من منصبه ليتفرغ لعمله الذي يهــوى وهو الآثار الحثية (آثار الحضارة الحثيــة المزعومة التي ورد ذكرها كثيراً في العهد القديم)، لكنه اســتدعي مجدداً من قبل وزارة الخارجية الألمانية في العام (1914م)، وأنشأ من اسطنبول مكتب اســتخبارات للشرق وأداره. كان هدف تلك المنظمة التي أنشأها إنتاج حرب إســلامية مقدسة ضد الحلفاء. وسرعان ما قفل عائداً لمتابعة مســاعيه المتعلقة بالآثار الحثية، ولكن كان يظهر أوقات الأزمات ليعمل بوصفه عميلاً غير رسمي للحكومة الألمانية، مســتفيداً من علاقاته مع زملاء سابقين ذكرتهم آنفاً، وذلك بغية تحقيق مزيد من الاختراق السياسي الألماني للشرق الأوسط[13]. وكان لأرسلان والبارون في منتصف حياتهما العملية شغف مشترك، كان قاسماً مشتركاً بينهما، للعلم والأبحاث، واللغة، والشرق الأوســط العثماني، وتقاسما في أواخر حياتهما امتيازاً ملتبساً لكونهما آريين فخريين.

وفي حين أنه قــد لا يُلتمس من هذه العلاقات عذر لحســابات أرســلان المغلوط فيها، فإنها تبــين على الأقل أصول اقتناعه في أن للصداقة الألمانية العربية أساســاً متيناً على نحو اســتثنائي. وبينما ألقت قوى الأمن القبض عــلى أصدقائه المغاربة في باريس، وحالت منطقة كابيه دورســيه (تعبير يشير إلى وزارة الخارجية الفرنسية حيث مقرها) بينه وبين وطنه، كان يتودد إليه موظفــو وزارة الخارجية الألمانية القدامى، وهم رجال تمرسوا في شؤون الشرق الأوسط وتعاطفوا مع قضاياه على وجه العموم، وكانوا حتى في أحاديثهم الخاصة يقرون بأن الأمير المنفي "مهذب للغاية[14]". وكانت هذه المعاملة التــي تلقاها من الألمان بعيــدة كل البعد عن تلك التي تلقاها من كثير من الســلطات الرسمية الفرنسية.

وفي لغـة المجاملات، إن لم يكـن من حيث صَوْغ السياسـات، كان الانطباع يعزز بعضه بعضاً. فبالنسبة لوزارة الخارجية الألمانية في العهدين: عهد فايمار والعهد النازي، كان لأرسـلان ميزتان جذابتان بصورة خاصة- تعاطفـه المؤيد للألمان الذي لا جدال فيه و"الثقة غير العادية والهيبة اللتان ينعم بهما في مختلف أصقاع العالم العربي[15]". وفي حين لم يكن لألمانيا أطماع اسـتعمارية في الشرق الأوسط العربي، ارتأت وزارة الخارجية أن من المفيد لها أن تتملق شـخصاً له مكانة أرسـلان وتعاطفه وذلك كسباً لوده. كان القنصـل الألماني في جنيـف تلقى إيعازات بتكليفه بمسـاعدة أرسـلان، عبر تزويده بوثائق سـفره اسـتعداداً لقيامه برحلته إلى الولايات المتحدة. وأُلِّفَتْ رسائل شخصية لاسترضائه وتهدئة مشاعره التي تكدرت من جراء تقرير نُشرَ، وجاء فيه أن ألمانيا عازمة على الإذعان للمصالح الفرنسـية البريطانية في الشرق الأوسـط. وكما ذكر في الفصل الثالث من هذا الكتاب، تدخلت الوزارة في صيغة رسـالة شخصية خطها البارون فون ريتشهوفن خلال جلسة استماع ومرافعة تتعلق بشقة سكنية لأرسلان في برلين[16].

وفي الوقت الذي كانت تمد فيه يد العون لأرسـلان، تمنت وزارة الخارجية أيضاً أن تحاط علماً بتفكيره السياسي في الأوقات جميعها. وبناء على ذلك، بدأ في العام (1926م) صديق أرسلان القديم، البارون فون أوبنهايم، ممارسة نشاط كان لزاماً عليه أن يستمر فيه طيلة السـنوات التسـع عشرة اللاحقة، وتمثل في تقديم نسخ من مراسلات الأمير الشخصية إلى قسم الشؤون الشرقية في وزارة الخارجية الألمانية[17].

كانت المواد الأرشـيفية الألمانية تشير إلى أن معرفة أرسلان بالشخصيات والسياسة العربيـة، كانت عند معارفه من وزارة الخارجيـة الألمانية أكثر أهمية من صداقته. وكان يعد مورداً مفيداً للمعلومات (وفي هذه الحالة، كان هو نفسه يجهل هذا الأمر). كما كان يخضـع لمراقبة لصيقة كلما تقدم بطلب سـياسي. ولم يتمكن قط من التواصل مع كوادر الصف الأول من صانعي القرار الألماني المتعلق بالسياسـة الألمانية في الشرق الأوسط. ولم يحظَ مطلقاً بفرصة لعرض قضيته لدى أصحاب القرار من المستويات الرفيعة الذين كان يعتقد أنه يسـتحق أن يلتقي بهم. وكان قد استهل موجة من النشاط البروتوكولي،

وعكف على مراجعة العلاقات الفرنسية الألمانية العربية، عندما طلب أن يلتقي بالرئيس وأصر على طلبه وذلك في سنة (1927م). ولم يفلح في تحقيق هذا الطلب كما لم ينجح بعد سبع سنوات من ذاك التاريخ عندما طلب أن يلتقي بهتلر. وإن كانت هذه التجاهلات لطلباته قد أضرت بشعوره بأهمية ذاته، فهي لم تثنِهِ عن بذل جهود متواصلة للإفادة من برلين في سبيل قضيته. وكان انجذاب شكيب أرسلان إلى ألمانيا مستنداً إلى آمال أعظم بكثير من الصداقات الشخصية والاستحسان المتبادل.

وعندما أعلن فيلهلم الثاني في دمشق في العام (1898م) أن ألمانيا كانت الحامية لثلاثمائة مليون مسلم، وقف أرسلان إلى جانب القيصر[18]. وحتى آخر حياته، استند فهمه للتحالفات الأوروبية الداخلية والتحالفات الأوروبية الشرق أوسطية إلى هذا التعهد الذي يعود إلى القرن التاسع عشر. وفي رأيه، تأكدت صدقية هذا التعهد عبر التحالف الألماني العثماني الذي انعقدت رايته في الحرب العالمية الأولى. وعلى مدى السنوات الفاصلة بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، عمل على إقناع وزارة الخارجية الألمانية لتفعيل هذا المفهوم وجعله حجر الزاوية في السياسة الألمانية العربية.

أصبح مقتنعاً بالحاجة إلى التحالف الألماني؛ بسبب عجز القادة العرب عن إنجاز أي شيء من دون التحالف مع الألمان. وبينما كان يسعى إلى تعزيز علاقاته مع ألمانيا، احتفظ بشيء من المرونة في التعامل مع دول الانتداب وتجاوب تجاوباً إيجابياً مع المعاهدة التي جرى توقيعها في العام (1936م) بين فرنسا وسوريا. ولكن إخفاق المفاوضات المتكرر على المستويات جميعها في تحقيق تعديل جوهري في حالة الانتداب السورية أو في وضع المحميات المغربية، أدى بأرسلان إلى تكثيف مفاوضاته مع ألمانيا. والمقاومة سواء أكانت خلف المتاريس أم حول طاولة المفاوضات لا تحقق النجاح، ما لم يُصَرْ إلى إمدادها بالأموال والأسلحة والدعم الديبلوماسي من قبل دولة أوروبية قوية. وهذا الدور هو ما كان يتوخاه أرسلان من ألمانيا، وهو في رأيه في صلب تأكيد "المصالح المشتركة".

حاول هو وإحسان الجابري أن يحث وزارة الخارجية الألمانية على اتخاذ تدابير لتحقيق بعض المقترحات الجريئة، التي تظهر الأخطار الجسام التي كان أرسلان على استعداد لتحمل تبعاتها؛ وذلك نتيجة لإحباطه الناجم عن تعنت دول الانتداب. وإبان المراحل الأخيرة من الثورة السورية، اتخذ أرسلان الترتيبات اللازمة لعقد لقاء بين الجابري والبارون فون ريتشهوفن، وذلك لمناقشة خطة تهدف إلى الحصول على أسلحة وقرض مالي كبير من ألمانيا للثوار السوريين. وأكد البارون فون ريتشهوفن للجابري في اللقاء الذي ضمهما، ولأرسلان عبر رسالة شخصية، أنه في الوقت الذي تحظى فيه فكرة تحقيق الاستقلال لسوريا بتعاطف ألمانيا، فإن الوضع الاقتصادي المضطرب لفايمار ووضع ألمانيا تحت إشراف هيئة الرقابة على الأسلحة يجعل من أي مساعدة فعلية أمراً مستحيلاً[19].

وبعد سنوات قليلة، حاول أرسلان حمل ألمانيا على فعل ما لا ترغب فيه. وصور هذه المرة الالتزام الألماني بقضايا العرب بوصفه ينطوي على مزايا مميزة لبرلين. والسيناريو الذي أعده أرسلان وعرضه على الدكتور بروفر تخيل فيه أن حرباً وشيكة ستنشب حتماً بين فرنسا وألمانيا. وحاول أن يسوق الحجج والبراهين على أنه يستحسن أن تؤمن برلين، على نحو استباقي، حلفاء لها استعداداً للصراع المحتوم. والمرشحون الطبيعيون المثاليون لهذه المهمة، وفقاً لرؤيته، هم العرب المظلومون المضطهدون في كل من سوريا والمغرب العربي. وهم من يمكن أن يعول عليهم في تسريع وتيرة تحقيق النصر الألماني. لم يبد بروفر أدنى اهتمام ألبتة بالمقترح، شاعراً أنه ينطوي على مخاطر وأنه غير عملي. ولأن بروفر كان على دراية بتركيبة أرسلان، أدرك أن أرسلان، الذي لم يقتنع باعتراضاته على فكرته، سوف يحاول دون أدنى شك تمرير مقترحه عبر قناة أخرى سعياً وراء تنفيذ مخططه. لذلك "نصح على جناح السرعة بعدم استقبال أرسلان أو الجابري من قبل شخصيات رفيعة المستوى في الحكومة[20]".

مرتاباً كعهده بالدول الأوروبية، تحمل أرسلان خطر مناشدة الألمان علناً التماساً لدعمهم؛ وذلك لاعتقاده وإيمانه بأن ألمانيا هي الدولة العظمى الوحيدة التي ليس لها

حقاً وصدقاً أطماع إمبريالية مستقبلية في العالم العربي. فإذا كان ممكناً التعبير عن هذا التنزه عن الأغراض والأطماع عبر إعلان ألماني يصب في مصلحة استقلال العرب، فلسوف يكون هنالك أمل في التحرر. لقد كان مدركاً للمخاطر المتأصلة الكامنة في تحالف افتراضي عديم التكافؤ. وفي العام (1939م)، كتب لدانيال غويرين يقول: إن المسلمين تعاطفوا مع ألمانيا بسبب عدائها لأعدائهم ليس إلا. وما كانوا ليجهلوا حقيقة أنه إذا ما أطبق على رقابهم النير الألماني، عندها يكونون قد غيروا سادتهم فقط[21]. ولكنه مع ذلك كان اقتناعه راسخاً بأنه لا أطماع للألمان في بلاد المسلمين. وحث أثناء اندلاع الحرب المفتي السابق على إعلان دعمه للمحور، وأوضح له الأمر قائلاً: "إنني أشايع المحور وأسعى وراءه أملاً في أن يفضي انتصاره إلى تحرر الإسلام من ربقة عبوديته[22]".

والمبررات الأكثر تفصيلاً التي ساقها أرسلان تسويغاً لموقفه في هذا المجال متضمنة في رسالة أرسلها إلى أحد معارفه في منطقة البلقان، وهو سليمان آغا من كرواتيا. ومع أن الرسالة سُطِّرَتْ أثناء اندلاع الحرب، فهي تعد ملخصاً دقيقاً يشي بمشاعر أرسلان على مدى سنين عديدة[23]. ومؤكداً على السبب الجوهري الذي دعاه لاتخاذ موقف مساند للألمان، أوضح أن المسلمين لا يمكن أن يستعيدوا استقلالهم التام إلا من خلال الانتصار الألماني. كما أوضح أن "ألمانيا لم يسبق لها أن أخضعت لسلطانها أو ظلمت أي مسلم قط". وبين إلى ذلك أن ألمانيا عقب انتصارها سوف تعامل المسلمين بوصفهم حلفاء، لا رعايا. وفي معرض رده على التهديد المتمثل، ببساطة، باستبدال مجموعة من السادة (المستعمرين) بمجموعة أخرى، رأى أرسلان أن عليه الاعتماد على ما عده أمراً منطقياً في الموقف: "تعلم ألمانيا جيداً أنها إذا ما رغبت في أن تتخذ لنفسها من بلاد العرب مستعمرات على غرار ما فعلت كل من بريطانيا وفرنسا، فإنه سوف يتبدد الأمل في أن يسود السلام؛ لأن العرب وطدوا العزم على أن يعيشوا أحراراً ومستقلين. وتعلم ألمانيا هذا وإيطاليا كذلك". وإلى ذلك، أوضح أرسلان أنه لا توجد طريقة أخرى يمكن

اتباعها. فقد حاول هو نفسه أن يتفاوض مع سلطات الانتداب، وأخفقت المفاوضات. وقال في هذا السياق: "إن من تعتريه أوهام حيال احتمالات تحقيق أي تغيير، مهما كان متواضعاً، في السياسة البريطانية أو الفرنسية أو الروسية لا بد أن يكون شخصاً محروماً من العقل أو معدوم الضمير".

أرسلان رجل وطني تملكه اليأس من التفاوض، فكلما كان يحاول توسيع دائرته يجدها تضيق فعلياً. فهل تمكن في انجرافه نحو المحور من العثور على ملامح ألمانيا النازية التي تثير الإعجاب؟ كيف يستطيع، وهو المثقف الإسلامي العارف بموقف النبل والسمو القرآني من أهل الكتاب، أن يشعر بالراحة عندما يجابه بسياسات ألمانيا الهتلرية المناهضة لليهود؟ شأنه شأن أي سامي، كان يشعر بالقلق حيال توريطهم الكامل، ولم يسع قط بصورة مباشرة إلى الدفاع عنهم. ووضع نفسه في أحيان كثيرة في مواقف حرجة لشخص اختار حليفاً مشكوكاً فيه، ودافع عن ذاك الخيار عبر الغمز من قناة البدائل. قد تكون ألمانيا قمعت بضعة ملايين من أبناء التشيك، ولكن هذا الأمر لا يعد شيئاً إذا ما قورن بالمسلمين الذين بلغ عديدهم مئة وخمسين مليوناً واستعبدهم البريطانيون والفرنسيون. يقول أرسلان: لماذا تتحسر بريطانيا على هجرة اليهود القسرية من ألمانيا التي ترزح تحت وطأة نظام شمولي في وقت تعكف فيه هي، الدولة الديمقراطية، على ذبح الفلسطينيين الذين لم يقترفوا جريمة، ولا ذنب لهم سوى الدفاع عن وطنهم؟[24]

وعلى المدى الطويل، اختار أرسلان عدم التدخل فيما أسماه شؤوناً ألمانية داخلية (ولم يكن موقفه هذا موقفاً غير مألوف في أواخر ثلاثينيات القرن العشرين)، ولكنه تحمل شيئاً من الآلام والعناء ثمناً لنأيه بالإسلام، ومن ثَمَّ بنفسه عن العنصرية. نفى أرسلان نفياً واضحاً وصريحاً معاداة العرب للسامية لسبب واضح يتمثل في أن العرب أنفسهم ساميون، وحاول الإبقاء على مسافة تفصل العروبة عن النازية وتبعدها عنها، وقال في هذا الإطار: "إن حركة القومية العربية هي حركة عربية خالصة، ليست عنصرية ولا حاجة بها إلى النظريات القومية الاشتراكية الألمانية من أجل حث العرب على

رفض الهيمنة الأجنبية[25]". وكان يرد على عقائد المذهب والعرق بالاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث الشريف ليثبت أن التقوى الفردية هي المعيار الأوحد الذي يحكم على المؤمن من خلاله. يقول أرسلان عن ذلك: "إذا رغب مسيحي أو يهودي أن يصبح مسلماً بمطلق الحرية يغدو واحداً من المؤمنين، له مالهم من الحقوق وعليه ما عليهم من الواجبات. ولكن إذا رغب في البقاء على دينه مسيحياً أكان أم يهودياً لا ينبغي لأحد أن يحول بينه وبين ما يشاء[26]".

وهكذا، بينما كانت تجربته الخاصة مع الألمان الذين اصطفاهم لطيفة على وجه العموم، لاقى صعوبة في عرض رأيه المتعلق بقضايا بلاده. وأرسل رسالة إلى محمد علي الطاهر يقول فيها: إن ألمانيا، شأنها شأن الحلفاء جميعهم، "لها مبادئ لا أشاركها فيها"، وحاول أن يوضح لنوري السعيد أمراً: "أنا لا أهتم بهتلر، ولا أدافع عنه، ولا أؤمن بأيديولوجيته...[27]". كل ما كان يتوق إليه هو تأسيس حلف يمكّن الثقافة العربية الإسلامية من الانعتاق من القمع والاضطهاد ومن تنسم نسائم الحرية والاستقلال. ولا تختلف ألمانيا عن الحضارات الأوروبية الأخرى في افتقارها إلى أي عوامل جذب أصيلة بوصفها نموذجاً. وكل ما في الأمر أنه اتفق لألمانيا أن كانت "عدواً لأعدائنا".

وفي علاقاته مع ألمانيا في حقبة ما بين الحربين، لم يكن أرسلان وكيلاً عاملاً على نشر الدعاية الألمانية بقدر ما كان يتصرف بوصفه مدعياً عاماً نيابة عن العرب، محاولاً إقناع أصحاب القرار السياسي الألمان بتبني مجموعة معينة من المواقف حيال الشرق الأوسط العربي. ولم تكن هذه حاله في التعامل مع إيطاليا الفاشية التي انبرى للدفاع عن مغامراتها الخارجية. ولكي تبدو إيطاليا ذات ثقل مقبول موازن ومقابل لثقل بريطانيا وفرنسا، كان على أرسلان أن يصور المحرضين على الفظائع الليبية بوصفهم أبطال الإسلام الغربيين الجدد. لقد كانت شراكة محفوفة بالمخاطر جعلت من أرسلان شخصاً مثار جدل وسجال ومهاترات، وعرضته لهجمات شرسة مست نزاهته، وجردته من قدر من مصداقيته التي استحقها بجدارة وكانت نتاجاً لجهود مضنية بذلها.

وفي حقبة عشرينيات القرن العشرين، حاول الوفد السوري الفلسطيني أن يستقطب دعماً إيطالياً للمظالم العربية[28]، ثم توقفت هذه المبادرات إبان تجدد الغزو الإيطالي لليبيا. ولكن عندما سعت إيطاليا إلى إعادة تلميع صورتها في أعين العرب عبر تبنيها سياسة تصالحية مع الشعب الليبي، أعاد أرسلان تقويم موقفه. وكان منجذباً إلى حقيقة أن الإيطاليين، على حد تعبير أحد أشد منتقديهم، "كانوا حريصين كل الحرص على عدم الإساءة إلى الرأي العام العربي في مسائل دينية[29]". وواظبت إيطاليا على معارضة أنشطة التبشير (التنصير) في ليبيا، واتخذت خطوات لبناء مساجد ولاحترام الشريعة في مجال الأحوال الشخصية والميراث. ومهما كانت هذه السياسات سطحية، ومهما كان الحكم الإيطالي في ليبيا عديم الاكتراث بالشعب الليبي ونَزّاعاً إلى الاستبداد، فإنه يمكن الإفادة من المظاهر من قبل داعية حاذق.

مستعيناً بأدوات استشعاره عالية الدقة لأحوال المسلمين الخاضعين لسطوة الحكم الاستعماري، رأى أرسلان في موقف إيطاليا الجديد فرصة لتشكيل تحالف أوثق ارتباطاً. ونشر في العام (1933م) مقالاً في الصحافة المقدسية أعرب فيه عن استحسانه للعفو الإيطالي الذي أعلن عنه في ليبيا. فردت وزارة الخارجية الإيطالية على ذلك بتفاؤل مشوب بالحذر، معربةً عن أملها في أن ينتهج "الزعيم المؤثر" نهجاً يفضي إلى جعل العلاقات الإيطالية العربية تسير في اتجاه جديد[30].

ونتيجة لنشر هذا المقال، على الأرجح، وللاهتمام الذي حظي به، استؤنف التواصل بين أرسلان والإيطاليين. ووفقاً لما أدلى به أرسلان، وجهت إليه دعوة من قبل موسوليني لزيارة روما، ولكن رد عليه بقوله إنه سيلبي الدعوة فقط عندما يُصَار إلى إعادة القبائل الرُّحَّل الليبية إلى وطنها[31]. وعندما اسْتُهِلَّ العمل بهذه السياسة، ظهر أرسلان في مؤتمر للطلاب المسلمين استضافه موسوليني في شهر ديسمبر/ كانون أول من عام (1933م)، فأضفى بحضوره على اللقاء هيبة لم تكن لتنبغي له لو أنه غاب عنه. وبعد ذلك بوقت قصير، أي في شهر فبراير/ شباط من عام (1934م)، انعقد لقاءان بينه وبين موسوليني، قدم خلالهما للزعيم (الدوتشي) مطالبه من أجل إجراء

مزيد من التعديلات على سياسة إيطاليا في ليبيا. وعلى الرغم من أنه لم يعترف بالأمر بصورة مباشرة قطُّ، فمن المرجح أن يكون أرسلان قد وافق على الكف عن توجيه انتقاده للسياسات الإيطالية، إذا ما جرى تعديل هذه السياسات بحيث تتيح شيئاً من الحرية للمؤسسات الدينية الإسلامية. وكان يعرب، على مر السنين، عن ارتياحه لأن إيطاليا واظبت على تنفيذ الشطر الخاص بالتزاماتها بموجب الاتفاق[32].

مستنداً إلى هذه الأسباب الواهية، أضاف أرسلان موسوليني إلى قائمته العامة التي تتضمن أصدقاءه الشخصيين، وخلص إلى استنتاج يفيد بأن السياسة الاستعمارية الإيطالية، على الرغم من كونها مؤسفة وتبعث على الأسى في المقام الأول، فقد كانت تلك السياسة أفضل ترتيب يمكن أن يتوقعه المسلمون من سلطة أوروبية. وكانت بعد ذلك تقع على عاتقه مهمة تبديد الشكوك التي انتابت جمهوره العربي، وإقناعه بأن الأوضاع تبدو خلافاً لما يعتقد هذا الجمهور، إذ إن الإعلانات الإيطالية تنطوي على إخلاص في النوايا، والوعود الإيطالية صادقة ويمكن الركون إليها والثقة بها. وقد شكل هذا الموقف قيداً سيئاً للغاية عليه؛ ذلك لأنه هو المناضل المكافح المتحدث باسم شعبه الذي قال ذات يوم: "عندما يتعلق الأمر بمصالح العرب والمسلمين على وجه العموم، لا أخاف من مهاجمة أي شخص كائناً من كان"، وألفى نفسه يعترف: "لا أستطيع مهاجمة موسوليني في وقت أطلب منه فيه إعادة حقوق المسلمين في ليبيا[33]". لقد كان الإسلام بالنسبة لأرسلان منارة يهتدى بها إلى الحرية. أما في حالة إيطاليا فأقل ما يقال إنه كان على استعداد لمبادلة الحريات الدينية بالحريات السياسية.

وكان هذا الأمر شديد الوضوح وشديد الإحراج؛ الأمر الذي يتعلق بمحاولاته إقناع زملائه العرب بأن الغزو الإيطالي لإثيوبيا لم يكن مشروعاً إمبريالياً مماثلاً لتلك المشاريع الاستعمارية التي جردتهم من استقلالهم. وحاجج في مقالاته المتعددة التي كرسها لهذا الموضوع دفاعاً عن رأيه قائلاً: لقد دأبت إثيوبيا المسيحية باستمرار على قمع أغلبيتها المسلمة (استعمل هنا إحصائياته الخاصة)، في حين أن ما قامت به إيطاليا، على الرغم من أنه تمخض عن عواقب مؤسفة تمثلت في تدمير سياسة الدولة الإثيوبية،

فقد جلب سلوكها هناك سياسة إسلامية متنورة، وبناء على ذلك ينبغي أن يكون ما قامت به محل ترحيب من قبل المهتمين بمصير المسلمين جميعاً. ولم يتغاضَ أرسلان عن الإمبريالية ولكن "خفف من شدة إشفاقنا على الحبشة ذكرى المعاناة الرهيبة التي فرضها مسيحيو الحبشة على مر القرون على مسلمي ذاك البلد، وعلى مسلمي الدول المجاورة[34]". وحذر رشيد رضا أرسلان قائلاً إن الرأي العام المشرقي العربي يساند إثيوبيا بقوة، غير أن الأمير واظب على تقديم مزيج من الأعذار التي تبرر سياسات إيطاليا الإسلامية مع الإعراب عن استيائه من الغزو[35].

لم تكن تنطلي على أرسلان المظاهر الخادعة الكاذبة في ليبيا، أو حتى خطابه هو عن إثيوبيا. فمن له من الفطنة السياسية ما يكفي لإدراك أن الجبهة الشعبية ما هي إلا حكومة دولة إمبريالية، يعي بالتأكيد أن أطماع إيطاليا موازية لطموحات كل من بريطانيا وفرنسا. وأقر في سنوات الحرب الأولى أنه يتعين على ألمانيا أن تكبح جماح الجشع الإيطالي[36]. كما أقر أنه من المرجح أن تكون سياسة موسوليني الإسلامية مستندة إلى اعتبارات سياسية، لا إلى مودة حقيقية. ولكن هكذا كانت حال موقف أرسلان الخاص المؤيد للإيطاليين. وقد شرح موقفه هذا لرضا قائلاً: "أنا لي مطالب عند موسوليني تتعلق بمسألة سورية، وبمسألة فلسطين، وبمسألة طرابلس[37]". ويمكن لإيطاليا أن تساعد في معالجة المظالم العربية بسبب مكانتها في المقام الأول. وأعلن أرسلان بطريقة جعلته أشبه ما يكون بماكينة دعائية فاشية أن: "إيطاليا باتت الآن قوة من الطراز الأول... ولا يمكن إنجاز أي شيء على صعيد الساحة الدولية من دون الامتثال لها[38]". ويستنتج أرسلان: "بما أن إيطاليا قوة عظمى، فإنه في وسعها أن تمد لنا يد العون في كل من سوريا وفلسطين عبر انتهاجها سياسة مساندة للعرب[39]". ولدى مواجهته بوقائع الغزو الإيطالي لليبيا، قضى أرسلان بوصفه "رجلاً عملياً" بأن المزايا التي يمكن أن تعود بالنفع على القضية العربية من خلال استرضاء دولة إمبريالية تراجعت عن غيِّها، أكثر من المزايا التي يمكن انتزاعها عبر استعدائها[40].

بلغت التوترات التي أحاطت بالعلاقات الودية والتقارب بين أرسلان وإيطاليا حد الأزمة في ربيع العام (1935م)، حيث كان يقوم بنشـاط ملحـوظ يرمي إلى الانتقال من واقع التردد في الموافقة على إصلاحات موسـوليني في ليبيا، إلى موقع التأييد الكامل لسياسة إيطاليا الإسلامية الشاملة في إريتريا وإثيوبيا. وفي شهري مارس/ آذار وأبريل/ نيسان من تلك السنة، نشر أرسلان سلسلة من المقالات في صحيفة **الجمعية العربية** التي كانت تتخذ من القدس مقراً لها مشيداً فيها بتصويت إيطاليا الداعم للقضايا العربية في عصبة الأمم، ومدافعاً عن سياسـة روما حيال مسـلمي إثيوبيا، وموضحاً كيف يعول على تحالف مع إيطاليا في أن يعود بالنفع على قضايا العرب والمسـلمين[41]. ومع ظهور هذه المقالات، دخل أرسلان من غير قصد معترك السياسة الفلسطينية المحلية، وأصبح رهينة للصراع الذي كان دائراً بين فصيل النشاشـيبي وفصيل الحسـيني في ظل سلطة الانتداب. وما كان قد بدأ حينها بوصفه مغامرة دعائية عادية ترمي إلى تسـويغ موقف أرسـلان الخاص وإقناع الآخرين بتبنيه، تحول إلى حملة شرسة تهدف إلى تشويه سمعة الأمير، وجعلت من ذلك هدفاً رئيسـاً لها. وأصبحت السمعة المُشَهَّرَة للسياسة العربية في حقبة ما بين الحربين وحرب الصحافة في العام (1935م) سمة ثابتة في حياة أرسلان، مثل "حادثة الرسـالة المزورة"، وغدت من أكثر الاتهامات العلنية إلحاقاً للأذى بحياته المهنية. والسـلاح الذي لطالما برع في اسـتعماله من أجل إلحاق الهزيمة بخصومه، وهو الصحافـة الدورية، انقلب عليه محملاً بتأثير مدمر. فبعد نشر الرسـالة المزورة، لم تعد سمعته آمنة إطلاقاً كعهده بها سابقاً.

وفي الثامن عشر من شـهر إبريل/ نيسـان من العـام (1935م)، نشرت صحيفة **الجمعية الإسـلامية** المقربة من النشاشيبي نسـخة مطابقة للرسالة التي زعم المحررون أن أرسـلان خطَّهَا للحاج أمين الحسيني، مفتي القدس. وذكر في جزء من هذه الوثيقة المؤرخة في العشرين من فبراير/ شباط من العام (1935م) أن: "هذه الاتفاقية أبرمت من أجل إطلاق حملة دعائية مؤيدة لإيطاليـا في الدول العربية في أقرب وقت ممكن... وقد ترسـل وزارة الدعاية في روما بعض الملاحظات بغية نشرها[42]". وكان معارضو

المفتي يستغلون علاقات أرسلان مع الإيطاليين وصداقته المشهورة مع الحاج أمين من أجل تشويه سمعة المفتي نفسه. كما كان هدفهم من نشر الرسالة إظهار أن الحاج الحسيني والمجلس الإسلامي الأعلى الذي يرأسه يعملون على نحو وثيق مع دولة أوروبية إمبريالية بكل تفاصيلها، شأنها في ذلك شأن بريطانيا. وعلى الرغم من أن ميول أرسلان المساندة لإيطاليا أثيرت فقط بوصفها وسيلة لتشويه سمعة الحاج أمين، فقد أضحى الأمير أكثر عرضة للخطر من جراء ذلك من المفتي. ويكشف تقرير صدر عن مؤسسة إيسكو النقاب عن أن الأطراف جميعها ردت على الحدث رداً هجومياً: "أثار نشر الرسالة عاصفة من المناقشات العنيفة في الصحافة العربية ترافقت مع سيل من الاتهامات المتبادلة والهجمات الصحفية والهجمات المضادة[43]".

لم يكن أحد أكثر شراسة من أرسلان. ففي قلب العاصفة، رد على المهاجمين بكل ما أوتي من قوة. وأرسل سيلاً من الرسائل الخاصة والعامة، ونشر مقالات دفاعه عبر صفحات مجلة **الأمة العربية**، وعبر كل المجلات التي وافقت على نشر مقالاته. انتقد أرسلان عبر مراسلاته مع رشيد رضا كل من كان له صلة بالرسالة، وألقي باللائمة على الدكتور الشهبندر بسبب موافقته على التزوير، وأدين الجابري بسبب إخفاقه في إبلاغ أرسلان عن نشر المقال، وهوجم البريطانيون لرفضهم السماح له بدخول فلسطين لرفع دعوى قضائية بالافتراء وتشويه السمعة[44]. استدعي خبراء في الخط ليعلنوا أن الرسالة مزورة استشهاداً بدليل تتضمنه، يثبت أن تأريخها وأسلوب إيراد التحية فيها مخالفان لطريقة أرسلان المعتادة في هذا الإطار، وأعلن أمير البلاغة أيضاً أن الرسالة تضمنت خمسة عشر غلطاً في ثمانية وثلاثين سطراً، يقول أرسلان عن ذلك: "هل تعتقدون أن عضواً في مجمع اللغة العربية عكف على التأليف على مدى حقبة امتدت خمسين عاماً، وعرف بأسلوبه الذي يتسم بالتزامه الصارم بقواعد اللغة، يمكن أن يرتكب أغلاطاً في بناء الجمل وفي القواعد لا يمكن أن يرتكبها حتى التجار؟[45]".

حذر رشيد رضا أرسلان من تطرفه الشديد في الدفاع عن النفس، وشرح له الموقف موضحاً أنه يوجد إقرار عام بأن الرسالة مزورة[46]. ولم يخفف أرسلان من حدته. وما

بدا ردَّ فعل مبالغاً فيه على حادثة يمكن توقعها من قبل رجل يفخر في كونه مجادلاً صريحاً، في هذه الحالة، مبرر بسبب الطريقة التي حدد أرسلان بها الرهان. وفي قضية تأتت فيها مصداقيته بوصفه صاحب شخصية بارزة مناهضة للإمبريالية، بدلاً من تلقيه التهاني لخوضه غمار مفاوضات سياسية يرمي من خلالها إلى تحقيق مصالح العرب على أفضل وجه، اتهم بنشر دعاية مساندة لإيطاليا. أدرك أرسلان فحوى المضامين الكاملة للعبارة المدمرة التي عبرت عنها الرسالة، وتبرأ مما ورد فيها مراراً وتكراراً. وقال عن ذلك: "لا أصير داعياً لإيطالية، ولا موسوليني يطلب من أن أكون داعياً لإيطالية[47]". ورضا، رأيه الذي يتمسك به بشدة بأهمية أن تبقى صورة أرسلان نقية لا تشوبها شائبة بالنسبة للقضية العربية الإسلامية، حثه على المضي قدماً وعلى "الإمساك عن كل كلمة مدح أو دفاع عن إيطاليا أو ذم للحبشة وتنفير منها الآن[48]". وهذا ما لم يستطع أرسلان فعله. وشعر بأن التقارب بينه وبين الإيطاليين تقارب معقول، وقد جرى استغلاله من قبل الراغبين في تشويه سمعته خدمةً لقضاياهم الشخصية، وهم البريطانيون والصهاينة وبعض العرب الساعين إلى تحقيق مصالحهم.

والمشاعر التي عبرت عنها الرسالة يمكن أن تكون نابعة من أرسلان على الرغم من استيائه العارم. فعبارة "إني واثق من أن إيطاليا لن تعاملنا كما عاملتنا إنكلترا وفرنسا" كانت متسقة مع استراتيجيته في ذلك الوقت[49]. وسواء أكانت الرسالة الشهيرة مزورة أم لا، فإن إسهامه النهائي في الدعاية لإيطاليا في فلسطين كان واضحاً. وضارباً صفحاً عن تحذير رضا، واظب أرسلان على نشر مقالات مساندة لإيطاليا في مجلات عديدة مختلفة. وبصرف النظر عن عدد المرات التي تنصل فيها بشدة من المسؤولية عن كتابة الرسالة الملفقة، فإن الأنشطة التي كان يقوم بها عززت فكرة أن يكون هو مَنْ كتبها. وأفاد مسؤولون يعملون في سلطة الانتداب البريطاني أنه: "يبدو بما لا يدع مجالاً للشك، أنه (أرسلان) كان وما يزال يبث دعاية مساندة لإيطاليا على نطاق واسع في كل من فلسطين ومصر[50]". وفي هذه الحالة، توافقت أهداف أرسلان مع تفسير بريطانيا لها-حشد الرأي العام العربي بحيث تتفجر، في حال نشوب حرب أوروبية، الاضطرابات الكامنة

في كل من ســوريا وفلســطين ضد ســلطات الانتداب. ومن الواضح أن أرسلان كان مؤثــراً وفاعلاً على صعيد ربط وضعه بالسياســات الإيطالية مانحاً إياها بذلك نوعاً من المصداقية. وبالنســبة لمكتب المندوب السامي البريطاني، كان أرسلان يعد وسيطاً أساسياً وعاملاً حاســماً أمكن من خلاله إضفاء مصداقية على إيطاليا لجهــة تأكيداتها بانتهاجها سياســة تقدمية حيال المســلمين، لدى الرأي العام العربي. وقد أضفــى ذلك مزيداً من التدقيق من قبل المســؤولين البريطانيين على تحركات أرسلان وعلى سلوك أولئك المشتبه بعمالتهم له[51].

ومع ذلك، فإن مخاوف أرســلان حيال قدرة ســمعته على الصمود ومعايشة واقعة الرسالة الملفقة والقضايا التي أدت إلى إثارتها كانت مخاوف لها ما يبررها. فقد كان دوره في تعزيــز الدعاية الإيطالية صادماً وغير متوقع، لا لأنه يعد تحولاً دراماتيكياً عن عدائه السابق لإيطاليا فحسب، بل لأن معظم القادة العرب الآخرين أيضاً يرتابون في إيطاليا أشد الارتياب. وتمثل الاستثناءان الرئيسان من ذلك في شخص أرسلان وفي الحاج أمين الحسيني، وحتى الحسيني أخبر السفير الألماني في طهران أن أي قائد عربي يعمل بصورة حصرية مع إيطاليا مرشح لأن يخسر من فوره أتباعه ومناصريه[52]. أما بالنسبة لأولئك الذين لم يقتنعوا بتفســيرات أرسلان لموقفه التصالحي حيال الوجود الإيطالي في كل من ليبيا وإثيوبيا، فلا يوجد إلا احتمال آخر واحد-خان أرسلان مبادئه مقابل حصوله على أموال.

وعلى مدى العقد الأخير المثير للجدل من حياته، لم يســبب لأرسلان التعاسة شيءٌ بقدر ما فعلت الإشــاعة التي صورته عميلاً مأجوراً لإيطاليا. لقد أقر بتأييده لإيطاليا وحاول تبريره، لكن ما جرح مشــاعره وأغضبه تمثل في اتهامــه بأنه قدم الدعم مقابل المــال. وصدرت هذه الاتهامــات عن مجموعة متنوعة من المصــادر وخدمت مصالح متنوعة عديدة[53]. وكون هذه الاتهامات لم تُرَد من فورها بوصفها محض افتراء كشفت حالة ضعف الأمير في مجال التمويل.

لقد ذكرت موارد أرسلان المالية المشوبة بحالة من التشوش الشامل مرات عديدة في هذه الدراسة. وتقتضي الضرورة استعراضها في هذا المقام؛ لأنه بنشر الرسالة الملفقة أصبحت تلك الموارد سمة بارزة من سمات صورته العامة أكثر من أي وقت مضى. وعلاوة على ذلك، فإن قضية إذا ما كانت ولاءات أرسلان السياسية تحدد بموجب حاجته المعروفة جداً إلى المال، تمتد إلى ما وراء مثاله الخاص به فتلامس جهود سلطات دول المحور، لتؤثر على السياسة العربية عبر إعانات تمنح إلى منظمات وأفراد آخرين.

لقد غدا أرسلان متورطاً في معترك هذه الجهود؛ لأنه كان مقرراً من قبل أولئك الذين أولوه اهتماماً أنه لم يكن متوفراً على ما يكفي من الدخل للقيام بكل ما كان يقوم به من أعمال. ووصفه صديقه الألماني، الدكتور بروفر بأنه رجل "يعاني أزمة مالية مزمنة"، واشتكى الاتحاد المديني في جنيف من أنه لحقت بالأمير سمعة بين تجار المدينة بسبب كونه "مرهقاً في دفع المستحقات[54]". وكان ينتاب السلطات السويسرية قلق من أن يؤدي الوضع المالي المضطرب لأرسلان إلى جعله عرضة للخضوع إلى ترتيبات من سلطات أخرى؛ الأمر الذي يمكن أن يؤدي إلى المساس بمبدأ الحياد السويسري. وأثارت التكهنات بشأن الدخل الإضافي لأرسلان الصديق والعدو على حد سواء، وجعلته، تقريباً بالقدر نفسه الذي جعلته فيه كتاباته المثيرة للجدل حيال أمور أخرى، هدفاً للبحث والاستقصاء وإطلاق الشائعات.

وكمثال على الهالة التي أثيرت حوله في هذا الوقت، فإن جهاز الأمن السويسري، الذي كان من أكثر الوكالات الأوروبية المشرفة على أنشطته فاعليةً، كان مقتنعاً أن أرسلان تلقى في العام (1936م) مبلغ خمس مئة ألف فرنك سويسري من بيير فينو، وكيل وزارة الدولة للشؤون الخارجية في حكومة الجبهة الشعبية[55].

ولكن معظم الادعاءات والمزاعم التي تتعلق بترتيبات أرسلان المالية غير المشروعة تتعلق بحصوله على أموال إيطالية. وكان مسؤولون بريطانيون وفرنسيون، بصورة خاصة، مصممين على أن دوره بوصفه موزع أموال يعطي تفسيراً للاضطرابات

المستمرة في المناطق العربية الخاضعة لها. وكان هذا استمراراً للاتجاه المذكور في الفصل الخامس، من هذا الكتاب في السياق الشمال أفريقي، الذي صنف أرسلان بوصفه راعياً للأعمال العدائية التي لم يكن في وسع الفلسطينيين (أو السوريين، أو المغاربة، أو الجزائريين) القيام بها من دون رعايته لها. ويرى أولئك المسؤولون أنه هو نفسه كان يجري التلاعب به بأساليب غير قويمة من قبل قوى شريرة في روما، ولا شك في أنه عميل تتم من خلاله إثارة السخط والتمرد المستمرين.

حتى قبل اندلاع ثورة العام (1936م)، ذكرت مصادر بريطانية أن أرسلان والجابري وزملاءهما كانوا يتلقون أموالاً من الحكومة الإيطالية لأغراض دعائية في فلسطين[56]. وقدرت الأموال التي حصلوا عليها حتى العام (1937م) بخمسة وسبعين ألف جنيه استرليني يفترض أن تكون قد وزعت على مدى أربع سنوات بدءاً من العام (1933م)[57]. ومن المؤكد أن أرسلان كان على استعداد تام للعمل بوصفه قناة لتمرير الأموال المكرسة لشراء أسلحة للثوار الفلسطينيين. ونظراً للرقابة المحكمة من قبل السويسريين عليه، فقد كان قيام أرسلان بالدور المنسوب إليه هنا من الصعوبة بمكان، لكن لم يكن مستحيلاً. وعلى أي حال، لم يكن أداء وظيفة من هذا القبيل أمراً منفراً على الصعيد الشعبي في الأوساط العربية بصورة خاصة. وما هو أكثر إضراراً وأشد إيذاءً الإشاعة التي أطلقت وزعمت أن الأموال التي تلقاها من إيطاليا كانت مكرسة لاستعماله الشخصي. وأرسلان الذي أسيء له بإطلاق هذه المزاعم، ولم يكن قادراً على تجاهلها، اضطر إلى الدفاع عن نفسه باستمرار. وكثيراً ما كان يفعل ذلك ببلاغة قوية: "أمضينا خمسة عشر عاماً ونحن ندافع عن قضية العرب والمسلمين، وندافع عنها على نفقتنا الخاصة... وضحينا في سبيل ذلك تضحيات كبيرة بالممتلكات والأموال، ولسوف نستمر على هذا النهج. ونحن لا نخدم ألمانيا ولا فرنسا، لا إنجلترا ولا إيطاليا، ولا أي بلد آخر. بل نخدم حصراً الأمة العربية التي ننتمي إليها، والعالم الإسلامي على وجه العموم[58]". وبينما عكفت قلة قليلة على إنكار تفانيه في خدمة القضايا العربية الإسلامية، استمرت الاتهامات التي استهدفته. وتملك أرسلان شعور

بأن الصحافة الفرنسية، على وجه الخصوص، تتصرف بدافع من الحقد وحب الانتقام في هذا الإطار، وكان يشتكي منها قائلاً: "لقد شوهت سمعتي افتراءً وقذفاً على نحو يتجاوز قدرة الإنسان على التحمل[59]". وفي معرض رده على الهجمات التي شنت عليه من قبل صحفيين فرنسيين، لجأ أرسلان مراراً وتكراراً إلى اقتباس حججهم معيداً صياغتها ومبيناً ضمناً مدى سخفها لدى عرضها إلى جانب إنجازاته ذائعة الصيت، ربما كانت أسلوباً مجدياً: "لم يفعل شكيب أرسلان ما فعله خدمة للوطنية، أو للإسلام على وجه العموم، أو من أجل العروبة؛ بل خدمة لهتلر وموسوليني اللذين باع نفسه لهما. بتعبير آخر، لا تعتقدوا أن هذا الرجل يدافع عن قضيتكم من أجل الحرية، أو العدالة، أو الإسلام، أو أي مُثُل أخرى. لا، بل هو يفعل ذلك من أجل تحقيق مصالح مادية خالصة. ويتعين عليكم ألاّ تهتموا بما يكتبه نيابةً عنكم[60]".

وفي معرض تحديه لأولئك الذين كانوا على دراية بكل ما قدمه للقضية العربية الإسلامية وتجرؤا على تسميته عميلاً مأجوراً، لم يكتف أرسلان بالانخراط معهم في حرب كلامية عنيفة، بل كان يذكر الحقائق إلى حد كبير، فلم يكن تعاطفه الموالي لإيطاليا يستهدف منه الحصول على مصالح شخصية. نعم، لقد حصل بالتأكيد على دعم من كل من إيطاليا وألمانيا، لكنه كان من أجل أغراض محددة مثل السفر والإقامة، وطباعة مجلة **الأمة العربية**[61]. ولدى إلقاء نظرة فاحصة على شؤونه المالية في حقبة أواخر ثلاثينيات القرن العشرين يتبين جلياً أن أرسلان لم يستعمل أي أموال تلقاها من دول المحور من أجل تحقيق مكاسب شخصية. ولدى سؤاله ذات مرة من قبل السلطات السويسرية إذا ما تلقى أموالاً من أي حكومة من أجل عمله، أجاب قائلاً: "لا. أنا رجل حر، وأرجو أن أبقى كذلك[62]". لقد كان صادقاً فيما قاله، وإذا ما أخذنا في الحسبان ظروف حياة أرسلان، فإنها تشكل سبباً كافياً لتبرئته من التهم الأكثر اشتباهاً في سمعته.

كان دخل أرسلان يُسْتَمَدُّ من أربعة موارد رئيسة: أمراء وحكام عرب، وقادة إسلاميين، وجماعات إسلامية، ومن جماعات سورية مقيمة في أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية، كانت تسهم إسهامات مالية غير منتظمة مكرسة للوفد السوري

الفلسطيني[63]. وقد استعمل أرسلان هذه الأموال لتحقيق الأغراض التي كرست من أجلها، وكانت تكاليفها كبيرة-نفقات بريد وبرقيات، وأجور ونفقات طباعة مجلة **الأمة العربية**، وتكاليف توزيع عرائض على عصبة الأمم، وتكاليف سفره وانتقاله المتعلق بأدائه واجباته بوصفه رئيساً للوفد (وربما قسم كبير من تكاليف سفر الجابري)، ونفقات عدد لا يحصى من الأنشطة الدعائية ذات الصلة.

كما تلقى أرسلان، إضافة إلى ذلك، عوائد أدبية على كتبه، ودفعات مباشرة على المقالات التي كان ينشرها وافتتاحيات الصحف والمجلات التي كان يكتبها. وبينما كانت سمعته تتنامى ووضعه المالي يتفاقم سوءاً، كان يعتمد على سمعته للتخفيف من حدة سوء وضعه المالي. اشتكى ذات مرة لرضا من أن ناشرين عرباً يكلفونه بكتابة مقدمات ومقالات من دون أن يدفعوا مقابلاً لذلك، ومن دون إبداء أي قدر من التعاطف مع ظروفه الاقتصادية المروعة. ولم يكونوا يدركون أن له زوجة وأطفالاً يعولهم، ولا وقت لديه يكرسه لكتابة من دون مقابل[64]. وكان أمير البيان مضطراً إلى التأليف للسوق فضلاً عن الكتابة من أجل القضية.

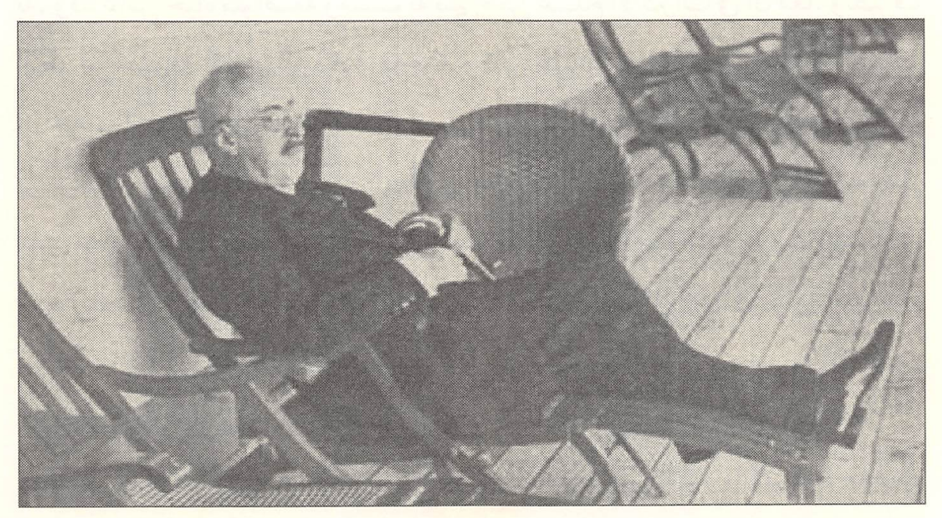
وحتى زمن اندلاع الحرب (العالمية الثانية) في العام (1939م)، كان أرسلان يتلقى دخلاً أيضاً من عائدات عقارات العائلة في لبنان. وسبق لي أن أشرت في هذا الكتاب إلى مراسلات تبين انخراط أرسلان العميق في مجموعة متنوعة من المشاريع التفصيلية المدرة للدخل، بدءاً من بيع الأراضي، ووصولاً إلى تشييد المباني. وتكريسه الفعلي من وقته وطاقاته لهذه المسائل فوق ما يطيق يشير إلى مدى حيوية الدخل اللبناني بالنسبة إليه[65]. وأخيراً، كان يحصل على بعض المال من تأجير شقته في برلين. وكان هذا الوضع غير منتظم بسبب القيود الدولية المفروضة على العملات، كما كان هذا الدخل غير متاح أحياناً بسبب إعادة تمويل الرهن العقاري للشقة كلما سنحت الفرصة. وإبان الحرب العالمية الثانية، ناشد أرسلان فون أوبنهايم استعمالَ نفوذه لترتيب أمور إيرادات إيجار الشقة التي تراكمت فبلغت ألفي مارك ألماني تقريباً بحيث يصار إلى تحويلها إلى وكيله في أمستردام، لكي يتمكن من الشروع في تسديد الأقساط المستحقة على

الدَّيْنِ[66]. ومتابعة أرسلان التي بلغت حد الاستماتة لهذا المبلغ الصغير نسبياً (800 دولار أمريكي) تكشف النقاب عن رجل يعاني ضائقة مالية خانقة.

كانت مديونيته ناجمة عن عدم كفاية دخله لتلبية متطلباته الخاصة والعامة التي ربطها به. وقد عاش حياة متواضعة ومشـوبة بشيء من عـدم الاكتراث في آن معاً. وبصرف النظر عن ظروفه، كان يختار فنادق فاخرة. وكان، على الرغم من كل شيء، أميراً، يتوقع أن يخاطبه الناس بقولهم يا صاحب السـمو، ويترتب عليه التزامات معينة. وبالإضافة إلى سكرتير شكيب الشـخصي، كان لدى أسرة أرسلان خادمة لم تتقاض أجورها على مدى سبع سنوات؛ لأن أرسلان فشـل، ببساطة، في دفع أجورها، وسويت القضية في نهاية المطاف من قبل محاميها. وعلى الرغم من أنه كان يذهب إلى الحلاق مرتين أسبوعياً، لم يكـن أحيانا يملك ثمن فنجان قهوة. وما أثار دهش مراقبيه السـويسريين أن العوز كان يصل به أحياناً إلى حد يحمله على الشرب من النوافير العامة في فصل الشـتاء[67]. ولشكيب عنوانان في جنيف هما شـارع هينتش وشارع مارييناك، وكانا يبلغان حداً من الترف والبذخ أحياناً يمكنهما من استضافة الملك فيصل وإكرام وفادته إلى جانب غيره من كبار الشـخصيات. وإلى جانب ما مرَّ ذكره، راكم أرسـلان على نفسه نفقات طبية كبيرة، كما كان لزاماً عليه دفع تكاليف تعليم أطفاله الثلاثة، ونفقات سفرهم. ويضاف كل ذلك إلى مجموعة مـن النفقات التي تقتضيها الحيـاة البورجوازية في جنيف. ففي غضون ثلاثة أشـهر من الأول من شـهر يوليو/ تموز حتى الثلاثين من شهر سبتمبر/ أيلول من العام (1938م)، سحب من مصرفه 935 , 8 فرنكاً سويسرياً[68].

أضاف إلى نفقاته الشـخصية نفقات أخرى تمثلت في تبرعاته المتواضعة إلى الطلاب العرب المحتاجين وجمعياتهم. وقد سـبقت الإشارة إلى إسـهاماته التي خص بها أحمد بلفريج. وكان يقدم مبالغ تتراوح من 50 –150 فرنكاً سـويسرياً إلى عبد القادر هاني، وهو شـخص آخر من الذين كان يدعوهم "أبنائي الأعـزاء" الذين واظبوا على إحياء مجتمع مصر في سـويسرا. وكان يعتذر دوماً من هاني لعدم تمكنه من إرسـال مزيد من المـال له، وقد كان في تلـك المرحلة يعاني "متاعب مالية"[69]، وهي الأشـد إرهاقاً له

مــن الناحية المالية، علماً بأنه كان يعاني معظم أوقات وجوده في الخارج. وقد حدثت له تلــك المتاعب لأنه في ظل رغبته في أن يبقى متحــرراً من المعوقات الناجمة عن التزاماته الشــخصية للحكومات الأوروبية، رفض قبول تلقي أموال من تلك الحكومات لتلبية احتياجاته الشخصية.



الرحلة الأخيرة: ميناء الإسكندرية، 1946

وقد أذهل مزج أرسلان-الاستقامة المالية مع الضائقة المالية حتى أصدقاءه الألمان. وإحــدى الوثائق الأجــدر بالملاحظة المدرجة في ملف أرســلان المحفوظ لدى وزارة الخارجية الألمانية، تتضمن رســالة أرســلها فون أوبنهايم إلى فون هنتيغ يشرح له فيها لماذا ذكر أرســلان في رســالته الأخيرة أن مصرفي الأمير في برلــين أُعْلِمَ بوجوب دفع 1,500 مارك لهنتيغ، وكتب فون أوبنهايم عن ذلك الآتي: "لا شــك في أن الرســالة تتعلق بفكرة شــكيب القديمة التي تفيد بأنه تلقى مالاً من وزارة الخارجية، ويرغب في تســديده تدريجياً"[70]. وعلى الرغم من أن هذه هي مجرد حادثة واحدة فإنها تتطابق مع نمط السلوك الذي اتبعه أرســلان في أواخر عقد الثلاثينيات. وهي تبين أنه، على نحو خــاص، تحت وطأة الحاجة الماســة، لا بد أن يكون قد وافق عــلى الحصول على أموال لاســتعماله الشخصي من وزارة الخارجية الألمانية. وتبين كذلك أنه تلبية لرغبته العارمة في ألا يكون مديناً لأي دولة أوروبية، أعاد المال إلى الوزارة. وكان يقبل تلقي مســاعدة

مالية أوروبية من أجل تغطية احتياجات نشاطات عامة تتعلق بتعزيز قضايا الاستقلال العـــربي، ويحتمل أن يكون قد عمل على تمرير أموال لمقاتلين عرب، إلا أنه لم يتلقَ هدايا مالية لاستعماله الشخصي.

ولم يكن أرســلان نموذجاً يمكن أن يعتد به على صعيد حفظ الســجلات، لذلك افتراض أنه كان يميز دوماً بين موارده العامة وموارده الخاصة هو افتراض غير واقعي. ولكن لم يكن ثمة وجود لما يشــعر ببحبوحة أو رغد العيش على الصعيد الشخصي، ولا وجود لما يشعر بمعاناة محنة اقتصادية مزرية. وعلى النقيض من ذلك تماماً، عندما وصل المفتي ورشيد عالي الكيلاني إلى أوروبا في العام (1941م)، تلقيا من برلين إعانة مشتركة لهما كليهما بلغت (000 , 200) مئتي ألف مارك شــهرياً، وحصلا على ســكن مجاني، ومدفوعات خاصة بلغت (000 , 250) مئتي وخمســين ألف مارك ألماني. وســلكت وزارة الخارجية الإيطالية معهما المسلك ذاته، حيث جهزت فيلاتين رائعتين لهما، وأمرت بدفع إعانة مالية لكل منهما مقدارها مليونان ونصف المليون لير إيطالي، وذلك في العام (1942م)[71]. ولو أن أرسلان طلب أموالاً، لكان تلقى بالتأكيد من قبل كل من روما وبرلين ما يكفي من الأموال لتخفيف حدة أعباء ظروفه الصعبة. ولكنه لم يطلب، وإلى أن يظهر دليل آخر منافٍ لهذا الذي أذكره، يجب علينا أن نستنتج أنه لم يتلق أي معونات مالية شــخصية كبيرة من إيطاليا أو مــن ألمانيا. كان تقربه من إيطاليــا تكتيكياً صرفاً، وكانت علاقاته مع ألمانيا لائقة ومتفقة مع السلوك القويم.

ظل دخلــه الخاص لبعض الوقت كافياً لتمكينه مــن المحافظة على المظاهر الملائمة للعيــش في جنيف. وكما كتب ذات مرة: "لم نكن في يــوم من الأيام أغنياء جداً، ولكننا لم نكن فقراء، وكان في وســعنا أن نعيش حياة مريحة إلى حد مــا بمواردنا المالية الذاتية التــي ورثناها من آبائنا[72]". ولكن عشــية اندلاع الحرب العالميــة الثانية، لم يعد هذا الوضع قائماً. وحاله حال كثيرين غيره كانوا يعيشون ظروفاً مماثلة، حافظ أرسلان على مظاهر تجعل الأوضاع تبدو مرضية خلافاً لواقع الحال عبر جعل مديونيته تتراكم أكثر فأكثر[73]. وفي العام (1946م)، أفلس أرسلان تقريباً.

وإن كانت مشكلات أرسلان المالية تسببت في جعله يعاني شيئاً من الصعوبات المالية والمواقف المحرجة في سنواته الأخيرة، فمن الملاحظ أنها لم تحد من قدرته على انتزاع مزيد من الشهرة والفوز بمزيد من الشعبية. وفي الواقع، هيأت أوضاعه المالية الظروف الموطئة لنشوب المواجهة الأخيرة والنهائية بينه وبين سلطات الانتداب الفرنسي.

ولما لم يعد يقوى على تحمل أعباء نفقات الحياة في جنيف، وربما لشعوره بأن فاعليته في أوروبا لم تعد تجدي نفعاً، حاول أرسلان للمرة الأخيرة أن يعود إلى سوريا. ففي العام (1938م)، شغر منصب رئيس المجمع العلمي العربي (مجمع اللغة العربية لاحقاً) في دمشق. فرغب أرسلان في شغل كرسي رئاسته رغبةً شديدة، وأطلق حملة علنية ترمي إلى تمكينه من شغل هذا المنصب. فمن شأنه أن يدر عليه دخلاً، ومن شأنه أيضاً بوصفه منصباً أكاديمياً له مكانته وأهميته أن يوفر للفرنسيين سبباً للتخفيف من شدة الحظر على إقامته في البلد الخاضع لسلطة الانتداب. وتفهم مناصروه داخل الحكومة السورية موقفه، وكانوا قادرين على اتخاذ الترتيبات اللازمة لاختياره[74]. وبمجرد الإعلان عن تعيينه، أبلغ أرسلان قراء مجلة **الأمة العربية** أنه عازم على العودة إلى دمشق تلبية لدعوة وجهت إليه من الحكومة السورية، وأنه ستتوقف طباعة المجلة ونشرها مؤقتاً، ثم سَيُصَارُ إلى استئناف إصدارها من العاصمة السورية.

وهكذا في شهر فبراير/ شباط من العام (1939م)، امتطى متن سفينة فيما بدا أنه خاتمة مشرفة لمسيرته العملية التي لم تعرف الهدوء. ولكن تبين أن ما صار إليه ليس سوى وعد زائف يمني النفس بأمل لا يحققه. إنها مجرد خيبة أمل مريرة أخرى. فعندما رست السفينة التي استقلها في ميناء الإسكندرية، أبلغ أنه لا يستطيع مواصلة السفر إلى سوريا؛ وذلك لأنه في الأسابيع الأولى من العام (1939م)، لم تكتف الحكومة الفرنسية بإتمام إجراءات سلخ لواء الاسكندرون وضمه إلى تركيا، بل رفضت أيضاً التصديق على معاهدة العام (1936م). وقوبلت هذه القرارات في سوريا باندلاع أعمال شغب، والخروج بمظاهرات، وبشلل حكومي. وكان آخر شخص يرغب الفرنسيون في دخوله إلى سوريا في تلك المرحلة شكيب أرسلان.

لكن بحرمانه من دخول سوريا، أوجدت سلطات الانتداب الموقف نفسه الذي رغبت في تفادي حدوثه-تصدر أرسلان من جديد عناوين الصحف في الصحافة المصرية وفي صحافة دمشق. وعُدَّتْ إهانته إهانة للعرب جميعاً. واستعملت سخرية الفرنسيين من استقلالية الحكومة السورية للتدليل على خواء المعاهدات الأوروبية[75]. وأياً كانت الشائعات التي سبق لها أن راجت حول ارتباطات أرسلان مع الإيطاليين، فإن قدرته على التصرف بوصفه مركز استقطاب للرأي العام المناهض للإمبريالية ما زالت قائمة. وكذا كانت جاذبيته الشخصية، وبذا غدا شخصية الموسم في مصر. وسمح له في نهاية المطاف بالعيش بحرية في البلد الذي احتضنت مجلاتُه مقالاتِه، وواظبت مطابعه على طباعة كتبه ونشرها على مدى عقدين من الزمن. وأقيمت احتفالات استقبال متنوعة تكريماً له واحتفاءً به، وأولمت الولائم على شرفه. ثابر محمد علي الطاهر على جعله حديث الساعة، وعلى تصدره وسائل الإعلام على مدى الأسابيع الأولى من وجوده في القاهرة. وحتى الهيئة الملكية الحاكمة خففت حدة العداء، التي أسهمت بقدر ما فعل الضغط البريطاني، في إبعاد أرسلان عن مصر إبان السنوات الفاصلة بين الحربين العالميتين. كما استضاف الملك فاروق، الذي كان يعمل على ضمان عدم صد أي دخول محتمل لمعسكر المحور، الأمير في قصر عابدين وأكرم وفادته[76]. وكانت آخر مرة استقبل فيها أرسلان بمثل هذه الحفاوة وهذا التكريم في العام (1912م) من قبل عباس حلمي، حيث ناقش معه حينذاك العلاقات المصرية العثمانية. وكان ذلك كله عشية اندلاع حرب أخرى في عالم مختلف جداً.

وبعد انتظار أربعة أشهر تقريباً أملاً في تحسن الأوضاع في سوريا، أدرك أرسلان أن استقراره في وطنه مازال بعيد المنال، فقفل عائداً إلى جنيف في منتصف شهر يوليو/ تموز من العام (1939م). وبعد ستة أسابيع، غزت ألمانيا بولندا. علق أرسلان في شرك أوروبا التي اندلعت فيها الحرب. وحتى تلك اللحظة ظل يحتفظ بشيء من المرونة في تعاملاته مع كل من الحلفاء والمحور. ولكن صار اتخاذ موقف محدد أمراً محتوماً. وكما كانت الحال في الحرب العالمية الأولى، كان أرسلان منجذباً بفعل ميوله وظروفه إلى

الوقوف إلى جانب ألمانيا. وسمعته التي تلطخت بسبب ارتباطاته السابقة تم التغلب على تبعاتها من خلال تقديمه خدمات متواصلة. أما هذه المرة فليست لديه فرصة من أجل إعادة التأهيل-الوقت نفد أخيراً بالنسبة إليه.

لم يحاول أرسلان أن يقدم أعذاراً. فلم تكد الحرب تدخل أسبوعها الثالث حتى ظهر في برلين. ولا شك في أن هدف رحلته الرئيس كان تعزيز وضعه المالي في مواجهة قيود الحرب المختلفة، التي كانت قد بدأت تحد من الدخل الذي يستلمه أكثر من أي وقت مضى (استغل الزيارة لإعادة رهن شقته المؤجرة في برلين)، ويضاف إلى ذلك أن وجوده في العاصمة النازية في مرحلة بالغة الحساسية أظهر دعمه المطلق الذي لا لبس فيه للسياسات الألمانية. لقد أدان المشرق العربي ظهوره في برلين، على الرغم من ترويج السلطات الألمانية له. فقد أعلن راديو برلين عن زيارته، ووفقاً لبعض المصادر، أسبغ عليه لقب مواطن شرف في الرايخ الألماني. وهذا اللقب هو من أوسمة الشرف القليلة التي أنكر أرسلان تلقيها إنكاراً مطلقاً[77]. ولكن خلفت هذه الزيارة التي أتت في غير أوانها انطباعاً بأن أرسلان تصرف على نحو يوحي بأنه يمثل كل العرب (ولم يفعل أي شيء لتبديد هذا الانطباع)، والذين لم يشاركوه رؤاه، أو لم يقروا بقيادته، نددوا به بشدة. ومع اكتسابه شرفاً لم يسعَ بالتأكيد إلى نيله، جُرِّدَ أرسلان من تكريم ربما كان يعنيه أكثر من أي شيء آخر-رئاسة مجمع اللغة العربية في دمشق.

وعندما عاد إلى جنيف في شهر أكتوبر/ تشرين أول من العام (1939م)، اكتشف أنه كان لرحلته إلى برلين تداعيات في سويسرا أيضاً. فقد أبلغه المدعي العام السويسري أن عليه أن يغادر البلاد بحلول شهر أبريل/ نيسان من العام (1940م). وأخر أرسلان تنفيذ الإجراء عبر تقديمه التماساً لإلغائه. وفي نهاية المطاف أصدرت المحكمة المختصة حكماً لمصلحة أرسلان. ولكن قيل لأرسلان إن هو غادر سويسرا مرة أخرى، فلن يسمح له بالعودة إليها[78]. وهذا القرار، الذي لم يكن في وسعه فعل شيء سوى الانصياع إليه، هَمَّش أرسلان. رجل مريض طاعن في السن محجوز في بلد محايد زمن الحرب.

ولم يكن أرســلان قط ذلك الرجل الذي يمكن أن يتنــازل عن موقع الصدارة عن طيب خاطر، فشرع يتصرف كما لو أن نصحه ومشــورته كانــا يؤطران ناتج الصراع. وعكف على تزويد البارون فون أوبنهايم بســيل متدفق من الرسائل التي تبين الطريقة التي يتعين على ألمانيا اتباعها في شــن حملة عــلى الجبهة الشرقية، وأخبر كذلك الحكومة الإيطالية كيف تدير شــؤونها السياسية في منطقة البلقان. وقدم إلى الحاج أمين الحسيني مشــورة ذات طابع تكتيكي، وبعث نشرات شــخصية إلى ابن سعود وإلى الإمام يحيى ضمنها اســتعراضاً ومراجعة للوضع العالمي ولمسار الحرب. وحاول كذلك استرجاع صدى صوته لدى الجماهير الشــعبية عبر إحياء مجلة **الأمة العربية** واستئناف إصدارها. وعندما رفض السويسريون السماح له بنشرها من بلادهم، تحول إلى معارفه الألمان طلباً للمســاعدة. وبعد إجراء مفاوضات مطولة، اتخــذت ترتيبات لطباعة المجلة في مطبعة المكتبة في باريس المحتلة[79]. ولم يعلن أرســلان عن الحــدث بتعابير تنطوي على تهنئة ذاتيــة على هذه البادرة التي تثير البهجة في النفــس. ولجأ بدلاً من ذلك إلى المواظبة على الإثقال على برلين بشأن تفاصيل النشر؛ الأمر الذي حدا بمرشده في مشروعه هذا، فون هنتيغ، إلى التساؤل عن أهمية المجلة قياساً بالضجة التي أثارتها[80]. وعلى الرغم من أن أرسلان حرر ما لا يقل عن عددين من مجلته، لا يوجد مؤشر على أن المجلة ظهرت فعلاً أثناء الحرب.

اشتكى أرسلان من أنه لولا وجود مجلة **الأمة العربية** لكان "لاذ بالصمت[81]". وما أبعد هذا الذي قاله عن الحقيقة. وتعهد أيضاً تعهداً يتساوق مع سمات شخصيته: "لن أكف عن إبداء المشــورة. ونظراً لخبرتي السياســية ومعرفتي الكاملة لكل ما هو عربي، أنا واثق بأنني على الطريق المســتقيم في كل المســائل التي تهم أمتي والشرق الأوســط برمته[82]". وإلى أن أبطأ المــرض في نهاية المطاف حتى وتيرة قلمه في العام (1942م)، كان يجد منافذ عامة لآرائه في الصحف المؤيدة للمحور، ومنها **المغرب الإســبانية** التي كانت تصدر عن مؤسسة بريد الشرق التي اتخذت من برلين مقراً لها، ومجلة **العالم العربي** المؤيدة للألمان والتــي كانت تصدر من بوينس آيرس[83]. وقضيتا الحرب الرئيســتان

اللتان انكب على متابعتهما كانتا استمراراً لمواضيع تخص قضايا لطالما سعى إلى تحقيقها على مدى سنين عديدة: حاجة العرب إلى الاعتراف بأن ألمانيا، بقتالها الدول والقوى التي استعبدت المسلمين تستحق مساندتهم ودعمهم، وحاجة ألمانيا بالمقابل إلى إصدار إعلان لا لبس فيه لصالح الاستقلال العربي. وعلى مستوى السياسة العربية الداخلية البينية، شارك أرسلان، على الرغم من أن مشاركته كانت هامشية، في المنافسة المريرة بين الحاج أمين الحسيني ورشيد عالي الكيلاني بشأن الاعتراف بالمحور بوصفه زعيماً أوحد للقضية العربية.

وبالنسبة لأرسلان، كان صدور إعلان ألماني إيطالي مشترك يعترف بالاستقلال الرسمي للدول العربية أمراً مُلِحّاً في غاية الأهمية. إذ كان من شأن إعلان من هذا القبيل أن يعزز ثقة العرب بالنزاهة الألمانية، وهو كفيل بوضع حد للطموحات الإيطالية، ويعول عليه في تعزيز مصداقية أرسلان. وعشية اليوم الذي شعر فيه هو ومراقبون آخرون عديدون أنه يوم سقوط طبرق، أوضح لفون أوبنهايم أنه "من الضرورة بمكان" بالنسبة لألمانيا أن تدلي بإعلان رسمي للمصريين ولمسلمي العالم، يشير إلى أن القوات المسلحة الألمانية عازمة على دخول مصر فقط، من أجل تحقيق هدف يتمثل في تحريرها من البريطانيين وتوحيدها مع السودان[84]. وكانت معظم الرسائل التي خطها للبارون إبان نشوب الحرب تتضمن النصح المشوب بالعتب ذاته، سواء أكانت المنطقة المشار إليها سوريا أم العراق أم البوسنة.

وعلى الرغم من كونه غدا مهمشاً، حاول أرسلان جاهداً ألا يمسي شخصاً منسياً. فبالإضافة إلى حفاظه على حجم مراسلاته الهائل، واظب على أداء دوره المتمثل بالتواصل داخل سويسرا بهدف التشاور مع كل من بلفريج وفؤاد حمزة في جنيف، ومع مسؤول القنصلية الألمانية في بازل، ومع بروفر في برن[85]. وأطلقت مبادرات من جهات أخرى أيضاً أسهمت في إبقاء اسمه حياً ولامعاً. فخلال أحد النزاعات المطولة التي نشبت بينهما من جهة، وبين مضيفهما (المحور) من جهة أخرى، طلب كل من الحاج أمين الحسيني ورشيد عالي الكيلاني أن يحضر أرسلان إلى روما لكي يعمل بوصفه وسيطاً

بينهما وبين موسوليني[86]. مستشعراً أن أرسلان يمكن أن يكون مفيداً في مرحلة ما في برلين، حاول بروفر أن يقنعه بالمجيء إلى عاصمة الرايخ الألماني أوائل العام (1943م)[87]. ولكن القيود السويسرية اضطرته للبقاء في ذاك البلد. ولم تكن مبادراته الخاصة عاملاً مهماً قط أثناء الحرب. وما نشره بعد العام (1941م) كان قليلاً جداً. وحتى أقرب معارفه الألمان إليه، فون أوبنهايم، كان مواطناً خاصاً-فقد كان آنذاك قد بلغ من الكِبَر عتياً وتجاوز الثمانين. ومن الواضح أن أرسلان بصفته الشخصية لم يحتل مكاناً بارزاً في خطط دعاية الرايخ الألماني.

ولكن كان يمكن أن تستغل شهرته بطرق خارجة عن إرادته. فقد كانت تقرأ مختارات من مقالاته بين الفينة والفينة ضمن البرامج الإذاعية لراديو دول المحور الناطق بالعربية. وأذاع يونس بحري، المذيع العراقي الشهير الذي كان يعمل في راديو برلين، عبر برنامج موجه إلى شمال أفريقيا في العام (1941م) الإعلان الآتي: "أيها الجزائريون! لقد باتت حريتكم في متناول اليد. لقد أعطى المستشار هتلر كلمته بهذا الشأن إلى شكيب أرسلان[88]". ولا يمكن الاستشهاد بمثال أكثر تحديداً عن تأثير أرسلان المتضائل من هذه المحاولة الملتوية لاستعماله. وعندما وضعت الحرب أوزارها كان أرسلان نتاجاً لما قيل عنه بقدر ما كان نتاجاً لما قاله وفعله هو نفسه. وكان إلى ذلك مفقراً ومريضاً وخارج دائرة الاهتمام.

ولأسباب ليست واضحة على الإطلاق، أخضعته الشرطة السويسرية إلى مراقبة شديدة أوائل العام (1946م). ووصفته تقارير الشرطة بأنه رجل معمر يعيش بعيداً عن زوجته وابنه في شقة فندقية، يمضي الأيام في مقاه، يطالع فيها صحفه، ويقابل عدداً قليلاً من الزوار خلافاً لابنه، وكان يختلف كثيراً إلى مصرفه ويقضي وقتاً هائلاً في سبيل ذلك[89]. يبدو أن هذا النشاط الأخير كان أكثر الأنشطة إلحاحاً عليه، فقد كان مطارداً من قبل الدائنين، وانتقص من قدره إلى الحد الذي جعله يكتب رسائل تعود عليه بالخزي والمذلة، ويرسلها لأصدقائه ومعارفه طالباً مساعدتهم. وعلى مدى أشهر عديدة، عاش على هذا المنوال معانياً تجاهلاً من قبل أولئك الذين كانوا يفتخرون

بـــه ذات يوم بوصفه بطلاً أو صديقاً. وقد حمل محمد علي الطاهر، بصراحته النموذجية، بشدة على حلفاء أرسلان الســـابقين الذين أخفقوا في الإفادة من مناصبهم الجديدة، في الســـلطات المخولة لهم، في مساعدة الرجل الذي كُرِّست حياته من أجل تهيئة الظروف التي صاروا يستفيدون منها[90]. كما (فعل محمد علي الطاهر) كل ما استطاع فعله وذلك بإخطار المسهمين المحتملين بمحنة أرســـلان، وعبر إرساله له التبرعات المتراكمة التي جمعها شخصياً من الناشرين في القاهرة.

ربما كان ما حصل في نهاية المطاف ملائماً، حيث أنقذ أرسلان من دائنيه من قبل ذاك القطاع من المجتمع العربي الإسلامي الذي كان صوته مسموعاً بوضوح فيه. لقد لاقى من أصدقائه في محنته تمنعاً وصداً وتجاهلاً، بينما وجد البر والإحســـان في شخص الأمير عبد الله، ابن الإمام يحيى إمام اليمن، الذي أرســـل له أموالاً لتسديد ما عليه من الديون الأكثر إلحاحاً[91]. وأدى ذلك إلى تحرير أرسلان من براثن أسره المالي في أوروبا، وجعله في سباق مع الزمن إن هو رغب في العودة إلى الوطن.

وفي خريف العام (1946م)، انطلق الأمير مستهلاً رحلته النهائية إلى الشرق. وعلى الرغم من ضعفه، كانت صحته جيدة بما يكفي للاســـتمتاع بالقليل المتاح، رحلة حنين إلى الماضي، إلى الوطن. وكما لو كان قد رتب أمور الرحلة سابقاً، فقد رست السفينة من جديد في ميناء الإســـكندرية، حيث كان قد اســـتهل عمله بوصفه صحفياً إسلامياً قبل ما يزيد على خمســـين عاماً، وحيث تبددت آماله كثيراً في السنوات الفاصلة بين الحربين العالميتـــين. أمضى في الإســـكندرية ليلة ختامية مع محمد علي الطاهـــر ومع الحاج أمين الحسيني قبل استئنافه الإبحار ميمماً شطر بيروت، حيث وصل إليها بهدوء أواخر شهر أكتوبر/ تشريـــن أول من العام (1946م). وأجمل ما في الأمـــر أنه حين وطأت قدماه أرض بلده، كان وطنه مســـتقلاً، وهو الهدف الذي كرس من أجله معظم سني عمره. وإن لم يعد قادراً على إطلاق الخطوة اللاحقة المتمثلة في إرساء قواعد المعايير الإسلامية، فقد يكون المحرض السياسي في داخله تمكن على الأقل من أن يستمد شيئاً من الارتياح، من حقيقة أن سمعته بوصفه ناشطاً يثير شيئاً من التهديد جعلته يصمد ويواصل العمل.

وفي الحادي عشر من شهر ديسمبر/ كانون أول من عام (1946م)، قدرت الشرطة السويسرية أنه بات آمناً إيقاف التنصت على هاتفه في جنيف، ولما يكن قد نمى إلى علمهم بعد أنه مات قبل يومين في بيروت.

الفصل الثامن
الخاتمة

توجد أعداد متنامية من المسلمين الذين باتوا على دراية تامة بأحوال الحياة الحديثة، وحققوا مزيداً من التماس والتواصل مع أهداف الحياة المعاصرة ومثلها، وما زالوا مع ذلك متشبثين بدينهم الذي تشربوا قيمه في طفولتهم، وبارتباطاتهم بالأجواء الإسلامية التي ترعرعوا في رحابها والتي يعتزون بها. ويتعلق هؤلاء الرجال، مع ذلك، بقيم ومثل ذات نظم سياسية واجتماعية معينة يمكنهم من خلالها تحقيق ذاتهم عبر نظام حضاري إسلاميِ الطابع والملامح والقسمات. وهم يستاؤون من هيمنة الحكم الأوروبي، وتعنت الفِكرِ الأوروبية.

توماس آرنولد[1]

ثقوا بأنفسكم وكونوا مسلمين جيدين، وابقوا متحدين في نضالكم لاستعادة حقوقكم.

أرسلان[2]

استهل أرسلان سيرته الذاتية بادعائه أنه لا يستحق أن تكون له سيرة ذاتية. وقوله هذا لا يمثل رأيه في نفسه ويفتقر إلى الدقة بالقدر ذاته. فالافتراض بأنه كان دوماً إيجابياً مسألة فيها نظر وعليها اختلاف، وأما الاختلاف على أنه كان، أم لم يكن، سيئ السمعة، فهذا ما لا ينبغي أن يكون.

وكانت مسـيرة أدائه التي غطت ردحاً طويلاً من الزمـن مفعمة بالتهليل ومتخمة بالاسـتنكار، وشـملت معظم الأزمات الشرق أوسـطية الرئيسـة التي عاصرها. لم تَتَأَتَّ أهمية أرسـلان بالنسـبة لهذه الأزمات من كونه عايشها فحسـب، بل من كونه سـعى جاهداً من أجل تحديد نتائجها. لقد كان شخصية عربية كبيرة وبارزة على مدى العقدين العثمانيين الأخيرين. وفي أعقاب هزيمة العثمانيين، شق لنفسه طريقاً خاصةً به ولعب دوراً خاصاً به أيضاً. وفي حقبة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، تضافرت مناوراته التي برع فيها على صعيد معالجة القضايا الجماهيرية مع مناوراته السياسية المثيرة للجدل، مع قدرته على الظهور بمظهر بطل العالم العربي والإسلامي بأسره، مع موهبته في العمل الدعائي واسـتقطاب الجماهير، تضافرت هذه العوامل مجتمعة وأسهمت في إكسابه سمعة فريدة في نوعها.

لم يختر أرسلان الإسـلام السياسي من بين خيارات متعددة؛ ذلك لأن الإسلام كان العقيدة الوحيدة التي عرفها. وأرسلان الذي كان نتاج منطقة طائفية إلى حد بعيد ضمن دولة قائمة على أسس الانتماء الديني، التزم بالعقيدة المهيمنة وهو في مطلع الشباب. ولم يخطر له في بال أن يغير مسـاره العَقَديَّ قط. كما أن اسـتشرافه للأمور تأطر من خلال الإرشاد الذي تلقاه من محمد عبده ومن خلال لقاءاته المقتضبة مع جمال الدين الأفغاني. ونظراً لافتقاره إلى طباع محمد عبده وعلمه وأمنه، عالج قضايا عصره الإسـلامية على طريقـة الأفغاني. فقد غدا ذاك القومي الإسـلامي الذي رأى في اسـتنهاض المجتمع الإسلامي سلاحاً كفيلاً بتحقيق الاستقلال السـياسي. وظل مجاهراً بمناهضته للنهج العلماني، وبقيت التجمعات المفضلة عنده هي التي تضم تحالفات الشباب المسلم، وأما حليفاه الأيديولوجيان فقد كانا رشيد رضا ودائرة الفتح.

ولم يكن أرسـلان مبشراً، ولا شـخصاً ظهـر في غير زمانه الصحيـح. وتزامنت الحقبة التـي ذاع صيته فيها مع انبثاق التجربة الليبرالية في مصر، ومع انتشـار كتابات سـاطع الحصري عن القومية العربية العلمانية، ومع ظهور برنامج أتاتورك الداعي إلى التغريـب (الفرنجة). وتزامنت شـهرته أيضاً مع الفترة التي طـرد فيها العالم المصري

علي عبد الرازق من وظيفته التعليمية بسبب كتابته التي جاء فيها أن الخلافة ليست مؤسسة سياسية إسلامية أساسية، ومع الحقبة التي تأسس فيها اتحاد الشباب المسلمين، وحركة الإخوان المسلمين، والجمعية المشرقية، وجمعيات أخرى ذات توجهات إسلامية استقطبت ولاءات الشباب وولاءات المتحررين من الأوهام، وفي وقت طبع فيه كتاب: **لماذا تأخر المسلمون...** ثلاث مرات في غضون تسع سنوات بين العامين (1930م-1939 م)، وعندما أضفت الحملة المناهضة للظهير البربري الشرعية على قوة الإسلام بوصفها قوة استقطاب. تاق أرسلان إلى إحلال النظام في الأوقات العصيبة. ورافضاً جديد التوجهات وغريبها، دعا إلى التمسك بالوصايا الأخلاقية والتضامن بين مختلف مكونات الشعب، وإلى التحلي بالروح الدينية التي حققت الرخاء والأمن في الماضي. وبفعله هذا لامس أرسلان وتراً حساساً.

كما تعززت شعبية رسالة أرسلان بالدعاية التي منحت له بوصفه فرداً. وميله نحو الترويج الذاتي أزعج معارضي سياسته، لكن جعله على الحال التي صار إليها. ولم يكن في وسع أي مُنَظِّر للتواري عن الأنظار تواضعاً أن يحقق ما حققه أرسلان. فقد كان يضيف ملوكاً عرباً من معاصريه ويستضيفونه، ويفاوض مندوبين سامين، ويؤثر في سياسات الإدارات الاستعمارية. وكان يعد رمزاً ومصدر إلهام للمسلمين، إخوانه في الدين.

استطاب أرسلان الدور الذي رسمه لنفسه، وأداه بالطريقة الوحيدة التي عرفها. والتمس الدعاية لنفسه والشهرة، من جهة إرضاءً لخيلائه، ومن جهة أخرى ضماناً لعدم تجاهل العالم للظلم الذي مورس على العرب. وعلى الرغم من افتقاره إلى الأدوات السياسية التي تتوفر للدول-أو حتى إلى مساندة متينة من جهاز دولة سياسي-فقد كان تأثيره كبيراً وملحوظاً. وكان مثيراً في القرارات التي يطلب من عصبة الأمم اتخاذها. وعلى الرغم من أنه لم يَحْظَ قطُّ باعتراف رسمي من تلك الهيئة، فلربما كان إسهامه فيها أكثر نفعاً، على وجه العموم، مما كان يعترف به. واحتكم إلى سليقته السياسية وأعلى شأنها. واستعداده للتواصل مع المختلفين معه أيديولوجياً زاد قوته وعزز نفوذه،

وعرضه في الوقت نفســه إلى انتقادات حــادة. فقد توافق مــع ليبراليين، وتحالف مع الفاشــيين، وتعاون مع أصوليين. وبات قاب قوسين من تشــكيل مجموعة ضغط من مزيج من إصلاحيين إسلاميين واشــتراكيين فرنسيين. ولكونه مرناً ومتعنتاً في آن معاً، كان مســتعداً لتقديم تنازلات لفرنسا، لكن ليس لأتاتورك. وكان هدفه من تعامله مع الأوروبيين تحقيق الاستقلال، وإطلاق عملية إعادة بناء حقيقية للمجتمع الإسلامي، وهذا ما كان يطرحه في مواجهة المسلمين، إخوانه في الدين. ونشاطه السياسي، وإثارته الدائمــة للرأي العام وأســفاره التي لم تعرف الهدوء، كل ذلك أضفــى بعداً عاماً على مســيرته. وهو ما افتقرت إليه مسيرة آخرين ربما كانوا أرفع منه ثقافةً، وأشد منه حذراً في معترك السياسة. وفي النهاية، عادت عليه هذه العوامل بالخزي، وجعلت منه لبعض الوقت مجاهداً.

وبالنســبة للسمعة السيئة التي لحقت به، لم يكن إرث أرسلان فيما يتعلق بها واضحاً وقاطعاً. فقد تلطخت ســمعته بســبب ارتباطاته الأخيرة مع دول المحور. وتم تجاوز الإمكانات التي توفرت عليها رسالته بواســطة تحقيق الاستقلال، وبحقيقة أن شرق، ما بعد الحرب، الأوســط العربي بدا متأرجحاً على حافة القومية العلمانية. وفي عهد عبد الناصر وحزب البعث، بدت الجامعة الإســلامية عديمة الصلة بالواقع الاجتماعي في وقت اســتصلاح الأراضي والإصلاح الزراعي والتوسع في التعليم، واشتراكية الدولة التجريبية. وفي تلك الحقبة، الذين كان هدفهم المحافظة على نظام أرســتقراطي مرتب نبذوا اجتماعياً بوصفهم متبلدي الشعور.

والانتقادات الرئيســة التي وجهت إلى منظري ما بين الحربــين من ذوي الأرضية العثمانية، ســواء أكانوا قوميين عرباً مثل ســاطع الحصري أم وطنين إســلاميين مثل شكيب أرسلان، تســتند إلى أنهم لا يتوفرون على تصورات لصيغ للتغيير الاجتماعي، ولا على فهم لاحتياجات الجماهير. وفي الوقت الذي لا يمكن أن يتوقع منهم أن يكونوا غير الذي كانوه، فإن التهمة التي وجهت إليهم دقيقة وتشــير إلى سبب آخر تعزى إليه محدودية تأثير أرسلان في السنوات التي أعقبت موته مباشرة، فقد كان إنساناً يطغى عليه

الحنين إلى استعادة أمجاد (الأمة الإسلامية) الشاملة، أكثر من كونه مصلحاً اجتماعياً، وكان مهتماً بالسلامة الثقافية أكثر من اهتمامه بأسباب الفقر في المناطق الريفية. وطالما أن طاقات النخبة كانت متركزة على مهمة تحقيق الاستقلال، فإنه لم يكن لدى أرسلان فكرة توحي إليه بأنه يتعين عليه أن يُعْنَى بمحنة الجماهير. لقد كان مخططاً استراتيجياً على صعيد الاحتجاجات المناهضة للإمبريالية، لا دليلاً للحكم. وبمجرد أن آلت أمور الحكم في المنطقة إلى ضباط الجيش من ذوي العقلية الإصلاحية، فقد الرجال، الذين هم على شاكلة أرسلان من حيث الأرضية والموقف، جاذبيتهم وسحرهم للجماهير، وصارت تلقى اللائمة عليهم على وجه العموم، وكان كل من أرسلان والجابري مثالاً على ذلك، وذلك تحديداً بسبب "أنشطتهما المساندة للعثمانيين، وخصالهما التركية، ونهجهما السياسي الذي يحاكيان فيه أسلوب السلطان عبد الحميد[3]". مات أرسلان قبل ست سنوات فقط من تنفيذ انقلاب الضباط الأحرار في مصر، وهو الذي أبصر النور قبل ستة عقود من مولد جمال عبد الناصر (1918م). وجاءت السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية بأجيال جديدة، كما أتت محملة بأيديولوجيات جديدة. ولم يكن إرث أرسلان قادراً على التأثير في القادم من الأيام والمستجد من الأحداث. لقد خلف أرسلان قلة قليلة جداً من المريدين، غير أنه عَمَّرَ في ذاكرة كثيرين.

إنها ذكريات رجل موطد العزم ماضي العزيمة، صاحب شخصية نابضة بالحياة. كان ذا حضور فريد في نوعه في قضايا العرب والمسلمين، ورفيع المقام في زمن كان نظراؤه فيه قليلاً عديدهم. وأعرب مصالي الحاج عمّا يختلج في وجدانه حيال أرسلان عندما صرح قائلاً: "أنا الرجل البسيط، أفتخر بكوني صديقاً وابناً روحياً لإنسان يتمتع بكل هذه الخصال الكريمة والفضائل. وأشعر أن الطريقة الوحيدة التي يمكنني أن أقر بفضله من خلالها-والطريقة الوحيدة للإقرار بفضله التي يراها هو مقبولة-إنما تتمثل في اقتفاء أثره، وتتبع خطاه، وتبني مبادئه...[4]". وفي معرض استجابته لهذه الإشادة، قال أرسلان: "لطالما ناضلت في سبيل القضية العربية، ومن أجل تحرير وطني. وللنضال مسارحه-لا ينبغي لأحد أن ينتحب على هذا الواقع أو أن يحاول تغييره. أنت شاب

والمستقبل ملك يديك، اعمل من أجل نيل حريتك وصون كرامتك وتحقيق مصالحك، ولكن افعل ذلك كله بهدوء واعتدال[5]". لقد عمل أرســلان بمقتضى الشــطر الأول من مشــورته، بيد أنه أخفق في الامتثال إلى الشطر الثاني المتمثل في الاعتدال؛ ذلك لأنه خصيصة لا تلائم إنساناً عرف بوصفه مجاهداً.

شكيب أرسلان: التسلسل الزمني

1869	ولد في الشويفات، لبنان
1879 - 1888	تلقى تعليمه في بيروت
1886	نشر باكورة أعماله، أصبح مريداً لمحمد عبده
1888	عين مديراً لمنطقة الشويفات
1890 - 1892	زار مصر، أقام في اسطنبول
1892	أمضى عدة أسابيع في أوروبا، قابل الأفغاني في اسطنبول
1892 - 1916	الإقامة الرئيسة في لبنان
1902	عين قائمّقام لمنطقة الشوف، وبقي على رأس عمله أشهراً قليلة
1908 - 1911	عين قائمّقام لمنطقة الشوف
1912	أبريل- يونيو، على الجبهة الليبية
1914	انتخب نائباً عن حوران في البرلمان العثماني
1914 - 1916	ارتبط بسياسات جمال باشا في سوريا/ لبنان
1916	تزوج بسليمى الخاص
1917 - 1918	كلف بمهمتين في ألمانيا مبعوثاً من قبل أنور باشا

1917	ولد ابنه غالب في عاليه
1919 - 1920	أقام في سويسرا
1921 - 1923	أقام في برلين
1921	يونيو - يوليو، رحلة إلى موسكو
	أغسطس، انعقاد المؤتمر السوري الفلسطيني في جنيف
1922	مايو، شـغل منصب سكرتير مؤتمر الشـعوب المضطهدة في جنوة.
	يوليو، زار لندن
1923 ديسمبر	أقام في مرسين، تركيا
1925 سبتمبر	أواخر العام 1924، أمضى عدة أسابيع في أوروبا
1925	اتخذ من سويسرا مقر إقامة دائمة
	نوفمبر، قابل دو جوفينال في باريس
1926	أصبح مواطناً حجازياً
	يوليو، انتخب عضواً في اللجنة الدائمة لمؤتمر الخلافة
1927	يناير - أبريل، قام برحلة إلى الولايات المتحدة الأمريكية
	نوفمبر، رحلة إلى موسكو
1928	ابنته مي أبصرت النور في لوزان
1929	مايو - سبتمبر، أدى فريضة الحج، زار مكة.
1930	ابنته نظيمة أبصرت النور في جنيف؛ أسس مجلة **الأمة العربية**

	يونيو-أغسطس، قام برحلة إلى إسبانيا
	أغسطس، زار المغرب
1932	يناير، قام برحلة إلى منطقة البلقان
1933	ديسمبر، حضر مؤتمراً للطلاب المشارقة، روما
1934	يناير- فبراير، قام برحلة إلى منطقة البلقان
	فبراير، عقد اجتماعات مع موسوليني، روما
	أبريل-يونيو، مهمة حفظ السلام في العربية السعودية
	يوليو-أغسطس، زار فلسطين
1935	أبريل/ نيسان، بداية حادثة "الرسالة الملفقة"
	سبتمبر، شغل منصب رئيس المؤتمر الإسلامي الأوروبي، جنيف
1936	يناير- مايو، مناقشات مع مصالي الحاج، جنيف
1937	يونيو- ديسمبر، عودة مظفرة إلى سوريا
	سبتمبر، حضر مؤتمر بلودان، انتخب نائباً ثانياً للرئيس
1938	عُين رئيساً لمجمع اللغة العربية في دمشق
1939	فبراير- يوليو، في مصر
	سبتمبر، زار برلين
1939 -1946	ممنوع من مغادرة سويسرا
1946	ديسمبر، توفي في بيروت

الهوامش

ملاحظة عن المصادر

1. عندما زار أحد كاتبي سيرة أرســـلان الأوائل قرية الشويفات وتحدث مع عدد من أبناء أسرة أرسلان أوائل العقد السادس من القرن العشرين، تولد لديه انطباع جلي بأن الصناديق العديدة التي تضم أوراق الأمير ليست معدة بطريقة تتيح للباحثين استعمالها (أحمد الشرباصي، **أمير البيان**، 1، ص12). وأرســـلت المراســـلات لاحقاً إلى الحكومة المغربية من قبل ابنة أرسلان، الأميرة مي (مقابلة مع مي جنبلاط، 3 ديسمبر 1974م).

2. أعمالهما مدرجة في ثبت المراجع. (الشرباصي هو أكثر الاثنين تحليلاً. والســـيرة الذاتية التي أعدها عن أرســـلان تحت عنوان: **شكيب أرســـلان داعية العروبة والإسلام**، هي أفضل ســـيرة ذاتية كتبت عنه باللغة العربية وضمها مجلد واحد. مقال نعي شامل بقلم إي. ليفي بروفنـــــسال، "الأمير شكيب أرسلان (1826م- 1946م)"، **كراريس المشرق المعاصر**، الصفحتان 9-10 (1947م)، 5-19. دراســـة نموذجية بلغة غربية. بدا المقال نسخة مركزة عن تقرير مطول من إعداد المكتب السياسي، مسرح عمليات شمال أفريقيا في شهر يونيو من العام 1940. وتحت عنوان: **إسهام في دراسة النشاط السياسي للأمير شكيب أرسلان**، تقرير إيكس إن بروفنس، أرشيف ما وراء البحار 35H29. وهذا مذكور في هذا الكتاب باسم **النشاط السياسي**.

3. من دجي. إس. بي. فريمان- غرينفيل، **التقويمات الإسلامية والمسيحية**.

مقدمة

1. عملاهما مدرجان في ثبت المراجع ومذكوران في مواضع مناسبة في النص.

2. وفقاً لما أشير إليه في هذا البحث، يشـــير مصطلح سوريا الكبرى إلى المنطقة التي تضم حالياً دول سوريا، ولبنان، والأردن، وفلسطين.

3. انظر هشام شرابي، **المثقفون العرب والغرب: السنوات التقويمية 1914-1875**، ص57.

4. للاطلاع على هذا الموضوع بالتفصيل، انظر سي. أرنســـت. دون، **من العثمانية إلى العروبة: مقالات عن أصول القومية العربية**، الصفحتان184- 185.

5. على الرغم من أن مكانة أسرة الأرســـلانيين تستند إلى زعامتهم للطائفة الأقلوية المسلمة، فهم يعدون أنفسهم جزءاً من منظومة إسلامية سنية أكبر منهم حجماً. أخضعت هذه القضية إلى مزيد من البحث في الفصل الأول.

6. تجدر الإشـــارة إلى أنه على الرغم من حراك شكيب كله، بقيت الجذور راسخة. فأصغر ابنتيه الأميرة مي تزوجت بالزعيم الدرزي الراحل كمـــال جنبلاط. وعقب اغتياله في العام 1977، خلفه بوصفه رئيساً فخرياً للطائفة الدرزية اللبنانية ابنه وليد، وهو حفيد شكيب أرسلان.

7. على ســـبيل المثال، ســـيلفيا دجي. حاييم، **القومية العربية: مقتطفات**، وآلبرت حوراني، **الفكـــر العربي في العصر الليبرالي، 1798-1939**. اعترف حوراني بلباقة في كتابات لاحقة بأنه يحتمل أن يكون قد قلل من شـــأن التأثيرات الإســـلامية، وتجاوز الحد في أخذ التأثيرات الأوروبية في الحســـبان. انظر كتابه: **ظهور الشرق الأوسط الحديث**، الصفحتان14-16. ويمكن الاطلاع على وصف متميز لتأثير كتاب حوراني في تأطير دراسة تاريخ الفكر العربي الحديث في كتاب دونالد إم. ريد، "الفكر العربي في العصر الليبرالي بعد عشرين سنة"، **المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط**، ص 541-557.

8. اختبر هذه القضية وبحث فيها مايكل سي. هدســـون، "الإسلام والتنمية السياسية". وبحث فيها كذلك جون إل. إيبوســـيتو (محرر)، **الإســـلام والتنمية: الدين والتغيير الاجتماعي السياسي**، ص1-24.

9. انظر جون أوبرت فول، **الإسلام: الاستمرارية والتغيير في العالم الحديث**، ص156.

10. المجاهد هو الشـــخص الذي يشـــارك في الجهاد. والجهاد هو النضال في سبيل قضية الدين الإسلامي. وفي النصوص الإسلامية الحديثة، يشار إلى أن المعنى الأصلي لكلمة الجهاد بوصفه قتالاً ضد غير المسلمين جرى توسيعه بحيث بات يشمل النشاط الذي يهدف إلى تحسين أحوال المجتمع الإسلامي: وفي هذا الســـياق، كانت المطبوعات العربية في عشرينيات القرن العشرين وثلاثينياته تشير إلى أرســـلان مراراً وتكراراً بوصفه مجاهد العصر الأكثر شجاعة. للاطلاع على نقاش دقيق ومفصل للتعريفات، انظر رودولف بيترز، **الإســـلام والاستعمار: عقيدة الجهاد في التاريخ الحديث**.

الفصل الأول: تشكيل الجنتلمان العربي- العثماني

1. أحمد الشرباصي، **شكيب أرسلان: من رواد الوحدة العربية**، ص28.
2. شكيب أرسلان، **السيرة الذاتية**، ص84.
3. تبقى الدراســـة العامة الأجدى نفعاً هي الدراسة التي أعدها كمال س. صليبي، **تاريخ لبنان الحديث**، وقد اســـتند إليها كثير من المعلومات الواردة في هذا القسم. ويوجد تحليل للطريقة التـــي اتبعها مختلف الفرقاء في المنطقة لأداء مهامهم ضمن نظام معترف به، ويمكن الاطلاع عليها في كتاب إيليا ف. حريك، **السياســـة والتغير في المجتمع التقليدي: لبنان، 1711-1845**.
4. توجد مناقشة كاملة لتشكيل التنظيم وتطور نظامه في دراسة أعدها جون بي. سبانولو تحت عنوان: **فرنســـا ولبنان العثماني، 1861- 1914**، الفصلان الثاني والرابع. ونقح التنظيم في العام 1864، وهذه الخلاصة هي للنســـخة المنقحة التي ظلت سارية المفعول حتى العام 1914.
5. يوجد شرح للجوانب الداخلية للمعتقد والطقوس من إعداد الباحث الدرزي ســـامي نسيب مكارم، وهـــو تحت عنوان: **المذهب الدرزي**. وانظر أيضاً: «أصـــول الدين الدرزي» لديفيد برايـــر، **الإســـلام** إل 2 (1975)، 47-84، وإل 3 (1976)، 27-4، للاطلاع على نقاش عن الوسط الإسماعيلي الذي بدأت في رحمه العقائد الدرزية تتشكل.
6. انظر، على ســـبيل المثال، وصفاً بقلم ستيفن همسلي لونغريغ بعنوان: **سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي**، الصفحتان 17-9.
7. فيليب ك. حتى: **أصول الـــدروز والديانة الدرزية**، ص48. للوقوف على وصفٍ مُوْحٍ لقدرة مصطفى على التعامل مع سياســـات المتصرفية، انظر سبانولو، **لبنان العثماني**، ص237-225. وانظر أيضاً يوسف الحكيم، **بيروت ولبنان في عهد آل عثمان**، ص45.
8. معظم المعلومات عن باكورة حياة أرســـلان مستمد من سيرته الذاتية. ويبدو أن كتاب سيرته الآخرين اعتمدوا على المصدر ذاته. وعمدت إلى الإشـــارة إلى أعمالهم في هذا الكتاب فقط لدى إدراجهم دليلاً جديداً أو تفسيرات مختلفة للدليل القديم.
9. انظر الديوان لنسيب عريضة الذي حرر ونشر بعد وفاته من قبل شكيب تحت عنوان: **روض الشـــقيق في الجزل الرقيق**، ص28-17. ويوجد ملخص لسيرة عادل في مذكراته، **ذكريات الأمير عادل أرسلان**، ص12-9. وما عرف عن الأخ الآخر حسن المولود في سنة 1879 قليل.
10. انظـــر الفصل الثالث من كتاب: **اليقظـــة العربية** لجورج أنطونيـــوس، وكتاب **المصالح الأمريكية في سوريا** ل أ. ل. الطيباوي1800- 1901.

11. **المصالح الأمريكية** للطيباوي ص 77- 78 و92- 96 و187.

12. **السيرة الذاتية** لأرسلان، ص24.

13. أرسلان في كتاب محمد رشيد رضا: **تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده**، 1، ص399.

14. الدراســـة الأكثر اكتمالاً لهذا الرجل هي التي أنجزتها نيكي آر. كيدي تحت عنوان: **الســـيد جمال الدين «الأفغاني»: السيرة السياسية.**

15. الكلام الذي قاله مالكوم إتش كيرس وجاء فيه: «ما كتب عن محمد عبده من قبل المستشرقين والمسلمين على حد ســـواء هو من الكثرة بمكان بحيث يبدو قول أي شيء آخر عنه زائداً عن الحاجة» (**الإصلاح الإسلامي: النظريات السياسية والشرعية لمحمد عبده ورشيد رضا** ص103) وهو يشـــير إلى غنى الموضوع. وبالإضافة إلى كير، تمكن من معاينة الموضوع لدى حوراني في كتابه: **الفكر العربي**، الفصل الرابع، ولدى تشارلز سي. آدامز في كتابه: **الإسلام والحداثة في مصر.**

16. أرســـلان في كتاب **التأريخ**1 لرضا، ص400. تظهر نسخة مختلفة نوعاً ما لدى الشرباصي: **شكيب أرسلان**، ص24.

17. أرسلان في كتاب **التأريخ**1 لرضا، ص401-400.

18. **السيرة الذاتية** لأرسلان، ص30.

19. المرجع نفسه، ص30، انظر أيضاً أرسلان في كتاب **التأريخ**1 لرضا، ص402-404.

20. شكيب أرسلان، **الباكورة**، ص3.

21. **السيرة الذاتية** لأرسلان، ص32.

22. أوفى البيانات عن زيارة أرســـلان الأولى إلى مصر يمكن الاطلاع عليها في كتابه: **شـــوقي أو صداقة أربعين سنة**، ص5-4، وفي كتاب الشرباصي: **شكيب أرسلان**. ص25-28.

23. **السيرة الذاتية** لأرسلان. ص32-33.

24. أتى أرســـلان على ذكرها في كل ما كان على صلة بســـيرته الذاتية مما كتبه. انظر، على وجه الخصوص، أرسلان، **شوقي**، ص10-14. أحمد شوقي (1868- 1932)، اتفق له أن حظي بتكريم العالم الناطق بالعربية كله بوصفه « أمير الشـــعراء» وما زال يعد من قبل كثير من النقاد أعظم الشـــعراء العرب الحديثين. التقى شوقي بأرسلان عندما كان على وشك أن يختم دراساته القانونية التي استمرت أربع سنوات في فرنسا.

ولدى عودته إلى مصر، تألق وبرز في ظل عهد عباس حلمي بوصفه «شـــاعراً فعلياً صاحب موهبة عزَّ نظيرها». (م. م. بدوي، **مقدمة نقدية للشعر العربي الحديث**، ص29-42).

25. ذُكِرَ هذا في **السيرة الذاتية** لأرسلان، ص33.

26. بالنسبة لسنوات الأفغاني الأخيرة في اسطنبول، بحث فيها كيدي في كتابه **الأفغاني**، الفصل 13. وبالنسبة لتقدير أرسلان لأهمية الأفغاني بالنسبة للإسلام والإشارات العابرة إلى لقاءاتهما، انظر كتابه: **حاضر العالم الإسلامي**، 2، ص289-303.

27. أرسلان، **حاضر العالم الإسلامي**، 2، ص298.

28. المرجع نفسه، ص 301. عن الانطباع الذي تولد عن أرسلان عند الأفغاني، كتب أحد الباحثين: «اكتشف فيه سيده الروحي والنموذج المؤاتي للمستقبل». (توفيق توما، **الفلاحون والمؤسسات الإقطاعية عند الدروز والموارنة في لبنان في القرن السابع عشر**، الجزء الثاني، ص721، سنة 1914).

29. الشرباصي، **أمير البيان**، 1، ص134-135، انظر أيضاً سامي الدهان، **الأمير شكيب أرسلان: حياته وآثاره**، ص70.

30. تطور الصحافة المصرية تبعاً لبحث استقصائي أجراه بي. دجي. فاتيكيوتيس وأورده في كتاب تحت عنوان: **تاريخ مصر: من محمد علي إلى السادات**، الفصل التاسع. وبالنسبة لعلي يوسف، انظر كتاب عباس كيليدار، «الشيخ علي يوسف: صحفي مصري وقومي إسلامي»، وانظر **الحياة الفكرية في المشرق العربي** لمروان ر. البحيري (محرر)، 1890-1939، ص10-20.

31. للتمييز بين المثقفين المهنيين ومثقفي أوقات الفراغ، انظر الشرابي، **المثقفون العرب**، ص4.

32. طبعت الدرة اليتيمة ونشرت أول مرة في بيروت في العام 1897، وأصدرت نسخة جديدة منها في القاهرة في العام 1910. ونشر كتاب: **المختار من رسائل أبي إسحاق الصابي** في العام 1898.

33. هذا التصوير الرومانسي لحب مستحيل بين فتاة إسبانية من طبقة النبلاء وآخر الناجين من عشيرة عربية متميزة يزخر بأوصاف جميلة، وإن كانت خيالية، لقصر الحمراء. نشرت ترجمة أرسلان في العام 1898، وأعيد إصدارها في العام 1925.

34. من مقدمة أرسلان **للدرة اليتيمة**، وفقاً لما ذكر في كتاب **الأمير شكيب** للدهان، ص211.

35. يوجد مثال في سلسلة مقالاته التي نشرها في **المقتطف** وأدرجت بأوجه مختلفة تحت عناوين: «الإسلام في الصين»، و«مستقبل الصين» في 24، رقم 8 (1900)، و26، الأرقام 6، 9، 7، 10 (1901)، وقد أدت غرض إتاحة معلومات عن مجال مجهول، لكن قاربت الموضوع من خلال افتراضات إسلامية.

36. خليل مطران، «مقدمة» لديوان أرسلان.

37. مارون عبود، **رواد النهضة الحديثة**، ص147 (صورة أدبية كاملة لشكيب، ص141-147). وقد رأت ناقدة أكثر حداثة أن الأسلوب الشعري لأرسلان ومواضيعه محافظة جداً

إلى حد أنها تخلفت عن ركب التغييرات التي شـــهدها الزمن الذي عاصره أرسلان (سلمى خ. الجيوسي، **اتجاهات وحركات في الشعر العربي الحديث** 1، ص244-246).

38. وتبقى المناقشة الأعمق تبصراً لسياسة عبد الحميد الإسلامية من حيث صلتها بالعرب هي تلك التي أجراها أنطونيوس تحت عنوان: **اليقظة العربية**، ص68-75. ومن منظور اسطنبول، تميز نيازي بيركيس في رسم معالم تلك السياسة في كتاب عنوانه: **تطور العلمانية في تركيا**، الفصل التاسع.

39. ذكر هذا في كتاب: **الأصول الفكريـــة للقومية المصرية**، ص60-61 للمؤلف جمال محمد أحمـــد. وأما النقاش الأوفى لروابـــط مصر العثمانية فيمكن الاطلاع عليـــه في كتاب عنوانه: **العثمانية والعروبة في مصر لجيمس يانكوفسكي 1860-1914**، **والعالم الإسلامي**، 120 (1980)، لاسيما ص 226-245.

40. عرف أرسلان الأول والثاني معرفة جيدة، ولطالما تواصل معهما طوال حياته. وتحدث الشرابي عن موقفهما من الاتجاهات الســـائدة في عصرهما في كتابه: **المثقفون العرب**، ص24-25، و122-123، والحوراني في كتابه: **الفكر العربي** ص223-224. كما بحث في أنشطة محمد كرد علي في حقبة ما قبل الحرب سمير صقلي في دراسته: «الحياة الفكرية الدمشقية في سنوات مطلع القرن العشرين: محمد كرد علي والمقتبـــس»، في الكتاب الذي حرره البحيري، **الحياة الفكرية**، ص125-153.

41. أرسلان، **ديوان الأمير شكيب أرســـلان**، ص90، وهذا مقتطف من قصيدة نظمت في العام 1892. وتوجد قصائد أخرى كرست لعبد الحميد، يمكن الاطلاع عليها في ص91-93.

42. انظر سبانولو، **لبنان العثماني**، ص235-237.

43. **الســـيرة الذاتية** لأرسلان، ص36-39. ويوجد ســـجل تفصيلي لهذه المسألة، لا يفضل وفد الأعيان دوماً، بشارة الخوري، **حقائق لبنانية** 1، ص55-58. وأعيد النظر في المسألة من قبل بعض الأعيان، وقرروا أن المتصرف كان على حق في تقويمه الأصلي للموقف. وبناء عليه، فإن جبل لبنان لم يرسل، في نهاية المطاف، مندوباً إلى اسطنبول. انظر سبانولو، **لبنان العثماني**، ص250-254.

44. أرسلان ، **السيرة الذاتية**، ص39-40.

45. نوقش الحدث في **السيرة الذاتية** لأرسلان ص79-80. الأجدر بالملاحظة من مفهوم البرنامج نفسه هو زعم أرسلان بأن فريقاً ممثلاً لبلده وصل بالفعل إلى درنة.

46. انظر إدموند بيرك 3، مقاومة الجامعة الإســـلامية والمقاومة المغربية للاختراق الاستعماري الفرنسي، 1900-1912، مجلة **التاريخ الأفريقي**، 13(1972)، 110-113.

47. **المؤيد**، 16 نوفمبر 1911.

48. رسالة إلى رشيد رضا، 1911، ذكرت في كتاب: **شكيب أرسلان**، للشرباصي، ص32.

49. **المؤيد** 16 نوفمبر 1911.

50. المرجع نفسه 11 يناير 1912.

51. المرجع نفسه 15 يناير 1912.

52. أتى آرثر غولد شـــميث على ذكر ســـيرة جاويش بإيجاز في كتابه: «الحزب القومي المصري، 1892-1919»، في بـــي. إم. هولت (المحرر)، **التغيير الســـياسي والاجتماعي في مصر الحديثة**، ص323-327. وللاطـــلاع على معارضته لتطبيق اللامركزيـــة العثمانية، انظر المراجع المتعددة في كتاب توفيق علي برو: **العرب والترك في العهد العثماني الدســـتوري، 1908-1914**، الفصل التاسع؛ يعرب أرسلان عن تقديره العالي لجاويش، ويؤكد أن رؤاهما السياسية مشتركة في **السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة**، ص266-268.

53. عن القوة الخاصة، انظر فيليب إتش. ستودارد، «الحكم العثماني والعرب، 1911 إلى 1918: دراسة تمهيدية للتشكيلات المحسوسة»، بخاصة ص60-75.

54. للاطلاع عـــلى تفاصيل العضوية في هـــذه الجمعيات وبرامجها، انظـــر: **اليقظة العربية** لأنطونيوس، ص108-111، و**السياســـة البريطانية تجاه سوريا وفلسطين 1906-1914**، في الفصلين الرابع والخامس، لمؤلفه رشـــيد إســـماعيل خالدي. ويمكن الاطلاع على تحليل اجتماعي وسياسي لخلفية الاستياء العربي في كتاب: **أعيان المدن والقومية العربية**، الفصل الثالث للمؤلف فيليب إس. خوري.

55. يمكـــن الوقوف على الأدلة الإحصائية لهذه النقطة في كتـــاب: **العثمانية والعروبة**، الفصل السادس للكاتب سي. إرنست دون؛ وعلى سبيل المثال للاطلاع على فرد بعينه، انظر ويليام إل. كليڤلاند، **تشكيل القومي العربي**، ص38-40.

56. **السيرة الذاتية** لأرسلان، ص106.

57. **المؤيد**، 27 يناير 1912.

58. أرسلان، «إن الله لا يصلح عمل المفسدين»، **الرأي العام**، 7 مايو 1913.

59. أرسلان، "هذه هي الاختلافات"، المرجع نفسه، 19 يونيو 1913.

60. **السيرة الذاتية** لأرسلان، ص108.

61. برو، **العرب والترك**، ص509.

62. أرسلان، «الرد هو رد المجتمع»، **الرأي العام**، 20 يونيو 1913.

63. على رياض الصلح، «قانون الولاية الجديد والأمير شـــكيب»، **الإصـــلاح**، 30 يونيو 1913، **السيرة الذاتية** لأرسلان، ص108.

64. محمد رشيد رضا، «الجامعة الإسلامية والسياســة»، **المنار** 17 (28 ديسمبر 1913)، 76. و«الجنسيات في المملكة العثمانية»، المرجع نفسه. 17 (23 يونيو 1914)، ص537-538.

65. سعد داغر، **مذكراتي على هامش القضية العربية**، ص69.

66. سليمان موسى، **الحركة العربية، سيرة المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة، 1908-1924**، ص67، رقم1.

الفصل الثاني: الحرب والمنفى

1. **السيد رشيد رضا**، ص361، رقم 1.
2. المرجع نفسه، ص196-197.
3. زين ن. زين، **ظهور القومية العربية**.
4. **لسيرة الذاتية** لأرسلان، ص119-121.
5. انظر بيسان -2لتوما، ص729.
6. **السيرة الذاتية** لأرسلان، ص135.
7. **اليقظة العربية** لأنطونيوس، ص151.
8. **السيرة الذاتية** لأرسلان، ص140-147، تؤكد مصادر ستودارد دور أرسلان، وتذكر فريق الـــدروز الممثل للطائفة الذي جهزه موفراً بذلك حلاً وســـطاً بـــين 100 رجل و200 رجل. ("التشكيلات المحسوسة"، ص105).
9. «نصيحة أرسلان للبنانيين»، **أوراق لبنانية**، 2 (1956)، 340. هذا مستمد من رسالة كتبها أرسلان إلى صديقه وهاب طليع.
10. وثيقة برقم FO371/7882/E2235، من أبيرنون (برلين) إلى وزارة الخارجية، 28 فبراير 1922، تتضمن إحالة "ملاحظات محادثة عن شـــؤون مشرقية" وصلت إلى الســـفير "من مصدر موثوق جداً"، 7 شباط 1927.
11. توما، بايسان -2 ص728، انظر أيضاً ص720-740 للاطلاع على تقرير مسوغ منطقياً عن أعمال الأمير إبان الحرب. قدم كل من الدهان والشرباصي دفاعاً وجيزاً، إلا أنهما تجنبا، خلاف ذلك، الخوض في مناقشة هذه الحقبة الحرجة في حياة أرسلان. انظر **الأمير شكيب** للدهان، ص74-77، ومحاضرته عن الأمير شكيب أرسلان ص14-15، و**أمير البيان 1** للشرباصي، ص87-89، و**شكيب أرســـلان** للشرباصي أيضاً ص34-40. في هذا المثال، معالجة الدهان للموضوع هي المفضلة، على الرغم من جنوحها إلى تبسيط نتائج أنشطة أرسلان.

12. رواية أرسلان لهذه الحادثة متناغمة في مصدرين: **السيرة الذاتية**، ص136-139، وفي «الكوارث السورية خلال سنوات الحرب»، **المنار** 23 (1922)، 125-126. الثناء عليه لتوسطه نيابة عن البطريرك مذكور في المقاطع التي أوردها الغريب عند محمد علي الطاهر (محرر)، **ذكرى الأمير شكيب أرسلان**، ص161-162.

13. انظر توما، بيسانز 2، ص705-709، وعارف أبو شقرا «يوم زيارة جمال باشا لمنطقة الشوف»، **أوراق لبنانية** 1 (1955)، 547-549.

14. أحمد جمال باشا، **ذكريات رجل الدولة التركي**، 1913-1919، ص213.

15. الرقم بالنسبة للأناضول هو رقم أرسلان، وهو المدرج في **السيرة الذاتية**، ص155. لم يعطِ أنطونيوس رقماً إجمالياً، لكن يتشكل انطباع لدى المرء بأنه تعامل مع الرقم 1000 بوصفه رقماً زائداً عن الحد. انظر أيضاً الحكيم، بيروت، ص167-169، للاطلاع على قائمة بأسماء المنفيين من بين الأسر الكبيرة.

16. حجة جمال من أجل قرارات النفي والإبعاد مدرجة في **مذكراته** ص202-203. ورواية أرسلان لهذا الموضوع مدرجة في **السيرة الذاتية**، ص147-149، وفي «الكوارث السورية»، ص126.

17. الخوري، **حقائق لبنانية**، 2، ص96.

18. توما، بيسانز، 2، ص731.

19. **السيرة الذاتية** لأرسلان، ص154.

20. الوثائق، بما فيها رسائل من أشخاص محليين، تبدي تعاطفاً مع الأهداف الفرنسية وجرى إخفاؤها خلف ستار زائف من قبل القنصل جورج بيكو، عندما بدأت الأعمال العدائية. وعُهِدَ بالسر إلى مترجم بيكو الماروني، فيليب زلزل. وعندما أُبْعِدَ زلزل إلى دمشق، قايض المعلومات القيمة التي كان يتوفر عليها بحريته. انظر نيكولاس زد. آجاي الابن، «المؤامرات السياسية والقمع في لبنان خلال الحرب العالمية الأولى»، **المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط**، V (1974)، 155-157.

21. **مذكرات جمال باشا**، ص207.

22. للاطلاع على بيان لهذه التدابير وأجواء الخوف التي ولدتها، انظر آجاي، «المؤامرات السياسية»، ص150-160، و**النهضة العربية** لأنطونيوس ص185-190.

23. **السيرة الذاتية** لأرسلان، ص170-183، و«الكوارث السورية»، ص129-132.

24. انظر **مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى**، لأحمد القادري، ص53، وانظر أيضاً: **روض الشقيق** لأرسلان، ص22-23، وذلك للوقوف على مرجع عن الدور الذي لعبته سمعة الأسرة في تحويل اتجاه الاستياء الرسمي من بعض المقالات التي كتبها نسيب، الأخ الأكبر لشكيب.

25. انظر **اليقظة العربية** لأنطونيوس، ص203-204، وص240-242.

26. روايته لهذه النقطة مدرجة بتفصيل كبير في **السيرة الذاتية**، ص225-236، وفي مقدمة كتاب إي رابات: **التطور السياسي لسوريا تحت الانتداب**، ص12-14. واتهامه الخاص به هو أن الحلفاء، برفضهم رفع الحصار حتى من أجل تسهيل مهام جهود الإغاثة الإنسانية، يجب أن يتحملوا المسؤولية عن إزهاق أرواح آلاف الناس في لبنان.

27. توما، بيسانز، 11، ص739.

28. **السيرة الذاتية** لأرسلان، ص157.

29. المرجع نفسه، ص160.

30. المرجع نفسه، ص180.

31. المرجع نفسه، ص175-176.

32. **اليقظة العربية** لأنطونيوس، ص255.

33. يمكن الاطلاع على ملخص موجز لأهداف صحيفة **الشرق** وموظفيها في كتاب **الصحافة السورية** لأديب خضر، ص110-112. ووصف أرسلان لهذه المطبوعة مدرج في **سيرته الذاتية**، ص169-170.

34. عن سُلَيْمَى، انظر **أمير البيان** للشرباصي ص125-126، حيث جاء فيما كتبه عنها أنها كانت في العشرين من عمرها تقريباً حين تزوجت بأرسلان. وورد في تقرير محفوظ في سجل المحفوظات الاتحادية السويسرية يعود إلى العام 1940 أن سليمى مولودة في العام 1890.

35. انظر، على سبيل المثال، «الرجل الذي خدم لبنان» لأمين الغريب، و**ذكرى الأمير** ص161-164 للطاهر، والأمير شكيب للطاهر أيضاً، في المرجع نفسه، ص15. وهناك إسهام آخر من قبل علي الغاياتي في هذا الإطار تحت عنوان: «الذكريات»، وهي عبارة عن سلسلة متعددة الأجزاء نشرها في صحيفة **منبر الشرق**. ونشر الأجزاء الأربعة الأولى منها في الثالث والعشرين والثلاثين من يناير، وفي السادس والثالث عشر من فبراير من العام 1953، وهي تتعامل مع أنشطة أرسلان في سوريا إبان زمن الحرب.

36. «الذكريات» للغاياتي، 23 يناير 1953.

37. أدرج وصف هذه المهام في **السيرة الذاتية** لأرسلان ص221-226 و 261-262.

38. لطرحه القوي للإمبراطورية العثمانية بوصفها شريكاً جديراً بالعظمة الإمبراطورية، انظر الأمير شكيب أرسلان.

«Das osmanische Reich,» Suddeutsche Monatsheft

(يوليو 1918)، 235-240. ويمكن الاطلاع على شجبه لمخططات الحلفاء، والتأكيد على الولاء العربي للنظام العثماني، وإعرابه المتكرر عـــن الامتنان لألمانيا في مقالين عنوانهما: "العرب والإنجليز"، و"المشرق الجديد"، 1 (أبريل-سبتمبر 1917) 263-266، وعدة مقالات أخرى في المرجع نفسه.

39. **السيرة الذاتية** لأرســـلان، ص264-265، تأسست هموم هؤلاء اللاجئين وشؤونهم بصورة جيدة. في الخامس من يوليو 1919، صدرت أحكام غيابية بالإعدام على القادة الأساســـيين لجمعية الاتحاد والترقي من قبل حكومة الســـلطان. ووفقاً للوثائق السويسرية، كان أرسلان أحد المحكومين. انظر سجل المحفوظات السويسرية، وزارة شؤون المغتربين، و
"jung turkische Revolutionare Treiben in Der Schweiz," 1920-1918/8.A.43/sa/E2001(B)I

40. **السيرة الذاتية** لأرسلان ص262.

41. الأسماء التي تكرر ذكرها في مناقشة أرسلان للسنين التي قضاها في برلين في **السيرة الذاتية**، ص238-239، و229، و280، تضمنـــت الدكتور بهاء الديـــن صقر وهو عضو في اللجنة المركزية لجمعية الاتحاد والترقي، ورئيس قســـم التشـــكيلات المحسوسة [الاستخبارات]، الدكتور نظيم، وهـــو عضو أيضاً في اللجنة المركزية، وقد يكون هو الاتحادي الأشـــد نفوذاً وتأثيراً وراء محمد ســـيمال عزمي الذي شـــغل زمن الحرب منصـــب حاكم مقاطعة كونيا الحساســـة، وبدري بيه، مدير إدارة شرطة اســـطنبول. وكان أرسلان وعبد العزيز جاويش العربيين اللذين عملا عن كثب مع هذه المجموعة. وتســـتند هذه المعلومات على بيانات تتعلق بالسيرة، وأدرجت في ملحق فيروز أحمد، **تركيا الفتاة: لجنة الاتحاد والترقي في السياسة التركية 1908-1914**.

42. دي. إيه. روســـتو، «أنور باشا» في **موسوعة الإســـلام**، الطبعة الثانية، انظر أيضاً إدوارد هالت كار، **تاريخ روسيا الســـوفياتية: الثورة البلشفية، 1917-1923**، 3، ص246-247، وص 550-551Sevket Sureyya Aydemir, En-ver pasa: Makedonya, dan ,Ortaasya, ya, 3, 1914-1922
وذلك للوقوف على دليل على الدعم الروسي لأنور باشا ومن خلاله لأرسلان ولمنفيين آخرين من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي.

43. وقائع المؤتمر والصعوبـــات الجديرة بالملاحظة والمرتبطة بافتقار أنور باشـــا للتفويضات البروليتارية والديمقراطية جرى فحصها في كتاب **التاريخ** لمؤلفه كار، ص260-270.

44. ســـجلات وزارة الخارجية، مكتب السجل العام، لندن، E8652/6473/FO371، دابرنون (برلين) إلى كورزون، 20 يوليـــو 1921، مرفق طيه تقرير أعده الرئيس برين عن العلاقات

الروســـية التركية الأفغانية، 14 يوليو 1921، (المشار إليه فيما يأتي بوصفه تقرير برين). انظر أيضاً **السيرة الذاتية** لأرسلان، ص270.

45. اختتم أرسلان **الســـيرة الذاتية** (ص236-292) بمقال مطول عنوانه: «الشهيد أنور باشا ورفاقه». والمقال نفســـه أدرج في كتـــاب آخر على الأقل من كتب أرســـلان، **حاضر العالم الإسلامي**، 4، ص364-395.

46. ذكر في كروكشانك، «تحدي جمعية تركيا الفتاة»، ص22، رقم10.

47. سجل وزارة الخارجية، مكتب السجل العام، لندن E8652/6473/FO371 تقرير برين، انظر **السيرة الذاتية** لأرسلان أيضاً، ص265.

48. **النشاط السياسي**، ص6-7.

49. أرسلان، **روض الشقيق**، ص26.

50. رسالة من أرسلان إلى رضا، 12 مايو 1924، في **أمير البيان**، 2، للشرباصي، ص648.

51. رسالة من أرسلان إلى رضا، 3 يوليو 1924، في الموضع نفسه، ص665.

52. ديســـمبر 1924، أقامت الجالية السورية في برلين حفل اســـتقبال لأرسلان حضره كل من ستريسمان وفون سيكت. انظر ليفي بروفنسال، « الأمير شكيب»، ص9، و**الشورى** 5 مارس 1925.

53. أرسلان، **روض الشقيق**، ص26.

الفصل الثالث: تبني القضية العربية

1. شكيب أرسلان، **السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة**، ص160.

2. محفوظات وزارة الشـــؤون الخارجية، باريس، السلسلة E ســـوريا لبنان 215، برقية من شكيب أرسلان إلى الرئيس ريمون بونيكاري، 6 ديسمبر 1928.

3. ستيفن همسلي لونغريغ، **سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي**، ص117. معاملة لونغريغ لمؤسسة الانتداب في الفصل الرابع مدرجة إدراجاً تفصيلياً ومتوازناً.

4. أ. هـ حوراني، **سوريا ولبنان، مقال سياسي**، ص170-179.

5. لونغريغ، **الانتداب الفرنسي**، ص104. ظل اسم أرسلان مدرجاً في قائمة سوداء خاصة حتى 1937.

6. المرجع نفسه، ص143.

7. شارك في كتابة الإعلان إحسان الجابري، ولخصه الشرباصي في **أمير البيان**،2، ص499.
8. شكيب أرسلان، **السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة**، ص161. استعمل كُتّابُ سيرة أرسلان العرب هذه العبارة تعزيزاً لزعمهم بأنه كان منخرطاً بشدة في القضية العربية في مرحلة من حياته تشير فيها الدلائل الأخرى إلى التزامه المستمر بإحياء الإمبراطورية العثمانية. انظر **شكيب أرسلان** للشرباصي، ص41، و**الأمير شكيب أرسلان** للدهان، ص82-84.
9. **الشورى**، 27 أغسطس 1925.
10. شكيب أرسلان، «الدروز أو بنو معروف بأجمعهم عرب صراح»، **الشورى**، 1 أكتوبر 1925.
11. المرجع نفسه، وشكيب أرسلان، «لا تقل للذين يقولون لك سلاماً: إنكم كافرون»، **الشورى**، 31 ديسمبر 1925.
12. **النشاط السياسي**، ص33.
13. **أمير البيان**، 1، للشرباصي، ص74، تقويم توما أقل إشعاراً بالثقة واليقين، بيسانس، 2، ص571-573.
14. لاستعراض العلاقة من العام 1895-1914، انظر شكيب أرسلان، **السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة**، ص144-155.
15. المرجع نفسه، ص160.
16. للاطلاع على وصف للمؤتمر يستند، في المقام الأول، إلى محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية، باريس، انظر ماري رينية موتون، «المؤتمر السوري الفلسطيني المنعقد في جنيف (1921)»، العلاقات الدولية، رقم 19 (1979)، 313-328.
17. للاطلاع على رواية ماتعة وجذابة تصف الأسرة، انظر أوفا السورية لروبرت دي بوبلان، ص89-100. وانظر أيضاً فيليب إس. خوري، «الشقاق والخلافات الحزبية بين القوميين السوريين إبان الانتداب الفرنسي»، **المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط**، 13 (1981)، 445.
18. دي بوبلان، **السورية**، ص89.
19. شكيب أرسلان، **السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة**. ص157-158. في العام 1924، استعيض عن كنعان ضمن أعضاء الوفد برياض الصلح الذي خدم في جنيف ثلاث سنوات.
20. مجلة **الأمة العربية** (يناير-أبريل 1938)، 910. جرى توسيع أفق حياته السياسية-حيث صار يشغل إبان سنوات الحرب العالمية الثانية كرسي نائب في البرلمان السوري، وبات يتوفر على قدر من النفوذ في الحزب القومي.

21. انظر **الشرق الحديث**، 2، (يونيو 1922)، 14-15، المرجع نفسه (سبتمبر 1922)، 221-223، و**السيرة الذاتية** لأرسلان، ص284.

22. سجلات وزارة الخارجية، مكتب السجل العام، لندن E8540/7779/371، غراهام (روما) إلى وزارة الخارجية، 20 أغسطس 1922. سجلات وزارة الخارجية، مكتب السجل العام، لندن E2235/7882/371، دابرنون (برلين) إلى وزارة الخارجية، 24 فبراير 1922. وسجلات وزارة الخارجية، مكتب السجل العام، لندن E12650/7852/371، دابرنون إلى كورزون، 8 نوفمبر 1922.

23. انظر جويس لافرتي ميلر، «ثورة العام 1925 السورية،» **المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط**، 8 (أكتوبر 1977)، 545-563، و**الانتداب الفرنسي** للونغريغ، ص154-169.

24. **الشورى**، 29 أكتوبر 1925. للاطلاع على بيان أكثر حياداً للقصف، انظر **الانتداب الفرنسي** للونغريغ، ص159-160.

25. رسالة من رضا إلى أرسلان، 13 ذو الحجة 1343هـ، في: شكيب أرسلان، **السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة**، ص339، و**روض الشقيق** لأرسلان، ص26.

26. أقام أرسلان في لوزان حتى العام 1930، حيث انتقل إلى جنيف.

27. «مقابلة مع الأمير شكيب»، **الفتح**، 16 مايو 1929.

28. **الشورى**، 8 أكتوبر 1925.

29. وقائع الدورة الثامنة (الاستثنائية) للجنة الانتداب الدائمة، روما، 16 فبراير29- مارس 1926، ص157-160. ومثال على الحجم غير المتناسب للالتماسات التي تقدم بها الوفد السوري الفلسطيني من اللجنة، عشرة من الالتماسات الستة عشر التي تلقتها اللجنة الدائمة للانتداب كانت من الجابري وأرسلان (وقائع الدورة الحادية عشرة للجنة الدائمة للانتداب، جنيف، 20 يونيو26-يوليو 1927).

30. **الشورى**، 26 نوفمبر 1925. جرت معالجة محتوى هذه المناقشات في موضع لاحق من هذا الفصل.

31. اللجنة الدائمة للانتداب، وقائع الدورة الثامنة (الاستثنائية)، ص157.

32. المرجع نفسه، ص168، نزاهة اللجنة المبالغ فيها حيال مسألة التمثيل تجلت واضحة عندما أثار أحد الأعضاء قضية أحد التماسات أرسلان السابقة: « هل يمكن للجنة أن تقبل التماساً مقدماً من عربي هو أحد رعايا الدولة التركية، ويسكن في بلد (مدينة مرسين التركية) ليس خاضعاً للانتداب؟» (محاضر الدورة الخامسة (الاستثنائية)، للجنة الدائمة للانتداب، التي انعقدت في جنيف، من 23 أكتوبر6- نوفمبر 1924، ص115). الظروف التي فرضت معايير

قومية من هذا القبيل على رجل كان جواز سـفره العثماني ما يزال ساري المفعول لا تحتاج إلى تعليق.

33. اللجنة الدائمة للانتداب، **محاضر الدورة الثامنة (الاستثنائية): تقرير اللجنة الدائمة للانتداب الذي رفعته إلى الجمعية العامة**، ص200-208.

34. للاطلاع على نقاش ممتاز لهذه القضية، انظر ميشيل إتش. فان دوسن، «سوريا: سقوط النخبة التقليدية»، في **النخب السياسية والتنمية السياسية في الشرق الأوسط** لفرانك تاشو (محرر)، ص115-155.

35. انظر «النزاعات الحزبية بين القوميين السوريين»، خوري، ص441-469.

36. **سوريا والعهد الفيصلي**، ص28، يوسف الحكيم.

37. أدرج سرد يصف حياته العملية في مقدمة كتاب **مذكرات الدكتور عبد الرحمن الشهبندر**، ص5-6، وأدرج رسم لصورة مميزة في كتاب خوري: «النزاع الحزبي بين القوميين السوريين»، ص445-446.

38. رسالة من أرسلان إلى رضا مؤرخة في التاسع من نوفمبر 1930، ومدرجة في كتاب: **أمير البيان**، 2، للشرباصي ص723، ورسالة من أرسلان إلى رضا مؤرخة في الرابع عشر من مايو 1931، المرجع نفسه، ص749-750.

39. نشرت مقترحات أرسلان في **الشورى** في الحادي عشر من شهر فبراير 1926، وفي التاسع عشر من يناير 1928، وهي مستنسخة من أحد الالتماسات التي تقدم بها من هيئة الانتداب الدائمة، محاضر الدورة الحادية عشرة 4-14 نوفمبر 1927، ص165. ويمكن الاطلاع على تعليق دو جوفينال في محاضر الدورة التاسعة، ص115. انظر أيضاً كتاب: **الصليبية القومية في سوريا** لإليزابث مكالوم، ص174-175.

40. انظر «النزاعات الحزبية بين القوميين السوريين»، لخوري، ص456-459.

41. اجتذب النزاع تغطية الصفحات الأولى على صعيد الصحافة العربية، واستمر حوالي ثلاث سنوات. انظر **الشرق الحديث**، 7 (نوفمبر1927)، 264-267، المرجع نفسه، و8 (يناير 1928)، 56-58. واستعرضت القضايا استعراضاً وجيزاً في مقال أعده أحمد زكي وإحسان الجابري اللذان التحقا بالحاج أمين الحسيني، للعمل بوصفهما وسيطين. انظر "بيان الوسيطين عن مساعي الصلح بين السوريين"، **الشورى**، 5 يناير1928. الإرباك العام الذي تمخض عن مقترحات أرسلان إلى دو جوفينال واضح في رد رضا عليها. انظر، على سبيل المثال، رسالة من رضا إلى أرسلان، 15 جمادى الآخرة 1344هـ، في: شكيب أرسلان، **السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة**، ص419-424، ورضا إلى أرسلان، 25 جمادى الأولى 1344هـ، في: شكيب أرسلان، **السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة**، ص428-430.

42. **الشورى**، الأول من أكتوبر 1925.

43. مجلة **الأمة العربية** (مايو-يونيو 1931)،8.

44. ثلاثون برقية تقريباً مؤرخة بين الثالث والسابع من شهر يوليو من العام 1927 كل منها تحمل اسم منظمة خاصة من المنظمات الداعمة لأرسلان في الولايات المتحدة. وهي واردة في ملف في الكاي أوراسي، وفي السلسلة إي من أرشيف الخارجية الفرنسية، في باريس، وفي سوريا-لبنان 399، عدد أبريل-ديسمبر1927.

45. قارئ، «الأمير شكيب أرسلان وأحمد جمال باشا»، **الشورى**، 20 أكتوبر 1927، ومحمد إسماعيل، «أحمد جمال باشا والأمير شكيب أرسلان»، المرجع نفسه، 17 نوفمبر 1927، وقارئ، سرد تاريخي يبين عداء جمال باشا للأمير شكيب، المرجع نفسه، 2 أغسطس 1928. لم تتوقف هذه المهاترات المتبادلة في الواقع على الإطلاق. وانضم عادل لاحقاً إلى دائرة المشاحنات مسهماً بنقد لاذع استهدف به مشاركة الدكتور عبد الرحمن الشهبندر في ثورة العام 1925، مشيراً إلى أنه أصغر حجماً مما كان يزعم (**الشورى** 7 و14 يناير 1931).

46. أرسلان، «جعلوا الدين مصيدة»، **الشورى**، 26 نوفمبر1925.

47. أرسلان، مقدمة د إي. راباث، **التقويم السياسي لسوريا تحت الانتداب**، ص6 و19.

48. شكيب أرسلان، **السيد رضا أو إخاء أربعين سنة**، ص161.

49. كان الطاهر ناشر **الشورى** (1924-1931)، و**الشباب** (1936-1939)، وصحف ومجلات أخرى لم تعمر طويلاً. استعرض حياته وكتاباته على نحو مُرْضٍ كل من نويهض الحوت وخيرية قاسمية في "موت فلسطينيين عظيمين"، في مجلة **شؤون فلسطينية**، عدد رقم 39 (نوفمبر 1974)، 150-163.

50. **ظلام السجن** لمحمد علي الطاهر، ص678. تتضمن هذه السيرة الذاتية القصصية إشارات كثيرة لصداقة الطاهر لأرسلان.

51. توجه الخطيب نحو التعاليم الجديدة لمذهب ابن تيمية الحنبلي مذكور في كتاب كامبفمير: **مصر وغرب آسيا**، وفي مراجع أخرى. وصداقته مع حسن البنا والإخوان المسلمين موثقة في كتاب: **جماعة الإخوان المسلمين** لريتشارد بي. ميتشل، ص185، و322-323.

52. خوري، **النزاعات الحزبية بين القوميين السوريين**، ص450، و459. وشكري القوتلي (المولود في العام (1891)، والذي غدا لاحقاً أول رئيس جمهورية لسوريا بعد نيلها الاستقلال كان شديد الإعجاب بأرسلان وتعاون معه على صعيد المخططات المناهضة لفرنسا.

53. **محاضر اجتماعات الدورة التاسعة للهيئة الدائمة للانتداب**، ص118.

54. محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية، باريس، السلسلة إي سوريا-لبنان، 212، تقرير المفوض الخاص في أنيماسي، من 15-27 يناير 1926.

55. المرجع نفسه، دو جوفينال (بيروت) إلى وزارة الخارجية، 23 يناير 1926. قابل إحسان الجابري مسؤولين من ألمانيا لطلب أسلحة والحصول على قرض لسوريا، ورفض طلباه كلاهما. انظر سجلات شرائط الأفلام المجهرية لوزارة الخارجية الألمانية/ رول 4900، مذكرة فون ريتشهوفن، 22 أبريل 1926، إطارت L327744-L327745.

56. محفوظات وزارة الشؤون الخارجية، باريس، سلسلةE، سوريا لبنان، 210، هنسي (برن) إلى وزارة الخارجية، 23 فبراير 1926.

57. مجلة **المناقشات**. 20 فبراير 1926، مدرجة في المرجع السابق.

58. بخاصة البروفسور كامبفمير، رئيس الجمعية الألمانية للدراسات الإسلامية. دعم كامبفمير علناً قضية الاستقلال السوري، وأثار حنق وزارة الخارجية الألمانية عندما حمل السوريين الموجودين في برلين على الاعتقاد بأن ألمانيا ستمد لهم يد العون. سجلات الشرائط المجهرية، رول 4900، مذكرات ديل، 22 يناير 1926، إطارات L327744-327745. من أجل تقويم إنجاز أرسلان الأدبي، انظر دجي. فايدمر،

Die ,.:الأمير شكيب أرسلان Ubertragungen aus der Neuarabischen Literatur-3
.93-welt des Islams, XIX(1937), 1

وهو يتضمن صورة وصفية أدبية مقتضبة لسيرة أرسلان وترجمات من عملين من أعماله.

59. **الشورى**، 5 مارس 1925. اقتباساً من خطاب أرسلان الذي ألقاه في 24 يناير.

60. مذكور في **أمير البيان**، 1، للشرباصي، ص99.

61. كان الدكتور بيضا مستشاراً لأرسلان على صعيد حياته المالية على مدى خمسة وعشرين عاماً. بيضا، السوري الذي عاش في برلين، أدار مع أفراد آخرين من أسرته شركة تسجيلات وأسطوانات فونوغرافية عربية كانت توزع منتجاً عرف باسم « بيضافون.» وافتتحت مكاتب لها في كل من بيروت، وبرلين، والقاهرة، ويافا، وطرابلس. وتاجرت الشركة، فيما يبدو، بمنتجات أخرى أيضاً. وكان الدكتور بيضا، بالنسبة لأرسلان، مصرفياً ووسيطاً ومقرض مال خاصاً. ما ليس معروفاً عن الدكتور بيضا مصدر لقبه وتوجهه السياسي. والشيء الوحيد الذي كان واضحاً وأكيداً هو أن الأمير كان دوماً مديناً له.

62. سجلات شرائط الأفلام المجهرية لوزارة الخارجية الألمانية/ رول 4900، رسالة من بيضا إلى ريتشتهوفن، 13 مايو 1925، إطار L327728.

63. المرجع نفسه، رسالة من فون ريتشتهوفن موجهة إلى أرسلان، 29 سبتمبر 1925، إطاران رقم L327734-327735، ورسالة تقدير من أرسلان إلى فون ريتشتهوفن في المرجع نفسه، إطاران رقم L327731-327733.

64. تمويل منظمات المنفى السوري في أواسط عشرينيات القرن العشرين نوقش موضوعه من قبل خوري في كتابه: «النزاعات الحزبية بين القوميين السوريين»، ص458-462. وكانت الإسهامات الطوعية كبيرة، ولكن، كما يوضح خوري كانت المزاحمة عليها كثيفة، ولم يكن توزيع تلك الإسهامات المالية منتظماً دوماً.

65. تعتمد الدراسة على الشرح التفصيلي لعلاقة أرسلان المالية مع عباس، وهذا واضح في كتاب شكيب أرسلان: **السيد رضا أو إخاء أربعين سنة**، ص658-665.

66. انظر خلدون س. حصري، «الملك فيصل الأول والوحدة العربية 1930-1933"، مجلة **التاريخ المعاصر**، 10(1975)، 328، يستشهد في هذا المقام برسالة أرسلها أرسلان إلى ابن سعود.

67. رسالة من أرسلان إلى رضا، 2 أبريل 1931، في **أمير البيان**، 2، للشرباصي، ص738.

68. الشخص الذي عمل بمهنة كبير مترجمي ابن سعود سنوات عديدة، جاء في ما كتبه أن الملك قدم «دعماً ومساعدة» لأرسلان ولشخصيات قومية عربية بارزة أخرى (محمد المانع، **العربية المتحدة: صورة ابن سعود**، ص245).

69. محفوظات وزارة الشؤون الخارجية، باريس، السلسلة E، سوريا-لبنان، 211، قنصلية وزارة الخارجية في لوزان، 14أكتوبر 1926.

70. المحفوظات الاتحادية السويسرية برن، «إعلان الأمير شكيب أرسلان»، 16 يونيو 1930.

71. توما، بيسانس، 2، ص743.

الفصل الرابع: المدافع عن القومية الإسلامية: المشرق العربي

1. ذكر عند توما، بيسانس، 2، ص745.

2. شكيب أرسلان، «بين الآلام رحم ماسة: واحسرتاه على أحمد باشا تيمور»، **الفتح**، 22 مايو 1930.

3. شكيب أرسلان، **لماذا تأخر المسلمون؟** ص48.

4. شارل أندريه جوليان: **شمال أفريقيا تمضي قدماً**.

5. محمد علي علوبة، في كتاب: **ذكرى الأمير** للطاهر، ص22.

6. بالإضافة إلى **الفتح والشورى**، نشر أرسلان في مجلات مصرية إسلامية التوجه مثل **المنار**، **وكوكب الشرق**، وفي جريدة **الإخوان المسلمين** أحياناً. ونشر كثير من مقالاته في صحيفة **ألف باء** التي كانت تصدر في دمشق، والجمعية العربية التي كانت تصدر في القدس.

7. مجلـــة **الأمة العربية** (مارس 1930) 1-2. لتقويم مجلـــة **الأمة العربية** التي كان المؤلف الراهن يتوافق معها، انظر أنطوان فلوري، "الحركة القومية العربية في جنيف في حقبة ما بين الحربين"، **العلاقات الدولية**، رقم 19 (1979)، ص345-353.

8. ذكر في الأرشيف السياسي، ص15.

9. سجلات وزارة الخارجية، مكتب السجل العام، لندن، FO371/19983/E3334، "الدعاية الإيطالية في الشرق الأدنى"، تقرير ورد في مراسلات مايلز لامبسون [من القاهرة] إلى أنتوني إيدن، 29 مايو 1936.

10. أفضل وصف لموقف السلالة المصرية الحاكمة من الحكم، يمكن الاطلاع عليه من خلال كتاب **مصر والخلافة** للكاتب إيلي قدوري، ص177-212.

11. انظر **مولد العربية السعودية: بريطانيا وصعود نجم آل سعود** لغاري ترولر.

12. يوجد ملخص مفيد للصراع العربي الداخلي من منظور شبه الجزيرة العربية بين دفتي كتاب: **شبه الجزيرة العربية في السياســـة العربية وسياسة السلطة** للكاتب إيه. آر. كيليدار، وكذلك في كتاب: **شبه الجزيرة العربية، المجتمع والسياسة**، وهو كتاب أعده المحرر ديريل هو بوود، بخاصة، ص149-145.

13. انظر قدوري، **مصر والخلافة**، ص185-195، استنســـخت مداولات التجمع في كتاب أخيل الصقلي: "المؤتمران العامان للعام 1926،" **مراجعة للعالم الإسلامي**، 64، رقم 2 (1926)، 122-29.

14. المرجع نفسه، ص125-219، و**المؤتمر الإســـلامي في القدس في ديسمبر 1931** للكاتب إتش. أيه. آر. جيب، وكتاب **دراســـة استقصائية للشؤون الدولية**، إعداد (المحرر) آرنولد دجي. توينبي، 1934، ص99-100.

15. انظر كتاب شـــكيب أرسلان: **رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة**، ص184. لأن ابن سعود لم ينل من المؤتمر ما كان يتوخاه، فالهيئة لم تبصر النور مطلقاً، وفكرة المؤتمر طواها النسيان إلى أن أحياها الحاج أمين الحسيني في العام 1931.

16. ســـيلفيا دجي. حاييم، «إلغاء الخلافة»، الفصل الختامـــي في كتاب **الخلافة** لتوماس دبليو. آرنولـــد، **الخلافة**، ص229، انظر أيضاً **الفكر العربي** لحوراني ص239-244، و**الإصلاح الإسلامي** لكير ص166-168.

17. حاييم، **الإلغاء**، ص231.

18. رسالة من أرسلان إلى رضا، 12 مايو 1924. في **أمير البيان**، 2، الشرباصي، ص658. ترجم حاييم أجزاء من هذه الرسالة وعلق عليها في **الإلغاء**، ص231-233.

19. رسالة من أرسلان إلى رضا، 12 مايو 1924. في **أمير البيان**، 2، للشرباصي، ص660.

20. رسالة من أرسلان إلى رضا، 3 يوليو 1924، في المرجع نفسه، ص669.

21. أرسلان: «أزفت ساعة الاتحاد أيها العرب!»، **الشورى**، 27 أغسطس 1925.

22. رسالة من رضا إلى أرسلان، 18 أبريل 1929، في كتاب أرسلان: **السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة**، ص529. ويمكن الاطلاع على مزيد من المصادر فيما يتعلق بهذا الجزء من حج أرسلان من خلال وصف رضا للموضوع في المرجع نفسه ص 181-187، ومن خلال رسائل إلى رضا المدرجة في كتاب **أمير البيان** 26، للشرباصي، ص696-700. وللاطلاع على أمثلة عن تعزيز الشعبية والدعاية التي أحاطت بالرحلة، انظر **الشورى**، 24 أبريل، والأول من مايو 1929. **والفتح**، 2 مايو 1929.

23. **رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة** لشكيب أرسلان ص183. أعضاء الوفود المختلفة ومنهم أصدقاء أرسلان القدامى، عبد الرحمن عزام وأحمد زكي، والمحررون الذين ينشرون كتاباته، محمد علي الطاهر ومحب الدين الخطيب وأحمد حافظ عواد، وزميلاه المنظمان عبد الحميد سعيد، رئيس اتحاد الشباب المسلم، وأحمد شفيق، رئيس الجمعية المشرقية. ويمكن الاطلاع على البيان الأوفى المتعلق بهذه المناسبة في **الفتح**، وفي العدد الصادر في 16مايو 1929. وانظر أيضاً **الشورى**، 15 مايو 1929.

24. **رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة**، ص184، لشكيب أرسلان.

25. أرسلان، **الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف**، ص12. مفكرة اليوميات، دليل السفر، ونبذة تاريخية. يتضمن هذا العمل إحدى إشادات أرسلان بابن سعود. ويتضمن أيضاً مقدمة مثيرة خَطَّها رشيد رضا تشهد بنبل شكيب أرسلان في أدائه فريضة الحج.

26. موقف ابن سعود من أرسلان موثق في سجلات وزارة الخارجية-مكتب السجل العام (لندن) بالرقم المرجعي FO371/13740/E3707، وثيقة (جدة) إلى القاهرة، 28 يونيو 1929، وبالرقم المرجعي: FO371/13740/E5146 وثيقة إلى القاهرة، 18 سبتمبر 1929، رواية أرسلان لعرض الموقف في رسالة مرسلة إلى رضا، 27 المحرم 1348هـ، في **أمير البيان**، 2، للشرباصي، ص705.

27. أرسلان، **الارتسامات**، ص10.

28. المرجع نفسه، ص11.

29. رسالة من أرسلان إلى رضا، 3 المحرم 1348هـ، ص702-703. انظر أيضاً **الارتسامات** لأرسلان، ص12، و"محاولة اغتيال الملك عبد العزيز آل سعود"، مجلة **الأمة العربية** (مارس-أبريل 1935)، 225-226.

30. في «محاولة الاغتيال»، ص225، أُشِيْرَ إلى العاهل الحجازي بوصفه "الفارس الذي لا يعرف الخوف"، وفي مقطع آخر، لاحظ أرسلان بكثير من الفخر أن ابن سعود خاض غمار أكثر من مئتي معركة فردية ("انتصار ابن سعود"، مجلة **الأمة العربية** مارس 1930، 31).

31. أرسلان، «كيف أن العرب غرباء في بلادهم»، **الفتح**، 6 فبراير 1930.

32. سجلات وزارة الخارجية، مكتب السجل العام، لندن E5146/13740/FO371, وثيقة إلى القاهرة، 18 سبتمبر 1929.

33. أرسلان، **شوقي**، ص82، لم يُلَبِّ الدعوة مطلقاً، ومات شوقي في العام 1932 من دون أن يرى أرسلان مجدداً على الإطلاق.

34. «مرور الأمير شكيب بالقطر المصري»، **الشورى**، 9 أكتوبر 1929.

35. أرسلان، «كيف أن العرب غرباء في بلادهم»، **الفتح**، 6 فبراير 1930.

36. نشرت تقارير عن المؤتمر في ديترويت الإخبارية، 17 يناير 1927، وفي ديترويت للصحافة الحرة، 17 يناير 1927.

37. ديترويت للصحافة الحرة، 18 يناير 1927. على الرغم من أن ناشر "السائح"، عبد المسيح حداد، له تحفظات واضحة على أرسلان تتعلق بمظالم طائفية الطابع، فإن تعليقاته، على أجواء الترويج للذات التي أحاطت برحلة الأمير الأمريكية والتي لا هوادة فيها، بدت صائبة وفي محلها. ويمكن العثور على ملاحظات لاذعة بحق أرسلان في العمود الذي كان يكتبه حداد تحت عنوان: "ما بين السطور"، وتحديداً في الأعداد التي صدرت في 10 يناير، و7و17 و21 فبراير، و10 و17 و21 مارس 1927.

38. نشرت تقارير صحفية أسبوعية في مطبوعة **الشورى** من 3 فبراير حتى 27 مايو 1927.

39. سجلات وزارة الخارجية، مكتب السجل العام، لندن E2935/13740/FO371, القاهرة إلى جدة، 28 مايو 1929. لقد كان تحديداً ملائماً للأنشطة المناهضة للإمبريالية جميعها. وفي عددها الذي صدر في 20 فبراير 1926، زعمت **المجلة الباريسية**، مناقشات، أن أرسلان ترأس لجاناً وهيئات سورية كانت تتلقى الأوامر من موسكو.

40. تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا والجزائر والبحر المتوسط، محاولات لإظهار مدى اتساع رقعة التأثير العربي الذي لم يقتصر على إسبانيا، بل تعداها ليشمل أجزاء أخرى من أوروبا أيضاً. وفضلاً عن هذا الكتاب، قدم أرسلان عملاً مؤلفاً من ثلاثة مجلدات عنوانه: **الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية**. وعلى الرغم من الوقت الذي بذله أرسلان والجهد الذي كرسه لكتابة هذه المجلدات، فقد كانت عقيمة وقائمة على الحذلقة وضئيلة الإسهام لجهة طرح معلومات جديدة عن إسبانيا الإسلامية. واعتمدت هذه المجلدات، في

حقيقة الأمر بشـــدة، على أعمال عَالِمِيْنَ أوروبيين في التاريخ، وهي التي كتبت أصلاً لغرض دحض مزاعمهم.

41. زعم الأمريكي لبناني الأصل، أمين الريحاني أنه عثر على بقايا الروح العربية في إسبانيا، ورأى محمـــد كرد علي فيها بذرة صالحة لإحياء معاصر لعظمة العرب. انظر أنور شـــيني: «أمين الريحاني والأندلس: رحلة في التاريخ»، **الرابية**، 9 (1976)، 9-18.

42. أرسلان، **تاريخ الغزوات**، ص5-6.

43. رسالة من أرسلان إلى رضا، الأول من سبتمبر 1932، في **أمير البيان**،2، للشرباصي، ص796-798. أدى أرســـلان ما عليه بنشره سلســـلة من المقالات عن الإسلام في منطقة البلقان كتبها إســـماعيل آغا دتشيمالوفيتش، الذي عرفه أرسلان بقوله "مراسلنا في منطقة البلقان". انظر مجلة **الأمة العربية** (أبريل-يونيو1933)، 38-48، "المســـلمون في رومانيا"، المرجع نفسه (يناير-فبراير 1935)، 218-222، "المسلمون في يوغوسلافيا"، المرجع نفسه (مارس-أبريل 1935)، 268-276.

44. جهوده وبواعث قلقه مدرجة وموصوفة في رسالة بعث بها إلى رضا في الثامن من ربيع الثاني من العام 1352هـ، ويمكن الاطلاع عليها في كتاب: **أمير البيان**،2، للشرباصي، ص815-818.

45. البيان الأوفى عن محاضر الجلســـات قدمه مروج آخر من المروجين للمؤتمر هو علي الغاياتي في مقال نشر في: **منبر الشرق**، 31 أكتوبر 1935. ويمكن العثور على نســـخة الجابري من محاضر الجلسات نفســـها في مجلة **الأمة العربية** (يوليو-ســـبتمبر 1935)، 369-385. وللاطلاع على التهم التي كالتها الصحافة العربية وزعمت فيها أن المؤتمر كان مغامرة دعائية إيطالية، انظر **الشرق الحديـــث**، 15 (أكتوبر 1935)، 501-504، والمرجع نفســـه، 15 (نوفمبر 1935)، 563-567.

46. مقال بقلم «مندوب» في مجلة: **بريطانيا العظمى والشرق** (26 ســـبتمبر 1935)، 396-397. محفـــوظ في ملف لدى ســـجلات وزارة الخارجية-مكتب الســـجل العام لندن برقم: FO371/18925/E5821 وأعرب مســـؤول في وزارة الخارجية عن سعادته لأن مشاعر أرسلان تثير شيئاً من المعارضة.

47. للاطلاع على أمثلة على الالتماســـات التي تقدم بها الوفد الســـوري الفلسطيني، انظر مجلة **الأمة العربية**، «فلسطين الضحية» (سبتمبر-أكتوبر 1934)، 1-23، والمرجع نفسه (إصدار خاص مايو-أغســـطس 1936) 561-574. جرى تطوير الالتماسات بعناية، وصارت، في معظم الأحيان تورد نُقَطاً عن الممارسات الإدارية البريطانية في فلسطين الخاضعة لانتدابها.

48. قدم كل طرف نســـخة من المحادثات، «زيارة بن غوريون للوفد الســـوري الفلســـطيني في جنيـــف»، مجلة **الأمة العربية** (نوفمبر-ديســـمبر 1934) 144-146، ديفيد بن غوريون: محادثاتي مع قادة عرب، ترجمة: إيه روبنشتاين وإم لوفيش، ص35-40.

49. كان موقف أرسلان الأساسي قد عرض في سلسلة من المقالات تحت عنوان عام هو: «الصهيونية من أصلها اعتداء محض» **الشورى** في أعدادها التي صدرت في 16و23 أكتوبر، وفي 6 نوفمبر 1929.

50. أرسلان، «لماذا تصر إنكلترا على تأسيس مملكة يهودية في الشرق»، **الشباب**، 17 نوفمبر 1937.

51. سجلات شرائط الأفلام المجهرية، رول L1279، رسالة من أرسلان إلى بروفر، 3 أكتوبر 1933، الإطاران: 332806-L332805.

52. الخطيب، «يوم المسجد الأقصى»، **الفتح**، 12 سبتمبر 1929. كان الخطيب مصراً على هذه النقطة شأنه في ذلك شأن أي كاتب في عصره. انظر في المرجع نفسه ما كتبه تحت عنوان: "اليهود ينتهكون حرمات الأماكن الإسلامية المقدسة"، 3 أكتوبر 1928، و"دم الهراطقة في القدس"، المرجع نفسه 29 أغسطس 1929، و"تهويد فلسطين"، المرجع نفسه، 17 جمادى الأولى 1352هـ. يمكن الاطلاع على تحليل متميز للمبادرة التي أطلقتها مجموعات مصرية ذات توجه ديني في طرح فلسطين بوصفها جزءاً من قضية أكبر منها للكاتب جمس يانكوفسكي، في مقال له عنوانه: "الردود المصرية على المشكلة الفلسطينية في حقبة ما بين الحربين"، ونشر في **المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط**، 12 (1980)، وعلى وجه الخصوص ص20-28.

53. منذ تعيينه مفتياً للقدس في العام 1921 وحتى قيام "دولة إسرائيل" في العام 1948، كان الحسيني (1897-1974) القائد العربي الفلسطيني الأبرز في عصره في الساحة الدولية. وبوصفه رئيساً للجنة العربية العليا ورئيساً للمجلس الإسلامي الأعلى في فلسطين، كان يتمتع بسلطة ويحظى بهيبة استخدمهما ضد معارضيه السياسيين المحليين بقدر ما استخدمهما ضد البريطانيين والصهاينة. الحسيني، وهو الشخص البارز المثير للجدل، تشوهت سمعته بسبب ارتباطه مع النازيين أثناء الحرب العالمية الثانية. واستعمل المفتي الدين بوصفه سلاحاً سياسياً على نحو يشبه إلى حد كبير أسلوب أرسلان في استعمال الدين. وكانت تربط بين الرجلين صداقة شخصية فضلاً عن كونهما متحالفين سياسياً. وجرى بحث أهدافه وأنشطته عن كثب من قبل واي. بوراث، في بحث عنوانه: **ظهور الحركة القومية العربية الفلسطينية، 1، 1918-1929، والحركة القومية العربية الفلسطينية، 2، 1929-1939.**

54. أرسلان، «جامعة المسجد الأقصى»، **الفتح**، 22 رمضان 1351هـ.

55. الجابري، «مؤتمر عموم المسلمين»، مجلة **الأمة العربية**، (نوفمبر-ديسمبر 1931)،1.

56. أرسلان، «جامعة المسجد الأقصى».

57. أرسلان، «إن عجزت الأمة العربية»، **الشـــباب**، 5 أكتوبر 1938. وانظر أيضاً أرسلان: "قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً"، المرجع نفســـه، 7 ديسمبر 1938. بعد اندلاع الثورة بوقت قصير، كتب حسن البنا، زعيم جماعة الإخوان المسلمين، في سياق مماثل: "أيها الإخوة! لا ينتهي وطنكم عند حدود مصر، بل يمتد إلى كل أرض فيها مسلم يقول: لا إله إلا الله". ورد هذا في "الردود المصرية"، ص12 ليانكوفسكي.

58. أرسلان، «فلسطينكم أيها العرب»، **الشباب**، 4 يناير 1939.

59. سمات نظام حكم الإمام يحيى حللها روبرت دبليو. ستوكي في **اليمن: سياسة الجمهورية العربيـــة اليمنية**، ص185-212. كمـــا حللها ما نفرد دبليو. وينـــير في **اليمن الحديث: 1918-1966**.

60. كشف النقاب عن أصول دعوة أرسلان في رسائل أرسلها رضا إليه، 23 ذو الحجة 1352هـ والرابع من الشـــهر المحرم 1353هـ وفي **السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة** لأرسلان، ص736-739، و740-741، وانظر أيضاً "وفد الأمل والسلام" لرشيد رضا، وقد أعيد طبعه في المرجع نفســـه، ص188-193. وكان عضوا الوفد الآخران هما هاشـــم بك الأتاسي، زعيم الكتلة الوطنية السورية، ورجل السياسة المصري، محمد علي علوبة.

61. فينـــير، **اليمن الحديث**، ص142. للاطلاع على تفاصيل المفاوضـــات التي انعقدت بين ابن سعود والإمام يحيى، انظر **الشرق الحديث**، 14(مايو 1934) 231-247.

62. أرسلان، «السلام الأخوي بين الحكام العرب»، مجلة **الأمة العربية** (سبتمبر- أكتوبر 1934)، 47.

63. رســـالة من رضا إلى أرسلان، 3 ربيع الثاني 1353هـ، في كتاب **السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة** لأرسلان ص742.

64. سجلات وزارة الخارجية-مكتب السجل العام، لندن FO371/17831/E3847 وE4384 1934)) يتضمن هذا الملف المراسلات وبرقيات عن هذه المسألة.

65. رســـالة من دو مارتيل، 3 أغسطس 1934، ورد ذكرها في الأرشيف السياسي، ص19. نسخة أرســـلان الخاصة من روايته التي يصف فيها رحيله السريع من فلسطين متساوقة مع هذه الوثيقة (انظر **السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة** لأرسلان، ص-744رقم 1).

66. رسالة من أرسلان إلى رضا، 9 نوفمبر 1930، في **أمير البيان**، 2، للشرباصي، ص720.

67. أرســـلت رســـائل عديدة إلى أرســـلان من عملائه اللبنانيين في إدارة المحفوظات الاتحادية السويسرية في برن، في العام 1928، تعلمه أنهم ينتظرون أوامره أو يحاولون اتباع تعليماته حيال جمع المحاصيل أو تشييد مبنى وما شابه.

68. رسالة من أرسلان إلى رضا، 21 ديسمبر 1930 في **أمير البيان**،2، للشرباصي، ص733.

69. رسالة من أرسلان إلى رضا، 18 ذو الحجة 1352هـ، المرجع السابق نفسه، ص820.
70. **شكيب أرسلان** للشرباصي، ص287.
71. رسالة من أرسلان إلى رضا، 10 ربيع الثاني 1354هـ، المرجع السابق نفسه ص836-837.
72. نسخة أرسلان من كتاب: **السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة** لشكيب أرسلان، ص262-263، و272، ورضا في المرجع نفسه ص189-190.
73. سجلات وزارة الخارجية، مكتب السجل العام، لندن: E3847/17831/FO371، أرسلان إلى أكهوب، 1 مارس 1934.
74. محفوظات وزارة الشـؤون الخارجية، باريس، سلسـلة E، الحجاز العربي36 ، رسالة من أرسلان إلى مراسلة خاطبها قائلاً: "عزيزتي السيدة المحترمة"، 21 ديسمبر 1928.
75. تسـتند مناقشة أحداث سوريا اللاحقة إلى الفصلين السـادس والسابع من كتاب لونغريغ: **سوريا ولبنان**.
76. «الأمير شكيب» للكاتب ليفي بروفنسال، ص16. لقد كان هذا مؤثراً، كتب الجابري هذا عقب اجتماعه مع مفاوضين سوريين، ولم ينشر هو ولا أرسلان أي شيء كان يمكن أن يسبب لهما صعوبات (الجابري، "الانفراج"، مجلة **الأمة العربية** (يناير-أبريل 1936)، ص468.
77. «الأمير شكيب» بقلم ليفي بروفنسال، ص16، **الشرق الحديث** 17 (مارس 1937)، 139-140.
78. أرسـلان، «المعاهدة الفرنسية السـورية»، مجلة **الأمة العربية** (سبتمبر-نوفمبر 1936)، 641-648. ويلاحظ لونغريغ أنه كان يمكن التوصل للمعاهدة بين الأطراف ذاتها على المنوال نفسه قبل عشر سنوات (سوريا ولبنان، ص222). وعلى قضايا حساسة من قبيل الفصل بين سوريا ولبنان، وجود بعثات عسـكرية فرنسية، والاعتماد الحصري على فنيين ومستشارين مدنيين فرنسـيين، والمدة المؤثرة الفاعلة للمعاهدة (خمسـة وعشرون عاماً)، فإن مشروع معاهدة العام 1936، في كل ما ذكر، عَكَسَ مقترحات أرسلان الأصلية. وأعيد نشر نسخة عن مشروع المعاهدة في كتاب **سوريا ولبنان** للحوراني، ص314-320.
79. أرسلان، «هل عدو فرنسا هو أنا؟» مجلة **الأمة العربية** (يناير-أبريل 1938)، 797-801.
80. ورد ذكر الرسـالة في: **النشاط السياسي**، ص28. ومن هنا سرت الإشاعة، التي جرى بحثها في الفصل السابع من هذا الكتاب: الإشـاعة، التي زعمت أن فينوت دفع لأرسلان 500,000 فرنك فرنسي لقاء تعاونه.
81. **النشاط السـياسي**، توفر هذه الوثيقة التقرير الأكثر اكتمالاً عن وصول أرسلان إلى سوريا وتصرفاته فيها. يمكن الاطلاع أيضاً على التفاصيل في: **الشرق الحديث**، 17 (يوليو1937)، 329-332.

82. ما قاله ديســـبارمت عن وجود عشرين ألفاً حاضرين في بيروت من أجل استقبالهم يعد قولاً مبالغاً فيه للغاية. فتقديرات السلطات الفرنسية المعقولة التي تشير إلى أن ثلاثة آلاف كانوا في اســـتقبالهم في المبنى البلدي في دمشق كانت تصف مناسبة مؤثرة وجياشة بالعواطف تدليلاً على أن العشرين ألف آنفة الذكر عدد مبالغ فيه. انظر على التعاقب: دجي ديسبارمت، «عموم شـــمال أفريقيا مساندة للعرب. شمال أفريقيا تتطلع إلى دمشـــق»، وأفريقيا الفرنسية، 68 (فبراير 1938)، 57، و**النشاط السياسي**، ص32.

83. «شكيب وإحسان في الوطن»، **الشباب**، 16 يونيو 1937، بذل الطاهر قصارى جهده، مغطياً الصفحة الرئيســـة بصور الاحتفالات المتنوعة وعناوينها (انظر **الشـــباب** 3 و9 و23 يونيو 1937).

84. **النشاط السياسي**، ص31.

85. مقتطفات من الخطاب وتقارير عن رد الفعل المسيحي يمكن الاطلاع عليها في المرجع نفسه، ص33-34، وفي **الشرق الحديث**، 17 (يوليو 1937)، 331-332 وقدم أرسلان نسخة غير مكتملة من تصريحاته، مجلة **الأمة العربية** (يناير-أبريل 1938) 853-855.

86. إيلي قدوري، «مؤتمر بلودان الخاص بفلســـطين»، الدراســـات الشرق أوسطية، 17 (يناير 1981)، ص107. استنسخ هذا المقال تقارير وزارة الخارجية البريطانية عن المؤتمر كان قد قدمها القنصل البريطاني المقتدر في دمشق. انظر أيضاً بورات: الحركة الفلسطينية القومية العربية،2، ص231-232.

87. مذكور في: النشاط السياسي، ص31.

88. روبرت مونتاني، «ردود الفعل العربية المناهضة للصهيونية. مؤتمر بلودان»، محادثات بشأن التطور الحضاري في الوطن العربي، 3 (1939)، 46.

89. مذكور لدى قدوري «بلودان»، ص117.

90. النشاط السياسي، ص36.

الفصل الخامس: معلم جيل: شمال أفريقيا

1. رسالة من أرسلان إلى رضا، 26أغسطس 1930، في **أمير البيان**،2، للشرباصي، ص714.

2. دجي ديسبارمت، «شمال أفريقيا والعروبة جمعاء: شمال أفريقيا تتطلع إلى دمشق»، **أفريقيا الفرنسية**، 68 (فبراير 1938)، 56.

3. جوليان، **شمال أفريقيا تمضي قدماً**، ص25.

4. قضية المغربي عموماً قبل الحرب (نسبة إلى المغرب العربي) والمغربي، بخاصة (نسبة إلى المملكة المغربية) المتعلقة باتصالاته مع الشرق الأوسط تناولها بالبحث على نحو مقنع إدموند بيرك 3. ويستند هذا القسم من الكتاب إلى أعماله "المقاومة المغربية، والجامعة الإسلامية، واستراتيجية الحرب الألمانية، 1914-1918"، **فرنسية** (ميونخ)، 3 (1975)، 434-464، "الجامعة الإسلامية، والمقاومة المغربية، والاختراق الاستعماري الفرنسي، 1900-1912"، **مجلة التاريخ الأفريقي**، 13 (1972)، 97-118، **وتمهيد للمحمية في المغرب: الاحتجاج والمقاومة في حقبة ما قبل الاستعمار، 1860-1912**، وأخص بالذكر الفصلين 6 و9.

5. مذكور عند نقولا إيه. زيادة، **أصول القومية في تونس**، ص80.

6. المرجع نفسه، ص86.

7. كان بينهم البروفسور كمبفمير، الذي مر ذكره في الفصل الثالث من هذا الكتاب، وماكس فون أوبنهايم الذي بحثت في علاقته مع أرسلان في الفصل السابع من هذا الكتاب. وانظر «استراتيجية الحرب الألمانية لبيرك»، ص440.

8. التقويم هو تقويم أرسلان الوارد في سيرته الذاتية، ص269. انظر أيضاً " شمال أفريقيا تتحرك" لجوليان، ص25.

9. إدموند بيرك 3، "الجامعة الإسلامية ومقاومة شمال أفريقيا، 1890-1918: نماذج الرد"، بحث لم يجد طريقه إلى النشر.

10. **إحياء أمة**، الفصل السابع لجون بي. هالستيد.

11. منذ مطلع العشرينيات، حين كانوا تحت وصاية أرسلان، وحتى تشكيل حزب الاستقلال في العام 1944، كان هؤلاء الرجال دائمي المشاركة في الحركة الوطنية المغربية، بل وفي القلب منها. وشأنهم شأن أرسلان نفسه، لم يمكثوا طويلاً في مكان بعينه. ولأنهم كانوا يتابعون دراسات جامعية، ما لم يكونوا في كل الحالات حاصلين على درجات وإجازات جامعية، كانوا يتنقلون دوماً جيئة وذهاباً بين كل من باريس، والمغرب، وجنيف، ينظمون جمعيات، ويحررون مجلات، ويقودون أحياناً مظاهرات. وكان الوزاني (1910-1978) من أسرة الفاسي هو القوة المهيمنة حتى العام 1937، عندما دب الخلاف بينه وبين علال الفاسي على خلفية نزاع على زعامة الحزب الوطني. وكان الفريج (المولود في العام 1907؟) أيضاً في قلب الحركة منذ بدايتها عندما برز بوصفه المدير الفعلي للاستقلال من موقعه حيث كان سكرتيراً عاماً للحزب. وينحدر الناصري (المولود في العام 1904) من الرباط، وتلقى علومه في جامع الأزهر الشريف، وفي جامعة السوربون، وفي جنيف في أوقات كان فيها منخرطاً في أنشطة مناهضة للفرنسيين، وغالباً ما كانت هذه الأنشطة تنعقد في ظل تعاون وثيق بينه وبين أرسلان. وفي العام 1937، أسس حزب الوحدة المغربية في تطوان وظل يتزعمه إلى أن تم استيعابه في بوتقة الاستقلال. ولعب محمد الفاسي دوراً مهماً في تنظيم المغاربة في أوروبا، وأصبح عضواً مؤسساً في تحقيق الاستقلال. لقد جرى تجميع معلومات عن هؤلاء الأشخاص

من مراجع مختلفة تتعلق بهم من هالسـتيد، وريبرث، وروبرت ريزيت، **الأحزاب السياسية المغربية**.

12. روجر لوترنو، **التطور السـياسي عند مسلمي شـمال أفريقيا، 1920-1961**، 194، 465-466، هالستيد، ريبرث، ص171-172.

13. هالستيد، ريبرث، ص161، انظر أيضاً ريزيت، **أحزاب**، ص6

14. هالستيد، ريبرث، ص132.

15. المرجع نفسه، ص129، معالجة هالستيد لدور أرسلان في الحركة الوطينة المغربية مستمدة إلى حد بعيد من مقابلات مع مشـاركين مغاربة، وهي أفضل وأجدر اعتماداً مما جاء في بحث جولييت بسيس عن الموضوع نفسه تحت عنوان: "شكيب أرسلان وحركات المغرب الوطنية"، **مراجعة تاريخية**، 259 (1978)، 467-489.

16. ليفي بروفنسال، «الأمير شكيب»، ص12.

17. البيان الأكثر اكتمالاً عن زيارة أرسلان لمحمد بينونة يمكن الوقوف عليه تحت عنوان: «الأمير المبجل شـكيب أرسـلان في المغرب»، **الفتح**، 24 جمادى الأولى 1349هـ. كما يقدم كتاب: "الأمير شكيب" للمؤلف ليفي بروفنسال، ص11-12، بعض التفاصيل عن هذه الرحلة التي أدرجت أحداثها في كتب معظم المؤلفين اللاحقين. وأورد أرسـلان ذكريات مختارة في كتابه: **عروة الاتحاد بيان أهل الجهاد**، ص143-146.

18. ريزيت، **الأحزاب** ص72. حيث زُعِمَ أيضاً أن عبد السلام قابل أرسلان في المشرق، وكانت هذه المقابلة مناسـبة جعلته يغدو عميل الأمير في المغرب. ويبدو هذا الأمر غير مرجح. وقد أُعْرِبَ عن تقدير أرسـلان العالي لبينونة من خلال مقال النعي والتأبين المفعم بالثناء والذي نشر في مجلة **الأمة العربية** (يناير-فبراير 1935)، 209-210.

19. أحمد بلفريج، «شكيب أرسـلان في المغرب»، **الفتح**، 17 جمادى الأولى 1349. وبعد سنوات قليلة أخبر أرسلان تجمعاً للاتحاد العالمي للشباب المسلم في باريس أنهم حافظوا على "دينهم وروحهم العربية" على نحو أفضل مما فعل العرب المشـارقة (دجي ديسـبارمت، "شمال أفريقيا والعروبة جمعاء"، ص56).

20. بينونة، «أرسلان في المغرب» أن تظهر هذه البيانات المختلفة جميعها عبر صحيفة **الفتح** التي كانت تتخذ من القاهرة مقراً ومنطلقاً لها لهو أمر يشير إلى أن أرسلان كان ناجحاً جزئياً على الأقل في تحقيق هدفه المتمثل في نشر القضية المغربية في المشرق.

21. المرجع نفسه.

22. التحليل الأفضل للظهير وعلاقته بالسياسة الفرنسية الخاصة بالبربر على وجه الإجمال يمكن الاطلاع عليه في: «السياسة البربرية في المحمية المغربية بين العامين 1913-1934". للكاتب تشارلز روبرت أغيرون، وفي كتابه: **التاريخ الحديث والمعاصر**، 18 (يناير- مارس 1971)، 50-90. وللاطلاع على تأثيره على النزعة الوطنية المغربية، انظر هالستيد، **الإحياء**، ص68-

74، جوليان، **شـــمال أفريقيا تمضي قدماً**، ص131-135، ولوتونو، **التطور السياسي**، ص180-185. أعيد نشر الظهير في كتاب **الإحياء** لهالستيد في ص276-277.

23. أســـس الكاردينال لافيجري مقراً في قرطاج لرهبنة دينية كاثوليكية خاصة تحت اسم الآباء البيض مرتبطة بالسياسات الفرنسية في شمال أفريقيا. وعقد في مقر هذه الكاتدرائية مؤتمر أفخارستي (نسبة إلى سر القربان المقدس) بعد شـــهر من صدور مرسوم الظهير البربري. بالنســـبة للمسلمين، عُدَّت هذه التصرفات التي تكشفت عن إصرار مسيحي عملاً استفزازياً. انظر: **شمال أفريقيا الفرنسية: المغرب بين الحربين العالميتين**، لمؤلفه جاك بيرك، ترجمة جان ستيوارت، ص217-224.

24. "المحاكم البربرية"، مجلة **الأمة العربية** (أغسطس-سبتمبر 1930)، 28. ظهرت التباينات حيال هذا الموضوع في مقالات عديدة لأرسلان نشرت في مجلة **الأمة العربية**. انظر، على سبيل المثال، "لســـنا موتى" (نوفمبر 1930)، 1-3. و"تعليق على تعسف الرأي العام في فرنسا" (فبراير 1930)، 6، و"رد على قديس المغرب" (مايو-يونيو1931)، 5-8. عبر أيضاً عن هذه الآراء بصورة شخصية. انظر رسائل من أرسلان إلى رضا، 26 أغسطس، و9 نوفمبر 1930، في كتاب **أمير البيان**،2، للشرباصي، ص712-714، و721.

25. أرسلان، «المحاكم البربرية»، ص27.

26. أرسلان، «القضية البربرية»، مجلة **الأمة العربية** (نوفمبر 1930)، 25.

27. أرسلان، «مسألة إخراج البربر من الإســـلام»، **الفتح**، 17 جمادى الأولى 1349. الاقتباسات فيما تبقى من الفقرة مستمدة من هذا المقال.

28. أرسلان، «الاحتجاج على فرنسا من أجل مسألة البربر»، **الفتح**، 29 جمادى الآخرة 1349هـ. وفي هذا الوقت، دعا أرســـلان أيضاً إلى مقاطعة البضائع الفرنسية من قبل جماهير المسلمين. ولاقت دعوته بعض الاســـتجابة الإيجابية من قبل المسلمين الهنود. ولكن لم ترق هذه الفكرة للتجار المصريين، ولم تكتســـب زخما قط (انظر **أفريقيا الشمالية تمضي قدماً** لجوليان، ص133).

29. ظهر تقويم أرسلان لقوة الاحتجاج في: «القضية البربرية»، ص21-30. كما نشر تحت عنوان: "أصـــداء القضية البربرية" في مجلة **الأمة العربية**، فبرايـــر 1931، 5. وظهر دليل تأييدي يعزز ما ذكر في: "السياســـة البربرية"، لأريغون، ص82-84، وفي **حركات الاســـتقلال في شمال أفريقيا العربي** بقلم علال الفاسي، وترجمة حازم زكي نسيبة، ص124-125، وفي "التطور الســـياسي والثقافي لمصر المعاصرة". محادثات بشأن تطور الحضارة العربية، رقم 3 (1937)، 70. وثـــورة **المغرب** لروبرت مونتانـــي، ص184-186. وكان ينظر إلى مجلة **الأمة العربية** من قبل السلطات الحمائية بوصفها أداة تخريبية، وحظرت في المغرب في شهر أغســـطس من العام 1930، على الرغم من أنه استمر تهريب نســـخ منها إلى داخل البلد. (هالستيد، **الإحياء**، ص127).

30. القرار الذي أرســـل إلى عصبة الأمم، نشرت نسخة منه في مجلة **الأمة العربية** (مايو- يونيو 1932)، 33، 34.

31. مر ذكــره في: **المغرب في مواجهة الإمبريالية** لتشـــارلز آندريـــه جوليان 1415-1956، ص161.

32. كان هـــذا نصراً حقيقياً، ولكن كما يلاحظ هالســـتيد، لم يؤدِ ذلك إلى تخلي الفرنســـيين عن السياسة البربرية الفرنســـية التي تعد الأراضي البربرية مناطق مميزة (**الإحياء**، ص186-187).

33. في اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة في العامين 1952 و 1953، قالت وفود إســـلامية من بلاد شرق أوسطية لأحد المراسلين إنها أحيطت علماً، لأول مرة، بالمشكلة المغربية من خلال الاحتجاج على الظهير (روم لاندو، **الدراما المغربية**، 1900-1955، ص147-148).

34. **التطور السياسي**، ص185.

35. أثيرت اعتراضات أرســـلان خلال المرحلة الأخيرة من إعادة احتلال ليبيا عندما تبنى الجنرال غراتســـياني في العامين 1930 و 1931 تقنيات حـــرب مكافحة التمرد لإخضاع المقاومة في منطقة الجبل الأخضر من برقة. ويشـــير السجل التاريخي إلى أن الاحتجاج لم يكن يفتقر إلى أساس يرتكز عليه (انظر إي. إي. إيفاس-بريتشارد، سنوسي برقة).

36. رسالة من أرسلان إلى رضا، 22 مايو 1931، في **أمير البيان**،2، للشرباصي، ص754.

37. أرســـلان، «فظائع الطليان في طرابلس الغرب»، **الفتح**، 21 ذو القعدة 1349، و "عمليات حروب العصور الوســـطى عادت إلى الحياة لدى الفاشيين الإيطاليين"، مجلة **الأمة العربية** (أبريل 1931) 8، وظهرت بلاغة مماثلة في بيانات أرســـلان التي كتبها عن إعادة الاحتلال. انظر، على ســـبيل المثال، مقالاً آخر عنوانه: "فظائع إيطاليـــة في طرابلس الغرب"، **الفتح**، 19 ذو الحجـــة (1349)، واحتلال الكُفْرَة، مجلة **الأمـــة العربية** فبراير 1931، 13-16، مقال أثنولوجـــي (خاص بالعروق والأجناس البشرية) تاريخـــي مدرج في: **حاضر العالم الإسلامي**،2، ص64-128.

38. أرسلان، «عمر المختار»، مجلة **الأمة العربية** (سبتمبر- أكتوبر 1931)، 6.

39. أرسلان، «فظائع الطليان»، 21 ذو القعدة، وفي مقاله وعنوانه: «مصر والاستعمار اللاتيني في شمال أفريقية»، **الفتح**، 10 جمادى الآخرة 1350، كان أرسلان في هذا المقال رافضاً للتيارات الفكرية المتوسطية والفرعونية التي كانت تلاقي رواجاً في أوساط قطاع معين من أهل الفكر والنخبة المصرية المثقفة في حينه.

40. الأرشيف التاريخي لوزارة الشؤون الخارجية، روما، ليبيا، مغلف 7، 1933، A.P.3.Pos.1.1 " مظاهرات إسلامية مناهضة لإيطاليا. شكيب أرسلان". قنصلية وزارة الشؤون الخارجية، جدة، برقيات من 23 أبريل و18 مايو 1931، والقنصل العام (بيروت) إلى وزارة الشـــؤون الخارجية، 16 يونيو 1931، انظر أيضاً الوثائق الدبلوماســـية الإيطالية السلسلة السابعة.

1922-1935، مجلــد رقم 10، رومـــا، 1978، من مفوضية القاهرة إلى وزارة الشـــؤون الخارجية، 8 مايو 1931، ص389-390، ويشار إليها فيما يأتي بالرمز DDI.

41. DDI، 10، وزير الخارجية إلى مختلف القناصل في شمال أفريقيا والشرق الأوسط، 20 أبريل 1931، ص326-327.

42. الأرشيف التاريخي لوزارة الشـــؤون الخارجية، روما ليبيا، مغلف 7، 1933، 1 Pos-1، دو بونو (وزير المستعمرات) إلى وزير الشؤون الخارجية، 20 يوليو 1931.

43. أرسلان، «رد قديس المغرب»، ص5-6.

44. هالستيد، **إحياء**، ص130.

45. المرجع نفسه، ص146-147، جوليان، **شمال أفريقيا تمضي قدماً**، ص148.

46. المحفوظات الاتحادية السويسرية، برن، رســـالة من أرسلان إلى بلفريج، 19 فبراير 1938. وأيضاً 3 مارس 1938. من الواضح أن بلفريج كان أثيراً جداً عند أرســـلان. ولدى ســـؤاله من قبل الســـلطات السويسرية عن 500 فرنك سويسري تقريباً كان قد أرسلها له إلى مصح كان يستشفي فيه، أجاب أرســـلان قائلاً إنه فعل ذلك لأنه يعد بلفريج ابنه الثاني بعد غالب (المحفوظات الاتحادية الســـويسرية، برن، " تحقيق أولي في محضر رســـمي"، 15 أكتوبر 1938).

47. بسيس، «شكيب أرسلان»، ص484.

48. ريزيت، الأطراف، ص84. أكد ذلك الباحث الفلســـطيني أكرم زعيتر، الذي أشار إلى "المهمة المغربية في نابلس" ووصف تأثيرها على الشباب الفلسطينيين خلال الحملة المناهضة للظهير البربري، وذلك فيما كتبه تحت عنوان: "رســـالة تاريخية من الأمير شـــكيب أرسلان تتعلق بجهود فرنســـا لإخراج البربر من الإسلام"، **تهامة** (جدة)، 16 ســـبتمبر 1983. أنا مدين للبروفسور فرحات ج. زيادة لإمدادي بهذا المرجع.

49. **شمال أفريقيا تمضي قدماً**، ص151، لجوليان.

50. في معرض نعي مثير للمشـــاعر ويجيش بالعاطفة، دعا أرسلان لونغ بالصديق رفيع المكانة وعطر السمعة على مدى عمر الصداقة التي دامت عشرين سنة، مجلة **الأمة العربية** (سبتمبر-ديســـمبر 1938)، 1192-1193. ولونغ، وهو حفيد لكارل ماركس، كان مشرفاً على تحرير مطبوعة: **الشـــعبي**، وهو من أوائل أعضاء الحزب الذين أثاروا القضية الاستعمارية. وبين الدراسات والمطبوعات واسعة النطاق التي تناولت موضوع الاشتراكية الفرنسية بين الحربين، والكتاب الأوثق صلة بهذه الدراســـة هـــو ذاك الذي كتبته مانويلا ســـاميدي تحت عنوان: "الاشـــتراكيون الفرنسيون والمشكلة الاســـتعمارية بين الحربين (1919-1939)". **المجلة الفرنسية للعلوم السياسية**، 18 (1968)، 1115-1153.

51. أرسلان، «تعليق على تعسف الرأي العام في فرنسا»، ص6.

52. هالستيد، **الإحياء**، ص206-208.

53. انظر عينات من الإســـهامات الفرنسية عند سامدي تحت عنوان: «الاشتراكيون الفرنسيون»، ص1136-1137، و1139، و1141. وأعرب أرســـلان عـــن سروره بهذا الجهد الذي بذله الاشـــتراكيون الفرنســـيون لجسر الهوة في الضمير الفرنسي، وتمنى "للمراجعة التي قامت بها شقيقته" النجاح الذي تســـتحقه الكاتبة، صاحبة المبادئ النبيلة (أرسلان، "استعراض المغرب"، مجلة **الأمة العربية** مايو-يونيو 1932، 34-38).

54. بسيس، «شكيب أرسلان»، ص480.

55. علي مراد، **الإصلاح الإســـلامي في الجزائر من 1925-1940**، ص383، هذا الكتاب الغني والودي هو دراسة متميزة لأنشـــطة الاتحاد وتعاليمه وعقائده. وأما بيان السيرة الأوفى لابن باديس فيمكن الاطلاع عليها في ابن باديس المفسر على القرآن الكريم، ص23-51 لميراد.

56. ميراد، **إصلاح المسلمين**، ص80.

57. **إصلاح المسلمين** لميراد، ص147. شـــعر مراقبون فرنسيون معاصرون للسياسة في شمال أفريقيا أن أرسلان هو من كان يقرر الموقف السياسي في الاتحاد. انظر روبرت مونتاني، "قلق الأطراف السياسية في الجزائر"، **السياسة الخارجية**، 2 (أبريل 1937). 129، وديسبارمت، "العلماء الجزائريون والدعاية الإيطالية (1931-1938)"، **أفريقيا الفرنســـية**، 68 (مايو 1938) 211.

58. ميراد، **إصلاح المســـلمين**، ص362 ووفقاً للمؤلف نفسه (ص123-124) ، كانت **الشهاب** محاكاةً **للمنار** واعيةً لذاتها ولها طابعها الخاص.

59. للاطلاع على قائمة بعناوين هذه المقالات، انظر ميراد **إصلاح المسلمين**، ص366، رقم 3.

60. المرجع ذاته، ص365.

61. المرجع ذاته، ص218-219. انظر أيضاً ص164.

62. ذكر ذلك أيضاً في: **صعود حركة مصالي الحـــاج في الجزائر وانحدارها، 1924-1954**، ص101 لجانيت دورش زاغوريا.

63. ولد مصالي الحاج في تلمســـان في العام 1898. وبعد خدمته لدى الجيش الفرنسي، تنقل في الأعمال من واحد إلى آخر في باريس قبل أن يغدو مرتبطا بالنجم (الإتوال). وبعد حله في العام 1937، أسس حزب الشعب الجزائري (PPA) ومن ثم، بعد إطلاق سراحه من سجن طال أمد مكوثه فيه أسس إبان الحرب: الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية في العام 1947.

64. زاغوريا، **الصعود والهبـــوط**، ص96-97، 108. نحت التقارير الفرنســـية التي رصدت أنشطة أرسلان منحى المبالغة فيها. ولكن أرسلان مرر فعلاً بعض الأموال التي توفرت له إلى قضايا عَدَّهَا محتاجة ومستحقة.

65. جوليان، **شمال أفريقيا تمضي قدماً**.

66. قد يطرح سؤال عما إذا ما كان أتيح لمصالي أن يظهر على مسرح الحياة السياسية لو لم يكن في سويسرا مطلع العام 1936 هرباً من إجراءات قضائية جديدة كانت تتعقبه. والتقى هناك

بشكيب أرسلان الذي ألهب فيه شعلة الإسلام، وجعله يؤمن بِفِكْرِهِ المساندة للعرب (لوتورنو، **التطور السياسي**، ص313). وذكر كلام مطابق لهذا القول تقريباً من قبل جان كلود فاتان في: **الجزائر السياسية**، ص212، ملاحظة 161. وعند جوليان في: **شمال أفريقيا تمضي قدماً**، ص25. وعند ليفي بروفنسال في: "الأمير شكيب"، ص14-15. وكل ذلك يعزز النسخة الأولى التي أوردتها آنفاً عن إقامة مصالي في جنيف. وسجل أرسلان انطباعاته عن سمات مصالي الشخصية، لكن لم يدون شيئاً عن المحادثات التي كانت تدور بينهما، وذلك في عروة الاتحاد، ص149.

67. ذكر ذلك في الصفحات 163، و180-181 من: **الصعود والانحدار** لزاغوريا.

68. فاتان، **الجزائر**، ص212-213، زاغوريا، **الصعود والانحدار**، ص162.

69. ذكر فاتان بيان مصالي في كتابه: **الجزائر**، ص211، وأما المقتطف من بيان الاتحاد ذائع الصيت فيمكن الاطلاع عليه في **إصلاح المسلمين** لميراد، ص399.

70. أرسلان، «الدسيسة الأجنبية على الجامعة الإسلامية»، **الفتح**، 8 شوال 1349.

71. عبد العزيز الثعالبي (1875-1944)، غالباً ما كانت تنعقد مقارنات غير مؤاتية بينه وبين بورقيبة تتكشف عن تباينات شديدة بينهما. فقد كان الرجل (الثعالبي)، شأنه شأن أرسلان، صاحب شخصية فريدة في نوعها زاوج بين معتقداته (الدينية) وبين عزمه على إعادة تشكيل المجتمع الإسلامي، مع استعداده للنضال من أجل تحقيق هذا المجتمع. ويمكن الاطلاع على تقدير أرسلان العالي له في: **الشورى**، 7 يناير 1925. وللاطلاع على تقرير عن فحوى حركة الثعالبي وما الذي كانت تعنيه بالنسبة لتونس في عشرينيات القرن العشرين، إل. كارل براون، **مراحل في عملية التغيير**. وانظر كذلك، **تونس: سياسة الحداثة**، ص38-66 لتشارلز ميكود (محرر).

72. براون، **مراحل في عملية التغيير**، عند ميكود، **تونس**، ص61-63

73. الحبيب بورقيبة، «مخضرم في النضال ضد الاستعمار: الأمير شكيب أرسلان»، **العمل التونسي**، 3 يونيو 1973، أعيد طبعه في **الدستور الجديد والجبهة الشعبية في فرنسا،1، الحوار، 1936-1938**، ص349-362.

74. فيليكس جاراس، **بورقيبة ونهضة الأمة**، ص111. ويزعم المؤلف أن هذا صحيح على الرغم من كل ما كتب خلافاً له. وكتب ذلك من قبل جوليان في **شمال أفريقيا تمضي قدماً**، ص25، 64.

75. للاطلاع على تقويم هؤلاء «الشهود المشاركين»، انظر ميراد، **إصلاح المسلمين** ص14-15.

76. دجي ديسبارمت، «مقاومة الغرب»، **أفريقيا الفرنسية** (سأرمزها لاحقاً بالحرفين الألف والفاء)، 63 (مايو 1933) 265. وأدرج فيما يأتي قائمة كاملة بأسماء وعناوين مؤلفات نسبت إلى أرسلان دوراً هائلاً على صعيد العمل الدعائي، وهي مدرجة هنا وفقاً لتسلسل ظهورها الزمني: لويس إرمون، "شمال أفريقيا والشرق الأدنى"، **أفريقيا الفرنسية** 63

(أبريل 1933)، 203. ولويس جوفيليه، "تطور البلاد العربية الاجتماعي والسياسي (1930-1933)"، و"مراجعة دراسات إســـلامية"، 7 (1933)، 628-640. و "العروبة الجامعة والجزائر"، **ألف فاء**. 56 (يونيو 1936) ، 312-317 لدجي ديســـبارمت، ولديســـبارمت أيضاً: "شـــمال أفريقيا والعروبة الجامعة"، ص56-58. ولروبرت مونتاني، "أزمة العروبة السياســـية (يونيو -1937يونيو 1938)"، **فرنسا المتوســـطية والأفريقية**، 61 رقم 2 1938))، 13. ولويس غلبرت، "اضطرابات إســـلام العرب"، **دراســـات**، 20 يناير 1938، 173.

77. دجي. ديســـبارمت، **العلماء الجزائريون**، ص211، وعُرِّفَ أرســـلان أيضاً في هذا الكتاب بوصفه "رئيس جهاز الاستخبارات المشرقي".
78. لويس غلبرت، «المغرب الذي يشهد حراكاً. الجزء الثاني»، **دراسات**، 5 مايو 1938، 536.
79. أرسلان، «الإسلام السياسي وشـــمال أفريقيا»، مجلة **الأمة العربية** (يناير- فبراير 1935) ، 185.
80. مجلة **الأمة العربية** (سبتمبر- ديسمبر 1938) ، 1233-1237.
81. انظر ديسبارمت، «شمال أفريقيا والعروبة الجامعة»، ص56. استنكار أرسلان الشديد وعلى أوسع نطاق لهذه التهمة يمكن الاطلاع عليه في مقاله المعنون: " هل عدو فرنسا هو أنا؟" وذلك في مجلة **الأمة العربية** (يناير-أبريل 1938)، 797-814، وفي مقال تحت عنوان: "ملاحظة فرنسية تتعلق بإسلامكم الســـياسي" (المرجع نفسه، مايو-يونيو 1935)، ص341-346. ونشر أرسلان أيضاً كتيباً من ست وثلاثين صفحة رداً على الاتهامات التي وجهت إليه بوصفه محرضاً متعنتاً. ويميل المنشور المعنون بـ: "لا يمكن لدعاية في العالم أن تشوه صورة رجل" إلى أن يكون تكراراً للمقالات التي نشرها أرسلان في مجلة **الأمة العربية**.
82. أرسلان «عدو لفرنسا»، ص805.
83. المرجع نفسه، ص800.
84. المرجع نفسه، ص803.
85. المرجع نفســـه، ص804. انظر أيضاً مقالاً له بعنوان: "الافتراء الأبدي"، مجلة **الأمة العربية** (يناير-فبرايـــر 1935)، 171-173، "تلقي أموال من برلين، وموســـكو، وروما، كل شيء هو معجزة حقاً!" مجلة **الأمة العربيـــة** (يناير-أبريل 1936)، 509-510 وعروة الاتحاد، ص147-152.
86. «عدو فرنسا»، ص814. انظر أيضاً: " القمع الفرنسي لتونس"، مجلة **الأمة العربية** (يناير-فبراير 1935)، 182-183.
87. أرسلان، «كيف يكتب التاريخ»، مجلة **الأمة العربية** (نوفمبر 1930)، 37.
88. ديسبارمت، «شمال أفريقيا والعروبة الجامعة»، ص56.
89. روبرت مونتاني، **السياسة الإسلامية لفرنسا**، ص10.

90. بورقيبة، «مخضرم»، ص351.
91. محمد المكي الناصري، «شكيب أرسلان»، **الفتح**، 9 ربيع الثاني 1351هـ، **السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة**، ص184.

الفصل السادس: سلامة التقليد

1. فؤاد عجمي، «نهاية العروبة»، **الشؤون الخارجية** 62 (1978-1979)، 355.
2. أرسلان، «الدسيسة الأجنبية على الجامعة الإسلامية»، **الفتح**، 8 شوال 1349.
3. **لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟** يوضح تاريخ نشر الكتاب مكانة أرسلان بوصفه معلقاً دولياً على القضايا الإسلامية. ويتألف الكتاب من سلسلة من المقالات، نشرت أول مرة في **المنار**، وجرى تأليفها رداً على استفسارات طرحها شيخ إندونيسي يدعى محمد بسيوني عمران استعلاماً عن ضعف المسلمين الراهن. والترجمة الإنجليزية الأولى لـ (**انحدارنا وأسبابه**، لاهور، 1944) كانت من اللغة المالايالامية وهي إحدى لغات شبه القارة الهندية. فعندما ترجمت العربية إلى تلك اللغة أثارت موجة من الحماس الوطني، وأنارت قلوب أبناء الموبيلا الهنود المسلمين (مقدمة المترجم إم. إس. شكور للطبعة الجديدة من الكتاب، ص8). وملاحظة المترجم التحذيرية من أن الطبعة الإنجليزية منقولة مرتين من الأصل العربي مسوغة وتستحق الأخذ بها. وذلك لأن النسخة مضللة، وحذفت مقاطع من أصلها العربي عند ترجمتها. وما استشهد به منها في هذا البحث مستمد من طبعة الكتاب الثالثة باللغة العربية (القاهرة، 1358هـ).
4. من بين الأبحاث العديدة التي تناولت هذا الموضوع، انظر بصورة خاصة إتش. آر. جيب. **الاتجاهات الحديثة في الإسلام**. وحوراني: **الفكر العربي**، في فصليه السابع والتاسع، وكير: **الإصلاح الإسلامي**، وهنري لاوست: «إصلاح العقيدة السلفية والخطوط العامة لاتجاهاتها الراهنة»، **مراجعة دراسات إسلامية**، 6 (1932) 175-224، ونداف سافران، **مصر، بحثاً عن المجتمع السياسي**، الفصل الخامس، وويلفرد كانتويل سميث: **الإسلام في التاريخ الحديث**.
5. أرسلان، **لماذا**، ص11، ما لم يرد ذكر خلاف ذلك، تشير مراجع هذا الفصل إلى كتب ومواد كتبها أرسلان.
6. المرجع نفسه، ص60.
7. المرجع نفسه، ص63.
8. المرجع نفسه، ص96.
9. المرجع نفسه، ص104.

10. المرجع نفسه، ص98.
11. المرجع نفسه، ص96.
12. المرجع نفسه، ص18-19، وص100-101.
13. «مقدمة» لعبد القادر المغربي، البينات في الدين والاجتماع والأدب والتاريخ،1، الفقرة: تاء.
14. **لماذا**، ص105، ذكر محمد عبده عند سافران، **مصر في البحث**، ص68.
15. **لماذا**، ص64.
16. المرجع نفسه، ص133. لا يوجد ما يدعو إلى الاستغراب في أن يكون رضا، الذي حرر الكتاب، قد أقحم حاشـــية على هذا البيان تؤكد للقراء أن ما عناه أرسلان هو يقظة المسلمين بوصفهم مسلمين.
17. «هل عدو فرنسا هو أنا؟» مجلة **الأمة العربية** (يناير- أبريل 1938) 804.
18. سورة 13:11، استشهد بها في: **لماذا**، ص14.
19. "مقدمة" للبينات، الفقرة: واو.
20. **لـــماذا**، ص166، حوراني، **الفكر العربـــي**، ص228-229، ورودولف بيترز، **الإســـلام والاستعمار: عقيدة الجهاد في التاريخ الحديث**، الفصل الرابع.
21. «مقدمة» للبينات، الفقرة تاء، **لماذا** ص166.
22. «الدسيسة الأجنبية على الجامعة الإسلامية»، **الفتح**، 8 شوال 1349هـ.
23. «مقدمة» للبينات، فقرة زاي.
24. حدد أرســـلان القومية والتفرنج على حد سواء بوصفهما شـــكلين من أشكال الردة. انظر: «أصبح التجدد عبارة عن السعي في قتل الروح الإسلامي»، **الفتح**، 29 ذو القعدة، 1352هـ و"الإلحاد في الدين والنقص في التناســـل توأمان"، **الفتح**، 21 نوفمبر 1929. وطه حسين (1889-1974) وهو روائي، وكاتب مقالات، ومصلح ثقافي، أثار جدلاً حامي الوطيس بنشره في العام 1926 كتاباً شكك فيه في أصالة قسم كبير من شعر ما قبل الإسلام (الشعر الجاهلي). وكان هيكل (1889-1956) أيضاً مؤلفاً متفرنجاً غزير الإنتاج. وشغل منصب رئيس تحرير السياســـة الإصلاحية الناطقة باسم الحزب الدســـتوري، كما شغل في نهاية المطاف منصب رئيس مجلس الشيوخ المصري.
25. تشارلز دو. سميث، «أزمة الاتجاه: تحول المثقفين المصريين إلى الموضوعات الإسلامية في حقبة ثلاثينيات القرن العشرين»، **المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط**، 4 (1973)، 391. انظر أيضاً سافران، **مصر في البحث**، الفصلان التاسع، والعاشر.
26. «اللباس الصحي والغطاء الصحي للرأس»، **الشورى**، 26 أغسطس 1926.
27. «مقدمة» للبينات، الفقرتان ياء وياء/ باء.

28. «مركز المرأة»، **الشـــورى**، 23 أبريـــل 1930. أعيد طبع المقال، ربما بســـبب إقرار موقف أرســـلان، وذلك عبر مجلة **الشهاب** الناطقة باســـم رابطة العلماء الجزائريين. انظر ميراد، **إصلاح المسلمين**، ص329. رقم 2.

29. **لماذا**، ص77-78.

30. تفنيدات أرســـلان الأكثر مثابرة لمؤلفات طه حسين الأقدم عهداً هي: «الأمر أكثر تعقيداً مما يبدو للوهلة الأولى». في كتاب، **تحت راية القرآن: معركة بين القديم والجديد** ص31-39 لمصطفى صادق الرافعي (محرر)، وفي «التاريخ لا يقوم على الافتراضات»، في المرجع نفســـه، ص87-96. ووجهت تهمة الانتحال في رســـالة بعث بها أرســـلان إلى رضا، 21 ربيع الأول 1352 هـ، وأدرجها الشرباصي في **أمير البيان**،2، ص808-809.

31. «الفلســـفة والحضارة العربية»، مجلة **الزهراء**،3، رقم 5 (1345هـ) 289-293. موسى، وهو قبطي مصري غالباً ما كان يسمى مؤسس الاشتراكية العربية، شاطر أرسلان مناهضته للإمبريالية، بيد أنه كان صاحب رؤية علمانية متفرنجة للمجتمع، وهذا الأمر هو ما لا يعجب أرسلان فيه.

32. «المحاكم المحلية البربرية»، مجلة **الأمة العربيـــة** (أكتوبر 1930)، 7. بين الإصلاحات ذات الصبغة العلمانية التي نفذت إبان ســـنوات رئاسة مصطفى كمال أتاتورك لتركيا (1923-1938) كان إلغاء الخلافـــة، وإلغاء العمل بأحكام الشريعة، واعتمـــاد الأبجدية اللاتينية، وترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة التركية، وإغلاق المدارس الدينية المتخصصة والمنفصلة والقائمة بذاتها، وحظر اعتماد الطربوش. وللاطلاع على نقاش وافٍ لهذه السياســـات، انظر لويس: **الانبثاق**، واطلع على بيركس: **تطور العلمانية**.

33. «أنقرة بإزاء المؤتمر الإســـلامي»، **الفتح**، 6 رمضان 1350هـ. وفي المرجع نفسه: «الأتراك في حالة ثورة»، في 9 محرم 1352: «بات التجديد يعني بذل الجهد لقتل روح الإسلام».

34. «الأتراك في حالة ثورة».

35. المرجع نفسه.

36. «أنقرة بإزاء المؤتمر الإسلامي».

37. فضـــلاً عن الكلمات المذكورة في الملاحظة رقم 33، انظـــر «موقف الكماليين»، **الفتح**، 18 ـ أغســـطس 1927، «رد على فريد وجدي»، المرجع نفسه، غرة شهر جمادى الآخرة 1352هـ، وانظر **حاضر العالم الإسلامي**، 1، ص205-212، 3، وص351-364.

38. رســـالة من رضا إلى أرســـلان في الثامن من يناير من العام 1928، وردت في كتاب شكيب أرسلان: **الســـيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة**، ص507، ويمكن الاطلاع على تفسيرات أرسلان في المرجع نفسه، ص510، ملاحظة رقم 1. لقد عَدَّ أرسلان أمان الله حداثوياً مخرباً على منوال الكماليين، وانتقده لمحاكاته سياســـات أنقرة («ثورة الأفغان»، **الفتح**، 24 يناير، 1929).

39. «مهين عند قومه، مكرم عند الناس»، **الشورى**، 31 مارس 1927.

40. «الأزمة الحقيقية الحاضرة في الإسلام»، **الفتح** 17 أبريل 1930.

41. المسألة أكثر تعقيداً... ص43.

42. انظر **لماذا**، ص55-57، و87-95. وانظر أيضاً «فصل الدين عن السياسة»، **الفتح**، 9 فبراير 1928، «صلوات وابتهالات في الكنائس الإنكليزية جميعها من أجل صحة الملك»، المرجع نفسه. 27 ديسمبر 1928. و«هل يقولون إن ألمانيا رجعية؟» المرجع نفسه، 28 شوال 1351هـ. وانظر «الدين والدولة يعملان يداً بيد»، المرجع نفسه، 6 ذو الحجة 1352هـ. و«حكوماتهم اللادينية!» **الشورى**، 28 يناير 1931.

43. «اتفاق البابا مع إيطاليا»، **الفتح**، 7 مارس 1929، و«الأزمة الحقيقية الحاضرة في الإسلام».

44. **لماذا**، ص64. انظر أيضاً **النهضة العربية في العصر الحاضر**، ص40.

45. «الأتراك في حالة ثورة».

46. **حاضر العالم الإسلامي**، 3، ص253.

47. «أنقرة بإزاء المؤتمر الإسلامي»، و«رد على فريد وجدي»، و«الأزمة الحقيقية الحاضرة في الإسلام». في نعيه المعبر عن احترامه لأتاتورك، أسقط أرسلان قدراً كبيراً من عدائه الصريح، ولكنه أصر على أن شرف المقاومة المبدئية للمعاهدة سيفر يجب أن ينتقل إلى كاظم قره بكير والعلماء الأتراك الذين ألهبوا حماس الجماهير في الدعوة إلى خوض غمار حرب مقدسة. وعليه فإن رجال الدين كانوا هم «المنقذين الرئيسين لتركيا». («موت كمال أتاتورك»، مجلة **الأمة العربية** سبتمبر-ديسمبر 1938، 1077-1078).

48. سافران، **مصر في البحث**، ص152.

49. تشارلز دي. سميث، «المثقف والحداثة: تعريفات ومراجعات: التجربة المصرية»، **دراسات مقارنة في المجتمع والتاريخ**، 22 (1980)، 518.

50. «أنقرة بإزاء المؤتمر الإسلامي».

51. «مقدمة» إلى البينات، الفقرة هاء.

52. «الأزمة الحقيقية الحاضرة في الإسلام».

53. المرجع نفسه، و«اليقظة المشرقية الراهنة»، **المقتطف** (فبراير 1927)، 136-137.

54. «استعراض المغرب»، مجلة **الأمة العربية** (مايو-يونيو 1932)، 38.

55. ذكر في كتاب **الإصلاح الإسلامي** لمؤلفه كير، ص127. ملاحظة 67. وورد ذكره في **الفكر العربي**، تأليف: حوراني، ص231-232.

56. انظر ميراد: **إصلاح المسلمين**، ص218-219. أعجب هذا المصلح الذكي أيضاً ببعض سياسات أتاتورك، وأشار إلى أن الهجمات التي كانت تستهدف الرئيس التركي عقيمة وغير مثمرة (المرجع نفسه، ص374-376).

57. **النهضة العربية**، ص30-31، «من آثار ملوك المغرب»، **الشورى**، 9 أبريل 1930، و«أخبار الحجاز ونجد»، مجلة **الأمة العربية** (مايو 1930)، 143. و«الإصلاحات داخل دولة ابن سعود»، المرجع نفسه (سبتمبر-أكتوبر 1931)، 46.

58. «الموضوع واحد»، **الفتح**، 22 أغسطس 1929.

59. التحالف بين الدول العربية الثلاث المستقلة، مجلة **الأمة العربية** (يناير-أبريل 1936)، 471.

60. رسالة من أرسلان إلى رضا، 17 ربيع الثاني 1350، في **أمير البيان**، 2، ص789.

61. انظر، على وجه الخصوص «المقدمة» للشرباصي، **شكيب أرسلان: من رواد الوحدة العربية**، وانظر أيضاً **شكيب أرسلان** للكاتب نفسه، ص11-155. والبينة التي استعملها الشرباصي تدليلاً على أن أرسلان قومي عربي يمكن أن تنسحب أيضاً على الأمير برهاناً على أنه داع لتحقيق الوحدة الإسلامية الجامعة. وعلى الرغم من أن الدهان، أيضاً، أكد على دور أرسلان بوصفه متحدثاً باسم العروبة، فقد أشار إلى أن أرسلان كان يخلط في كثير من الأحيان بين مفاهيم الدين والقومية، وكان ميالاً إلى طرح الإسلام بوصفه قومية (**الأمير شكيب أرسلان**، ص331).

62. الدكتور زكي بك علي، «حاج الشرق في الغرب»، **الشباب**، 24 مارس 1937.

63. **الوحدة العربية**، ص8. يمكن الحصول على ملخصات تندرج تحت هذا العنوان عند دجي ديسبارمت في كتابه: **شمال أفريقيا والعروبة الجامعة**، ص56-57. ولدى إنريكونوني: «فكرة الوحدة العربية التي طرحت في المناقشات التي انعقدت مؤخراً عبر صحافة الشرق الأدنى»، **الشرق الحديث**، 18، رقم 8 (أغسطس 1938) 403-405.

64. **الوحدة العربية**، ص11-12.

65. «يحصلون على رغباتهم من الواقع»، مجلة **الأمة العربية** (مايو-أغسطس 1938)، 933. للاطلاع على فكرة الحصري عن **الأمة العربية** الموجودة بصورة طبيعية، انظر كليفلاند، **تكوين القومي العربي**، ص116-127.

66. «الدسيسة الأجنبية على الجامعة الإسلامية».

67. المرجع نفسه.

68. هذه العبارة الملائمة هي عنوان كتاب نيكي آر. كيدي: **الرد الإسلامي على الإمبريالية: كتابات جمال الدين «الأفغاني» السياسية والدينية.**

69. للاطلاع على سياق الخطاب والسخط الذي سببه، انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب.

70. رسالة من أرســـلان إلى رضا، 3 يوليو 1924، في **أمير البيان**، 2، للشرباصي، ص667. وفي الرســـالة ذاتها (ص666) عقب أرســـلان بقوله بما أن أسرة يونانية أرثوذكسية مثل عائلة سرقس تبدي التزاماً بهذه القوة تجاه فرنسا، فللمرء أن يتخيل وضع الكاثوليك.

71. يمكن الاطلاع على موقفه من الآشـــوريين في: «المعاهدة الفرنسية السورية: هل هي معاهدة أم قصاصة من الورق؟» مجلة **الأمة العربية** (مايو-أغســـطس 1938)، 914. وأما شكاواه بشأن مســـائل أخرى فيمكن الاطلاع عليها عبر الاطلاع على رسائله إلى رضا، 2 مايو 1929، في **أمير البيان**، 2، للشرباصي، ص700، وفي ربيع الثاني من العام 1350هـ، في المرجع نفسه، ص787.

72. «العروبة، المجتمع الشامل»، في **شـــكيب أرسلان** للشرباصي، ص161-188. كُتِبَ المقالُ في شهر يوليو من العام 1940.

73. **المذكرات**، 2، لمحمد كرد علي، ص419. صديق وليس متملقاً، وأشار كرد علي أيضاً إلى أغلاط أرسلان السياسية.

74. «مسألة الأمير شكيب أرسلان»، **الشباب**، 12 مايو 1937.

75. مقابلة مع مي جنبلاط، نوفمبر 1975. راجع **شكيب أرسلان** للشرباصي ص312-313.

76. مقابلة مع إحسان الجابري، 5 يناير 1975.

77. بن غوريون، **محادثاتي مع قادة عرب**، ص35.

78. ســـجلات مكتب شرائط الأفلام الألمانية (الميكرو فيلم) رول 4900، وزارة الخارجية-مذكرة داخلية، 12 ديسمبر 1934، إطار L327722.

79. **منبر الشرق**، 9 مايو 1932. لقاءات أرســـلان الصيفية مع فيصل بـــدأت في مدينة أنتيب (الفرنسية) في العام 1930 واســـتمرت بصورة منتظمة، وكانت تنعقد عادة في برن، إلى ما قبل موت ملك العراق بأسابيع قليلة. وهذه اللقاءات مدرجة ومؤرخة وفقاً لتسلسلها الزمني في رســـائل أرســـلان إلى رضا. ويمكن الاطلاع عليها كاملة في **أمير البيان**، 2، للشرباصي في الصفحـــة 169 في (23 يوليو 1931)، وفي الصفحـــة 785 (13 ربيع الثاني 1350هـ)، وفي الصفحة 812 (8 ربيع الثاني 1352هـ).

80. لويس جوفيليه، «التطور الاجتماعي والسياسي للبلدان العربية (1930-1933)»، **استعراض دراسات إسلامية**، 7 (1933)، بخاصة الصفحات: 454-455، و460، 590، 627، 639.

81. **الإســـلام المعاصر**، ص65، لروجر لوتورنـــو. والثلاثة الآخرون هـــم فيصل والحاج أمين الحسيني وعبد الرحمن عزام.

82. **باريس سوار**، 21 ديســـمبر 1939. مقال ألارد محفوظ ومصنف في المحفوظات الاتحادية السويسرية، 1939.

الفصل السابع: نحو المحور

1. أرسلان، «حملة الزور والبهتان»، مجلة **الأمة العربية** (سبتمبر-أكتوبر 1931)، 36.
2. MPF، تقرير3 أكتوبر 1939.
3. بخاصة، لوكاس هيرزوفيتش، **الرايخ الثالث والمشرق العربي**. وأضافت أعمال لاحقة إلى ذلك تفصيلاً أرشيفياً، غير أنها لم تعدل جوهرياً تفسيرات هيرزوفيتش. انظر روبرت لويس ملكا، «المحور والشرق الأوسط العربي، 1930-1945»، إم. دجي. تشوردر، «روابط قوى المحور مع العالم العربي»، في: **الحرب في منطقة البحر الأبيض المتوسط (1930-1945)** ص607-626؛ وفرانسيس نيقوسيا، «القومية العربية وألمانيا الاشتراكية الوطنية، 1933-1939: عدم التوافق الأيديولوجي والاستراتيجي»، **المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط**، 12 (1980)، 351-372.
4. هيرزوفيتش، **الرايخ الثالث**، ص30؛ وآر. إل. ملكا، «ألمانيا النازية وفلسطين»، **دراسات شرق أوسطية** 5 (أكتوبر 1969)، 221-233. يبين ملكا أن هذه الأنشطة نفذت من قبل الجهاز النازي، ولم تكن جزءاً من توصيات وزارة الخارجية العادية.
5. الفحص الأكثر شمولاً ودقة لسياسة إيطاليا حيال العرب في حقبة ما بين الحربين العالميتين يمكن الاطلاع عليه في كتاب: **روما بين لندن وباريس**، الفصل الرابع تأليف روزاريا كوارتارارو.
6. نوقشت أساليب الدعاية الإيطالية ومحتواها في: كوارتارارو، **روما**، ص211-218؛ ومن قبل ماريو تيدتشيني لالي في: «الدعاية العربية للفاشية ومصر»، **التاريخ المعاصر**، 7 (ديسمبر 1976)، 717-749. وكالوم إيه. مكدونالد في: «راديو باري: الدعاية الإيطالية اللاسلكية في الشرق الأوسط والتدابير المضادة البريطانية 1934-1938»، **دراسات شرق أوسطية**، 13 (مايو 1977)، 195-207.
7. العبارة هي: «المحور» لملكا، ص249.
8. جرى استعراض هذه الاتصالات من قبل هيرزوفيتش في كتابه: **الرايخ الثالث**، الفصلان الثاني والثالث.
9. كوارتارارو، **روما**، ص214.
10. رسالة من أرسلان إلى فون أوبنهايم، 18 يونيو 1942، كما وردت تلخيصاً لدى فرتيز غروبا في: **الطريقة والإنجاز في المشرق**، ص270.
11. لقد كانوا استثناء من القاعدة، لا لجهة قِدَمِ عهدهم في وظائفهم فحسب، بل لجهة خبرتهم المباشرة في شؤون الشرق الأوسط. باشر فون هنتيغ في محاكاة أسلوب تي. إي. لورنس في

تنفيذ المهام لتحريض السكان الأفغان ضد البريطانيين في الحرب العالمية الأولى. وعلى الرغم من استغراقه في المشاركة في تنفيذ سياسة الرايخ الثالث في الشرق الأدنى بوصفه رئيساً للشعبة السياسية السابعة أواخر ثلاثينيات القرن العشرين، وبوصفه صار لاحقاً المسؤول رفيع المستوى عن الشؤون المتعلقة بكل من إيران، وتركيا، والخديوي السابق كان أحد أعضاء مجموعة موظفي الخدمة المدنية الأرستقراطيين، وكانوا «يحتقرون في سرهم سادة النازيين الذين كانوا يخدمونهم في العلن» (آر. إل. ملكا، «ماكس فريهر فون أوبنهايم: ستون عاماً من البحث والدسائس في الشرق الأوسط»، **دراسات شرق أوسطية**، 9 (يناير 1973)، 82. بدأ بروفر عمله الديبلوماسي بوصفه مترجماً متمرناً في السفارة في القاهرة في العام 1907، وتخصص باللغات السامية قبل أن ينتقل إلى اسطنبول حيث التقى بأرسلان إبان الحرب العالمية الأولى. وفي العام 1942، عاد من البرازيل، حيث كان يشغل منصب سفير ألمانيا فيها، ليرأس القسم العربي في وزارة الخارجية الألمانية (هيرزوفيتش، **الرايخ الثالث**، ص268). وفون ريتشهوفن، موظف آخر في وزارة الخارجية في حقبة ما قبل الحرب. وكان يشغل منصب نائب رئيس شعبة الشرق الأوسط في وزارة الخارجية الألمانية في عشرينيات القرن العشرين، وكان بحكم عمله يجري اتصالات متكررة مع أرسلان. للاطلاع على التنويه به، وعلى تحليل إدامته للتقليد الأرستقراطي في السلك الديبلوماسي الألماني في أعقاب الحرب العالمية الأولى، انظر بول سيبري، **مقر وزارة الخارجية في وسط برلين: دراسة للديبلوماسيين الألمان في ظل النظام النازي**، الفصل الأول.

12. المحفوظات الاتحادية السويسرية، برن، «محضر رسمي»، 6 أكتوبر 1938. انظر أيضاً دفاع أرسلان القوي عن شخصية فيلهلم في: «هل تريد أن تقول إن رجلاً من الحكومة الفرنسية يقول: دي غيوم، 2، ... مجلة **الأمة العربية** (مارس-أبريل 1935)، 236-255.

13. يعتمد هذا العرض المقتضب للسيرة الذاتية على ملكا، «فون أوبنهايم»، ص81-82.

14. سجلات شرائط الأفلام المجهرية، رول 4900، مذكرة فون كرامون، من دون تاريخ (ديسمبر 1927)، إطار L327793.

15. المرجع نفسه، إيه إيه مذكرة داخلية، 14 ديسمبر 1927، إطار L327790، وثائق وزارة الخارجية الألمانية أكدت باستمرار ترحيب أرسلان بالألمان، وكانت تشير إليها غالباً بوصفه نصير الألمان. انظر، على سبيل المثال، المرجع نفسه، إيه إيه لكورناد جيزال، 17 فبراير 1925، إطار L327727، وبارون فون ريتشهوفن إلى أرسلان، 29 سبتمبر 1925، الإطاران 327735-L327734.

16. رسائل متبادلة مختلفة بين فون أوبنهايم، وفون ريتشهوفن والقنصلية في جنيف عثر عليها في المرجع السابق، 13-16 ديسمبر 1926، الإطاران 327762-L327758، ورسائل من فون ريتشهوفن إلى أرسلان، 26 أبريل 1926، إطاره 327742-L327740.

17. فون أوبنهايم بدأ إحدى ملاحظاته التوضيحية المتضمنة في رسالة مرسلة إلى ضابط اتصاله في وزارة الخارجية الألمانية في حينه، فون ريتشـــهوفن، بكلمات جاء فيها: «بحسب ما جرى الاتفاق عليه، أرسل إليكم رسالة الأمير شكيب أرسلان الأخيرة مرفقة بطلبي الرد بحيث أغدو قادراً على الكتابة إليه بنفسي». (المرجع نفسه، 14 ديسمبر، 1928، إطار L327807، و13 ديسمبر 1926، إطار L327758).

18. عين السلطان عبد الحميد أرسلان مرافقاً للقيصر في دمشق (الطاهر، **ذكرى الأمير**، ص55). فأرســـلان أرســـلان بيان القيصر في العام 1935ـ مدعياً أنه بسبب ذلك، ظفر الحاكم الألماني بتعاطفات دائمة من العالم الإســـلامي (أرسلان، «غيوم الثاني»، ص252-255. انظر أيضاً برنار فرنيه، **سياسة ألمانيا الإسلامية** ص54-55.

19. ســـجلات شرائط الأفلام المجهرية، رول 4900، مذكرة من فون ريتشهوفن إلى أرسلان، 22 أبريل 1926، إطار L327744-327745، ومذكرة من فون ريتشـــهوفن إلى أرسلان، 26 أبريل 1926، إطار L327740-327742.

20. ســـجلات شرائط الأفلام المجهرية، إطـــار 2904، مذكرة بروفـــر، 7 نوفمبر 1934، إطار E461986-461989.

21. دانيال غيران، **في مصالح المستعمرات**، ص20.

22. الأرشيف التاريخي لوزارة الشؤون الخارجية، روما، إيطاليا، مغلف رقم 85، ترجمة مقتبسة من رسالة مرسلة من أرسلان إلى الحسيني، 7 نوفمبر 1942.

23. ســـجلات شرائط الأفلام المجهرية، رول 726، رســـالة من أرسلان إلى سليمان آغا، 2 أكتوبر 1941، إطار 325933-325938.

24. أرسلان، «السياســـة الاســـتعمارية، لا علاقة له بمعاداة الســـامية»، مجلة **الأمة العربية** (سبتمبر-ديســـمبر 1938)، 1200-1203؛ «حرب الأمواج»، مجلة **الأمة العربية** (يناير-أبريل 1938)، 876-877، و«اختلافهم رحمة»، **الشباب**، 14 ديسمبر 1938، و«المسلمون المستقلون»، **الشباب**، 19 مايو 1937.

25. أرسلان، «سخط اليهود الشديد على مفتي القدس»، مجلة **الأمة العربية**، (سبتمبر-ديسمبر 1938)، 1221.

26. أرسلان، «قضية العرق»، مجلة **الأمة العربية** (مايو-أغسطس 1938)، 981. كان أرسلان أكثر تشـــدداً في الصحافة العربية، طارحاً الرأي القائل إن السياسات الصهيونية في فلسطين أضفت مصداقية على نظرية المؤامرة اليهودية العالمية. انظر مقالاً له في **الشباب** تحت عنوان: «إن عجزت الأمة»، **الشباب**، 5 أكتوبر 1938، وأيضاً: «اختلافهم رحمة».

27. ســـجلات وزارة الخارجية-مكتب الســـجل العام، لنـــدن FO371/2460/214، "مركز استخبارات الشرق الأوســـط"، خلاصة رقم: 9، 26 ديسمبر 1939-2 يناير 1940، رسالة من أرسلان إلى طاهر، FO371 /24546/E41، ورسالة من أرسلان إلى السعيد، 17 نوفمبر 1939. في: نيوتن (بغداد) إلى هاليفاكس، 27 ديسمبر 1939.

28. الأرشـــيف التاريخي لوزارة الخارجية، روما، مجموعة 1573، سوريا 1923، حزمة 7174، 26 ديسمبر 1922، والأرشـــيف التاريخي لوزارة الخارجية، روما، مجموعة 1672، تركيا 1922، حزمة 7797.

29. إيفانز بريتشارد، **الســـنوسي**، ص202. يطرح الفصل السابع من هذا الكتاب ملخصاً عن الممارسات الاستعمارية الإيطالية بعد العام 1931م.

30. الأرشـــيف التاريخي لوزارة الشؤون الخارجية، روما: ليبيا، مغلف 7 ,1 ,1-1933، "موقف الحملة الإســـلامية المناهض لإيطاليا لشكيب أرسلان"، وزير الشـــؤون الخارجية إلى وزراء المستعمرات، 23 يونيو 1933. يتضح من نغمة المفاجأة في هذه الوثيقة أن مقال أرسلان نشر دون معرفة وزارة الخارجية في روما سابقاً بالأمر.

31. الجمعية العربية، 9 مايو 1935، بحسب إعادة النشر في: **الشرق الحديث**، 15 (مايو 1935)، 197.

32. الجمعية العربية، 9 مايو 1935، بحسب إعادة النشر في: **الشرق الحديث**، 15 (يونيو 1935) 252-253. زعم أرســـلان أنه مرتاح الضمير وموقفه سليم حيال اتفاقه مع موسوليني، بيد أنه لم يواظب عـــلى الضغط على الحكومة الإيطالية من أجل تنفيذ إصلاحات محددة إضافية في ليبيا (شكيب أرســـلان: **السيد رشـــيد رضا أو إخاء أربعين سنة**، ص746، الأرشيف التاريخي لوزارة الشـــؤون الخارجية، روما، إيطاليـــا، آفور، رقم 105، ملخص عن اجتماع البرفسور إندرل مع شكيب أرسلان، 31 أكتوبر 1935).

33. أرسلان، «المعاهدة الفرنسية السورية»، مجلة **الأمة العربية** (سبتمبر-نوفمبر 1936) 647، و«المشكلة الأثيوبية»، المرجع نفسه (يناير-أبريل 1936)، 516.

34. أرســـلان، «اقتراح لإثيوبيا»، المرجع نفسه (ســـبتمبر-نوفمبر 1936)، 680-692، (اقتطع هذا الاقتباس من الصفحة 680)، وأمـــا المقالات الأخرى التي نشرت في مجلة **الأمة العربية** وعالجت هذه القضية فهي تتضمن: "إيطاليا في إثيوبيا" (ســـبتمبر-أكتوبر 1934)، 48-51، و"مســـلمو الحبشة" (يناير- فبراير 1935)، 177-178، و"الصراع الإيطالي الإثيوبي والعرب" (مايو- يونيو 1935)، 307-311، و"المقالة الخبيثة" (سبتمبر- نوفمبر 1936)، 653-655. وكتب أرســـلان مقـــالات متطابقة تقريباً مع التـــي ورد ذكرها في هذه الفقرة للصحافة العربية-وعلى ســـبيل المثال، نشر مقالين في صحيفة **الشـــباب** في 14 أبريل و19 مايو من العام 1937. انظر أيضاً الحواشي التفصيلية المطولة التي أدرجت في كتاب شـــكيب

أرسلان: **السيد رشـــيد رضا أو إخاء أربعين سنة**، الصفحات: 760-762، و764-766، و791-792، وانظر أيضـــاً تعليقاته في: بورقيبة: " محارب قديم شـــارك في النضال ضد الاستعمار"، ص361.

35. رسالة من رضا إلى أرسلان، 6 صفر 1354هـ، في: **رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة** لشكيب أرسلان، ص783.

36. أرســـلان، **عروة الاتحاد**، ص237، 241، ودجي. دبليو. رينديل، مخضرم أكثر من زملائه الذين عملوا مع الحكومة البريطانية، وكانوا يرون مؤامرة فاشـــية كامنة وراء كل مظاهرة فلســـطينية، أبدى هذا الرجل ملاحظة عن أرســـلان جاء فيها: «شأنه شأن كثير من المثقفين العرب الآخرين ربما لا يحب الإيطاليين على هذا النحو-لكن لا شـــك في أنه يعتمد على قدرته على الحيلولة دون أن تحل إيطاليا فعلياً محلنا ومحل الفرنســـيين في الشرق الأوســـط إذا ما تم التخلص منـــا، وعندما يتحقق ذلك». FO371/19983/E3334) "الدعاية الإيطالية في الشرق الأدنى"، تقرير ورد في مراســـلات مايلز لامبسون [من القاهرة] إلى أنتوني إيدن، 29 مايو 1936، تعليقات رينديل مرفقة.

37. رسالة من أرسلان إلى رضا، 12 صفر 1354ه، في **أمير البيان**، 2، للشرباصي، ص829.

38. أرسلان، «إيطاليا والعالم العربي»، مجلة **الأمة العربية** (أبريل-يونيو 1933)، 24.

39. أرسلان، «غدر لا يصدق»، ص279.

40. أرسلان، «الصراع الإيطالي الإثيوبي والعرب»، ص309.

41. المقالات، وردة الفعل العدائية حيالها ملخصة في مجلة **الشرق الحديث**، 15 (مايو 1935)، 195-198.

42. للاطلاع على الخلفية السياسية المحلية لهذه الحادثة، انظر بوراث: **الحركة الوطنية العربية الفلسطينية**، 2، ص62-66. ويوجد ترجمة كاملة للرسالة عرضت من قبل مؤسسة إيسكو، **فلسطين: دراسة للسياسات اليهودية، والعربية، والبريطانية**، 2، ص774-775، وفي مجلة **الشرق الحديث**، 15 (مايو 1935)، 199.

43. مؤسسة إيسكو، **فلسطين**، 2، ص775.

44. المرجع نفســـه، ص825-827؛ ورسالة من أرسلان إلى رضا، 12 صفر 1354هـ، في المرجع نفســـه، ص828-834. للاطلاع على عرض أرســـلان الحضور إلى فلسطين من أجل الدفاع عن نفســـه، انظر مقال أرسلان نفســـه الذي نشر في مجلة **الأمة العربية** في عددها الصادر في (مايو- أغســـطس 1938)، تحت عنوان: «الباريسي الصغير هو أداة للدعاية الصهيونية الكاذبة»، ص1053-1062، وانظر مراســـلاته مع المندوب السامي أكهوب، سجلات وزارة الخارجية، مكتب السجل العام، لندن: FO371/18958/E4300.

45. «الباريسي الصغير»، ص1056.

46. رسالة من رضا إلى أرسلان، 6 صفر 1354، في **السيد رشيد رضا او إخاء أربعين سنة**، ص784-785. وكان الشرباصي أيضاً مقتنعاً بأن الرسالة مزورة. انظر معالجته للحادثة في **أمير البيان**، 1، ص103-106.

47. رسالة من أرسلان إلى رضا، 12 صفر 1354هـ، في **أمير البيان**، 2، للشرباصي، ص829.

48. رسالة من رضا إلى أرسلان، 6 صفر 1354هـ في: **السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة** لشكيب أرسلان، ص784.

49. مؤسسة إيسكو، **فلسطين**، 2، ص774.

50. سجلات وزارة الخارجية، مكتب السجل العام، لندن، FO371/19983/E3334. "الدعاية الإيطالية في الشرق الأدنى". تقرير ورد في مراسلات مايلز لامبسون [من القاهرة] إلى أنتوني إيدن، 29 مايو 1936. وأكد تقرير سابق أن سبب موقف المفتي المساند لإيطاليا "يمكن أن يعزى إلى إحسان الجابري(كذا) وشكيب أرسلان" سجلات وزارة الخارجية، مكتب السجل العام لندن (FO371/18960/E2639، ملخص استخبارات سلاح الجو الملكي، فلسطين وشرق الأردن، مارس 1935).

51. عُرِّفَ أحدهم باسم محمد علي الطاهر، وهو الذي كان مسجوناً في شهر سبتمبر من العام 1940، جزئياً، بسبب تراسله مع أرسلان، سجلات وزارة الخارجية، مكتب السجل العام، لندن (FO371/19983/E3334، "الدعاية الإيطالية في الشرق الأدنى"، والطاهر، **ظلام السجن** ص371، سجلات وزارة الخارجية، مكتب السجل العام، لندن 18908/E5638/ FO371، "الدعاية الإيطالية في فلسطين"، تقرير أدرجه أكهوب في بريد أرسله إلى إم ماكدونالد، 10 أغسطس 1935).

52. ملكا، **المحور**، ص347.

53. يضاف إلى الهجمات التي استهدفته من أعدائه القدامى صوت ليبيا التخويني المتمثل باسم المتحدث الدائم باسم ليبيا، سليمان الباروني، وقد اتهم أرسلان باستبعاد ليبيا من مخططاته الرامية إلى تحقيق الوحدة العربية تزلفاً إلى موسوليني، وهي تهمة دحضها أرسلان بالقوة ذاتها التي كرسها للمقال الذي فَنَّدَ فيه المزاعم المتعلقة بالرسالة المزورة. واستمر دفاعه عبر سلسلة من المقالات التي اختار لها العنوان الآتي: «رد الأمير على الباروني باشا»، وما برحت مقالاته تلك تنشر أسبوعياً في صحيفة **الشباب** ابتداءً من شهر ديسمبر من العام 1937 ولغاية شهر أبريل 1938. انظر أيضاً لمحمد فؤاد الشكري: **ميلاد دولة ليبيا الحديثة**، 2، ص655-659، و955-964، للاطلاع على مزيد من الاتهامات التي استهدفت أرسلان كونه يعمل على تبديل ولاءاته.

54. سجلات شرائط الأفلام المجهرية (الميكرو فيلم)، وزارة الخارجية الألمانية، رول K879، مذكرة بروفر، 17 يونيو 1943، إطار K221519، والمحفوظات الاتحادية السويسرية، برن، رسالة من اتحاد جنيف المدني، 14 يناير 1935.

55. تقارير المحفوظات الاتحادية الســـويسرية، برن في 16 أكتوبـــر 1938، و29 يناير 1946، ومحضر جلسة استماع، 6 أكتوبر 1938. وبدا هذا منافياً للعقل، ولكن جولييت بسيس، وهي تعمل في مجال توثيق مختلف، تزعم أنه يوجد دليل لا يمكن دحضه (تذكره بطبيعة الحال) هذا الدليل قائم ويثبت قبول أرســـلان تلقي مبالغ كبيرة من الأموال من فينو (انظر كتابها: **شكيب أرسلان**، ص468).

56. سجلات وزارة الخارجية، مكتب السجل العام، لندن E2639/18960/FO371، ملخص اســـتخبارات القوى الجوية الملكية، مارس 1935، وفي وقت لاحق من تلك الســـنة، تَأَكَّدَ أن الجابري ورفاقه الذين لم تعلن أسماؤهم تلقوا مبلغ ثلاثين ألف جنيه، ووضع تحت تصرفهم (E5638/18958/FO371، "الدعايـــة الإيطالية في فلســـطين"، تقريـــر من أكهوب إلى ماكدونالد، 10 أغسطس 1935). وفي معرض دراسته لدعاية المحور، زعم روبرت إل. بيكر أن أرسلان تلقى ســـتين ألف جنيه من الإعانات المالية من إيطاليا (**النفط، والدم، والرمال**، ص122).

57. ســـجلات وزارة الخارجية، مكتب الســـجل العام، لنـــدن، E1488/20786/FO371، "الأنشطة الإيطالية المناهضة للبريطانيين في الشرق الأوسط"، **مذكرة وزارة الخارجية**، 13 مارس 1939. الأرقام البريطانية تقديرات مستقاة من دليل غير مباشر. وملخص المخابرات الفرنسية الذي زعم واضعه أنه اســـتند إلى تقرير من امرأة بارزة حسنة الاطلاع على شؤون العالم العربي على نحو خاص ليس أقل إثارة للشك والريبة. وقد ذكر في هذا التقرير أن الأمير كان يتلقى معونة مالية سنوية مقدارها ألفان وخمس مئة لير (130 دولاراً أمريكياً) من روما (**النشاط السياسي** ص24). وأما المعلومات الأكثر دقة فقد قدمها كوارتارارو الذي اكتشف أمراً صادراً في العام 1934 قضى بتحويل مبلغ خمســـة عشر ألف لـــير من البنك التجاري الإيطالي إلى حساب أرسلان في جنيف (روما ص246 و270، ملاحظة رقم 201). وبينما يؤكد هذا استلام أرسلان أموالاً إيطاليةً، فإن هذه المعلومات، وفقاً لإشارة كوارتارارو الواضحة، لا تثبت أن العملاء الإيطاليين المأجورين لعبوا دوراً حاســـماً في الثورة الفلسطينية التي نشبت بين العامين 1936-1939.

58. أرسلان، « السياسة الإسلامية»، ص185.

59. رسالة من أرســـلان إلى مجدي ناصيف، 13 ديسمبر 1939، بحســـب ورودها مترجمة في سجلات وزارة الخارجية، مكتب الســـجل العام، لندن، J214/24640/FO371 " مركز استخبارات الشرق الأوسط"، خلاصة رقم 9، 26 ديسمبر 1939- 2 يناير 1940.

60. «العدو لفرنسا»، ص804.

61. زعمت وزارة الخارجية البريطانية أن مجلة **الأمة العربية** كانت تتمول بصورة غير مباشرة من قبل روما وذلك على صورة أموال تسـدد بوصفها بدل اشتراك وترسل من قبل مواطنين إيطاليين يقيمون في بلاد متوسطية مختلفة (E3334/19983/FO371، "الدعاية الإيطالية في الشرق الأدنى" ورد في مراسـلات مايلز لامبسون [من القاهرة] إلى أنتوني إيدن، 29 مايو 1936).

62. المحفوظات الاتحادية السويسرية، برن، «محضر جلسة استماع»، 6 أكتوبر 1938.

63. المرجع نفسه، لاحظت الحكومة الإيطالية، بصورة خاصة، أن عدوهـا، أحمـد الشريـف السـنوسي، كان بين هؤلاء المسهمين (الأرشـيف التاريخي لوزارة الشؤون الخارجية روما، العربية السـعودية، مغلـف 11، POS1،1933، بيغناتي (باريس) إلى وزير الشـؤون الخارجية، 19 أغسطس 1933).

64. رسالة من أرسلان إلى رضا، 18 ذو الحجة 1352، في **أمير البيان**، 2، ص821 للشرباصي.

65. منذ العام 1939 وحتى هزيمتها في العام 1940، منعت فرنسـا إخراج أي أموال من سوريا ولبنان وإرسـالها إلى الخارج، فحرمت بذلك أرسـلان من تلك الحصة من دخله التي كان يحصل عليها من ممتلكات عائلته في لبنان (J381/24640/FO371، "مركز استخبارات الشرق الأوسـط"، **خلاصة معلومات**، 10-16 يناير1940). وكما أشار في رسائل مؤرخة في العام 1939 وأوائل العام 1940 بعث بها إلى مراسـلين عرب فقد كانت هذه ضربة مالية رهيبة وجهت إليه. وهي تشير إلى أن الدخل الذي كان يتلقاه من لبنان كان بالنسبة إليه أكثر أهمية مما كان يعتقد البريطانيون والفرنسـيون. وأعيد نشر تلك الرسائل في كتاب **النشاط السـياسي**، ص48. وعقب احتلال الحلفاء لمناطق فيتشي الواقعـة تحت الانتداب في العام 1941، صودرت ممتلكات أرسلان رسمياً (**كراسـات معهد الشرق المعاصر للدراسات والأبحاث**، 3، 1946، 641).

66. استجاب البارون بصورة إيجابية، وبدا أنه تم إنهاء العملية (سجلات شرائط الأفلام المجهرية، رول 726، فـون أوبنهايم لورمان، 10 أبريل 1941، إطار من 326008-326009، وفون أوبنهايم إلى فون هنتيغ، الأول من شـهر أغسـطس 1941، من أرسلان إلى فون أوبنهايم، الثاني من سبتمبر 1941، إطار من 325952-325960).

67. المحفوظات الاتحادية السويسرية، برن، تقرير مؤرخ في الثاني والعشرين من فبراير 1946.

68. يتضمن هذا مبلغ الـ 1200 فرنك سـويسري الذي كان حساب أرسلان مكشوفاً عليه طوال شهر يوليو، وهو أمر كان عادياً ومألوفاً بالنسـبة إليه. ومتوسط إنفاقه الشهري الذي كان يبلغ 2,967 فرنكاً سـويسرياً، وبذلك كان مصروفه السنوي يبلغ 36,000 فرنك سويسري تقريبـاً (8,280 دولاراً أمريكياً). وكان هذا المبلغ يتوافق مع الحد الأدنى الذي كان يحتاجه

أرســـلان ليتدبر أمر معيشته، ومع ذلك فقدا بدا أنه يتجاوز حدود موارد دخله المعروفة. وفي العام 1930، زعـــم أنه حصل على تبرعات حصرية من أجل القضيـــة بلغت 5,346 دولاراً أمريكياً. ولكن إذا ما كان الرقم الذي أوردته عن العام 1938 والبالغ 8,280 دولاراً أمريكياً يتضمن الإيداعات والنفقات المرتبطة بمســـؤولياته العامة إلى جانب مسؤولياته الشخصية الخاصة، فإن الرقم يُعَدُّ في غاية التواضع. شعر السويسريون أنه من المؤكد أن أرسلان يتوفر على حساب مصرفي آخر يوجه من خلاله أموال التبرعات السرية، إلا أنه لا يوجد شيء من هذا القبيل بحسب تأكيدات أرســـلان. وبيانه المصرفي الأصلي محفوظ لدى المحفوظات الاتحادية الســـويسرية، وهو مرفق بالتقرير المؤرخ في 16 أكتوبـــر 1938. والتحويلات إلى دولارات الولايات المتحدة استمدت تقاريرها من جداول مدونات البيانات السنوية لعصبة الأمم.

69. المحفوظات الاتحادية الســـويسرية، رسائل من أرسلان إلى هاني، 4 أغسطس، و30 نوفمبر، و23 ديسمبر 1942. أسست جمعية مصر للطلبة المصريين في جامعة جنيف في العام 1937. وكانت منظمة سياسية أكثر منها مجرد تنظيم طلابي وكانت ذات ميول موالية للمحور على نحو قاطع.

70. سجلات شرائط الأفلام المجهرية، رول 726، فون أوبنهايم إلى فون هنتيغ، 30 يوليو 1940، إطار 326014-326015.

71. ذُكِرَ المسهمون الألمان من شهادة نورمبورغ في كتاب: **المحور** ملكا، ص384. والأرقام الإيطالية محفوظة في الأرشيف التاريخي لوزارة الشـــؤون الخارجية-روما-إيطاليا، مغلف رقم 84، 1942، مذكرتان حكوميتان، غير مؤرختين، صادرتان عن وزارة الشؤون الخارجية.

72. أرســـلان، «الافتراء الأبدي»، مجلة **الأمة العربية** (يناير-فبراير 1935)، 172. حتى في وقت كتابة أرسلان لهذا الكلام، كان وضعه الاقتصادي محفوفاً بالمخاطر.

73. في العـــام 1943، اضطر إلى رهن عدة قطع من المجوهرات. وحتى بعد اســـتلامه مبلغ ثلاثة آلاف فرنك ســـويسري لقاء هذا العمل المخزي المذل، ظل مديناً لمصرفه في جنيف بمبلغ ألف فرنك سويسري. وهذه مبالغ صغيرة، ولكنها كانت كافية لتسبب له شعوراً بالضيق الشديد (المحفوظات الاتحادية الســـويسرية، برن، رسالة من أرســـلان إلى يوسف هيبة، 17 فبراير 1943). كان يوسف هيبة عضواً آخر من أعضاء جمعية مصر.

74. المحفوظات الاتحادية الســـويسرية، برن، رسائل إلى أرســـلان من فارس الخوري وعارف (اســـم العائلة غير مقروء) في شهري يناير وفبراير من العام 1939 تبدي تشجيعاً قوياً له في موضوع ترشـــيحه. وبمجرد تعيينه استفاد كذلك من منحه علاوة كبيرة في الراتب إلى جانب الوضع المتعلق بالمنصب الذي شغله (**الشرق الحديث**، 18 ديسمبر 1938، 658).

75. راجع مقالات كتبها كل من محمد علي الطاهر وأرسلان ونشرت في صحيفة **الشباب**، 8 فبراير 1939.

76. هذه الأنشطة مقترنة بصور متعددة عرضت في صحيفة **الشباب** في الثامن والخامس عشر من مارس من العام 1939، انظر أيضاً **الشرق الحديث**، 19 (أبريل 1939)، 215؛ و**النشاط السياسي**، ص41-43، الذي يؤكد الاستقبال «الحار جداً» الذي حظي به أرسلان في مصر.

77. تلقت الاستخبارات الفرنسية معلومات من القاهرة عن المناسبة، وقالت إنه كان أُعلِنَ عنها من راديو برلين، وتم أداؤها في حفل ترأسه فون أوبنهايم (**النشاط السياسي**، ص47). ووفقاً لمصادر بريطانية، دافع راديو برلين في وقت لاحق عن أرسلان بخصوص «هذه التهم الفرنسية» التي وجهت إليه، وكان من شأن ذلك أن أضفى على تلك الاتهامات شيئاً من المصداقية («مركز استخبارات الشرق الأوسط»، 26 ديسمبر 1932-2 يناير 1940). كما أنكر أرسلان المسألة برمتها، لكن، في حين أنه لا يوجد ولا حتى مصدر واحد من المصادر موثوق ويمكن الاعتماد عليه كلياً، يمكن بالتأكيد أن يكون ذلك قد حصل فعلاً. (انظر **عروة الاتحاد**، ص24، وسجلات وزارة الخارجية، مكتب السجل العام، لندن FO371/24546/E41، من أرسلان إلى نوري السعيد).

78. توثيق المحفوظات الاتحادية السويسرية، برن، لهذه القضية مؤرخ في 6 يناير 1938، و3 أكتوبر 1939، و27 فبراير 1940، و17و 30 أبريل 1940، و3 أكتوبر 1941. وتظهر هذه المواد أن شعوراً بالضيق كان ينتاب السويسريين من جراء وجود أرسلان في سويسرا حتى قبل اندلاع الحرب، وأنه، خلافاً لهرزوفيتش، كانت جهودهم لتقييد تحركاته تنفذ بصورة مستقلة وبمعزل عن النكسات الألمانية في أواخر العام 1942 (**الرايخ الثالث**، ص309). وريزيت في كتابه: **الأحزاب**، ص16، و199 جانب الصواب بقوله إن أرسلان قضى زمن آخر مراحل الحرب في البرازيل ومات فيها.

79. المحفوظات الاتحادية السويسرية، تقرير الثالث من شهر أكتوبر من العام 1939. وسجلات شرائط الأفلام المجهرية، رول 726، من فون أوبنهايم إلى أرسلان، 7، 19 يونيو 1941، إطار 325972-325974. و3 ديسمبر 1941، إطار 325921-325923. ومن أرسلان إلى فون أوبنهايم، 2 و10 سبتمبر 1941، إطار من 325952-325960، 325947-325948.

80. سجلات شرائط الأفلام المجهرية، رول 726، فون هنتيغ إلى فون أوبنهايم، 11 أكتوبر 1941، إطار 325943-325945.

81. المرجع نفسه، من أرسلان إلى فون أوبنهايم، 2 سبتمبر 1941، إطار 325952-325960.

82. المرجع نفسه، من أرسلان إلى فون أوبنهايم، 3 أكتوبر 1941، إطار 325932.

83. ملخصات وترجمة لمنشورات أرسلان القليلة في تطوان طرحت عبر مجلة **الشرق الحديث**، 20 (أغسطس 1940)، 376-382؛ وفي 21 (أغسطس 1941)، 394؛ وفي 21 (سبتمبر 1941)، 499. ونشرت صحيفة **العالم العربي** مجموعة من المقالات التي سبق لأرسلان أن نشرها بين العامين 1939و1941 في المطبوعة التي سبق ذكرها: **عروة الاتحاد**.

84. سجلات شرائط الأفلام المجهرية، رول 726، أرســـلان إلى فون أوبنهايم، 10 أبريل 1941، إطار 325996-326003.

85. المحفوظات الاتحادية الســـويسرية، برن، تقارير في الأول من أبريل والخامس من نوفمبر من العام 1940، الســـابع عشر من يونيو 1943، والثاني من مارس من العام 1944. كان فؤاد حمزة في ذلك الوقت السفير السعودي لدى حكومة فيتشي.

86. المحفوظات الاتحادية السويسرية، برن، مراسلة في الأول من أبريل من العام 1942، وتقرير في العشرين من يوليو من العام 1942.

87. سجلات شرائط الأفلام المجهرية، رول K880، من بروفر إلى أرسلان، 11 يناير 1943؛ ومن أرسلان إلى بروفر، 27 يناير 1943.

88. استشهد به تشارلز روبرت أغيرون: «شمال أفريقيا والدعاية الألمانية،» في **الجزائر الجزائرية من نابليون الثالث إلى ديغول**، ص192.

89. المحفوظات الاتحادية الســـويسرية، برن، تقارير في 9، و11، و14، و15، و18، و19، و22 فبراير 1946.

90. الطاهر، **ظلام السجن**، ص677-687.

91. المرجع نفسه، ص678، والطاهر، **ذكريات الأمير**، ص486.

الفصل الثامن: الخاتمة

1. آرنولد، **الخلافة**، ص183.

2. من خطاب وجهه شكيب أرســـلان إلى اتحاد طلاب شمال أفريقيا المسلمين، باريس، 1937؛ ذكر في **النشاط السياسي**، ص30.

3. محفوظات وزارة الشـــؤون الخارجية، باريس، السلسلة E، ســـوريا-لبنان، 213، تقرير استخبارات في الثاني عشر من يوليو 1927.

4. ذُكِرَ في **النشاط السياسي**، ص30.

5. ذُكِرَ في المرجع نفسه، ص30.

ثَبَتُ المراجع المختارة

1 - المصادر الأرشيفية

فرنسا:

- محفوظات وزارة الشؤون الخارجية، باريس. ملفات مختارة من إدارة الشؤون السياسية والتجارية، سلسلة إي، **سوريا ولبنان**، 1922-1929.
- محفوظات ما وراء البحار الفرنسية-بوابة أيكس أون بروفانس. مسرح عمليات شمال أفريقيا، المكتب السياسي، إسهام في دراسة النشاط السياسي للأمير شكيب أرسلان، 4 يونيو 1940، 29H35.

ألمانيا:

- سجلات وزارة الخارجية الألمانية التي تلقتها وزارة الخارجية في الولايات المتحدة الأمريكية، وهي محفوظة في سجلات المحفوظات القومية للولايات المتحدة الأمريكية، واشنطن، العاصمة، نسخة مطبوعة مضغوطة رقم: .k879-k880,L1279,869-T-120,Roll63,726,4900,k868

بريطانيا العظمى:

- سجلات وزارة الخارجية، مكتب السجل العام، لندن.

مجلدات في السلسلة FO371

- للحقبة الممتدة بين العامين 1921-1943.

إيطاليا:

- الأرشيف التاريخي لوزارة الشؤون الخارجية، روما. مصنفات عديدة مصنفة بحسب الدول، تغطي حقبة ممتدة بين العامين 1921-1945.

عصبة الأمم:

- محاضر هيئة الانتداب الدائمة. جلسات انعقاد الهيئة من 1-25 (1921-1934).

سويسرا:

- المحفوظات الاتحادية السويسرية، برن، 4320E، أرسلان.

2 -الوثائق المنشورة:

- الوثائق الديبلوماسية الإيطالية، السلسلة السابعة، 1922-1935. مجلد رقم 10، روما، 1978.
- وثائق تتعلق بالسياسة الخارجية الألمانية عن الحقبة الممتدة بين العامين 1918-1945. السلسلة: D المجلد رقم 10: سنوات الحرب، 1940. واشنطن العاصمة، 1957.

3 - صحف ومجلات:

- **الإصلاح**، بيروت، 1912-1914.
- **الأمة العربية**، جنيف، 1930-1938.
- **ديترويت فري برس**، يناير 1927.
- **ديترويت فري نيوز**، يناير 1927.

- **دير نوي أورينت (المشرق الجديد)**، برلين، 1917-1918.
- **الرأي العام**، بيروت، 1913-1914.
- **السائح**، نيويورك، 3 يناير 5- مايو 1927.
- **الشباب**، القاهرة، 1936-1939.
- **الشرق الحديث**، روما، 1922-1942.
- **الشورى**، القاهرة، 1923-1930.
- **الفتح**، القاهرة، 1926-1936.
- **لا تريبيون دو لورنيت (منبر الشرق)**، جنيف، 1922-1937.
- **لوتون (مستعمرية)**، باريس، 1930-1931.
- **مجلة الزهراء**، القاهرة، 1924-1929.
- **المقتطف**، القاهرة، 1900-1902.
- **المنار**، القاهرة، 1912-1914.
- **منبر الشرق**، القاهرة، يناير-مارس 1953.
- **المؤيد**، القاهرة، 1911-1912.

4 - **مؤلفات لشكيب أرسلان** استعملت في هذه الدراسات بوصفها مراجع، ويمكن الاطلاع على قائمة كاملة بمؤلفاته في: **أمير البيان**، 2، للشرباصي.

أ- **كتب:**

- **الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف**. القاهرة 1350.
- **الباكورة**. بيروت، 1886.
- **تاريخ ابن خلدون**. القاهرة، 1355/ 1936. مع تعليق من قبل أرسلان. مجلد3.
- **تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط**. القاهرة، 1352/ 1933.

- **حاضر العالم الإسلامي**. طبعة ثالثة. أربعة مجلدات. بيروت 1971-1973. كتبه الكاتب الأمريكي لوثروب ستوارد، وترجمه إلى العربية عجاج نويهض، وعلق عليه الأمير شكيب أرسلان. التعليقات أطول إسهاباً وتطنيباً من الترجمة. وبذلك غدا هذا العمل خاصاً بأرسلان.
- **الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية**. مجلد1. بيروت، 1966، نسخة مطابقة لطبعة عام 1936.
- **ديوان الأمير شكيب أرسلان (مجموعة شعرية)**. حررها وأعدها للنشر رشيد رضا. القاهرة 1354/ 1935.
- **روض الشقيق في الجزل الرقيق**. دمشق 1925. ديوان نسيب أرسلان الشعري، حرره وقدم له شكيب أرسلان.
- **السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة**. دمشق 1356/ 1937.
- **السيرة الذاتية**. بيروت 1969.
- **شوقي أو صداقة أربعين سنة**. القاهرة، 1355/ 1936.
- **عروة الاتحاد بين أهل الجهاد**. بوينس آيرس، 1941.
- **لا يمكن لأي دعاية في العالم أن تشوه صورة رجل**. جنيف 1936.
- **لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟** الطبعة الثالثة، القاهرة 1358/ 1939. ترجمه إم. اس. شكور مثل: تراجعنا وأسبابه، أعيد طبعه في لاهور، في العام 1962.
- **النهضة العربية في العصر الحاضر**. القاهرة من دون تاريخ. كتاب تم جمعه من محاضرات ألقيت في دمشق في العام 1937.
- **الوحدة العربية**. دمشق، 1937.

ب- المقالات التي لم تظهر في البند 3 أعلاه:

- "الإمبراطورية العثمانية". **النشرة الشـــهرية الألمانية** (يوليو 1918)، 235-240.
- "كوارث سوريا في سنوات الحرب". **المنار**، 23 (1922)، 121-134.
- "ما وراء الأكمة" (الأمـــور أكثر تعقيداً مما تبدو للوهلـــة الأولى، والتاريخ لا يكـــون بالافتراض ولا بالتحكم). **تحت راية القـــرآن: المعركة بين القديم والجديد**. حررها مصطفى صادق الرافعي. الطبعة الرابعة، القاهرة، 1956.
- "المعارضة الســـورية للحكم الفرنـــسي". **التاريخ الراهـــن والمنتدى** (مايو 1924)، 239-247.
- "المقدمة"، إي راباث، **التطور الســـياسي لســـوريا تحت الانتداب**. باريس، 1928.
- "مقدمة"، عبد القادر المغربي، **البينات في الدين والاجتماع والأدب والتاريخ**، مجلد، 1، القاهرة، 1344.
- "النهضة الشرقية الحديثة"، **المقتطف** (فبراير 1937)، 136-143.

5 - أطروحات، لم تنشر، لنيل درجة الدكتوراه:

- زاغوريـــا، جانيت دورش "صعود حركة مصالي الحاج وهبوطها في الجزائر، 1924-1954". جامعة كولومبيا، 1974.
- ستودارد، فيليب إتش. "الحكم العثماني والعرب، 1911 إلى 1918: دراسة أولية للتشكيلات المحسوسة". برينستون، 1963.
- ملكا، روبرت لويس. "المحور والشرق الأوسط العربي، 1930-1945". جامعة مينيسوتا، 1966.

6 - مصادر أخرى وجدت طريقها إلى النشر:

- "وصية الأمير شـكيب أرسـلان للبنانيين". **أوراق لبنانية**، 2 (1956)، 337-342.
- أبو شقرا، عارف. "يوم زارَ جمال باشا منطقة الشوف". **أوراق لبنانية**، 1 (1955)، 547-549.
- آجـاي، نيكولاس زِدْ.، الابن. "المكائد السياسـية والقمع في لبنان خلال الحرب العالمية الأولى". **المجلة الدولية لدراسـات الشرق الأوسط**، 5 (1974)، 140-160.
- أحمد، جمال محمد. **الأصول الفكرية للقومية المصرية**. لندن، 1960.
- أحمد، فـيروز. **تركيا الفتاة: لجنـة الاتحاد والترقي في السياسـة التركية، 1908-1914**. أكسفورد، 1969.
- آدامز، تشارلزسي. **الإسلام والحداثة في مصر**. لندن، 1933.
- أرسلان، عادل. **ذكريات الأمير عادل أرسلان**. بيروت، 1962.
- إرمونت، لويس. "شـمال أفريقيا والشرق الأدنى". **أفريقيا الفرنسية**، 63 (أبريل 1933)، 197-205.
- ــــــــــ "شـمال أفريقيا والشرق الأدنى". **أفريقيا الفرنسية**، 62 (سبتمبر 1932)، 505-512.
- آرنـود، توماس دبليو. **الخلافة**. نيويـورك 1966. طباعة جديدة لنسـخة العام 1924 مع فصل ختامي من قِبَلِ سيلفيا دجي. حاييم.
- إسبوسـيتو، جون إل. (محـرر). **الإسـلام والتنمية: الدين والتغيـير الاجتماعي السياسي**. سيراكيوز، 1980.
- آغيرون، تشـارلز-روبرت. **"الجزائر الجزائرية" من زمن نابليون إلى عهد ديجول**. باريس، 1980.
- ــــــــــ **تاريخ الجزائر المعاصر**. المجلد 2. **انـدلاع ثورة العام 1871 من حرب التحرير (1954)**. باريس، 1979.

- ــــــــــــــ "السياسة البربرية في المحمية المغربية من العام 1913 وحتى العام 1934". **استعراض التاريخ الحديث والمعاصر**، 18 (1971)، 50-90.
- أنطونيوس، جورج. **اليقظة العربية**. نيويورك، كابريكون للكتب، 1965.
- إيدمير، شوكت سوريا. **أنور باشا: من مقدونيا إلى آسيا الوسطى المجلد3**. 1914-1922. اسطنبول، 1972.
- إيفانز-بريتشارد، إي. إي. **سنوسي برقة**. أكسفورد 1949.
- بحيري، مروان راء. (محرر). **الحياة الفكرية في المشرق العربي**، 1890-1939. بيروت، 1981.
- بدوي، م. م. أ. **مقدمة نقدية للشعر العربي الحديث**. كمبريدج، 1975.
- برايز، ديفيد. "أصول دين الدروز". **الإسلام**، 52 (1975)، 47-84، و52 (1976)، 4-27.
- برو، توفيق علي. **العرب والأتراك في العهد الدستوري العثماني**، 1908-1914. القاهرة 1960.
- بسيس، جولييت. "شكيب أرسلان والحركات الوطنية في المغرب". **استعراض تاريخي**، 259 (1978)، 467-489.
- بن غوريون، ديفيد. **محادثاتي مع قادة عرب**. ترجمة كل من إيه. روبنشتاين وإم لوفيش. نيويورك 1973.
- بوارث، واي. **ظهور الحركة الوطنية العربية الفلسطينية**: 1918-1929. لندن، 1974.
- ــــــــــــــ **الحركة الوطنية العربية الفلسطينية: من أعمال الشغب إلى الثورة**. مجلد2. 1929-1939. لندن، 1977.
- بوبلان، روبرت دي. **أين تذهب سوريا**. باريس، 1929.
- بورقيبة، حبيب. "مناضل مخضرم ضد الاستعمار: الأمير شكيب أرسلان". **الدستور الجديد والجبهة الشعبية في فرنسا**. مجلد1. الحوار، 1936-1938. تونس 1969.

- بيترز رودولف. **الإسلام والاستعمار: عقيدة الجهاد في التاريخ الحديث**. لاهاي، 1979.
- بيرك، إدموند 3. "المقاومة المغربية، الجامعة الإسلامية واستراتيجية الحرب الألمانية، 1914-1918". فرنسا (ميونيخ)، 3 (1975)، 434-464.
- ــــــــــ "الجامعة الإسلامية والمقاومة المغربية للاختراق الفرنسي الاستعماري، 1900-1912". **مجلة التاريخ الأفريقي**، 13 (1972)، 79-118.
- ــــــــــ "الجامعة الإسلامية والمقاومة الشمال أفريقية، 1890-1918: أنماط الاستجابة." بحث لم ينشر.
- ــــــــــ **تمهيد لمحمية في المغرب: الاحتجاجات والمقاومة في حقبة ما قبل الاستعمار، 1860-1912**. شيكاغو، 1976.
- بيرك، جاك. **مصر: الإمبريالية والثورة**. ترجمة جان سيتوارت. نيويورك، 1972.
- ــــــــــ **شمال أفريقيا الفرنسي: المغرب بين الحربين العالميتين**. ترجمة جان سيتوارت. لندن، 1967.
- بيركس، نيازي. **تطور العلمانية في تركيا**. مونتريال، 1964.
- بيكر، روبرت إل. **النفط والدم والرمال**. نيويورك، 1942.
- تباي رفائيل. "شكيب أرسلان". **الكتاب**، 3 (فبراير، 1947)، 566-574.
- ترولر، غاري. **ولادة المملكة العربية السعودية: بريطانيا وآل سعود**. لندن، 1976.
- توما، توفيق. **الفلاحون والمؤسسات الإقطاعية عند دروز وموارنة لبنان من القرن السابع عشر وحتى العام 1914**. المجلد الثاني، بيروت، 1972.
- جاراس، فيليكس. **بورقيبة وولادة أمة**. باريس، 1956.
- جبور، جبرائيل. "الأمير شكيب أرسلان بمناسبة مرور سبع سنوات على وفاته". **الأبحاث**، 7 (1954)، 33-38.
- جمال باشا، أحمد. **مذكرات رجل الدولة التركي، 1913-1919**. لندن، 1922.

- جوفلت، لويس. "التطور الاجتماعي والسياسي للبلاد العربية (1930-1933)". **استعراض الدراسات الإسلامية**، 7 (1933)، 425-644.
- جوليان، شارل-أندريه. **شمال أفريقيا تتحرك: القومية الإسلامية والسيادة الفرنسية**. الطبعة الثالثة، باريس 1972.
- ———— **المغرب في مواجهة الإمبريالية**. 1415-1956. باريس، 1978.
- جيوسي، سلمى ك. **الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث**. مجلد1. ليدن، 1972.
- حاييم، سيلفيا دجي. **القومية العربية: مقتطفات مختارة**. بيركلي ولوس أنجلس، 1964.
- حِتّي، فيليب ك. **أصول الدروز ودينهم**. نيويورك، 1928.
- حريق، إيليا ف. **السياسة والتغيير في المجتمع التقليدي: لبنان، 1711-1845**. برينستون، 1968.
- الحصري، خلدون س. "الملك فيصل الأول والوحدة العربية، 1930-1933". **مجلة التاريخ المعاصر**، 10 (1975)، 323-340.
- الحكيم، يوسف. **بيروت ولبنان في العهد العثماني**. بيروت، 1964.
- ———— **سوريا والعهد الفيصلي**. بيروت، 1966.
- الحوت، ب. نويهض وخيرية قاسمية. "فقيدان فلسطينيان كبيران: عبد الحميد شومان ومحمد علي الطاهر". **شؤون فلسطينية**، 39 (نوفمبر 1974)، 143-163.
- حوراني، ألبرت. **الفكر العربي في العصر الليبرالي**، 1798-1939. لندن.
- ———— **ظهور الشرق الأوسط الحديث**. لندن، 1981.————— **سوريا ولبنان: مقال سياسي**. لندن، 1946.
- خالدي، رشيد إسماعيل. **السياسة البريطانية تجاه سوريا وفلسطين، 1906-1914. دراسة للعناصر الشرطية في مراسلات الحسين مكماهون، واتفاقية سايكس-بيكو، ووعد بلفور**. لندن، 1980.

- خدوري، مجيد. **الاتجاهات السياسية في العالم العربي: دور الفِكَرِ والمثل في السياسة.** بالتيمور، 1970.
- خضور، أديب. **الصحافة السورية.** دمشق، 1972.
- الخوري، بشارة. **حقائق لبنانية.** مجلد1، بيروت، 1960.
- خوري، فيليب س. "النزاعات الحزبية بين القوميين السوريين أثناء الانتداب الفرنسي". **المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط**، 13 (1981)، 441-469.
- ________ وجهاء المدن والقومية العربية: سياسة دمشق 186-1920، كمبريدج، 1983.
- داغر، يوسف أسعد. **مصادر الدراسة الأدبية: الفكر العربي الحديث في سير أعلامه.** المجلد الثاني، الجزء الأول. 1800-1855. بيروت، 1955.
- ________ **مذكراتي على هامش القضية العربية.** القاهرة 1959.
- دجيب، إتش. إيه. آر. "المؤتمر الإسلامي في القدس في شهر ديسمبر من العام 1931". **استعراض الشؤون الدولية**، 1934. (المحرر) آرنولد دجي. توينبي. لندن، 1935.
- ________ **الاتجاهات الحديثة في الإسلام.** نيويورك، 1972. طبعة جديدة بعد الطبعة الأصلية في العام 1947.
- ________ (محرر) **الإسلام إلى اين؟ دراسة استقصائية للحركات الحديثة في العالم الإسلامي.** لندن، 1932.
- الدهان، سامي. **الأمير شكيب أرسلان: حياته وآثاره.** القاهرة، 1960.
- ________ **محاضرات عن الأمير شكيب أرسلان.** القاهرة، 1958.
- ________ **قدامى ومعاصرون.** القاهرة، 1961.
- دون، سي. أرنست. **من العثمانية إلى العروبة: مقالات عن أصول القومية العربية.** أوربانا وشيكاغو، 1973.
- ديسبارمت، دجي. "شمال أفريقيا والعروبة الجامعة: 1، من شمال أفريقيا إلى دمشق". **أفريقيا الفرنسية**، 68 (فبراير 1938)، 56-58.

- ________ "العلماء الجزائريون الدعاية الإيطالية (1931-1938)." أفريقيا الفرنسية، 68 (مايو 1938)، 210-214.
- ________ "العروبة والجزائر". أفريقيا الفرنسية، 68 (يونيو 1936)، 312-317. ________ "مقاومة الغرب". أفريقيا الفرنسية، 63 (مايو 1933)، 265-269.
- رضا، محمد رشـيد. تاريخ الأستاذ الإمام الشـيخ محمد عبده. المجلد1، القاهرة، 1931.
- ريد، دونالد إم. "الفكر العربي في العصر الليبرالي بعد عشرين سنة". المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط، 14 (1982) 541-557.
- ريزيت، روبرت. الأحزاب السياسية المغربية. باريس، 1955.
- زعيتر، أكرم. "رسالة تاريخية للأمير شكيب أرسلان حول محاولات فرنسا إخراج البربر من الإسلام". تهامة (جدة)، 16 سبتمبر 1983.
- زيادة، نقولا أ. أصول القومية في تونس. بيروت، 1962.
- زين، زين ن. ظهور القومية العربية. طبعة منقحة. بيروت، 1966.
- سـافران، نداف. مصر: بحثـاً عن المجتمع السـياسي: تحليل للتطـور الفكري والسياسي في مصر. 1804-1953. كمبريدج - ماساشوستس، 1961.
- ساميدي، مانويلا. "الاشتراكيون الفرنسيون والمشكلة الاستعمارية ما بين الحربين (1919-1939)". مراجعة فرنسـية للعلوم السياسية، 18 (1968)، 1115-1153.
- سبانولو، جون بي. فرنسا ولبنان العثماني: 1861-1914. لندن، 1977.
- ستودارد، لوثروب. حاضر العالم الإسلامي. نيويورك، 1922.
- ستوكي، روبرت دبليو. اليمن: سياسة الجمهورية العربية اليمنية. بولدر، 1978.
- سـكالي أكيل. "المؤتمران العامان في العام 1926". اسـتعراض العالم الإسلامي، 64، رقم 2 (1926)، 3-219.

- سميث، تشارلز دي. "أزمة الاتجاه: تحول المثقفين المصريين إلى المواضيع الإسلامية في ثلاثينيات القرن العشرين". **المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط**، 4 (1973)، 382-410.
- ———— "المثقف والحداثة: تعريفات وإعادة نظر: التجربة المصرية". **دراسات مقارنة في المجتمع والتاريخ**، 22 (1980)، 513-533.
- سميث، ويلفرد كانتويل. **الإسلام في التاريخ الحديث**. نيويورك، 1959.
- سيبري، بول. **المجمع الحكومي الألماني: دراسة الديبلوماسيين الألمان في ظل النظام النازي**. بيركلي ولوس آنجلس، 1954.
- شجني، أنور. "أمير الريحاني والأندلس: رحلة في التاريخ". **العربية**، 9 (1976)، 9-18.
- شرابي، هشام. **المثقفون العرب والغرب: السنوات التأسيسية. 1875-1914**. بالتيمور، 1970.
- الشرباصي، أحمد. أدب أمير البيان. القاهرة، 1964.
- ———— **أمير البيان: شكيب أرسلان**. مجلدان. القاهرة، 1963.
- ———— **شكيب أرسلان: داعية العروبة والإسلام**. القاهرة، من دون تاريخ (1963).
- ———— **شكيب أرسلان: من رواد الوحدة العربية**. القاهرة، 1963.
- شرود، إم. دجي. "تقارير دول المحور مع العالم العربي". في **الحرب في منطقة البحر الأبيض المتوسط** (1930-1945). باريس، 1971.
- شكري، محمد فؤاد. **ميلاد دولة ليبيا الحديثة: وثائق تحريرها واستقلالها**. الجزء الأول، المجلد الثاني، القاهرة، 1957.
- صليبي، كمال س. **تاريخ لبنان الحديث**. لندن، 1965.
- الطاهر، محمد علي. **ظلام السجن**. القاهرة، 1951.
- ———— (محرر) **في ذكرى الأمير شكيب أرسلان**. القاهرة، 1947.
- طيباوي، أ. ل. **المصالح الأمريكية في سوريا، 1800-1901**. أكسفورد، 1966.

- عبود، مارون. **رواد النهضة الحديثة**. بيروت، 1966.
- عجمي، فؤاد. "نهاية الموالاة للعروبة". **الشؤون الخارجية**، 57 (1978-1979)، 355-373.
- غلبرت، لويس. "في المغرب الذي يتحرك". دراسات (20 أبريل 1938)، 342-360.
- ———— "اضطرابات الإسلام العربي". دراسات (20 يناير 1938)، 170-184.
- غوردون، ديفيد سي. **نهاية الجزائر الفرنسية**. لندن، 1966.
- غوردون، فريتز. **أسلوب الشرق وتكوينه**. جوتنجن، 1967.
- غيران، دانيال. **خدمة المستعمرات، 1930-1935**. باريس، 1954.
- فاتان، جان كلود. **الجزائر السياسية: التاريخ والمجتمع**. باريس، 1974.
- فاتيكيوتيس، بي. دجي. **تاريخ مصر: من محمد علي إلى السادات**. الطبعة الثانية. لندن، 1980.
- الفاسي، علال. **حركات الاستقلال في شمال أفريقيا العربي**. ترجمة حازم زكي نسيبة. نيويورك 1970.
- فان دوسان، مايكل إتش. "سوريا: سقوط النخبة التقليدية". **النخب السياسية والتطور السياسي في الشرق الأوسط**. محرر الكتاب: فرانك تاشو. نيويورك، 1975.
- فرنيه، برنارد. **السياسة الإسلامية لألمانيا**. باريس، 1939.
- فريمان-غرينفيل، دجي. إس. بي. **التقويمان الإسلامي والمسيحي**. لندن، 1963.
- فلوري، أنطوان. "الحركة القومية العربية في جنيف في حقبة ما بين الحربين العالميتين". **العلاقات الدولية**، رقم 19 (1979)، 329-354.
- فول، جون أوبرت. **الإسلام: الاستمرارية والتغيير في العالم الحديث**. بولدر، 1982.

- فيدمر، دجي. "نشر الأدب العربي الجديد3-: الأمير شكيب أرسلان". **العالم الإسلامي**، 19 (1973)، 1-93.
- فينر، مانفريد دبليو. **اليمن الحديث، 1918-1966**. بالتيمور، 1967.
- القادري، أحمد. **مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى**. دمشق، 1956.
- قدوري، إيلي. "مؤتمر بلودان بشأن فلسطين". **دراسات شرق أوسطية**، 17 (يناير 1981)، 107-125.
- ــــــــــ **نسخة تشاثام هاوس ودراسات شرق أوسطية أخرى**. لندن، 1970.
- كار، إدوارد هاليت. **تاريخ روسيا السوفياتية: الثورة البلشفية، 1917-1923**. مجلد3. لندن، 1953.
- كرد علي، محمد. **المذكرات**. ثلاثة مجلدات. دمشق، 1948-1949. ترجمها بوصفها مذكرات خليل طوطح. واشنطن العاصمة، 1954.
- كروكشانك، إيه. إيه. "تحدي تركيا الفتاة في تركيا ما بعد الحرب". **مجلة الشرق الأوسط**، 22 (1968)، 17-28.
- كليدار، إيه. آر. **شبه الجزيرة العربية في السياسة العربية وسياسة السلطة، المجتمع والسياسة**. (تحرير) ديريك هو بوود. لندن، 1972.
- كليفلاند، ويليام إل. "أتاتورك من وجهات نظر معاصريه من العرب: رأي كل من ساطع الحصري وشكيب أرسلان". **المجلة الدولية للدراسات التركية**، 2 (1983)، 15-23.
- ــــــــــ **تشكيل القومي العربي: العثمانية والعروبة في حياة ساطع الحصري وفكره**. برينستون، 1971.
- ــــــــــ "مصادر القومية العربية: نظرة عامة". **استعراض الشرق الأوسط**، 11 (1979)، 25-33.
- كوارتارارو، روزاريا. **روما بين لندن وبرلين: السياسة الخارجية الفاشية من العام 1930 حتى العام 1940**. روما، 1980.

- كيدي، نيكي آر. **الرد الإسـلامي على الإمبريالية: كتابات سياسـية ودينية للسيد جمال الدين "الأفغاني"**. بيركلي ولوس آنجلس، 1972.
- كير، مالكوم إتش. **الإصلاح الإسلامي: نظريات محمد عبده ورشيد رضا السياسية والشرعية**. بيركلي ولوس آنجلس، 1966.
- لالي، ماريو تيدتشـيني. "الدعاية العربية الفاشـية ومصر". **التاريخ المعاصر**، 7 (ديسمبر 1976)، 717-749.
- لانداو، روم. **الدراما المغربية، 1900-1955**. لندن، 1956.
- لاووست، هنري. "التطور السياسي والثقافي لمصر المعاصرة". **مقابلات عن تطور بلاد الحضارة العربية**، رقم 3 (1937)، 68-94.
- ________ "إصلاح عقيدة "السـلفية" والشـخصيات العامـة ذات التوجه الراهن". **استعراض دراسات إسلامية**، 6 (1932)، 175-224.
- لوتورنو، روجر. **التطور السـياسي لشمال أفريقيا الإسـلامي، 1920-1961**. باريس، 1962.
- ________ **الإسلام المعاصر**. طبعة ثانية. باريس، 1950.
- لونغريغ، ستيفن همسلي. **سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي**. لندن، 1958.
- لويس، برنارد. **ظهور تركيا الحديثة**. الطبعة الثانية، لندن، 1968.
- ليفي-بروفنسال، إي. "الأمير شكيب أرسلان (1869-1946)". **كراسات عن الشرق المعاصر**، 9-10 (1947)، 5-19.
- ماكدونالـد، كالوم إيه. "راديو بـاري: الدعاية الإيطالية اللاسـلكية في الشرق الأوسـط والتدابير المضادة البريطانية 1934-1938". **دراسات شرق أوسطية**، 13 (مايو 1977)، 195-207.
- مالكوم، إليزابيث. **الحملة الصليبية القومية في سوريا**، نيويورك، 1928.
- المانع، محمد. **شبه الجزيرة العربية الموحدة: صورة لابن سعود**. لندن، 1980.
- مراد، علي. **ابن باديس: مفسر القرآن الكريم**. باريس، 1971.

- ــــــــــــــ الإصلاح الإسلامي في الجزائر من 1925-1940: اختبار التاريخ الديني والاجتماعي. باريس ولاهاي، 1967.
- مكارم، سامي نسيب. معتقد الدروز. ديلمار، نيويورك، 1974.
- ملكا، آر. إل. "ماكس فريهر فون أوبنهايم: ستون عاماً من البحث والتلاعب في الشرق الأوسط". دراسات شرق أوسطية، 9 (يناير 1973)، 81-93.
- ــــــــــــــ "ألمانيا النازية وفلسطين". دراسات شرق أوسطية، 5 (أكتوبر 1969)، 221-223.
- موتون، ماري-رينيه. "المؤتمر السوري الفلسطيني في جنيف (1921)". العلاقات الدولية، رقم 19 (1979)، 313-328.
- مؤسسة إيسكو. فلسطين: دراسة السياسات اليهودية، والعربية، والبريطانية. المجلد2. نيوهافن، 1947.
- موسوعة الإسلام، الطبعة الثانية. ليدن، -1954.
- موسى، سليمان. الحركة العربية: المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة، 1908-1924. بيروت، 1970.
- مونتاني، روبرت. "الأزمة السياسية والعروبة (يونيو -1937يونيو 1938)". فرنسا المتوسطية والأفريقية، 1 (1938)، 7-39.
- ــــــــــــــ "قلق الأحزاب السياسية في الجزائر". السياسة الخارجية، 2 (أبريل 1937)، 124-147. ــــــــــــ السياسة الإسلامية لفرنسا. باريس، 1939.
- ــــــــــــــ "ردود الأفعال العربية المناهضة للصهيونية: مؤتمر بلودان". مقابلات بشأن تطور حضارة بلاد الحضارة العربية، 3 (1939)، 42-61.
- ــــــــــــــ ثورة المغرب، باريس، 1953.
- ميتشل، ريتشارد بي. جماعة الإخوان المسلمين. لندن، 1969.
- ميكود، تشارلز (محرر). تونس: سياسة الحداثة. نيويورك، 1964.

- ميلر، جويس لافرتي. "ثورة العام 1925 الســورية". **المجلة الدولية للدراسات الشرق أوسطية**، 8 (أكتوبر 1977)، 545-563.
- نيقوسيا، فرانسيس. "القومية العربية وألمانيا القومية الاشتراكية، 1933-1939: التناقــض الأيديولوجــي والاســتراتيجي". **المجلة الدولية للدراســات الشرق أوسطية**، 12 (1980)، 351-372.
- هالستيد، جون بي. **نهضة أمة: أصول القومية المغربية وصعودها، 1912-1944**. كمبريدج، ماساشوستس، 1967.
- هولــت، بي. إم. (محرر). **التغيير الســياسي والاجتماعي في مــصر الحديثة**. لندن، 1968.
- هومت، مارسيل. **التاريخ السري للمعاهدة الفرنسية السورية**. باريس، 1938.
- هيرزوفيتش، لوكاز. **الرايخ الثالث والمشرق العربي**. لندن، 1966.
- يانكوفسكي، جيمس. "الاستجابات المصرية للمشكلة الفلسطينية في فترة ما بين الحربين". **المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط**، 12 (1980)، 1-38.
- ــــــــــــ "العثمانية والعروبة في مصر، 1860-1914". **العالم الإســلامي**، 10 (1980)، 226-259.

7 - مقابلات:

- إحسان الجابري، القاهرة، 5 يناير 1975.
- الحبيب بورقيبة، قرطاج، 7 أبريل 1975.
- مي جنبلاط، بيروت 3،5، و17، و24 ديسمبر 1974.

الفهرس

ب

ت

-ث-

-ج-

-ح-

-خ-

-د-

-ر-


منتدى العلاقات العربية والدولية